الشّرق الأوسط الحديث

الجزء الثالث

بناء الايديولوجية القوميّة والسّياسات حتى سنة ١٩٥٠

بإشراف: البرت حوراني

فيليب س. خوري

ماري ك. ويلسون

ترجمة

الدّكتور أسعد صقر

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

ريع الدار

لهيئة مدارس أبناء وبنات الشهداء في الجمهورية العربية السورية

دمشق أوتوستراد المزة ص.ب: ١٦٠٣٥ ـ برقياً طلاسدار

هاتف: ٦٦١٨٩٦١ـ٦٦١٨٠١٣ تلفاكس: ٦٦١٨٨٢٠ تلكس: ٤١٢٠٥٠

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

الشرق الأوسط الحديث

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

الشرق الأوسط الحديث: بناء الايديولوجية القومية والسياسات حتى سنة ١٩٥٠ = The Modern Middle east / بإشراف البرت حوراني، فيليب س. خوري، ماري ك. ويلسون؛ ترجمة أسعد صقر. ــ دمشق: دار طلاس، ١٩٩٦. ــ ج٣؛ ٢٤سم.

١ ـ ٩٥٦ ح و ر ش ٢ ـ العنوان ٣ ـ العنوان الموازي ٤ ـ حوراني ٥ ـ خوري ٦ ـ ويلسون ٧ ـ صقر

مكتبة الأسد

رقم الإيداع ١٩٦/٣/١٩٩٦ رقم الإصدار ٧٠٤

رقم: ٢٦٨٠٦
تاريخ: ٩٦/٢/١

جميع الحقوق محفوظة لدار طلاس للدراسات والترجمة والنشر

الطبعة الأولى ١٩٩٦

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

عنوان الكتاب باللغة الإنكليزية

The Modern Middle East: A Reader

Edited by

ALBERT HOURANI, PHILIP S. KHOURY
and MARY C. WILSON

University of California Press
Berkeley and Los Angeles

الآراء الواردة في كتب الدار تعبر عن فكر مؤلفيها ولا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

الجزء الثالث

بناء الايديولوجية القوميّة والسّياسات حتى سنة ١٩٥٠

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

مقـــدمـــة

بقلم ماري س. ويلسون

Mary C. Wilson

أنهت الحرب العالمية الأولى القرن التاسع عشر الطويل نهاية عنيفة أشبه بالضربة القاضية. فالإمبراطورية العثمانية خرجت من الحرب طرفاً خاسراً، وفرضت عليها وعلى غيرها من الخاسرين الأساسيين مثل ألمانيا وهنغاريا النمساوية عقوبات أثناء تسوية السلام. وكان الثمن الذي طولبت الامبراطورية بدفعه ثمناً باهظاً أعلى بكثير مما فرض على غيرها. إذ تم تقسيمها أولاً إلى قسمين رئيسيين تبعاً للغة السائدة في كل منهما: المناطق الناطقة بالتركية في الشمال والمناطق الناطقة بالعربية في الجنوب. ومن ثم تم تقسيم تلك المناطق إلى دول ومناطق مصالح وإلى مناطق حكم ذاتي وفقاً لمصالح بريطانيا وفرنسا ووكلائهما المحليين. وبهذه الطريقة اختفت من خارطة العالم الامبراطورية التي أعطت لمعظم الشرق الأوسط هيكله السياسي لما يقرب من أربعمائة عام.

كانت الحدود الجديدة رموزاً تشي ببداية عهد جديد في تاريخ الشرق الأوسط، ففي المناطق الناطقة بالتركية تم تشكيل حركة وطنية جديدة التفت حول مصطفى كمال لدحر مخطط تقسيم الجزء الشمالي من الامبراطورية العثمانية. أما المناطق الناطقة بالعربية فقد تم تقسيمها إلى أجزاء إدارية / دول جديدة وضعت تحت الانتداب البريطاني أو الفرنسي.

كانت التساؤلات حول من سيحدد المجموعة السياسية وكيف سيتم تحديدها هي الدعامة الأساسية التي ارتكز إليها النضال السياسي خلال فترة ما بين الحربين وعلى الرغم من الانقطاع التاريخي الظاهري الممثل بخلق دول جديدة فإن الإجابات على هذه التساؤلات أبدت درجة ملحوظة من الاستمرارية مع الماضي العثماني. فالسيطرة التامة التي نجح في إحرازها مصطلحا القومية العربية والقومية التركية على الحياة السياسية كانت حدثاً جديداً تماماً، في حين أن الطبقة التي استخدمت هذا المصطلح وسخرته

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

لمصالحها كانت في معظم الأحيان هي نفس الطبقة التي خدمت النظام العثماني واستفادت منه . تهتم جميع المقالات الواردة في الجزء الثالث بشكل أو بآخر بقضايا القومية وبأوجه الاستمرارية والانقطاع في نظام الدولة الجديدة بالنسبة للماضي العثماني .

يبحث شريف ماردين في الجمهورية التركية ويعنى في تحليله بعلمانية الإصلاحات التي جرت تحت قيادة مصطفى كمال . ويرى ماردين أن جذور هذه العلمانية تعود إلى الإصلاحات الدنيوية التي تمت إبان القرن التاسع عشر ، وبحلول العقد الذي تلا عام ١٨٧٠ كانت أهمية الإسلام في السياسة العثمانية تنحصر في مدى المنفعة المجنية منه : « هل نجح الإسلام كوسيلة لحشد شعوب الإمبراطورية ولم شعثها ؟ » ويتضح من ذلك السؤال أن المشكلة التي واجهت مصطفى كمال بعد خمسين عاماً لم تكن تتعلق بتطبيق العلمانية بل واجه كمال معضلة إيجاد أحسن الوسائل لتعبئة الناس في أعقاب هزيمة الامبراطورية العثمانية وتمزقها . ووجد كمال الحل في طرح الإسلام جانباً ونبذه لاستبداله بشيء لم يكن موجوداً من قبل وكانت النتيجة أن تبنى « كياناً افتراضياً ليس له وجود وهو « الأمة التركية » ونفخ فيه الحياة » وبذا تكون الجمهورية التركية حسب اعتقاد ماردين خلفاً للإصلاحات الدنيوية التي تمت في القرن التاسع عشر ومفهوماً جديداً تماماً في آن واحد .

إن المقدرة على تصوير الأمة التركية كمفهوم إنما استند إلى دنيوية مسبقة في السياسة العثمانية وفقاً لما يطرحه ماردين في حين أن (أرنست دون) يرى أن أصول القومية العربية تعود إلى بدايات مختلفة . ويتوصل دون في بحثه إلى أن استخدام الأمة العربية في صيغة مفهوم كان معروفاً بين المثقفين الذين ينظرون إلى الإصلاح على أنه عودة إلى الإسلام الحقيقي . ويفسر هؤلاء المثقفون تباين القوى بين أوروبا والامبراطورية العثمانية في القرن التاسع عشر بأنه نتيجة للتدهور الديني ، وهم يجادلون بأن « الإسلام الحق لم يكن يوماً يتنافى مع الحضارة والتقدم ... إلا أن الإسلام الصحيح الأساسي انتابه الفساد ونتيجة لذلك نرى المسلمين غير قادرين على المضي في التقدم الباهر الذي عرفوه في السنوات الأولى . وعلى الرغم من أن هذه الفئة بقيت على التزامها وولائها للإمبراطورية العثمانية فإن تشديدهم على « الإسلام الحق » صرف انتباههم إلى العرب والحاجة إلى بعث الأدب العربي القديم والدراسات الدينية . وتطرف البعض الآخر في تعصبهم لتلك الرؤية فأخذوا يؤكدون على أهمية العرب في إعادة بث الروح في الإسلام والإمبراطورية العثمانية . وهكذا بزغت نظرية الأمة العربية ودورها في التاريخ نتيجة

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

لتشخيص معين لأسباب انحطاط العثمانيين. بقي معظم العرب على ولائهم للإمبراطورية العثمانية إلى أن تلاشت آخر ملامحها، ولم تكن فكرة القومية العربية تبعاً لدون قد تجاوزت حتى ذلك الحين حدود العقيدة النظرية.

إن ما جعل (القومية العربية) تحتل الصدارة في الساحة السياسية هو انهيار الامبراطورية العثمانية وفرض التحكم الأوروبي على أجزائها الناطقة باللغة العربية. وأصبحت لغة القومية في ذلك الحين لغة نافعة لبعض الأشخاص المرموقين المدنيين الساعين إلى الحفاظ على موقعهم السياسي أو تحسينه (راجع مقال ألبرت حوراني في الجزء الأول). كانت القومية فكرة مفيدة جداً لأنها تخاطب مصالح قطاعات من المجتمع عدا النخبة المدينية. ويناقش كل من جويل بينين وزاكاري لوكان (القومية) من وجهة نظر الطبقة العاملة التي بدأت تظهر إلى حيز الوجود في مصر.

كما قامت الثورة المصرية عام ١٩١٩ التي طالما درست على أنها انتفاضة قومية بمنظور وإسهام يشمل جميع أنحاء البلاد، بتهيئة الفرصة لظهور قطاع صغير ولكن آخذ في الازدياد من اليد العاملة المنظمة. إذ قام عمال الترامواي وعمال السكك الحديدية ومصانع تكرير السكر وسائقو العربات وعربات الأجرة وموظفو الحكومة والمصالح الحكومية الأخرى بالإضراب لدعم أهداف قومية ولكسب مطالبهم الخاصة في العمل. ولا يمكن فهم ما اكتسبوه على جبهة العمل إلا في إطار الانتفاضة العارمة عام ١٩١٩ كما يبين لنا كل من بينين ولوكان. إلا أن نموذجاً قد ترسخ منذ ذلك الحين «للتبعية للقوميين البورجوازيين كقادة.. وللقومية البورجوازية كإطار إيديولوجي سائد». كان ذلك مفيداً جداً للنخبة المدينية التي شكلت القيادة القومية، أما بالنسبة للحركة العمالية خاصة وللطبقة العاملة عموماً فقد ألحقت هذه التبعية الضرر بهم، ويصف بينين ولوكان في أحد فصول كتابهما «عمال على ضفاف النيل» المتضمن هنا البداية المظفرة لهذه الشراكة بين القومية البورجوازية واليد العاملة المنظمة خلال ثورة ١٩١٩.

تعتبر ولادة اليد العاملة المنظمة في مصر واحدة من تلك الدلائل التي تميز فترة ما بين الحربين. وعلى الرغم من كل ما يشير إلى عدم الاستمرارية التي أعقبت الحرب العالمية الأولى في الشرق الأوسط، بقيت هناك دلائل على استمرارية مهمة من الماضي العثماني المباشر. ويناقش فيليب خوري الاستمرارية والاختلافات في العرض الذي يقدمه عن السياسة المدينية في سوريا في فترة ما بين الحربين.

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

وتحتل الأحياء مركز الصدارة في الصورة التي يرسمها الخوري عن السياسة في دمشق. وتأتي العائلات المرموقة في مركز الحياة السياسية في هذه الأحياء وهم مجموعة الوجهاء في المدينة الذين كانوا أيام الحكم العثماني يلعبون دور الوسطاء بين المجتمع المحلي واستنبول كما وقفوا أثناء الانتداب بين المجتمع المحلي والفرنسيين. وقد وجد العديد منهم في الظرف الأخير أن استخدام لغة القومية له فوائده. كما وجدوا من المفيد استخدام شخصية تقليدية في حياة الأحياء وهي شخصية (القبضاي) لتعبئة الدعم للمظاهرات المعادية للفرنسيين التي انتشرت أيام الانتداب.

كان القبضاي بطلاً من أبطال الحكايا الشعبية وشاباً يتزعم عصبة الشباب، وهو فاضل وكريم وحامي الضعفاء، كما كان ذا قوة وعنفوان بشبابه الغض وقوته الجسدية، إلا أن مركزه تدهور بتوسع حجم دمشق وبتحول السياسة الدمشقية إلى سياسة قومية وكذلك نتيجة شروع مؤسسات الدولة بسحب مركزية الحي ضمن شبكة الدعم الاجتماعي خلال فترة ما بين الحربين. وبدأ الفتية من أحياء مختلفة يلتقون ويختلطون في المدارس الحكومية الجديدة. ولم يعد هؤلاء الشبان المنتمون إلى طبقة متوسطة آخذة في التشكل والذين سينتهي بهم المطاف في مهن خارج أحيائهم، يجدون أية صلة تجمعهم بالقبضاي وكان قادتهم من قادة أحزاب شابة قومية منظمة تنظيماً خاصاً وكانت آفاقهم الجديدة قومية وقطرية ولغتهم الجديدة في السياسة كانت لغة إيديولوجية. وهكذا يبين لنا الخوري أن سياسة دمشق ما بين الحربين أبدت استمرارية مع الماضي في بنية شبكاتها الشخصية المبنية حول الحياة في الأحياء. كما يبين أن بنية الرعاية المتمركزة في الحي بدأت تضمحل في الإطار السياسي والاجتماعي للانتداب الفرنسي.

إن استجابة فئات جديدة — من العمال وطلبة المدارس الحكومية — وفئات قديمة لنغمة (القومية) التي عزفتها الشخصيات البارزة المدينية أدت في النهاية إلى تدمير بنية سياسة الوجهاء. ويضيف (تيد سويدنبرغ) واحدة من هذه الفئات القديمة — وهي الفلاحين — إلى خليط القوى والمصالح التي برزت في مواجهة الأعيان المدينيين. وجاءت نهاية سياسة الأعيان في عرض سويدنبرغ بإنذار من ثورة ١٩٣٦ — ١٩٣٩ في فلسطين حين قام تحالف من الفلاحين والعمال والأفراد الراديكاليين من الطبقة الوسطى بتحدي قيادة الأعيان من الحركة القومية وهددوا أسس هيمنة التجار والملاكين.

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

ويتتبع سويدنبرغ خطوط نمط من الهيمنة المدينية المتعاظمة على الحياة الاقتصادية والثقافية للفلاحين الفلسطينيين لقرن مضى قبل قيام الثورة نتيجة للتغيرات الناجمة عن الدولة العثمانية وظروف الرأسمالية المتراكمة، وقد تم ذلك على الرغم من المقاومة الفلاحية المتمثلة في أشكال من التقاعس وقطع الطرق والفرار. وطبعت الهيمنة المتخفية تحت أقنعة روابط الأبوية والرعاية، العلاقات القائمة بين الأعيان المدينيين والفلاحين حتى فترة الانتداب البريطاني وازدياد عدد المستوطنات اليهودية تحت حماية بريطانيا وظهور القومية العربية.

إن فشل الأعيان المدينيين أثناء الانتداب في إحراز أهدافهم القومية الخاصة قوض مكانتهم في حين أعطت ممارسات ومصالح الفلاحين شكلها «مثل رفضهم دفع الضرائب وصدور قرار رسمي لتأجيل دفع الديون المستحقة والمساهمات الكبيرة المفروضة على الأغنياء» لثورة ٣٦ ــ ١٩٣٩ وكانت تحدياً للأعيان المدينيين بتحديها للحكم البريطاني. وبعبارة أخرى كانت تمثل «انتقاداً للقومية والبعث الديني والوعي الطبقي». وقد أخمدت الثورة في النهاية بجهد كبير من القوات البريطانية، ولم يكن ذلك في رأي تحليل سويدنبرغ دليلاً على فشل الفلاحين (المتخلفين) بل على نجاح قوة متفوقة خبرةً وتقنية.

كما تمثل ثورة العراق ١٩٢٠ انتقاداً لعوامل عديدة باعثة على التذمر والاستياء: عوامل دينية واقتصادية وربما قومية عندما تكون الثورة موجهة ضد البريطانيين. إلا أن تطور الوعي القومي في العراق واجه عراقيل شائكة وكبيرة كما نجد في تحليل حنا بطاطو في الفصل الثاني من كتابه «الطبقات الاجتماعية القديمة والحركات الثورية في العراق»: «the Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq» ويتقصى هذا الفصل الذي أدرجناه في هذا الكتاب الهويات المتبدلة لشعب العراق فيما يتعلق بخلق الدولة.

وقد كان للاحتلال البريطاني حسب ما جاء في تحليل بطاطو، خلال الحرب العالمية الأولى وما بعدها وخلال حرب الأربعين يوماً بين القوات البريطانية والجيش العراقي عام ١٩٤١، كان له أعمق الأثر في تطور الوعي القومي في العراق. فأحداث الحرب العالمية الأولى «ساعدت أكثر من أي عامل آخر في تفتح هذه العاطفة الجديدة..» وأسهمت أحداث الحرب الثانية في تشكل القومية في قالب معادٍ للمَلَكية بلغ ذروته في ثورة ١٩٥٨ ويستنتج بطاطو في بحثه أنه سواء أحاولت الملكية خلق انسجام قومي أم أنها خشيت من انتشار قومية هي في الآن نفسه معادية

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

للبريطانيين ومعادية للملكية فإن هذه الملكية قامت سواء باختيارها أو بحكم الضرورة، بشكل مباشر أو غير مباشر ومن خلال ممارسات قامت بها أو وجدت نفسها ضمن دائرتها، بإعاقة تماسك العراقيين إلا أنها في الوقت نفسه ساهمت إلى حد كبير في إعدادهم للقومية».

ويجوز القول نفسه فيما يتعلق بالامبراطورية العثمانية وصلتها بتطور القومية التركية والعربية. وأصبحت الإيديولوجيات القومية التي سيطرت على سياسات ما بين الحربين أيام حكم خلفاء الامبراطورية ضالعة في الظروف القائمة في أواخر القرن التاسع عشر، وقد تضمنت هذه الظروف نتائج كل من مائة عام من الإصلاحات العثمانية وما يزيد عن قرن من التغيرات الاقتصادية المرتبطة بانتشار الرأسمالية. وساهم كلا العاملين دون قصد منهما في خلق طبقة مثقفين جديدة بدأت بنشر الإيديولوجية القومية. وضمن هذا الإطار نجد أن السياسات والعمليات التاريخية للامبراطورية المنهارة قد أرست دعائم ظهور القوميات في صفوف الشعوب المؤلفة لها. إلا أن القومية لم تصبح ذات مدلول سياسي إلا بعد تدمير الامبراطورية العثمانية؛ وحتى في ذلك الحين لم تكن الحركات القومية سواء في تركيا أو في غيرها من الدول العربية حركات «صافية»، بل كانت دائماً تمثل مجموعة خليطة من المشاعر المتذمرة الساخطة والآمال والطموحات. وربما نجد كلمات بطاطو في هذا الصدد أكثر وضوحاً إذ يقول: «لم تحل القومية محل الولاءات القديمة. وعلى الرغم من أنها نمت واشتدت على حساب تلك الولاءات فإنها استمرت في التواجد معها جنباً إلى جنب»...

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

الدين والعلمانية في تركيا

شريف ماردين Serif Mardin

من غير الممكن في علوم الاجتماع الجزم المطلق إلا في القليل من المسائل وإحداها بالتأكيد أن الفكر الاجتماعي لم يبدأ أبداً على صفحة بيضاء. لذلك فإن إسهامات المبدعين الاجتماعيين تصبح كاملة الدلالة عندما ينظر إلى مايعرضونه من فرضيات ضمن إطار ميراثهم المؤسساتي والثقافي.

ويصح القول نفسه على سلسلة من الإصلاحات التي جرت في تركيا في أواخر العشرينيات وفي الثلاثينيات من هذا القرن والتي تعزى في معظمها إلى الاندفاع والتصميم لدى مصطفى كمال أتاتورك مهندس الجمهورية التركية ورئيسها الأول. أرست هذه الإصلاحات قواعد مبدأ الدنيوية ــ أو العلمانية ــ كأساس للنظرية الدستورية التركية والحياة السياسية فيها. واستمر هذا المبدأ إلى يومنا هذا رغم التغيرات التي طرأت على الأنظمة ورغم التجديدات الدستورية.

كانت العلمانية مفهوماً نشأ من الممارسة الدستورية الفرنسية في القرن التاسع عشر وهو يشير إلى ضرورة أن تحجم الدولة عن منح دعمها الأكيد لأي طائفة دينية. وكان من المعتقد أن هذا المفهوم قد تحقق تماماً في فرنسا عام ١٩٠٥ عندما تم الفصل المطلق بين الكنيسة والدولة. أما في تركيا فقد تجاوزت العلمانية حد إلغاء المؤسسات الرسمية الدينية. فالمسلمون لم يتخلوا عن المؤسسة الدينية الذاتية الحكم كما هو الحال في الكنيسة الكاثوليكية التي كان بإمكانها القيام بوظائفها الدينية في معزل عن الدولة. وكان الدين والدولة في فرنسا

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

يعملان أصلاً في مجالين دستوريين منفصلين ثم انفصلا رسمياً بحكم قانون البلاد . أما في تركيا فقد بتر عضو من أعضاء الدولة عندما أصبحت العلمانية هي سياسة الدولة . لذلك تعتبر العلمانية التركية إنجازاً على درجة كبيرة من الأهمية .

إن القول بأن سياسة أتاتورك تصبح مفهومة أكثر إن نظرنا إليها ضمن خلفيته الشخصية ، لا يقلل من أهمية هذا الإنجاز ولكنه يمكننا من وضعه في إطار اللقاء المرغوب بين الشرق والغرب والذي طالما كتب عنه الكثير . كما تبرز هذه الخلفية التاريخية سمات لها دور كبير في فهم مستقبل العلمانية في تركيا . إن تعبيري « الخلفية الحضارية » أو « السياق التاريخي » كما نستخدمهما في هذا المقال لا يشيران إلى أحداث حياة أتاتورك وحسب بل كذلك إلى التقاليد العريقة والتنظيمات المؤسساتية التي ينتمي إليها ؛ فمثل هذه التقاليد والتنظيمات تعطينا الخطوط الخفية لبنية العلاقات الاجتماعية في أي مجتمع حتى وإن كانت في تقلب متواصل .

ويظهر في إصلاحات أتاتورك العلمانية عاملان لهما سابقتان في التاريخ العثماني وهما آراؤه في وظائف الدين في المجتمع وطرقه التي استخدمها لترجمة أفكاره إلى سياسات . وتحمل أفكاره حول الدين طابع التجريبية التي انتهجها الموظفون العلمانيون العثمانيون كما تعيد الطريقة التي اتبعها لتنفيذ آرائه ــ التشريع ــ إلى الأذهان سياسات رجال السياسة العثمانيين المجددين في القرن التاسع عشر .

البيروقراطية العثمانية والتحديث

كانت الدولة العثمانية التي برزت بكامل خطوطها ما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر إنجازاً مؤسساتياً بأبعاد كبيرة . فقد واجه العثمانيون كبناة لإمبراطورية عدداً من العوائق لم تتمكن الامبراطوريات السابقة في الشرق الأوسط من تجاوزها إلا جزئياً . وكانت إحدى المهمات الرئيسية التي واجهها العثمانيون هي إقامة حكومة فعالة في محيط جغرافي يضم تنوعاً كبيراً من المجموعات الدينية والفئات الاثنية والحضارات التي تحيا ضمن حضارات أخرى محتجبة في مواضع بيئية يتعذر الوصول إليها . وكان على العثمانيين أن يرغموا البدو وأهل المدن على المساهمة في تحقيق هدف مشترك يتعدى مصالحهم الشخصية ، كما كان عليهم أن يجمعوا بين متطلبات جباية الضرائب الامبراطورية والقبول بحكم ذاتي للوجهاء المحليين الذين هم في

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

الأصل نخبة متبقية من أراضٍ مستقلة سابقاً ضمت إلى الامبراطورية ، كما كان على العثمانيين إيجاد السبل لدمج ملايين المسيحيين في إمبراطورية مسلمة ، وقد نجحوا على ما يبدو في تحقيق هذه المهام خيراً مما فعل من سبقهم ، وهو إنجاز يعود في معظمه إلى مقدرتهم على بناء دولة سلطانية ، فشكلوا طبقة من الموظفين العسكريين والإداريين ممن يمنحون ولاءهم الخالص للسلاطين العثمانيين ويعطون في بعض الأحيان الأولوية للدولة على السلالة الحاكمة ، كما أقاموا شبكة من المناصب القضائية والإدارية يشغلها قضاة من الأقاليم تمرسوا في القانون الإسلامي ؛ وابتدعوا طرقاً لتعبئة موارد أراضي السلطنة التي تم دمجها في نظام ضرائب وإخضاعها لتنظيم عسكري ، كما اجتهدوا في خلق نظم معقدة من الأنظمة المتعلقة بالتجارة وسيطروا على شبكة الطرقات الواصلة بين المدن ذات المواقع العسكرية ، أما الرعايا التابعون مثل المسيحيين الذين ضمهم العثمانيون إليهم أثناء توغلهم عبر البلقان فكانوا يصنفون حسب انتماءاتهم الدينية ؛ وفوض أمر تسوية مصالحهم وشؤونهم المدنية إلى سلطاتهم الكنسية التي تستخدمها الحكومة لتضمن الوصول إلى رعاياها من غير المسلمين .

وما إن نجح العثمانيون في ضم الأراضي العربية ومكة والمدينة إلى إمبراطوريتهم في القرن السادس عشر حتى بدأوا ينظرون إلى أنفسهم كورثة للخلافة الإسلامية واتخذ السلطان العثماني لنفسه دور حامي العالم الإسلامي بأكمله[1] . ونتيجة لذلك اكتسب الإسلام آنذاك بعداً « امبراطورياً » جديداً على الرغم من أن الأتراك كانوا قد اعتنقوا الإسلام منذ زمن طويل وأعطوا للمؤسسات الإسلامية مكان الصدارة في دولتهم . إلا أن الإسلام كان بعيداً كل البعد عن النجاح كعامل موحِّد . ساد تقليد إسلامي رئيسي ــ كان في جوهره متشابهاً إلى حد كبير ــ في المدن في مختلف أنحاء العالم الإسلامي . إلا أن هذه الوحدة اختفت في المدى الأوسع لهذا العالم وكذلك في العديد من مناطق الامبراطورية العثمانية وظهرت مذاهب هرطقية وقادة متحمسون وطوائف لها جذور محلية بقشور إسلامية خداعة وكلها ذات وزن وبحسب حسابها . كانت هذه الاختلافات الدينية المتنافرة مصدر قلق للسياسيين العثمانيين وهو نموذج لم يتغير إلا قليلاً حتى بحلول القرن العشرين كما سأحاول أن أوضح فيما يلي .

كان هناك عامل بذاته من الإسلام العثماني مصدر أرقٍ وقلق للموظفين العثمانيين . تبنت إيران المذهب الشيعي في القرن السادس عشر وكان يحكمها آنذاك حكام يخوضون منافسة مع العثمانيين لامتلاك زمام السلطة في آسيا الغربية . لذلك كان العثمانيون يعتبرون الشيعة العثمانيين طابوراً خامساً خطيراً يعمل على تقويض سلطتهم . إلا أن الموظفين الرسميين

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

العثمانيين لم يكونوا يخشون أخطار المذهب الشيعي بحد ذاته بل كانوا يقيّمون هذه الممارسة الإسلامية من منظور يجمعهم كموظفين وهو الخوف من أن يصيب التصدع الإمبراطورية العثمانية المكونة أصلاً من فسيفساء من القطع المتنافرة، فهاهم يواجهون مجموعة من فئات «الإخوان» ومن الطوائف والفرق الدينية في وقت يحاولون فيه تدعيم أركان الإمبراطورية. وأحس البيروقراطيون العثمانيون وهم في مواجهة سلسلة من الحركات الألفية وقد أثار ضغائنهم أعيان ميالون للتخريب هم ومن تبقى من سلالات ملكية سابقة، أحسوا بالحاجة إلى تشديد قبضتهم على الدين مما قد يخفف من خطر الحركات الدينية. واستخدم العثمانيون لتحقيق ذلك الغرض عدداً من السياسات، أولها أنهم حاولوا فرض الإسلام السني التقليدي وكانوا دائبي البحث عن الشيعة «الخونة». ثانياً، قاموا بنفي المجموعات الهرطقية التي كانوا يعدونها خطرة إلى أنحاء نائية من أراضي الامبراطورية؛ وثالثاً ــ وهو الإجراء الأهم ــ قاموا بتأسيس صفوة دينية ونظام تربوي تتحكم به هذه الصفوة، وكلاهما خاضع لسيطرة الدولة. أما القائمون بالمهام الدينية الأعلى مكانة وهم حكماء الشريعة أي «العلماء» فقد تحولوا عملياً إلى موظفين رسميين إذ كانوا يكسبون لقمة عيشهم من رواتبهم من الدولة وكان الطريق الذي يسلكونه في مهنتهم محدداً سلفاً من قبل الدولة. كما اكتسب العلماء الأرفع مقاماً تفهماً لمجرى السياسة العثمانية من خلال مناصبهم التي اقتضت اشتراكهم في صناعة السياسة، فبالنسبة لمن يشغلون قمة الهرم التدرجي كانت السياسة كما هو متوقع موجودة في كل مكان وفي كل الأوقات.

كان للتدرج التراتبي الديني الإسلامي من الناحية النظرية ارتباطٌ عضويٌ بما يمكن تسميته بالقانون الدستوري للدول الإسلامية إذ أن حكام المجتمعات الإسلامية كانوا بمثابة رؤساء المؤمنين ولأن القانون في تلك المجتمعات كان أساساً قانوناً مستقى من القرآن. أما في الإمبراطورية العثمانية فكان (العلماء) أشد اندماجاً بجهاز الدولة، وكانوا يقومون من خلال سيطرتهم على التعليم والتربية وعلى شبكات القضاء والإدارة، بدور وكلاء الدولة وبهذا يضمنون سيطرة الدولة على الحياة الاجتماعية بشكل غير مباشر.

ومن هنا نجد أن الحكومة العثمانية كانت (إسلامية) و (بيرقراطية) في الآن ذاته، فهي إسلامية بمعنى أن الإسلام كان دين الدولة وأن دور السلطان الأساسي كان دور قائد المجتمع الإسلامي؛ وهي بيرقراطية بمعنى أن طابع العمل للحفاظ على الدولة قد طبع ما يقوم به الموظفون العثمانيون من أعمال. وكان كل ما يعرض الدولة للخطر يعتبر تحديداً حركة هرطقية. وكان أسلوب الحكومة أحياناً أكثر «إسلامية» كما كان الحال خلال القرن السابع

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

عشر إلا أن الكفة بدأت ترجح منذ منتصف القرن الثامن عشر باتجاه الأسلوب (البيروقراطي).

إن ما وصفناه «بالأسلوب البيروقراطي» هو نتاج موقف خاص اتخذته مجموعة من موظفي الحكومة العلمانيين ممن ركزوا على البعد السلطوي للعلاقات الاجتماعية باعتباره أهم جوانب الحياة. كانوا شديدي التصلب في آرائهم وذوي عقلية تجريبية وذرائعية (براغماتية). وكانت إيديولوجيتهم هي إيديولوجية مصلحة الدولة؛ ويعود السبب في ذلك إلى تدريبهم الذي يختلف عن تدريب العلماء. فالعلماء يمرون بثلاثة مراحل تعليمية تعرف بالمدرسة، وتلقى في الصفوف الابتدائية من المدرسة دروسٌ في مواد عامة مثل الخطابة والقواعد ولكن مع تقدم الطالب إلى المراحل الأعلى تأخذ الدراسات الدينية الحيز الأكبر؛ وعلى خريج المدرسة أن يكون قد اختص في واحد من العلوم الدينية، ويتم تدريب الخريجين على استخلاص المعرفة من النصوص الدينية في كل ما يتعلق بالشعائر وتفسير المشاكل القانونية ــ والأهم من ذلك بالنسبة لنا ــ فيما يتعلق بالمسلك في الحياة الاجتماعية. وقد عمدوا إلى ابتكار لا يستهان به في إيجاد مبررات إسلامية للعديد من الفعاليات مثل فرض الفوائد التي كانت محظورةً عند التطبيق الصارم للقانون، وعلى الرغم من ذلك كان لهم جانب مثالي في تفكيرهم، وهو شعورهم بأن تعاليم الدين تأتي أولاً وأن على المصالح البشرية أن توائم نفسها مع هذه التعاليم. وليس هناك ما يدعونا للمضي في مقارنات لا مجال لها الآن لذلك سنكتفي بالقول أن الموظفين العلمانيين كانوا على نقيض ذلك. فالنموذج المعهود هنا كان أن يتبع من يود أن يصبح بيروقراطياً تدريباً مبدئياً في عمر مبكر ــ حوالي الحادية عشرة أو الثانية عشرة ــ ثم يبدأ كمتدرب في مكتب حكومي؛ وفي هذا المكتب إنما تتم التربية الحقيقية للبيروقراطي، وأصبح ذلك المنهج واضحاً في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر. ويبدو أن هذه الخلفية كانت هي المسؤولة عن الأولوية التي أعطاها البيروقراطيون العلمانيون للتقويمات الواقعية لعوامل السلطة في المجتمع في الحين الذي أبقوا المثالية في المراتب التالية.

حين ابتدأت الإمبراطورية العثمانية بالانحطاط ظهر توقعان مختلفان بين صفوف البيروقراطيين والعلماء حول أسباب هذا الانحطاط، فبالنسبة لفقهاء الشريعة كان سبب الانحطاط دينياً: فالعثمانيون قد أهملوا واجباتهم كمسلمين لذلك فقدوا السلطة التي كانت بحوزتهم حين كان إيمانهم قوياً. أما بالنسبة للعسكريين وجهاز البيروقراطيين المركزي فإن الإمبراطورية قد تدهورت لأن آلة الدولة قد تردت: فمناصب المسؤولية يشغلها أناس غير

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

أكفاء والأوقاف وزعت على من ليس جديراً بها وأصبحت الرشاوى أمراً شائعاً ومألوفاً ، وهنا أيضاً لا يبدو التباين في المواقف بنفس القدر من الوضوح الذي نصوره هنا ولكن هذا الانقسام يمكن ملاحظته بشكل عام ، وعلينا أن نتذكر وجود صنف ثالث من الموظفين وهم (العلماء) الذين اكتسبوا بحكم طبيعة وظائفهم التي شغلوها معرفة واسعة في شؤون الحكومة : وكان من دأب هؤلاء أن يدعموا الأطروحة العلمانية من طرف خفي .

ولجأت البيروقراطية العلمانية والضباط العسكريون من أجل وقف تدهور الإمبراطورية إلى إصلاحات تعطي الأولوية إلى إعادة التنظيم العسكري وبناء هيكل جديد لجباية الضرائب لدعم الجيش . وانحاز بعض العلماء في بداية حركة الإصلاح إلى جانب المصلحين وهو تحالف ظل معروفاً حتى في السنوات التالية . كان من الواضح أن السلطانين المصلحين سليم الثالث (١٧٨٩ ــ ١٨٠٧) ومحمود الثاني (١٨٠٧ ــ ١٨٣٩) قد صُبّا في القالب نفسه الذي أسس دعائم تقليد « السياسة الحقيقية » في البيروقراطية . وكان السلطانان نافدي الصبر حين يتطرق الجدل إلى الاعتراض على الإصلاحات الجزئية التي يقومان بها .

وعلى الرغم من أن مجموع البيروقراطية العلمانية العثمانية شارك العلماء الأرفع مكانة ، مداخلات السياسة إلا أنه اختلف معهم في عدد من المسائل . ففي بداية القرن التاسع عشر بادر البيروقراطيون إلى التغيير فشرعوا في برنامج يرمي إلى إحداث مؤسسات إدارية وحوافز اقتصادية في تركيا شبيهة بتلك التي استخدمتها النظم الاستبدادية المتنورة في أوروبا منذ فترة مضت . وأدت تلك التغيرات في النهاية إلى تقويض مكانة العلماء وهيبتهم تقويضاً تاماً : فأبعدوا عن عمليات صناعة القرار الأساسية شيئاً فشيئاً بعد منتصف القرن التاسع عشر ثم انتهى بهم الأمر إلى أن أقصوا عن جميع المناصب الأساسية في الإدارة ماخلا الهامشية منها وكذلك الأمر في النظم التعليمية والتربوية والقضائية .

كان قانون البلاد في الإمبراطورية العثمانية قبل منتصف القرن التاسع عشر هو « الشريعة » نظرياً ، وهو القانون الديني المستند إلى القرآن . وكانت مصادر هذا القانون هي آيات القرآن وأحاديث الرسول محمد ﷺ والاجتهادات العقلية للمشرعين المسلمين العظام . أما في الواقع فقد أحدثت البيروقراطية كماً من التشريعات العلمانية كان على القضاة الدوريين أنفسهم أن يأخذوها بالاعتبار على الرغم من كل تدريبهم الذي تلقوه في (المدرسة) . واضطرت هذه الممارسة مهندسي الحركة الإصلاحية (التنظيمات) إلى اعتبار النظم القانونية كصمام الأمان الذي يضمن أن تصبح إصلاحاتهم جزءاً من قانون البلاد .

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

وهكذا اتسمت التنظيمات بسيل من القوانين التشريعية والقوانين المحلية والنظم والقوانين الداخلية. وافتتح التطبيق إعلان السلطان عبد المجيد تشريع دستور أساسي أطلق عليه Hatt—i Hümanyun خط همايون كولخانة of Gülhane عام (١٨٣٩). وتعطي هذه الوثيقة صفة الشرعية لمشروع الإصلاح برمته وتخطط الاتجاه الذي سيسلكه. وهكذا اتسعت الهوة التي كانت موجودة أصلاً بين القانون الأساسي والقانون الديني بإقامة هذه التنظيمات.

كانت النظم الجديدة المسنونة بشأن التنظيمات علمانية بطبيعتها، إذ أنها نشأت في مكاتب (الباب العالي) واستهدفت مقاصد دقيقة في تنفيذ السياسات الإدارية والمالية والتعليمية، وبدأ في السنوات التي تلت والمعروفة «بعهد التنظيمات» (١٨٣٩ــ١٨٧٦) قانون إداري جديد وأساس منطقي للإدارة يتسربان بالتدريج خلال فترات التغيير، وهو تطور كان سيلقى إعجاب ماكس فيبر والقاضي هولمز بكل جدارة، وأوشك التأثير الديني المتحكم بالإدارة أن يتلاشى وكان محور هذا التحول هو نقل القاضي المدرب في المدرسة إلى نوع جديد من العمل: موظف إداري. وتأسست مدرسة جديدة (مدرسة الإدارة) أو «الملكية» عام ١٨٥٩ لتدريب هذا الكادر؛ وبالتدريج أيضاً ظهر نظام محاكم علمانية حيث تعرض القضايا المتعلقة بسياسة الإصلاح الجديدة. كما بدأ العمل في تنظيم وتصنيف قوانين التجارة والقوانين الجنائية؛ ومع نهاية القرن التاسع عشر شمل التنظيم والتنسيق حتى القوانين الدينية، ولكن كان من الواضح تماماً أن خطوة التصنيف هذه لم تكن سوى إجراء وقائي لكيلا يقال بأن المشاكل التي تحل بموجب قانون نابليون لا تجد حلاً لها في القانون الإسلامي. ولم تنجح هذه الطبيعة الجديدة للدستور الإسلامي (المجلة) المستقاة من القانون الأوروبي والمطابقة له، في إثبات أن القانون الإسلامي قد انتصر بل برهنت على أن عليه هو أيضاً أن ينصاع للتفاسير والشروحات التي يتبعها النمط الغربي الأوروبي في طرح المشكلات القانونية.

انتهج الإصلاح في مجال الإرشادات العامة المسلك نفسه. وقد وضع في إطار علماني جديد عندما أقيمت عام ١٨٤٦ وزارة الإرشاد العام[٢]. وقامت الدولة عام ١٨٤٧ بمد سلطتها المباشرة على عملية التعليم باستبدال نظام مدارس الجوار الممولة بأموال خاصة أو بمنح خيرية بنظام مدارس ابتدائية تمولها الحكومة[٣]. وافتتحت الدولة في الخمسينيات والستينيات مدارس ما بعد الابتدائية وبدأت تلك المدارس بالانتشار في أنحاء تركيا. وأعظم إنجاز تعليمي قامت به التنظيمات هو «الرُشدية» حجر الأساس في سياستها الهادفة لتدريب الكوادر. وكان على الخريجين أن يتقنوا الرياضيات ويتمكنوا من خلال دراستهم

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

للإنشاء التركي من كتابة تقرير واضح، وأن يكون لهم إلمام بجغرافية العالم والتاريخ. إن السرعة التي انتشرت بها «الرشدية» لم تتكرر ثانية خلال الموجة الثانية من التطور التعليمي ومحاولة نشر المدارس الثانوية الفرنسية Lycées في الأقاليم، إلا أن معظم عواصم الأقاليم كانت تضم مدرسة ثانوية ما بين ١٨٨٢ و١٩٠٠[٤]. ابتدأ تطبيق العلمانية في وقت مبكر على المستويات الأعلى للتعليم عندما تأسست (مدرسة الطب) عام ١٨٢٧[٥] والأكاديمية العسكرية ١٨٣٤ ــ ١٨٤٦[٦]. وبدأ التدريس في مدرسة جديدة علمانية للحقوق عام ١٨٨٠.

جاءت كل هذه التطورات نتيجة للموقف الذي يميز البيروقراطية العلمانية العثمانية تجاه كل ما يتعلق بتثبيت قواعد سلطة الدولة؛ فإذا ما كان بإمكان المؤسسات الغربية إعادة الحيوية والقوة للدولة، قامت البيروقراطية بتبنيها، وليس هناك سبب آخر يمكنه إيضاح السهولة التي انزلق بها العثمانيون إلى الإصلاح على النهج الغربي. ومن هذه الزاوية يمكننا أيضاً أن نفهم كيف استطاع السياسي العثماني صفوت باشا (١٨١٤ ــ ٨٣) في الثمانينيات من حث تركيا على تبني «حضارة أوروبا بكل ما فيها، وبالاختصار أن تبرهن (تركيا) أنها دولة متحضرة»[٧]. لقد تفوه صفوت باشا بهذه العبارة في مناسبة غير علنية إلا أنه صرح علناً وعلى الملأ بعبارات قوية مماثلة حول ذلك الموضوع[٨] ويعد تصريحه هذا تلخيصاً معبراً عن أفكار العديد من زملائه، ويجدر بنا أن ننوه هنا بالمسافة التي قطعها صفوت باشا فيما يتعلق بخلفيته التربوية حيث أنه تلقى تعليمه في (مدرسة). إلا أن سبب تلهفه للاقتداء بأوروبا في بناء إمبراطوريته يصبح واضحاً حين نعزل التأثير الذي خضع له أثناء شبابه، فصفوت باشا استقى قيمه وآراءه حول العالم في الفترة التي قضاها أثناء فتوته المبكرة كمتدرب في وزارة الشؤون الخارجية.

ويمكن استخلاص صورة أزهى ألواناً عن الطريقة التي ابتعد بها البيروقراطيون العثمانيون في (التنظيمات) عما اعتبروه (تخلف) بعض الممارسات الإسلامية، من عدد من التقارير عن أحمد وفيق باشا أحد السياسيين المرموقين في ذلك العهد، وبوسع أحمد وفيق باشا أن يعتد بترجمته لموليير إلى التركية كواحدة من إنجازاته، وقد كان في وقت ما محافظاً لولاية بورصة وعاصمتها مدينة بورصة الراسخة الجذور في التقاليد الدينية؛ إلا أن ذلك لم يردع وفيق باشا فأقام مسرحاً في المدينة لتقديم ترجماته عن موليير وطلب إلى موظفيه شراء تذاكر للمسرحيات المعروضة. وادعى المدون المحلي «لسلالة النبي» وهو «نقيب الأشراف» عاصم بيه أنه لا يستطيع حضور مثل هذه التسلية الترفيهية بسبب مكانته كموظف إسلامي[٩]؛ فقام

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

العثمانيون بهذه الحضارة فأوردوا أنفسهم موارد التهلكة، ولم تحظ هذه النظرية المسروقة من مستودع الرومانسية الغربية برضى رجال السياسة في (التنظيمات) على الرغم من أنها بدأت تلقى دعماً من الليبراليين الدستوريين. وأعرض السياسيون عن هذه المناقشات باستثناءٍ واحدٍ أدى إلى تصنيف القانون «المدني» الإسلامي، أما ما لم يفلح السياسيون في نبذه بهذه السهولة فهو التصنيف العثماني القديم للسكان على أساس الانتماءات الدينية.

كان للعثمانيين، شأنهم شأن عدد ممن سبقهم من الإمبراطوريات في الشرق الأوسط، نظام إدارة له شعبتان، فهو من جانب يستند إلى أساس الأرض حيث قسمت الإمبراطورية العثمانية إلى أقاليم، ولكنه يستند في جانبه الآخر إلى التصنيفات الدينية. وتبعاً لهذا التصنيف يعامل غير المسلمين على أساس انتماءاتهم الدينية وليس على أساس إثني أو لغوي، فكانت الكنيسة الأرثوذكسية على سبيل المثال واحدة من الوحدات الإدارية العثمانية يتمكن عبرها العثمانيون من الاتصال بعدد كبير من رعاياهم المسيحيين، وفوضت الدولة أمر الإدارة الداخلية للأشخاص المنتمين للكنيسة الأثوذكسية إلى البطريركية الأرثوذكسية[١٢] وكان أمر إدارة الجيورجيين والأرمن واليهود وشؤونهم المدنية مفوضاً إلى هيئاتهم الدينية العليا، ومن هذا المنظور كان المجتمع الإسلامي معتبراً أيضاً كوحدة. على الرغم من أنه يضم عرباً وأتراكاً وألبانيين وأكراداً وشركساً.

وضاعفت القوى الكبرى في أوروبا خلال القرن التاسع عشر تأثيرها في الدور الذي دأبت على الاضطلاع به منذ زمن وهو دور حماة الرعايا المسيحيين المختلفين في الإمبراطورية العثمانية. وكانت تلك مناورة سياسية تهدف إلى احتلال موقع قدم على أراضي «الرجل المريض في أوروبا»، وكانت الدول المشاركة في هذه السياسة تسعى إلى اقتسام الغنائم بعد وفاة الرجل المريض، وبحلول أواسط القرن التاسع عشر طرأت تطورات داخلية في المجتمعات الدينية في الإمبراطورية غيرت بنية الإدارة الداخلية، تعاظمت قوة سواد الناس وسيطرت تجمعات العوام على الاحتفالات الدينية التي كانت حتى ذلك الحين في أيدي الهرم التراتبي الكنسي، وظفرت هذه الجماعات واحدة إثر الأخرى باعتراف الدولة العثمانية «بدساتيرها المدنية» الجديدة[١٣]، ومنحت هذه الجماعات شخصية مشتركة في قانون «التنظيمات». إن تحديد حدود المجموعة بهذه الطريقة أعفى الخليط الديني في الإمبراطورية العثمانية من بعض أعبائه، وكان السياسيون في (التنظيمات) يأملون أن يتمكنوا من إيقاف هذه العملية التي وضعت الجماعات الدينية في قالب أكثر تشدداً وأسهمت كمصدر لأفكار تطالب بانفصال هذه الجماعات عن الإمبراطورية العثمانية، وبالفعل فإن دولاً مثل اليونان وصربيا

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

(الصرب) التي اقتطعت من أراضي الإمبراطورية العثمانية في بداية القرن التاسع عشر كان لها مثل تلك السوابق فيما مضى.

دفعت عملية تناغم المجموعات عدداً من العثمانيين إلى التفكير بمستقبلهم هم كمجموعة مسلمة أكثر تناغماً، وهنا نواجه عاملاً ثالثاً في موقف المسلمين تجاه انحطاط الإمبراطورية العثمانية؛ وهو فكرة أن على المسلمين العثمانيين أن يعنوا بمصالحهم الشخصية كمسلمين، ومن شأن مثل هذه السياسة أن تقوم مقام (الإسمنت) الذي يرص المسلمين في الإمبراطورية صفاً واحداً ويبقيهم موحدين، وقد يتسنى للمسلمين مجتمعين أن يجنبوا الإمبراطورية مزيداً من التفكك. ومع حلول عام ١٨٧١ وعقب وفاة الوزير الأعظم علي باشا تشكلت عصبتان من السياسيين إحداهما تدعم الاستمرار في التحديث الدستوري للإمبراطورية العثمانية كواسطة لتأمين التحالف بين جميع العثمانيين وولائهم لدولة عثمانية واحدة، والأخرى مستعدة لاستخدام الإسلام كصيغة سياسية جديدة.

ومنذ ذلك الحين سيعتبر كل من رجال العصبتين ــ وهذه نقطة حاسمة في فهم موقف أتاتورك من الإسلام ــ أن الإسلام قابل للتطبيق لدرجة أنه بإمكانه أن يمدهم بصيغة سياسية فعالة ووسيلة لحشد شعوب الإمبراطورية تحت رايته، ونبذ أتاتورك هذا الخيار في العقد الثاني من القرن العشرين لأنه اقتنع بأن محاولات تنفيذه كانت أشبه بملاحقة سراب لا غير. ويعود جزء من ردة فعله هذه إلى عدم الانسجام بين مفهومه للفترة الزمنية اللازمة ومفهوم الإسلاميين لها، إذ كان أتاتورك يفكر بوضع ما يخطط له موضع التطبيق خلال عقود من الزمن بينما كان الدعاة الإسلاميون يفكرون في ذلك بمقياس آلاف السنين. إن هذه الحساسية تجاه عامل الزمن هي أحد مظاهر تفكير جيل أتاتورك الذي يصنفه في خانة مختلفة عن الإصلاحات التي شملت (التنظيمات) الأولى، وسنبحث في ذلك الموضوع بتفصيل أكبر فيما بعد. إن المجالات التي يمكن للإسلام أن يستخدم فيها والمجالات التي لا يمكن استغلاله فيها تبدت واضحة أثناء فترة حكم السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ ــ ١٩٠٩).

انتزع المزيد من الأراضي من يد الإمبراطورية العثمانية مع حلول الوقت الذي وقعت فيه معاهدة برلين في ١٨٧٨، وكان المسلمون يشكلون الأغلبية في الأراضي المتبقية أكثر مما كان عليه الحال فيما سبق، وقرر السلطان الذي وجد نفسه وجهاً لوجه أمام هذا النموذج الديمغرافي والعداء المستفحل بين المسلمين والمسيحيين، أن ينتهج مساراً وسطاً بين الصيغ

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

المطروحة المتنافسة فيما بينها، لعل في ذلك إنقاذ الإمبراطورية، استمر السلطان فيما بدأه رجال سياسة (التنظيمات) لترشيد جهاز الدولة وتحديثه، ومد يد المساعدة في توسيع نظام المحاكم العلمانية والتعلم العلماني، وترك (المدرسة) على حالها إلى أن استحالت مستنقعاً لا حياة فيه إذ لم يعد هناك عدد كافٍ من المعلمين فيها خلال السنوات الأخيرة من حكمه كما أصبحت معاهد فقيرة مادياً فباتت ملجأ للفاشلين الذين يودون التهرب من الاستدعاء للتجنيد.

وكان عبد الحميد يؤمن أيضاً بالعلم وتطبيقاته العملية إلا أنه اختار استخدام الإسلام كصمام أمان يوطد دعائم الوعي لهدف جماعي في نفوس رعاياه، وأدرك السلطان أنه لا يمكن لدولة حديثة أن تعمل على أساس التحالف الضمني الذي كان كافياً لتشغيل جهاز الدولة في أيام من سبقوه، وكانت زيادة المنتوج الزراعي ــ مثلاً ــ واحدة من أهدافه إلا أنه أدرك أنه لا يمكن تحقيق ذلك إلا عبر سلسلة من الإجراءات التي تشمل توسيع شبكة خطوط سكة الحديد وكذلك التدريب الزراعي ومساهمة الفلاحين في المخطط؛ ولكن الأهم من المساهمة هو إيجاد وحدةٍ ما بين الناس في الأرياف تمكنهم من إضفاء معنى لولائهم الخاص لشخص الخليفة النائي، وعمد السلطان من أجل تحقيق هذا الهدف إلى سياسة ذكية للغاية، إذ أقام صلات مع الشيوخ والدراويش مستخدماً الدعاية لتعبئة سكان المدينة ــ احتل فيها بناء سكة حديد إلى الحجاز مكاناً استراتيجياً ــ وحاول تهدئة خواطر السكان العرب وإقناعهم بالهوية العثمانية، وآتت هذه السياسة أكلها على الأقل في شبه جزيرة الأناضول كما يشهد العديد من المراقبين المعاصرين، كانت هناك خصلتان في الشخصية الريفية في المملكة يتصارع معهما السلطان، أولاهما انعدام الحكم الذاتي للأشخاص وثانيتهما غياب مفهوم الوحدة التي تتجاوز حدود القرية أو الضيعة. ويقع ملايين العثمانيين في هذه الخانة، وستتضح درجة افتقار هؤلاء إلى الإحساس بأي هوية جماعية في وقت لاحق خلال الحرب العالمية الأولى، كما سيتبين ذلك أحد الضباط الشبان فيما بعد، وهو يصف تجربته الأولى في تدريب المجندين الأناضوليين كما يلي:

«كان جنودنا في ذلك الحين ــ كما فهمته آنذاك ــ بدلاً من أن ينظر إليهم كأشخاص يمكن للمرء التعامل معهم كأفراد، يعتبرون كمسنن عجلة في مجتمع أو كمكونات لمجموعة، وكان من السهل عليهم تنفيذ كل ما يطلب إليهم طالما أنهم في مجموعة أو فئة، ولكن ما إن ينفصل أحدهم عن الجماعة وينعزل بمفرده حتى يعجز عن تقرير منهج مستقل لنفسه نابع من إرادته الشخصية، كما أنه أثناء التنفيذ الجماعي يبحث دائماً عن أحد

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

يعتمد عليه أو يقتفي خطاه ، وغالباً ما يؤثر ذلك في مسار الحرب وقيادتها في وحدتي ، فإذا ما فقدت إحدى مجموعات الجنود ضابطها أو رقيبها أو مراقب النظام فيها تهاوت وتشتت بكل سهولة ، وفي لحظات الخطر تقوم الوحدة ــ بدلاً من التفرق بحذر بمجرد إخطارها ــ ونقيضاً لكل ما هو متوقع بالتكتل والالتفاف على نفسها ودائماً باتجاه مركز القيادة .

أما الخطر فدقات ناقوسه لا تعني شيئاً لهم ، فهم ليسوا بحاجة لأية استعدادات يقومون بها قبل الذهاب إلى النوم ، يمكنهم النوم خلال دقائق وربما خلال ثوان ، وأحياناً يكونون غارقين في النوم عندما نحسبهم أيقاظاً ، وفي ذلك الوقت الذي تظن أن كل شيء على خير مايرام من النظام والاستعداد تجد خفيراً قد وضعت ثقتك فيه منتصباً في خندقه وسلاحه في وضع الاستعداد وعيناه شاخصتان إلى الأمام ، وهو غارق في سباتٍ عميق . إنه لمن أشد الأمور غرابة أن يقوم شخص بكل ما تأمره به في الوقت الذي يكون فيه جزءاً من مجموعة تخضع لأوامر جماعية ثم يصبح هذا الإنسان أبعد ما يمكن عن أي شكل من أشكال المسؤولية الاجتماعية » .

ويصف المؤلف نفسه ردود فعل تلقاها عندما بدأ يسأل رجاله أسئلة تتعلق بدينهم :

« عندما طرحت سؤال « ما هو ديننا ؟ » « ما هو الدين الذي نؤمن به ؟ » ، حسبت أن الجواب الذي سأتلقاه هو « الحمد لله نحن مسلمون » ولكن الردود التي سمعتها لم تكن كذلك ، فالبعض قال : « نحن على دين الإمام العظيم » وآخرون قالوا : « نحن أتباع النبي علي » وبعضهم لم يستطيع إيجاد حل للسؤال العويص ، بعضهم أجاب فعلاً « نحن مسلمون » ولكن عندما طرح السؤال « من يكون نبينا ؟ » اضطربوا واختلطت عليهم الإجابة . وذكرت أسماء أنبياء لا تخطر في بال إنسان ؛ إذ قال أحدهم « رسولنا هو أنور باشا » ، وعندما طرحت السؤال على القلة التي عرفت اسم الرسول « هل نبينا حي أم ميت ؟ » كان السؤال أشبه بمعضلة لا حل لها ، وقال البعض أنه حي وأجاب آخرون بأنه ميت » . . .

إن هذا الضابط الشاب الذي لم يستطع إخفاء الكرب الذي أحس به لنوعية الناس الذين طلب إليه أمر قيادتهم في الحرب ، كان على يقين من أمر واحد وهو أنه بالرغم من جهلهم المطبق بالإسلام يبقى الدين واحداً من الطرق التي قد تمنحهم توازناً داخلياً (أو جيروسكوباً داخلياً) وإدراكاً للذات يمكن استغلاله في الوقت نفسه لوصل الروابط بينهم وبين هدف وطني . ويمكننا أن نشير هنا إلى ما كان يسعى كل من السلطان والضابط لتحقيقه ، مستخدمين المصطلح المعاصر من أميركا اللاتينية Conscientización أو بناء الوعي

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

الشخصي. إن ما لم يدركه السلطان آنذاك هو أن رسالة الإسلام السياسية لم تكن مركزة تركيزاً كافياً لإبقاء المسلمين الكثر الذين يشكلون إمبراطوريته ملتفين بوحدة حول هدف مشترك بالرغم من أنه نجح في بناء شيء من الإحساس بهوية مسلمة وحتى بهوية عثمانية بين صفوف بعض رعاياه، وهكذا يتبين أن الإسلام يملك أثراً انتشارياً ينجم عنه بناء هوية اجتماعية مضعضعة وتضامن غير فعال في المناطق الأكثر انعزالاً في الإمبراطورية العثمانية، ولكن تبقى طبيعة الرابطة الإسلامية حتى اليوم كصيغة من صيغ القومية ــ الأولى أمراً غير مفهوم. ومع ذلك فإنه لمؤشر واضح على صحة فكرة بناء الوعي الشخصي عن طريق استخدام الإسلام أن يقوم الأتراك الشبان الذين أطاحوا بعبد الحميد بالتمسك بهذه الصيغة وعدم نبذها تماماً على الرغم من أن شكوكهم في فعاليتها كانت تكبر يوماً بعد يوم.

كما لم يدرك السلطان أن القسم الثاني من برنامجه وهو الدعم المستمر للتحديث المؤسساتي والنهوض بالمعاهد الخاصة بالتدريب المهني سينتهي به الأمر إلى التخبط في المشاكل، إذ نجم عن هذه الإصلاحات التربوية في نهاية المطاف، مواقف غير متوقعة شجعت تطرف الأشخاص المدربين في تلك المعاهد، وقصدت هذه النزعات الجديدة إلى الانتقال بتركيا إلى العلمانية إذ أن الجيل الجديد الذي أفرزته البنية التربوية التي أشرف عليها السلطان انطبع بطابع المعارضة التي لا هوادة فيها حيال ما كان يعتبره هذا الجيل بقايا عهد بائد لا نفع يرجى منها. وظهر تصلب هذه المواقف في كل من المطالبة بأن تطابق النظرية أو الخطة المجردة الواقع الحقيقي، وفي اعتقادهم بأن مدة تنفيذ هذا المشروع هو «الآن»، واختلف هذا الموقف اختلافاً جذرياً عن موقف المسؤولين في (التنظيمات) الذين كانوا على استعداد للتأقلم مع إبداء التنازلات وأنصاف الحلول والأنظمة الشديدة البطء والقيم المتضاربة، وستظهر من الآن فصاعداً كلمة «المستحاثة» مراراً وتكراراً في كلام المثقفين التقدميين العثمانيين، وسيترك هذا الشعور بعدم الارتياح من جراء الاضطرار للعمل في نظام هو خليط من القديم والجديد آثاراً جلية في أفكار (كمال أتاتورك).

إصلاح معاهد الدراسات العليا والسلطان عبد الحميد الثاني

قد نعجب إذ نكتشف أن السنوات الأولى من حكم السلطان عبد الحميد تميزت بإنجازات عظيمة في حقل التربية والتعليم، وكانت إحدى هذه الإنجازات الخاصة في بدايات

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

الثمانينيات من القرن التاسع عشر افتتاح نظام من المدارس العسكرية التي تقبل الطلاب بنظام داخلي مباشرة بعد إنهائهم للتعليم الابتدائي . ويمكن لهذه المدارس ، (الرشدية العسكرية) ، أن تستمر حتى الأكاديمية العسكرية لأولئك الذين يقررون امتهان الحياة العسكرية ، وقد روج لهذا النظام واحد من ألد أعداء السلطان وهو مدير التربية العسكرية (سليمان باشا) الذي خطط لخلع السلطان عبد العزيز في ١٨٧٦ . وقد أمر السلطان عبد الحميد الذي خلفه على العرش بمدة وجيزة بتقديم (سليمان باشا) إلى المحكمة العسكرية إلا أن ذلك لم يثنه عن تنفيذ نظام التعليم الذي ابتدعه الجنرال (سليمان باشا) . وفي عام ١٨٩٥ كان هناك ثمان وعشرون مدرسة عسكرية متوسطة قد فتحت أبوابها في أرجاء الإمبراطورية ، منها ثمانية في العاصمة وعشرون في المقاطعات الأخرى[١٤] وبلغ العدد الإجمالي لتلاميذ هذه المدارس ستة آلاف تلميذ ، ومع حلول عام ١٨٩٨ وصل العدد إلى ثمانية آلاف . كما كان هناك سبعة مدارس إعدادية عسكرية من مستوى مدارس التجهيز (Lycée) التي تعد الطلاب للدخول إلى الأكاديمية العسكرية أو المدرسة الطبية العسكرية . وكان هناك النمط ذاته من المدارس الإعدادية متاحاً أمام الطلاب الراغبين في الانتساب إلى المدارس الإدارية .

كان مستوى (الرشدية العسكرية) التعليمي عالياً ، والعديد من الطلاب الذين اختاروا المهنة العسكرية جاؤوا في الأصل من خلفيات اجتماعية واقتصادية متدنية وهذا يقتضي بالضرورة أن تكون مهنتهم هي محور اهتمامهم لبلوغ ما يصبون إليه من تحقيق ذاتهم ، وكلما تقدموا في نظام التعليم العسكري كلما اكتسبوا نظرة للعالم من حولهم تؤكد أهمية العلوم الإيجابية ، وكان الطلاب يستمعون المرة تلو المرة إلى أن مصير الإمبراطورية هو رهن بإسهامهم هم في إنقاذها ؛ وأن انتشال الإمبراطورية لن يتحقق إلا بتفهمهم للقوى التي جعلت من الدول الغربية دولاً قوية . لذلك كان هناك استمرار وتواصل بين نظرة الطلاب إلى العالم ونظرة البيروقراطيين الذين بدأوا بالإصلاحات منذ عدة أجيال ، إلا أن هناك اختلافاً واضحاً بينهما ، فالجيل الجديد لم يكن أكثر اطلاعاً على الجغرافية وعلى المزيد من التاريخ الحديث والرياضيات وحسب من أسلافهم بل اكتسبوا أيضاً رؤيا جديدة للواقع من خلال معرفتهم ، ونمت لدى المتفوقين منهم مفاهيم حول السبل التي يمكن للمرء اتباعها لصياغة المجتمع مما جعل ماقام به سياسيو (التنظيمات) يبدو بالياً وبعيداً عن الحزم كل البعد .

ويبدو نفاد الصبر والتلهف لدى خريجي المدارس العليا العثمانية ـــ سواء العسكرية منها أو المدنية ـــ واضحاً عندما يقارن المرء بين نمط التعليم السائد في النظام التقليدي وبين

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

النظام الجديد الذي يعتمد تدريس الكتب والدراسات أثناء الفصول الدراسية ، وإذا ما كان مصطلح « التمرين » ينبؤنا بشيء عن طبيعة النظام التعليمي القديم فإن مفهوم « العقلية الطوباوية » يفسر النابض الخفي في النظام الجديد والطابع الذي دمغ به خريجيه .

فالمعرفة في النظام التقليدي كانت أمراً محدوداً تشمل الخطوط العريضة الأساسية للمعرفة الإسلامية التي أرسيت قواعدها مرة وإلى الأبد على نحو حاسم . تحول هذا الذخر من المعرفة عبر إجادة تقنيات معروفة تماماً كما هو الأمر في فن المهارة الحرفية ، فالمعرفة الجديدة من جغرافية وعلوم الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا ــ جميعها كانت كتلة تتسع وتمتد بدافع من زخمها الذاتي وكان على المرء أن يواكب تقدمها ليبقى على اطلاع ودراية ، وكانت التقنيات التي تستخدم فيها تتبدل وتتغير باستمرار ، وهكذا طرأ التغير في البداية على أنه اطلاع على معطيات العلوم الغربية ، وأصبح « العلماء » في هذا الضوء ــ وهم الذين لم يواكبوا توسع الآفاق الثقافية ــ أشبه بالمشعوذين الجهلة منهم بالعارفين بمكنونات الحكمة القديمة ، وكان هذا أحد العوامل الذي حض الطلاب على مواجهة الدين والتصدي له علناً ، وستصبح الإشارات في المستقبل إلى الحاجة للتغيير وإلى التصريح بأن الدين عقبة في طريق التقدم ، هي الفكرة المهيمنة في كتابات (أتاتورك) .

كان تعليم المبتدئين بدايات المعرفة على يد مرشد ومعلم خاص أمراً أساسياً في النظام التقليدي ، وكان المعلم الخاص في (المكتب) يشرف على المستخدم الجديد أو قد يقوم بذلك موظف له خبرته أبدى اهتماماً بمزاولة مهنته ، أما في (المدرسة) فكان المعلم الخاص هو الشخص الذي يؤول إليه أمر تعليم التلميذ خلال فترة انتظامه في المدرسة ، ومن هنا كانت الشخصيات التي رسمت حدودها على هذا المنوال ، بالإضافة إلى الاعتقاد بأن المعرفة هي كم محدود ينهل منه بأساليب معروفة ، تحد من المجال الذي يمكن للمبتدئ أن يخرج عنه ويتجرأ على استنباط تفاسير جديدة للأمور التي سبقه إليها أسلافه وأشبعوها استكشافاً ، أما في النظام الجديد فكانت الكتب التي توزع على طلاب الصف بأكمله هي أساس المعرفة ؛ وأصبحت هذه الكتب مراجع للتعلم وقد أتاح ما نشر منها في فرنسا المجال أمام الطلاب التفوق حتى على مدرسيهم الذين لم يذهبوا إلى فرنسا منذ أمد .

الجانب الآخر في التعليم الذي قد يفوق سواه أهمية هو أن الكتب والفصول المدرسية والمدرسة أصبحت تعمل ضمن ما يدعوه أرفينغ جوفمان بالمعهد الشامل «Total institution»[١٥] . فكل مدرسة هي عالم مكتف ذاتياً ينفصل فيه الطلاب عن الحياة اليومية العثمانية . ففي نظام (المكاتب) يختار الطلبة ما يحتاجون معرفته من المجريات الحقيقية التي تقع في المكتب ، فكانوا

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

ينغمسون في خضم معقد من المعرفة والممارسة والتشوق والتخطيط ، أما الجيل الجديد من الموظفين فكانوا منقطعين تماماً عن كل تلك الأجواء ، وكانوا يدرسون المبادئ والقوانين المجردة التي لا صلة لها بالواقع والتي تبدي بنية داخلية متماسكة مصطنعة ، وبدا الأمر وكأن جيل التسعينيات في القرن التاسع عشر كانوا يحسبون الحياة التي تصفها الكتب أكثر واقعية من الحياة ذاتها .

وهنا أيضاً يمكننا أن نفهم بشكل أوضح ما أدى إلى التغيرات إذا ما رجعنا إلى الكتب الدراسية المقررة التي كان يستخدمها الطلاب . تمثل كتب الجغرافية والفيزياء والرياضيات والعلوم العسكرية تنظيم المعرفة كما تنطبق على مجال معين . ويسبق هذا التنظيم تجريد ظواهر معينة عن الكم الكبير من الانطباعات المتماثلة التي تصنع « مادة » الحياة اليومية . ومن ثم يبنى نموذج للتفاعل في ظاهرة معينة من تلك الظواهر تنتقى على أنها « ذات دلالة » ويصنع نموذج تجري تفاعلاته بأسرع من الواقع ، وبهذا يبدو العلم للطلبة على شكل نماذج للواقع وهي سمة يزيد من حدتها افتقارهم للتجربة وهيئة المخابر المحفوفة بالمخاطر ، واتخذ العلم لنفسه مكاناً راسخاً بينهم عبر استيعابهم للنظريات وتمثلهم لها .

واكتسب الطلاب فكرتهم عن المجتمعات الغربية بمثل الطرح المنظم السابق ، وبهذا أصبح للأنظمة المتماسكة في بنيتها وللنماذج المثالية والمخططات أهمية عظيمة في أذهان جيل التسعينيات في القرن التاسع عشر لذلك فلا عجب أن تنصب الاحتجاجات الأولى للأتراك الشبان على ما يعتبرونه افتقار نظامهم التعليمي نفسه للتماسك والثبات . وأصبح أمر تضافر أجزاء متحدة متناغمة أشبه بهاجس تملك الموهوبين والمثاليين من الطلبة . وكل ما تنافر مع هذا النموذج المتناغم كان ينبذ كشيء ضار لا صلة له بالواقع وكان المجتمع العثماني بتراماته Tramway التي تمشي بين البيوت المتداعية ، وصحفه التي تخضع لنظم غريبة تفرضها الرقابة الجاهلة وقطعات عسكرية يتلقى خريجو الأكاديمية العسكرية فيها أوامرهم من ضباط ترقوا من بين صفوف الجيش ، كان ذلك المجتمع يمثل نوع التنافر الذي ينهش بمظاهره قلوب الطلاب ، وبدأ الحل المثالي يتضح شيئاً فشيئاً فلا بد لإحدى النظامين أن يطغى على الآخر ولن يستمر هذا الخليط من تسوية مهلهلة ضعيفة .

على المرء إن أراد تطبيق و (تسيير) نموذج واقع اجتماعي أسرع من الواقع ذاته أن يضع نفسه ضمن مستقبل افتراضي . لذلك فإن لنموذج الواقع الاجتماعي المبني من خلال الرؤيا المدرسية للعالم عنصراً مكوناً إضافياً وهو مستقبل افتراضي يصاغ حسب إرادة المرء ، كان ذلك أمراً جديداً بالنسبة لأفكار رجال سياسة (التنظيمات) ، فالمصلح في (التنظيمات)

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

هو عنصر نشط إلا أنه يعد نفسه أساساً صانع الحاضر وإن كان ذلك يعني بالنتيجة صناعة المستقبل، ولم تكن فكرة مستقبل تاريخي مبني بنية منظمة وناتج عن الحاضر وبمعالم جديدة بفضل التدخل البشري، ضمن معطيات تفكير «التنظيمات» وبدأ جيل التسعينيات من القرن التاسع عشر بالمقابل بالتفكير في المجتمع كنموذج تجريدي ومخطط للمستقبل في الوقت نفسه وإن كان باتجاه (التقدم)، وأصبحت «المشاريع» الاجتماعية الآن تمريناً فكرياً، ويمكن الاطلاع على مثال مدهش لمركزية المواقف المفترضة والمشاريع في تصور كتبه عبد الله جودت Abdullah Cevdet عن تركيا المعاصرة على يد الأتراك الشبان بعنوان «نوم يقظ للغاية»[١٦].

على الرغم من أن الخطوط العريضة للنمط الجديد في التفكير الاجتماعي بدأت تتضح معالمها مع جيل التسعينيات، جيل (الأتراك الشبان)، فإنها لم تصبح فعالة حتى ثورة الأتراك الشبان في ١٩٠٨، ونجد أن (الأتراك الشبان) اضطروا في حينه إلى العمل مع الموزاييك العثماني المألوف: مجموعات دينية واثنية مختلفة ومتعددة، والإسلام الذي يمتد كخيط واهٍ يجمع شعوب الإمبراطورية العثمانية، أما بالنسبة للاستخدام الآخر للصيغة الإسلامية ودوره «كمحرض للوعي» فنجدهم ينقلبون إلى الحذر والتشكك من انتهاج هذا المسار، وقد قام (الأتراك الشبان) بدافع من هذا الشك وتماشياً مع رؤيتهم (الطوباوية العلمية) للعالم بإناطة أحد زملائهم (ضياء جوكالب) Ziya Gölkap بالقيام ببحث لإيجاد صيغة بديلة عن الإسلام، وهكذا كان (الأتراك الشبان) يضطلعون بما لم يكن رجال السياسة (التنظيمات) ليحلموا بالقيام به: إذ شرعوا بالبحث عن نظرية منتظمة متماسكة البنية في الإصلاح.

أفضت تحريات (ضياء جوكالب) إلى التركيز على فكرتين: فكرة (الأمة) وفكرة (الحضارة)، وتشمل (الحضارة) استناداً إلى (جوكالب) على الإنجازات والوسائل التقنية والثقافية التي يتقاسمها عدد من المجتمعات. فالحضارة الغربية المعاصرة مثلاً تميزت بالتصنيع وعدد من المؤسسات الاجتماعية الجديدة التي تتقاسمها عدة أمم غربية، وكانت (الجنسية) أحد المكونات الأخرى لنظام الدول الغربي وقد ربط ضياء جوكالب هذا المفهوم (بالثقافة). والثقافة هي النموذج الخفي للقيم والمعتقدات والمؤسسات التي تعطي للشعب ماهيته، وكلما امتزج هذا الشعب بدولة تشتمل على اثنيات مختلفة تبقى قيمة ماثلة في خلفيته الفكرية، والدولة الحديثة هي التي التفت حول واحد من هذه الشعوب وأقدمت بجرأة على استخدام مؤسساتها التي تحمل طابعها الخاص بها، ويعتبر الأتراك مجموعة كهذه، انحسرت قيمتها الثقافية المعينة إلى الكواليس عندما تأسست الإمبراطورية العثمانية، أما بالنسبة للإسلام فيشير

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

(جوكالب) إلى أن العديد من البنود التي تقبلها الناس على أنها جوانب أساسية من الدين — وخاصة منها التعاليم المتصلة بالتنظيم الإسلامي الصالح الملائم للمجتمع — هي في الحقيقة جوانب من الثقافة العربية لا علاقة لها على الإطلاق بالإسلام (الأصلي)[١٧]. لذلك فإن الإسلام دين يطالب أتباعه بـ(الإيمان) ولم يلزمهم بأية صيغة من التنظيمات الاجتماعية. كانت خطة (ضياء جوكالب) للمستقبل — والتي لم تظهر كمشروع مكتمل — تقضي بأن تستخرج الثقافة التركية الكامنة للأمة التركية وتُقام دولة تركية على أساسها وأن تفتح الأبواب للحضارة الغربية ويعتبر الإسلام مسألة ضمير واعتقاد شخصي. وتم تنفيذ مذكرة كتبها (ضياء جوكالب) لـ(الأتراك الشبان) عام ١٩١٦ بشأن دور الإسلام في تركيا[١٨]. وأفضى تنفيذها إلى إبعاد (شيخ الإسلام) — وهي أعلى مرتبة دينية في الإمبراطورية العثمانية — عن مجلس الوزراء، وفصل المحاكم الدينية عن (شيخ الإسلام) وربطها بوزارة العدل؛ وكذلك وضع إدارة المؤسسات الدينية تحت سلطة أحد أعضاء مجلس الوزراء، وفصل (المدرسة) عن (شيخ الإسلام) وإدارتها من قبل وزارة التربية.

برز موقف جديد للوجود مع هزيمة الإمبراطورية العثمانية في الحرب العالمية الأولى وخسارة الأراضي العربية. وأصبحت تركيا عملياً تضم شبه جزيرة الأناضول فأصبح بالإمكان الآن طرح القسم الأول من الصيغة الإسلامية جانباً — أي دور الإسلام كرابطة بين الأتراك والعرب — إلا أنه مما يلفت النظر أن (مصطفى كمال) لم ينبذ هذه الصيغة في الحال عندما كان ينظم المقاومة ضد بنود المعاهدة التي كانت على وشك أن تفرض على تركيا؛ فخلال السنوات التي كان يقود فيها حركة المقاومة ما بين ١٩١٩ و١٩٢٢ كان أتاتورك يعتمد على تعاطف المسلمين خارج تركيا وغالباً ما استعمل فكرة وحدة الإسلام، كما استغل تلك الفترة في تعبئة وشحن مشاعر الوجهاء الدينيين الأناضوليين ضد الإدارة العثمانية التي استمرت في عملها في العاصمة كأسيرة فعلية في يد الحلفاء، واستغل (أتاتورك) مكانة الخليفة في الحين الذي كان فيه على وشك الإطاحة به، إلا أنه في الحالتين كان قد وطد العزم وقرر منذ مرحلة مبكرة صورة تركيا التي يتخيلها في المستقبل.

الجمهورية التركية والأمة العربية

غالباً ما يتم تحليل مساهمة أتاتورك من خلال مقدرته الفريدة على إحداث الإصلاحات الضرورية، ويبدو ضمن هذا التقويم كأداة لموجة عارمة من التقدم بلغت ذروة كان من المقرر

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

لها أن تبلغها ، إلا أن هذه الصورة لا تعدو كونها غائية بحتة إذ أنها تصور (أتاتورك) على أنه متميز ليس في أنه استطاع تخطي المصاعب وعبور عدد من المسالك الصعبة نحو أهدافه التي خطط لها بعناية ووعي وحسب ، بل لأنه « استوفى متطلبات » فكرة التنوير أيضاً ، اعتقد بأن هذا الحكم يميل إلى السذاجة نوعاً ما ولكن التقويم يعيقنا أيضاً عن وضع أتاتورك في سياق أكثر « سوسيولوجية » . إن الرأي القائل بأن أتاتورك ما هو إلا خادم للتقدم هو رأي مستقى من صورة بدائية عن حتمية التقدم ؛ وهو لا يساعدنا في إيجاد مكان لأتاتورك في الثورات الاجتماعية الأساسية التي هزت العالم في القرون الأربعة الأخيرة والتي ما تزال تهز أركانه بعنف تزداد حدته . ولن يتبدى لنا المعنى الكامل لمساهمة (أتاتورك) ما لم نربط عمله بعمليتين أساسيتين تصنفان التغيرات الكبيرة التي ميزت مجتمع ما بعد الإقطاعية وهما الأنماط الجديدة المتنوعة للاندماج الجماعي ، والأبعاد المتبدلة للنظم الاندماجية الشخصية للفرد .

نظام دمج جديد للجماعة

يعتبر أغلب الكتاب الأتراك والأجانب أن أساس (الجمهورية التركية) هو بمثابة إعادة تنظيم ــ وإن يكن متطرفاً ــ لبقايا الإمبراطورية العثمانية ، والحق أن الحد الفاصل لا يظهر في تطرف مواقف الآباء المؤسسين للجمهورية وحسب بل أيضاً في مفهوم (الجمهورية التركية) كدولة ــ أمة . وما حدث هو أن (مصطفى كمال) تبنى كياناً افتراضياً لا وجود له وهو الأمة التركية ونفخ فيه الحياة . إن هذه القدرة على العمل لأجل شيء لا وجود له وكأنه موجود فعلاً ومن ثم خلقه هي التي تجعلنا ندرك الأبعاد الحقيقية للمشروع الذي بدأه أتاتورك والذي يكشف عن النمط الطوباوي لتفكيره . فلا الأمة التركية كمنبع (للإرادة العامة) ولا الأمة التركية كمصدر للهوية الوطنية كانت موجودة عندما شرع في مهمته . وتميز أتاتورك عن رفاقه الأكثر حذراً بهذه الرؤيا التي يحملها عن المستقبل وبإرادته التي لا تلين لتحقيقها ، كانت كلمتا (الأمة) و (الحضارة الغربية) هما المفتاح الجوهري الذي أمده بالمنطق الخفي وراء مشروعه ، ويفترض موقفه حيال الدين وجود تناغم وانسجام عندما نقومه من هذه الزاوية ، إن التصميم الذي أبداه في سعيه نحو مجتمع مثالي لا يتناقض مع موهبته العظيمة في مسايرة التيار العام والظروف : فالمشروع الذي وطد العزم على تنفيذه هو الذي يعطي معنى لارتداده وتغيير اتجاهه الاستراتيجي من حين لآخر .

إن تتابع الأحداث الذي أدى أخيراً إلى تحويل تركيا إلى العلمانية معروف لا يجهله

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

أحد ولا حاجة لنا إلى سرده بالتفصيل، غير أن هناك سمة متفردة للأسلوب الذي تعامل به مصطفى كمال مع تلك المسألة منذ البداية، توضح لنا موهبته السياسية وتسبر أغوارها وعلينا ألا نتجاهلها كمؤشر ونذير لسياسته العلمانية، فنحن نجد هذا التصور لعبقريته السياسية في استخدامه لمفهوم مجلس النواب الوطني «العظيم» كمصدر للتشريع السياسي لحركة المقاومة. لقد استُثمر السلطان ــ الخليفة ــ نظرياً بسلطته لأنه قائد المجتمع المسلم ــ المجتمع العثماني ــ الذي له اليد الطولى والسلطة الأكثر فعالية في العالم المسلم، وبما أن الشخص الذي كان يحتل منصب السلطان ــ الخليفة ــ هو الآن سجين قوات الحلفاء، لم يعد يمكنه أن يكون سيد نفسه فيما يقول ويفعل. وهكذا ستستعيد (الملّة) ــ وهو مفهوم كان يشير أصلاً إلى التقسيمات الدينية المتعددة في الإمبراطورية ولكنه في هذه الحالة يستخدم للإشارة إلى المجتمع الإسلامي ــ حقوقها كمصدر الشرعية. والحقيقة أن (الملّة) كانت تستخدم منذ نهاية القرن التاسع عشر لترجمة كلمة (nation) أي أمة، لذلك فإن معناها كان غامضاً. وبسبب هذا الغموض أصدرت الهيئة التي كانت مجتمعة في أنقرة كممثل عن مجلس النواب والتي كان فيها عدد لا بأس به من رجال الدين، بند رقم (١) من الدستور المؤقت المقترح عام ١٩٢٠ دون أي اعتراضات (٢٠ كانون الثاني /يناير ١٩٢٠). ويعلن هذا البند أن السلطة في يد (الملة) دون أية تحفظات. وحمل غموض المصطلح رجال الدين إلى الاعتقاد بأن ما سنه هذا البند هو حقوق المجتمع، بينما كان الأمر بالنسبة لأتاتورك هو التحضير لتثبيت سلطة الدولة[١٩]، وقبل مجلس النواب إعادة ترسيخ قواعد الحقوق الأولية للمجتمع الإسلامي، إلا أنه قبل في الآن ذاته أن يتولى المجلس أمور التشريع في الشؤون الدينية والدنيوية على حد سواء في غياب السلطان ــ الخليفة. وضمن (مصطفى كمال) ألا يعود من يحمل مثل هذه الصلاحيات المزدوجة إلى الظهور ثانية أبداً.

تحول نظام أنقرة من تقديم صورة السلطان ــ الخليفة كرهين في سجن الحلفاء إلى إقامة نظام دستوري جديد انتزع السلطة المؤقتة من يد السلطنة وبترها إلى غير رجعة[٢٠]، وأعقب ذلك إلغاء السلطنة في الأول من تشرين الثاني /نوفمبر ١٩٢٢ وإعلان الجمهورية في ٢٩ أكتوبر ١٩٢٣، وأخيراً إعلان القوانين البالغة الأهمية في الثالث من آذار /مارس ١٩٢٤: فقامت هذه السلسلة من القوانين التي أعلنت جميعها في اليوم نفسه إلغاء الخلافة وجعل أمور التربية والتعليم جميعها حكراً للدولة كما ألغت (المدرسة)، كما ستتم إدارة الشؤون الدينية والمؤسسات الدينية من قبل وزراء مرتبطين بمكتب رئيس الوزراء، من الآن فصاعداً، وفي نيسان /أبريل ١٩٢٤ ألغيت المحاكم الدينية، وفي عام ١٩٢٥ اعتبرت الطرق الصوفية

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

ممارسات غير قانونية، وفي ١٩٢٦ تم تبني القانون المدني السويسري وقطعت أواصر الصلة بين الشريعة والقانون الجنائي، وفي ١٩٢٨ أبطل مفعول المادة الدستورية التي كانت ما تزال تنص على أن الإسلام هو دين الدولة، وفي السنة نفسها اعتمدت الألفباء اللاتينية.

وكلما دعت الحاجة لإيجاد سبب منطقي لهذه الخطوات، كان التبرير هو «متطلبات الحضارة المعاصرة»، ويمكن تتبع ذلك في العديد من خطابات (مصطفى كمال) التي ألقاها في العشرينيات من هذا القرن، وسنجد واحدة من أكثر التصريحات اقتضاباً بشأن السبب المنطقي هذا في القوانين التشريعية (النظام الأساسي) لحزب الشعب الجمهوري عام ١٩٣١. لقد حشد النظام الجديد منذ البداية مشجعيه بإقامة حزب سياسي ضمن مجلس النواب الوطني العظيم وهو (حزب الشعب الجمهوري). وتحول هذا الحزب في النهاية إلى المتحدث الشرعي الوحيد بالتصريحات السياسية في الجمهورية والمركز الذي تنضج فيه العقائدية الرسمية للنظام الجمهوري الجديد، ويعلن النظام الأساسي للحزب في ١٩٣١ أنه يدعو لمبدأ «العلمانية» ويحدد كشرط ألا تتدخل الدولة في الحياة الدينية لأن الدين هو «مسألة ضمير»، ويصرح النص بأن «الحزب قد قبل مبدأ أن جميع القوانين والأنظمة والإجراءات المستخدمة في إدارة الدولة يجب أن تعد وتنفذ لاستيفاء حاجات هذا العالم ووفقاً للأسس والصيغ التي يمنحنا إياها العلم والتكنولوجيا في الأزمنة الحديثة»[٢١] وأكد زعماء الحزب فيما بعد على فكرة أنهم لا يعتبرون العلمانية، مرادفاً للزندقة لأن ممارسة الشعائر الدينية أو العبادة أمر يحميه الدستور، وفي عام ١٩٣٧ أدخل مبدأ العلمانية إلى الدستور بالإضافة إلى خمسة مبادئ إرشادية أخرى للحزب وهي: الجمهورية والوطنية والدولية والشعبية والإصلاحية.

إن تاريخ العلمانية في تركيا وتطبيقها هو أمر أشد تعقيداً بالطبع مما توحي به هذه النبذة، إلا أن معنى العلمانية كمشروع يبرز أوضح ما يكون ليس بوصف ممارسته بل بعلاقته بالأهداف الأصلية للنظام الجمهوري، وأحد هذه الأهداف هو الحاجة لإيجاد مبدأ الانسجام الاجتماعي للمجتمع التركي ولابتكار وسيلة لزيادة الوعي الاجتماعي بين الأتراك، وبما أن الإسلام قد عجز عن إشباع هذين المطلبين فقد تم نبذه، وبما أن الإسلام لم يعد يخدم هذه الأغراض فقد أصبح بالفعل مسألة ضمير «شخصي» للأتراك.

وسيضرب وعي الأتراك الجدد جذوره في أعماق العلم (الحضارة الغربية) التي أعاد أتاتورك ذكره مراراً وتكراراً كمصدر لكل المعرفة الصالحة والمسلك المنهجي، إلا أن الأمر لم

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

يكن بهذه البساطة إذ أن (زيادة الوعي الشخصي) كانت ترمي إلى استخراج عدد من الصفات التي يتوقع المرء أن يمتلكها مواطنو الجمهورية الجديدة، فالعلم بحد ذاته لم يكن لديه الحل للمشاكل المتعلقة ببناء الهوية الوطنية، كما أنه لم يتعرض يوماً لمسألة الهوية الاجتماعية وتوجه الفرد نحو المثاليات الاجتماعية.

برز نوعان من الأيديولوجية في نهاية الثلاثينيات كان يتوقع لهما أن يسهما في دعم الهوية الوطنية: ما يدعى (بأطروحة التاريخ التركي) ونظرية «لغة الشمس».

بنيت أطروحة التاريخ التركي، على فكرة أن الأتراك قد أسهموا في بناء الحضارة قبل أن ينضووا تحت لواء الإمبراطورية العثمانية بكثير، إذ أنهم أنشأوا حضارة مدينية في آسيا الوسطى نبعت منها حضارات عديدة أخرى وحافظوا على هويتهم الثقافية حتى عندما أصبحوا أقلية في إمبراطورية تضم جنسيات مختلفة عديدة، وكان ذلك هو المنبع الذي ستستقى منه هوية لمواطني الجمهورية التركية، وقد نالت هذه الأطروحة مأربها إلى حد ما، فقد بدأ الأتراك يشعرون بإحساس جديد بإنجازاتهم كأتراك، وبدأ الاعتزاز بكون المرء تركياً ينمو فعلاً في حين أن كلمة تركي لم يكن يستعملها مواطنو الإمبراطورية العثمانية لخمسين سنة خلت إلا كمرادف للبدوي أو الفلاح.

كانت نظرية «لغة الشمس» محاولة لترشيد تطور طرأ على الأدب العثماني منذ منتصف القرن التاسع عشر، وهو ازدياد استخدام العامية بدلاً من اللغة المنمقة المزخرفة التي كان يستخدمها الموظفون العثمانيون، وكانت العامية تشتمل على بضع كلمات من أصول عربية وفارسية سادت في (الكتابات الرسمية). وكان الاقتراح المطروح هو أن التركية «الصرفة» (أي التركية التي لم تتسلل إليها مفردات وقواعد الحضارات الأخرى في الشرق الأوسط) هي لغة قديمة بالغة الأهمية في تاريخ اللغات، ورغم أن هناك العديد من اللغات الأخرى بنيت على هذا الأساس ويمكن للمرء أن يسترشد بدراسة هذه اللغة التركية القديمة ليتمكن من إصلاح الاستخدام اللغوي، كانت هذه النظرية شائكة ومن الصعب البرهان عليها على ضوء البحث اللغوي؛ ومع ذلك فقد وجدت فرصة محاولة إعادة تركيب التركية «الصرفة» صدىً عميقاً في نفوس العديد من المثقفين الأتراك الذين كرسوا طاقات هائلة لبلوغ هذه الغاية، وأصبح دعم الإصلاح اللغوي يعتبر ذخراً مقدساً كوجهٍ من أوجه التطرف (الكمالي) واستمر هذا الربط العجيب بين نزعة النقاء اللغوي ونزعة التطرف الجمهوري إلى يومنا هذا وتبنته الماركسية، وكان جزءاً من الوسائل المتاحة للأتراك المعاصرين ليبنوا من خلاله هوية تركية خاصة بهم.

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

ولكن لو أمعنا النظر فيما جرى لوجدنا أن أشد الأساسات متانة لبناء هوية جمهورية تركية هي نظرية أخرى أكثر تماسكاً حول المجتمع، أمدت «الكماليين» بأيديولوجية اجتماعية. هذه النظرية هي التضامن، وهي الأيديولوجية الرسمية للجمهورية الفرنسية الثالثة، وصل التنظير التضامني إلى تركيا عبر (دركهايم) Durkheim و (ضياء جوكالب) أحد المعجبين (بدركهايم)، وتستند النظرية إلى الأطروحة القائلة بأنه لا يوجد صراع حتمي بين الطبقات في المجتمع الحديث، والمهم هو الأسلوب الذي تتبعه المؤسسات الاجتماعية ومساهمة جميع الفئات المختصة المهنية لجعل المجتمع محور الاهتمام، ويمكن الحفاظ على توازن المجتمع الصناعي بترويج ونشر خلق اجتماعي يتركز على مساهمة الأفراد والفئات في المجتمع، بالإضافة إلى ذلك قدم التضامن التركي برنامجاً اجتماعياً يرى أن «رأس المال المتراكم عبر تخصيص قيم الفوائد الفائضة لحساب المجتمع» يمكن استثماره في «مؤسسات صناعية ومزارع ضخمة تقام لصالح المجتمع»[٢٢]، وطرح التعليم الذي تلقاه مصطفى كمال عليه نظرية المواطنية المبنية على هذه المبادئ. إن رجال الأعمال ومعلمي المدارس والسياسيين هم القادرون إذا ما عملوا سوية تحت لواء إعادة توزيع الحصص التضامني، على تشكيل الأمة التركية الواحدة، وقد تكون (الكمالية) في السنوات الأخيرة قد أضاعت الكثير من زخم اندفاعاتها إلا أن حلمها بمجتمع لا نزاع فيه وهو في الآن ذاته يعيد توزيع الأرباح فيما بين أفراده، ظل يميز التفكير الاجتماعي التركي، ويبدو هذا النموذج واضحاً أيضاً في انتشار الآمال بين أفراد الشعب المعبأ حديثاً، والصورة ذاتها لذلك المجتمع تعاود الظهور في تفكير المجموعة العسكرية التي حاولت في ١٩٦٠ إعادة إرساء قواعد النظام (الكمالي) «الحق».

تركيا الجديدة والفرد

كلمة «الاستقلال» هي إحدى الكلمات الجوهرية في مفردات (أتاتورك) العقائدية، ولكن هذا التشديد وازنه على مستوى الفرد كلمة «مستقل»[٢٣]. لقد حاولت أن أبين كيف أن محاولة استبدال النظام التقليدي ــ بقضه وقضيضه كما يقال ــ بنظام جديد، ما هي إلا نزعة يلحظها المرء لدى الجيل الذي سبق «أتاتورك»، كما أوضحت بأن سياسات «أتاتورك» في الإصلاح ركزت على بناء هوية اجتماعية جديدة لم يدع للدين مكاناً فيها، إلا أن هناك مظهراً أساسياً آخر للإصلاح العلماني يهدف إلى توسيع أفق استقلالية الفرد في المجتمع، وكان أتاتورك يسعى هنا لتحرير الفرد مما قد يوافق هو على تسميته بـ «غباء

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

الحياة التقليدية التي تسيرها المجموعة » . وللمرة الثانية نجده يتجاوز حدود الإصلاح حسب عرف سياسيي « التنظيمات » . ويمكننا القول على ضوء الدعم الكبير الذي تجده ثقافة المجتمع في تركيا بأن أتاتورك قد أبدى شجاعة في هذا المجال أكبر مما فعله في المجال السياسي .

وأعتقد أن الدافع الذي حثه على المضي نحو هدفه كان أيضاً نتاج التنافر الذي خلقته خلفيته التعليمية ، وقد اتخذ هذا التنافر شكل الامتعاض الشديد من أشكال التحكم الاجتماعي الذي نجم عن الثقافة الشعبية العثمانية ، وعلينا أولاً أن نبحث في تأثير الأفكار السياسية والاجتماعية الغربية على (أتاتورك) لكي نفهم سبب استخدامي لنموذج تفسيري .

سافر أتاتورك إلى خارج الإمبراطورية العثمانية ثلاث مرات ، مرة لشهود مناورات عسكرية في فرنسا ، وأخرى كملحق عسكري في صوفيا ، وثالثة خلال الحرب العالمية الأولى إلى ألمانيا ، إلا أن معرفته بأوروبا لم تقتصر على تلك الأسفار ، بل كانت مستقاة بشكل رئيسي من الصحافة التركية التي بقيت على صلة وثيقة بالأحداث العالمية وكانت تتبع التطورات العلمية والثقافية ، كما توفر له عدد محدود من ترجمات أعمال أشخاص كانوا منظري السياسة في ذلك العهد ، وكان أتاتورك يقرأ الفرنسية ويفهمها جيداً ، ونجد في مكتبته ، المحفوظة قرب ضريحه ، أعمال مفكرين مثل (روسو) تحتل مكاناً بارزاً وبعض الكتب الأخرى الأقل أهمية إلا أنها تعود إلى السنوات الأخيرة من حياته ، وهناك إجماع على أن أتاتورك كان مطلعاً على النظم السياسية الغربية في الوقت الذي أجرى فيه إصلاحاته العلمانية الأساسية ، إلا أنه كان أيضاً معتمداً على معلومات تلقاها من زملائه (مثل وزير العدل « محمود عزت بوزكرت ») الذي درس في الخارج .

كيف يمكن إذاً للمرء أن يفسر الثبات والتماسك اللذين تميزت بهما إصلاحات أتاتورك العلمانية ؟ ما الذي يجعلنا نحس بأن هناك منهجاً خفياً يوحد بينهما ؟ لماذا يشعر المرء بهذا الشعور تحديداً عندما يتعلق الأمر بإصلاحاته التي تناولت الطرق الصوفية ، وحقوق المرأة ، وفرض العلمانية على الزي ، وتحكم الدولة بالتعليم ؟

وهنا أود أن أطرح فرضية بأن هذه الإصلاحات العلمانية مرتبطة بالقاسم المشترك الخفي الذي هو تحرير الفرد من القيود الجماعية للمجتمع الإسلامي ، ولنتمكن من فهم ذلك علينا أن ننظر إلى أصغر وحدة عاملة في المجتمع في الإمبراطورية العثمانية وهي حي المدينة أو (المحله mahalle) . كانت (المحلة) في تلك الأيام أكثر من وحدة إدارية بحدود مرسومة عشوائياً إلى حد ما ، وكانت أشبه بجماعة gemeinschaft تحرس حدودها كلاب شرسة مخلصة ومكاناً تدور فيه معظم مجريات الحياة اليومية للمواطن العثماني العادي ، ففي

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

ذلك الحي يتلقى الطلبة تعليمهم، ويحتفل الأهالي بالمواليد، وتنعقد ترتيبات الزواج، وتقام مراسيم الدفن الأخيرة للأموات، وفي ذلك الحي أيضاً يقوم الجامع بدور المؤسسة الاجتماعية فيجمع كل السكان لسماع ما ينتظر منهم، وكانت سلطة رب الأسرة تمارس وتدعم ضمن بيئة (المحلة) هذه، وفيها أيضاً كانت أموال الدية تدفع، وتشق المؤسسة الإسلامية التي تصون الأخلاق طريقها لمداهمة حفلات شرب الكحول ومعاقل القمار وتنظم مجموعات تجوب المكان لتفاجئ العشاق اللاهين، وفي ذلك الحي أيضاً قام المقهى ـــ مركز اجتماع الأهالي ـــ وألصق الإمام أول طابع على عريضة ستقدم إلى السلطات العليا، وحيث يزور الناس أضرحة الأولياء المحليين ويوزع الأتقياء الصالحون الأحياء عدالتهم ونفوذهم. وأنظمة «المحلة» أنظمة مرنة للغاية، إلا أن هذه المرونة تمارس تحت قناع من اللياقة والذوق؛ ولكنها بقيت متصلبة لا تتهاون في مسألة الاختلاط العلني بين الجنسين، وتتميز إصلاحات أتاتورك بأن لها جانباً حاول استبدال الروابط الشخصية والنفاق الذي ساد ضبط الأخلاق في (المحلة) عبر مجموعة من الأنظمة حاولت تحاشي فرض التحكم بنظام من الأحكام التي تمنح الفرد مسؤولية أعماله.

إن تصميم أتاتورك على انتزاع الفرد من قبضة تحكم المجموع ناشيء في الأصل عن نظام التعليم الجديد أيضاً، فعادات المحلة وقوانينها لم تكن لتثير سخط من عاش فيها كل حياته، إلا أنه بالنسبة للطلبة الذين قضوا معظم وقتهم في المدرسة كطلاب داخليين أصبح مدراء المدرسة أكثر أهمية من (المحلة)، ولكن مدراء المدرسة كانوا يؤكدون على نمط مختلف تماماً من التحكم؛ وتغلب منطق البيروقراطية وأصبح الهدف المبتغى هو إعادة الحياة إلى عروق الإمبراطورية التي أضحت الآن معتمدة على فضائل جديدة، ففضائل (المحلة) كانت تتعلق بالحفاظ على جماعات صغيرة، ولم تعد تجدي في بناء الأمة ـــ الدولة. واستعيض عن أخلاق الدين بالنظم الفكرية والعسكرية وبرزت الأخلاقيات الإسلامية والتعليمات المتعلقة بصالح المجتمع كقيود لا مبرر لها ولا هدف سوى قمع الشخصية والقضاء عليها.

لم تكن البيئة المدرسية هي الموقع الوحيد الذي يحط من قيمة تحكم المجموع ومن القيم المعينة التي تصاحب هذا التحكم، فالنيل من (المحلة) كان عملية مستمرة لعب فيها ظهور طرق جديدة في الفكر حول المجتمع ودوره أيضاً. وكانت إحدى الطرق غير المباشرة في الحط من قيمة الروح الشعبية السائدة في (المحلة) هي التركيز الجديد على ولاء المواطن والمجتمع (الجمعية البشرية) الذي بدأ يظهر في كتابات المفكرين المحدثين، وهو مفهوم مختلف عن

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

مفهوم (الدولة) في أنه يعتمد عدداً من العمليات الاجتماعية التي لا تندرج تحت عنوان السياسة أو السلطة أو الإكراه أو الحكم أو السيادة والتي هي مكونات أولية لمفهوم (الدولة)، وكانت الأسرة والفرد ــ اللذان يخضعان لتحكم (المحلة) ــ وحدات فرعية تنضوي تحت مفهوم (المجتمع)، والأشخاص الذين يهدفون إلى إصلاح (المجتمع) يريدون أيضاً إصلاح (الأسرة)، ويقوم (المجتمع) على أساس التبادل الحر للسلع والخدمات لذلك فهو يدين مباشرة العبودية المنزلية، في حين أن (المحلة) كانت تتقبل العبودية المنزلية كحقيقة من حقائق الحياة، ويستند المجتمع إلى التعاقد بينما تقوم (المحلة) على أسس نسبة الأشياء إلى الأشخاص، وهكذا بدأت (المحلة) تبدو كمستودع للقيم التقليدية التي تقف عثرة في وجه تنامي الشخصية الإنسانية.

وفي الوقت نفسه بدأ نوع من الرفض للباس المميز (للمحلة) بالظهور؛ فنجد (بيروز بيه Bihruz Bey) وهو بطل مغرق في ميوله الغربية في إحدى الروايات التركية القديمة، يتمشى في الحديقة العامة فيرى أبناء بلده من الطبقات الأدنى بسراويلهم الفضفاضة فيتذمر قائلاً:

«Qu 'est—ce que c'est que ça? Est—ce que le carnaval est arrivé» «ما هذا؟ هل بدأت مهرجانات الكرنفال؟».

إلا أن هذا النفور المستحكم من الثقافة الشعبية الذي أخذ يشتد يبدو واضحاً في أسلوب تعبير الكاتب (يعقوب قدري قره عثمان أوغلو) (Yakup Kadri Karaosmanoglu) الذي سينضم فيما بعد إلى (مصطفى كمال) في أنقرة، وتسرد إحدى قصص يعقوب قدري حكاية تركي مقلد للغربيين ضربه قبضايات (المحلة) ضرباً مبرحاً لأنه تجرأ ولبس قبعة، ويصف الكاتب في إحدى المناسبات قمع الثقافة الشعبية كما يلي:

> «في هذا الجو الخانق الذي لا تهتز ذرة من ذراته لصوت لحن، وفي هذه الساحات التي لا تزدان أي منها بتمثال، وفي هذه الشوارع حيث نخوض يومياً في الأوحال والغبار، وفي وجوه هؤلاء الناس الذين تصم آذانهم عن سماع كل ما هو دمث لطيف، وتعمي أعينهم عن رؤية أي جمال، الذين يجلسون القرفصاء في المساء في المقاهي بمناماتهم المطبوعة الملونة ويصغون إلى صوت الجرامافون يتقيأ نغمات رقصات هز البطون، في ذلك أجد بذور اعتلالهم».

كانت شكوى يعقوب قدري تتلخص في أن الروح الشعبية والمناخ الفكري في

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

(المحلة) يقضيان على الإبداع في الكتاب الأتراك، ويبدو أن أتاتورك قد عقد الصلة نفسها بين (المحلة) كخليط من الثقافة الإسلامية والشعبية والافتقار إلى الإبداع، وكان أتاتورك يعتقد اعتقاداً جازماً بأن السراويل الفضفاضة والطرابيش هي جزء من كرنفال استعراضي، ولم يقتصر الأمر على خدش إحساسه الجمالي فقط بل كانت هذه الملابس ترمز إلى القلعة الحصينة للثقافة الشعبية حيث يتعين على التشريعات النهائية أن تستمد من القيم الدينية وحيث ينحط من جراء ذلك قدر الإنسان والدين على حد سواء ويعيث فيهما الفساد، أما المجتمعات الغربية التي تستقي تشريعاتها من العلم فإنها تبقى أكثر انفتاحاً وبذلك أكثر إبداعاً. لذلك فإن الحل الوحيد هو مجموعة من الأحكام التي من شأنها تمكين الفرد من النجاة بنفسه من قبضة القيم الشعبية وبهذا تشجع الإبداع الخلاق لديه، وابتكر أتاتورك سياستين لبلوغ هذه الغاية: أولاهما إجراءاته العلمانية حيث ينصب الاهتمام على تدمير التحكم، وثانيهما برنامجه إدخال الثقافة الغربية إلى الجمهورية.

الفرد في إصلاحات أتاتورك العلمانية

إن أول ما يطالعنا في محاولة (مصطفى كمال) لتحرير الفرد من تقاليد المجتمع هو القانون الصادر في الثالث من مارس /آذار ١٩٢٤ حول «توحيد التعليم»، فلم يكتف هذا القانون بانتزاع التعليم نهائياً من يد «العلماء» بل فتح أبواب التعليم المختلط فجمع الجنسين في خطوة جديدة من التعليم في المدارس إلى ما يتبعه في الجامعات، والحق أن اندفاعة (أتاتورك) لتثبيت حقوق المرأة قد يفهم على أنه جهد مركز لتحطيم ما كان يبدو له من أشد مظاهر الروح الشعبية (للمحلة) ضغطاً وتخلفاً ألا وهو القيود التي تفرضها على الاحتكاك بين الرجال والنساء في الحياة اليومية الروتينية، وقد أُحدثت تغيرات واسعة عند تبني القانون المدني السويسري تتعلق بتغيير المكانة القانونية للمرأة، كان من بين هذه التغيرات الزواج بزوجة واحدة لا غير والمساواة بين الرجال والنساء في الميراث، وعدد من الشروط المتعلقة بإدارة الممتلكات، وتبع ذلك في ١٩٣٠ منح المرأة حق الانتخاب وحق ترشيح نفسها في الانتخابات المحلية (قانون البلدية الصادر في ١٤ أبريل /نيسان ١٩٣٠)[٢٤] وكذلك حق ترشيح نفسها في الانتخابات الوطنية عام ١٩٣٤.

أسهمت تصريحات أتاتورك المستمرة بشأن عمل المرأة جنباً إلى جنب مع الرجل في الجمهورية التركية في خلق مناخ مكن العديد من النساء التركيات اللواتي تلقين تعليماً، من

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

دخول الحياة المهنية ، ونتيجة لذلك فإن في تركيا اليوم نسبة تحسد عليها من النساء اللواتي يشغلن الكوادر المهنية فيها ، وأعقب ذلك « إزاحة النقاب » الذي لم يصدر به قرار فعلي .

ويعود موقف أتاتورك حيال الطرق الصوفية إلى هجومه ضد الجماعة «gemeinschaft» الخانقة ، وعندما يقرأ المرء قانون ١٩٢٥ الذي يلغي هذه الطرق يبدو واضحاً أن أتاتورك كان قد عقد العزم على كف يد الزعماء المحليين ذوي التأثير السحري الذين كانوا إما وجهاء يتمتعون بسلطة سياسية محلية أو لهم مظهر الشخصيات الماكرة الجاهلة التي تستغل الطبقات الأدنى ، وسيتولى زمام حكم الأتراك في المستقبل أناس يؤمنون بما يمليه عليهم العلم وليس الشيوخ الفاسدون ولا يحدد معالم شخصيتهم مجلس معلمين من رجال الدين بل مدى انغماسهم في الثقافة الغربية .

أتاتورك والثقافة الغربية

قام أتاتورك بالإشراف على حركة إدخال الثقافة الغربية التي كان يعتبرها مرادفاً للحضارة ، وذلك كي يمنح المواطنين الأتراك رؤيا جديدة عن العالم الذي سيحل محل الدين والثقافة الدينية ، واستخدمت الألفباء اللاتينية إلى حد ما لتسهيل الاطلاع على الأعمال الصادرة باللغات الغربية ، ومنع عزف الموسيقى الشرقية في الأماكن العامة ، لفترة محدودة ، وتم إنشاء معهد عالٍ للموسيقى في أنقرة تعلم فيه فنون الأوبرا والباليه والموسيقى الغربية المتعددة الأصوات ، وشجعت الحكومة الرسم على الطراز الغربي وقدمت إعانات للمساهمة في نشر عدد من الدوريات الثقافية تقدم ما ينتجه فن الرسم التركي الحديث ، وفي عام ١٩٢٦ أزيح الستار عن تمثال لكمال أتاتورك في استنبول : وكان ذلك يتطلب جرأة فائقة في بلد يحرم إعادة تصوير الجسد البشري ، وتنتشر التماثيل الآن في كل أنحاء تركيا ، وأنقذت الثقافة الشعبية من الاندثار بجعلها مادة تدرس في « بيوت الشعب » (وهي مراكز عامة تأسست في الثلاثينيات من هذا القرن بهدف ترويج الثقافة في قالب غربي) وبإدخال مواضيعها في المواد التي تدرس هناك : وهكذا استعادت الثقافة التركية مكانتها البارزة بعد أن أزيل غلافها الخارجي الإسلامي كما كان في (المحلة) . وعلى الرغم من أن تجربة « أوربة » الثقافة التركية قد لاقت إجمالاً نجاحاً منقطع النظير في الثلاثينيات علينا أن نقف هنا بالذات لندع لشيءٍ من التشاؤم أن يأخذ مكانه .

ففي السنوات التي أعقبت وفاة أتاتورك وخاصة بعد تأسيس الديمقراطية المتعددة

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

الأحزاب في ١٩٥٠ ، واجهت العلمانية تحدياً من فئات متعددة ، والحق أن هذا المبدأ قد مد جذوره عميقاً وأصبح من المحال اقتلاعه من الممارسة الدستورية التركية ، وحتى (الحزب الديمقراطي) الذي اتهم مراراً بتقويضه لدعائم العلمانية أبقى على ذلك المبدأ في أنظمته ، ومع ذلك فإن التدخل العسكري في ١٩٦٠ كان إلى حد ما مدفوعاً بالتخوف من أن ذلك الحزب يقوم بتشجيع الظلامية الدينية التي تشكل خطراً على الأسس الدستورية للجمهورية ، ولم تنحسر التيارات الدينية منذ عام ١٩٦٠ بل قويت شوكتها ، إلا أن مبدأ العلمانية الدستوري الذي تؤمن به شريحة كبيرة من المثقفين الأتراك ما يزال أساس القانون الدستوري التركي ، فما الذي انتاب تركيا إذاً ؟ وما هو معنى فيض المنشورات الإسلامية وانبعاث الطرق الصوفية من جديد وتزايد عدد الطوائف الجديدة وصعود نجم الحزب الديني في البرلمان ، والشوارع الصامتة الساكنة خلال شهر رمضان ؟

هناك أولاً بيئة اجتماعية لانبعاث الإسلام ، وجزء من هذه البيئة هو ديمغرافي : فسكان تركيا يتزايدون بسرعة هائلة مع تواجد مجموعات عديدة من المراهقين المتعطشين للعقائدية ، ويتنافس الإسلام في هذا المضمار مع الماركسية ، ولكن العامل الأهم من العامل الديمغرافي هو « التنقلات الاجتماعية » أي مقدرة نسبة أكبر بكثير من السكان الأتراك على تغيير بيئتهم للزج بأنفسهم في أدوار أخرى — وذلك بتأثير أجهزة الإعلام — ويترافق ذلك مع بتر الجذور التقليدية الذي يخلف فراغاً لابدّ من ملئه ، وفي مثل هذا الوضع تبدأ بعض جوانب القصور في التجربة الكمالية بالظهور .

تركزت أفكار مصطفى كمال حول المجتمع الذي تخيله ينهض من بين أنقاض الإمبراطورية العثمانية ، على الجماعية واستمدت قوتها من ذلك المبدأ ، كما تركزت أفكاره على تحرر الفرد من ربقة « الجماعة » الخانقة التي يمارسها المجتمع الإسلامي ، إلا أن تنمية « وعي جماعي » والتحرر من التأثيرات الجانبية لم يكونا سوى جانبين اثنين فقط مما أراد مصطفى كمال تحقيقه فعلاً وهو صياغة هوية جديدة للأتراك ، ولكي تتبلور هذه الهوية حول الرموز الجديدة للجمهورية ، على هذه الأخيرة أن تملك جهازاً « حساساً » له القدرة على « إثارة المشاعر »[٢٥] .

وما نلاحظه هو أن رموز (الكمالية) اتخذت هذا الدور بالنسبة لعدد محدود فقط من الأتراك ، ولكن الكمالية أيضاً لم تفهم الدور الذي لعبه الإسلام بالنسبة للأتراك في بناء هويتهم الشخصية ، فالإسلام في الواقع يملك جانباً يخاطب الإنسان الكائن على هذه الأرض وإحساسه الوجودي بعدم الأمان مما يمكن الإسلام من التغلغل إلى النفوس عبر النزعات

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

النفسية . إنها لحقيقة بدهية ــ ولكنها تستحق الوقوف عندها ــ أن الإسلام قد أصبح أقوى شوكة في تركيا لأن التنقلات الاجتماعية لم تنقص بل زادت من حدة الشعور بعدم الأمان لدى الناس الذين انتزعوا من بيئتهم التقليدية ، ويأخذ هذا الشعور بالتغلغل صيغة « إدراكية » أحياناً ويتبدى كبحث عن زعامة سياسية مقنعة أو نظام اقتصادي مزدهر سخي ، ويأخذ الإسلام هنا هيئة أيديولوجية وينافس الماركسية ، وفي العديد من الحالات يكون الشعور بعدم الأمان أعمق غوراً وأشد التصاقاً بوجودية الإنسان ويظهر الإسلام في كونه يبحث في أصل الكون ويؤمن بيوم البعث وحساب يوم القيامة .

إن دبيب الحياة من جديد في عروق الإسلام في تركيا الحديثة هو أمر معقد للغاية يتصل جزء منه بالمستوى الشخصي وجزء آخر يتصل بمحاولة إرجاع المجد القديم للإسلام بكل عظمته ، وجزء منه سياسي . ومن المؤسف أن الفلسفة الوضعية التي تعنى بالظواهر اليقينية وحسب لعبت دوراً كبيراً في إنضاج (الكمالية) لم تشأ في نسختها التركية أن تتذكر تحذير أوغوست كومت Auguste Comtes : إن الإنسانية تحل محل الإله دون أن تنسى أبداً خدماته المؤقتة[٢٦] .

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

ملاحظات

١ — Halil Inalcik, The Ottoman Empire X: the Classical Age 1300-1600, London, Weidenfeld and Nicolson, 1973, 34.

٢ — Faik Resit Unat, Turkiye'de Egitim Sisteminin Gelismesine Tarihi bir Bakis, Ankara, Milli Atim Basimevi, 1964, 19.

٣ — ibid., 38.

٤ — ibid., 45.

٥ — ibid., 14.

٦ — ibid., 65.

٧ — Niyazi Berkes, The Development of Secul arism in Turkey, Montreal, McGill University Press, 1964, 185.

٨ — Niyazi Berkes, Turkiyede Cagddaslasma Istanbul. Dogu-Batl Yayinlari, 1978, 234.

٩ — Abdurrahman Seref, Tarih Konosmalri, 1923; ed. Esref Esrefoglu, 1978. Istanbul, Kavram Yayinlari, 158-9.

١٠ — ibid., 160.

١١ — Ahmed Ihsan (Tokgoz), Mathuat Hatiralarim I 1888-1923. I. Mesrutiyetin. Ilamnina Kadar 1889-1998, Istanbul, Ahmet Ihsan, 1930, 28-30.

١٢ — Roderic H. Davison, Reform in the Ottoman Empire 1856-1876. Princeton University Press, 1963, 13-14.

١٣ — op. cit., 125 ff.

١٤ — M. A. Griffiths, «The Reorganization of the Ottoman Army under Abdulhamid II, 1880-1897», unpublished Ph. D. dissertation, University of California. Los Angeles. 1966. 94.

١٥ — Erving Goffman, Asyiums. London. Pelican Books, (1968) 1978. 17.

١٦ — Bernard Lewis, The Emergence of Modern Turkey, 2end edn, London. Oxford University Press. X 1968, 236.

١٧ — Berkes, Turkiyede Cagdaslasma. op. cit., 435.

١٨ — ibid., 451.

١٩ — ibid., 493.

٢٠ — G. Jaschke, Turkiye'de Islam (transl. H. Ors). Ankara, Bilgi, Yayinevi. 20.

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

٢١ — ibid., 96.

٢٢ — Niyazi Berkes (ed.), Turkish Nationalism and Western Civilization: Selected Essay of Ziya Gokalp, London, Geo. Allen and Unwin, 1959. 312.

٢٣ — For a text, see S. S. Aydemir, Tek Adam : Mustafa Kemal, vol. 3, Istanbul, Remzi Kitabevi, 1966, 473.

٢٤ — B. N. Sehsuvaroglu, «Atatürk Ilkeleri Isiginda ve Bugünku Türkive'de Kadin Haklari' in Atatürk Devrimlevi I. Milletlerarast Sempozyumu Bildirileri, 1974, 422.

٢٥ — Victor Turner, The Forest of Symbols, Ithaca, NY, Cornell University Press, 28.

٢٦ — Auguste Comte, Catechisme Postiviste, 2 edn, Paris, 1874, 378.

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

من العثمانية إلى العروبة

أصول إيديولوجية

C. ERNEST DAWN إرنست دون

أصبح المذهب الذي يقول بأن العرب أمة واحدة وأن هذه القومية أساس جميع السياسات مقبولاً منذ عام ١٩١٨ من الأكثرية العظمى من القادة السياسيين العرب ومن المثقفين العلمانيين على الأقل، وكان اعتناق أناس هم في معظمهم من المسلمين لهذا المذهب تطوراً ذا دلالة ثورية إذ أن المسلمين ظلوا قروناً ينظرون إلى الدولة من وجهة دينية وسلالة حاكمة، وقد أَلِف المسلمون وجود شعوب متميزة أو أمم منذ أيام النبي محمد والحق أن الإسلام منذ القرن الأول أو حول ذلك كان دين الأمة العربية الغالب، ولكي يصبح المرء مسلماً كان عليه أن يرتبط بالأمة العربية كشخص تابع لها. وقد برهن هذا النظام على أنه غير عملي، وأصبح الإسلام في النهاية على كل حال الرابطة العليا التي حلت محل القومية[١].

توجد الدولة في النظرية الإسلامية لإقامة الشريعة وهي القانون الذي شرعه الله للناس عبْر رسوله محمد، وتتضمن في أصلها أن المسلمين كافة يشكلون جماعة دينية عليها أن تنضوي تحت حكم ملك واحد هو الخليفة أي من يخلف النبي محمداً الذي كان أول خليفة لله على الأرض في ظل الإسلام وبعد بضعة قرون ضاقت فيها الأحداث الجارية عن استيعاب النظرية تمزقت الخلافة تاركة لسلالاتٍ حاكمة متعددة أو سلاطين أن يحكموا المسلمين.

إن الشريعة تبقى من الناحية النظرية قادرة على إضفاء الوحدة على جماعة المسلمين كافة، وكل حاكم يُعلي من شأنها يكون حاكماً شرعياً بصرف النظر عن الوسيلة التي أوصلته إلى السلطة.

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

وكانت تلك حال الإمبراطورية العثمانية (نظرياً) وهي الدولة الحاكمة في معظم الأراضي العربية بعد عام ١٥١٧، وقد تقبّل عرب جنوب غرب آسيا ومصر حكم الأتراك العثمانيين، اسمياً على الأقل، طوال أربعة قرون إلا أن نهاية القرن التاسع عشر شهدت قلةً من العرب العثمانيين المثقفين ينشرون نظريات تنكر حق الأتراك في حكم العرب وأوجد هؤلاء المثقفون أيديولوجية جديدة هي العروبة وقدموها على أنها حل للمشاكل الراهنة، ويمكن للمرء أن يفترض ببساطة أن الوجدان العربي القديم أخذ يجدد نفسه، وأن هؤلاء العرب يحذون حذو أسلافهم في تأكيد أوليّة قوميتهم، إلا أن هذه الفرضية على كل حال لا تجيب على سؤال عن سبب انبعاث الحياة في الوجدان القومي العربي بعد هجعة ألف عام.

اضطرم الاهتمام بالقومية كمبدأ سياسي بين الشعوب الإسلامية بسبب احتكاكها بالغرب، وبدأ نفر من العرب العثمانيين وعرب مصر ممن أقاموا في أوروبا منذ نهاية القرن التاسع عشر، يدركون الأفكار الأوروبية حول الوطن والأمة، وعند منتصف القرن العشرين كانت التعابير الدالة على هذه المفاهيم وما يتصل بها موجودة في كل من اللغتين العربية والتركية[٢] وكان من أكثر الأشخاص تأثيراً في نشر هذه الأفكار الجديدة مصري هو رفاعة رافع الطهطاوي الذي أمضى في فرنسا سنوات ١٨٢٦ ــ ٣١ ووصف تجربته في كتاب تم نشره عام ١٨٣٤ وقد لقي كتابه ترحيباً وحظي بشعبية كبيرة بين العرب والترك وأعيد طبعه عام ١٨٤٨ وكانت قد ظهرت ترجمة تركية له عام ١٨٤٠[٣] وتتضح أهمية الأفكار الأوروبية في حفز تفكير أولئك الرجال من اهتمامهم بفكرة الوطنية، وكان حب المرء للبلد الذي ولد فيه أو حبه لوطنه فضيلة راسخة بين المسلمين ولكنهم لم يُضفوا عليها مدلولاً سياسياً، كما أنهم لم يقرنوا القومية بالإقليمية أما الطهطاوي ومعاصروه فقد فعلوا، فهو يتحدث مراراً عن الأمم والبلدان ويوضح بجلاء أن الأمة محدودة بشكل صميمي ببلد معين وفي رأيه أن مصر بلد وأن المصريين أمة يتوجب عليهم حب وطنهم الأم[٤] وبعد عودته إلى مصر ومن خلال عمله الطويل في التثقيف والتأليف أدخل هذه المفاهيم إلى الشعْر بصورة لا لبس فيها.

ولم يكن الطهطاوي ولا نظراؤه الأتراك في أوائل القرن التاسع عشر مجرد مقلّدين أو ناسخين من هواة التقليد، ولم تكن المفاهيم الأوروبية قابلة بالضرورة للتطبيق على الحالة العثمانية، والحق أن رجالاً مختلفين طبقوا الفكرة العامة بطرق شتّى، ففي حين تحدث الطهطاوي عن الوطنية المصرية كان المصلحون العثمانيون يبحثون عن خلق شعور بالوطنية العثمانية[٦] ولم يتعمق أي من هؤلاء الرجال في النظريات الأوروبية القومية، بل قبلوا دون سؤال الدولة الإسلامية التقليدية وسلالتها الحاكمة، ومزجوا المفاهيم الجديدة بكلمات

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

عربية ــ تركية سبق لها أن استخدمت طويلاً في العربية والتركية بمعانٍ لا تبتعد كثيراً عن دلالاتها الجديدة[٧] .

ولا ريب أن الاحتكاك بالطرق الغربية ليس ضماناً لأن يقلد الناس تلك الطرق ، وفي بداية القرن التاسع عشر كان لشعوب الإمبراطورية العثمانية تاريخ طويل من الاحتكاك الوثيق بأوروبا ظهر بعده أنه ليس لدى هذه الشعوب رغبة في تقليد العادات الفرنجية . بل إن معظم العثمانيين كانوا حتى في بداية القرن العشرين ينظرون عوضاً عن ذلك إلى الأساليب الفرنجية نظرة اشمئزاز[٨] . كان العثمانيون كمسلمين مخلصين ينظرون إلى محمد على أنه خاتم النبيين وأكملهم وهو خير المرسلين الذي بعثه الله إلى الناس ليبلغهم مشيئته ، ويتضمن الوحي المحمدي كل ما يحتاج المرء إلى معرفته في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، والشريعة الإسلامية / أو القانون / كاملة ولا تقبل التبديل ، والمسلمون إذن هم خير الشعوب ولا حاجة بهم إلى التعلم من الكفار .

إلا أن الطهطاوي وإصلاحيي « التنظيمات » العثمانيين وعلى الرغم من تشبعهم بالثقافة الإسلامية التقليدية العثمانية ، كانوا متأثرين بالوطنية الأوروبية وحاولوا تطبيق هذا المفهوم على بلدانهم وعندما لاحظ الترك حمية الفرنسيين الوطنية في المعارك وإخلاصهم للدولة الفرنسية أيقنوا بلا ريب بجدوى مثل هذه الوطنية للدولة العثمانية وكانوا في الغالب يشاطرون الطهطاوي شعوره الذي عبر عنه بجلاء عندما عزا التقدم الكبير والرفاهية الفرنسية إلى الروح الوطنية . وقد سجل وهو يصف عجائب باريس أنه « لولا علم الفلك [أي العلم] لدى شعب باريس ، وحكمته وإنجازاته وإدارته الحسنة وعنايته بمصالح بلاده لولا ذلك كله لكانت مدينتهم لا تساوي شيئاً على الإطلاق » ويمضي في وصف جهودهم فيقول : « إذا انتبهت مصر وطبقت وسائل الحضارة بحذافيرها هناك فهي ستصبح حينئذ سلطان المدن ورئيسة بلدان العالم » ثم يتمثل الطهطاوي بقصيدة وطنية طويلة عن مصر لعلها أول قصيدة من هذا النمط الجديد في لغات الشرق الأوسط[٩] كانت النزعة الوطنية في نظر رجال مثل الطهطاوي ونظرائه الأتراك في مطلع القرن التاسع عشر مجرد عنصر آخر من عناصر الحضارة الفرنجية ، يبدو أنه نافع للمسلمين وكان أولئك الرجال واعين بدقة أن الشرق يمكنه أن يتعلم شيئاً ما من الغرب ، ولكي نفهم ما الذي كانت تعنيه الوطنية والقومية عندهم وعند من تلاهم ، وما هي القيمة التي اعتقدوا أن على سكان الإمبراطورية العثمانية أن يأخذوا بها ، يجب علينا أن نفهم وجهات نظرهم حول قيمة الغرب بالنسبة للإسلام .

اهتزت الرؤية العثمانية التقليدية لأوروبا بسبب الهزائم العسكرية المتلاحقة التي لحقت

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

بالعثمانيين خلال القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر وأيقظت الحملة العسكرية الفرنسية على مصر وعي العثمانيين للتقدم الأوروبي، وكان من الطبيعي أن يدرك المسؤولون في الدولة العثمانية بوضوح أهمية الاقتباس من الغرب في سبيل الدفاع عن الإمبراطورية كما كان طبيعياً أن يرى هؤلاء الأشخاص أنفسهم أن أوضاعهم الشخصية داخل الإمبراطورية يمكن أن يدعمها استخدام تقنيات الغرب، وهكذا بدأ رجال الدولة العثمانيون ومحمد علي حاكم مصر العام بتنفيذ إصلاحات إدارية وعسكرية وكان على الأتراك والمصريين أن يرسلوا أعداداً متزايدة باطراد إلى أوروبا في سبيل تنفيذها.

وفي أوروبا ازداد وعي هؤلاء الشباب حدة بالفوارق بين الشرق والغرب وكانت النتيجة أن أضيف إلى تفكيرهم عنصر جديد، إذْ من خلال وعيهم لتقدم الغرب بدأت لديهم الرغبة في تقدم بلدانهم من أجل مصلحتها الخاصة وليس لمجرد الدفاع عن الإمبراطورية ضد مجيء المسيحيين، وإلى هذا الجيل الثاني من العثمانيين المستغربين ينتمي الطهطاوي وإصلاحيو «التنظيمات» العثمانيون من أمثال رشيد وعلي وفؤاد.

لم تكن الأكثرية العظمى من الشعوب العثمانية ترى حاجة إلى تقليد الغرب، إذ كان في إسلام آبائهم كفاية جيدة لهم، وظل القسم الأكبر من المسلمين العثمانيين محافظين لاهوتياً وثقافياً، وقد مرت الإصلاحات المبكرة عبر التدابير القاسية التي اتخذها الحكام ضد المقاومة العنيدة التي أبدتها المصالح المكتسبة والنزعة الإسلامية المحافظة وخلقت الوضعية الجديدة اضطراباً عميقاً في عقول المسلمين العثمانيين وهو عمق تدل عليه الحقيقة التي تقول بأن المستغربين العثمانيين الأوائل بمن فيهم جماعة فترة التنظيمات كانوا في المنظور الأساسي محافظين مثلهم مثل الأكثرية التي تقف ضد الغرب.

كان الطهطاوي وإصلاحيو التنظيمات يعلمون أن الغرب قد تجاوز الشرق في بعض النواحي وكانوا يشعرون في الوقت ذاته أن الإسلام وطريقة العيش العثمانية سليمان في الأساس، وكانوا يظنون أن كل ما تمس الحاجة إليه هو اقتباس بعض الأمور من الغرب وبذلك يمكن ردم الفجوة[١٠] وقد كتب الطهطاوي «في زمن الخلفاء كنا أكثر كمالاً من سائر البلدان لأن الخلفاء اعتادوا تولية العلماء ومعلمي الحرف إلخ. لكن المسلمين انحدروا بعدئذ وتقدم الفرنجة[١١] وقال: «لقد وصلت بلاد الفرنجة إلى أعلى مراحل التفوق في مجال الرياضيات والعلوم الطبيعية والفيزيائية..» وكان الطهطاوي يؤمن من جهة أخرى بأن الإسلام لا يزال صحيحاً ومتفوقاً على المسيحية إلى حد بعيد، وكتب أيضاً «إن الفرنجة مع كل تقدمهم في الفنون والعلوم لم يهتدوا إلى السبيل السوي ولم يتبعوا طريق الخلاص أبداً.

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

تفوقت البلاد الإسلامية في مجال العلوم وتطبيق الشريعة وفي العلوم العقلية وأهملت علوم الحكمة تماماً ... وهكذا فالفرنجة يعتبرون أننا كنا معلميهم في العلوم الأخرى ويسلمون بأسبقيتنا لهم ... » (ص٨) ويرى الطهطاوي أن الله مع المؤمنين وإذا لم يتولّ بعنايته الإسلام بقضاءٍ منه فلن يكون ثمة مجال للمقارنة بقوتهم « الفرنجة » ولا بكثرتهم وغناهم وتفوقهم (ص٩) وهكذا وحيث أن المسلمين « أهملوا علوم الحكمة تماماً فقد احتاجوا إلى البلدان الغربية ليكتسبوا ما ليس لهم به علم » (ص٨) ولا يؤيد الطهطاوي [اقتباس] أي شيء إلا ما لا يتعارض مع نصوص الشريعة المحمدية (ص٥) ويعترف الطهطاوي وإصلاحيو التنظميات الأتراك بضرورة الإصلاح على النمط الغربي ويحتفظون في الوقت ذاته بالاطمئنان الهادئ التقليدي الذي يحس به المسلمون من تفوق الإسلام والثقافة الشرقية تفوقاً أصيلاً على المسيحية وعلى أوروبا وليس محتاجاً إلى إصلاح في الأسس، ويرون أن المسلمين والشرق في خطر وقد خسرا كثيراً من مجدهما وعظمتهما السابقين إلا أنه يمكن علاج هذا الوضع المؤلم ببساطة وذلك باقتباس ما هو ضروري من الحكمة العملية التي يملكها الأوروبيون، إلا أن هذه الثقة المريحة بالنفس ما لبثت أن اهتزت في منتصف القرن التاسع عشر ومنذ ذلك الحين أخذ الموقف يزداد بالتدريج قسوة في نظر المسلمين الفخورين ومرهفي الشعور الذين اطلعوا على بعض ما يجري في العالم، ومع أن الشرق الأدنى أحرز بعض التقدم المادي خلال القرن التاسع عشر (حتى أنه أحرز تقدماً مدهشاً في بعض المناطق) إلا أن الشقة أصبحت بعيدة في منتصف القرن التاسع عشر بينه وبين تقدم أوروبا المذهل، وفي نهاية القرن خلفته هذه وراءها بأشواط. وفي الوقت ذاته كان التقدم الأوروبي قد أصبح جلياً أمام نفرٍ كبير من رعايا الدولة العثمانية مما لم يكن له من قبل نظير. كما أمضى بعض الشبان وقتاً ما في أوروبا واطلع آخرون على ما يجري في العالم خارج الإمبراطورية وذلك بفضل المعلمين الغربيين في الدولة والمدارس التبشيرية وصار من الواضح أن طرق حياة المشركين تجتذب المسلمين وقلدت الطبقات العليا الملابس والمظاهر الفرنجية، كما اقترض الحكام مبالغ كبيرة من المال من الأوروبيين ليصرفوا منها جزءاً على الأقل في تحسينات عامة على الطريقة الفرنسية، وكان أسوأ الأمور في نظر الأصوليين ذلك الجذب الذي مارسته الدراسة في أوروبا وفي مدارس المشركين التبشيرية التي يؤمها الشباب.

كما كان واضحاً أن المشركين ينظرون بازدراء إلى المبادئ والمؤسسات الإسلامية وإلى الدولة العثمانية وكانت المحاكم الأجنبية تعمل خارج نطاق الشريعة وتحابي المسيحي ضد المؤمن وعندما يتورط مسيحي من الرعايا العثمانيين في عمل منافٍ للنظام أو يسلك سلوكاً خيانياً

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

(هكذا كان يعتقد المسلمون العثمانيون) فإن السلطات الأوروبية تمارس ضغطاً وقد تستخدم القوة المسلحة لتضمن له امتيازات خاصة ولتفرض أحياناً أخرى استقلال المسيحيين المتمردين وربما كان الأكثر سوءاً من كل ذلك اتهامات البعثات المسيحية وملاحظات الأوروبيين المهينة حول الحضارة الشرقية، حتى أن الأوروبيين المستشرقين المتعلمين أطلقوا أحكاماً، إذا جردتها من الجمل الملطفة المزوقة، ترتد إلى مثل نظرة اللورد كرومر التي تقول «إن الإسلام إذا ما أُصلح لا يبقى إسلاماً».

وقد حصل تبدل في تفكير المثقفين العثمانيين بعد هذا الوضع الجديد، وتبددت تلك الثقة القديمة الهادئة في أن الإسلام بالفطرة متفوق على الأديان الأخرى وأن الحضارة العثمانية الإسلامية هي أكثر صحة في أساسها من الحضارة الأوروبية وفي حين ظل المثقفون القدامى يقتصرون على تأكيد التفوق العثماني الإسلامي وحسب أخذ المثقفون الجدد يدافعون بحميّة عن الإيمان الصحيح ويرفضون التزييف بكل حماس وأصبح الدفاع عن الإسلام وعن الشرق هو الهمُّ المسيطر على المثقفين العثمانيين، وهجس جميعهم برفض وإنكار أن الشرق والإسلام أدنى من المسيحية ومن أوروبا، واختلفت صيغة هذا الإنكار على كل حال من مثقف إلى آخر، إذ رفض البعض ببساطة أن يكون الإسلام والبلاد العثمانية في الوقت الحاضر في وضع متخلف عن الغرب، وسلم آخرون بذلك ولكنهم أغفلوا شأنه.

وظل بعض المثقفين العثمانيين (وربما معظمهم) محافظين ويعيدون التأكيد بقوة متجددة إيمانهم التقليدي بأن الإسلام هو أفضل طريقة ممكنة للعيش، وأصبح إنتاج مقالات المديح والجدل في كل من اللغة العربية والتركية غزيراً بعد عام ١٨٦٠[١٢] وكان أكثر القراءات شعبية ورواجاً كتاب «إظهار الحق» من تأليف المسلم الهندي «رحمة الله الهندي» الذي نشر باللغة العربية في استنبول عام ١٨٦٧ وترجم إلى اللغة التركية حالاً[١٣] ولم يكن هناك أي جديد في هذا كله. فالإسلام يمجَّد والمسيحية تهاجَم بالحجج التقليدية منذ أيام الإسلام الأولى، والأمر الذي يلفت النظر هو التزايد العظيم لهذه الحجج بعد عام ١٨٦٠، وكذلك اضطلعت الصحف العربية والتركية بمهمة الدفاع عن الإسلام والشرق. وكانت ثمة صحف كثيرة ولكن أبرزها صحيفة «الجوائب» العربية التي كان يشرف على إصدارها في استنبول بعد ١٨٦٠ أحمد فارس الشدياق[١٤]. واهتم بعض هؤلاء الكتاب بما هو أكثر من الدفاع عن الدين الإسلامي، فأخذوا على عاتقهم مهمة الدفاع عن حضارته، وكانوا يقارنون بين المجتمع الأوروبي بشكل غير إيجابي وبين المجتمع العثماني، وكان الشدياق الذي عاش في إنكلترا وفرنسا يُقر بتفوق الغرب من حيث الغنى المادي ولكنه يهاجمه بعبارات موحية من حيث الرتابة

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

والنزعة المادية للتصنيعية الحديثة ، ويصر على أن الشرق يظل متفوقاً من حيث تأمين السعادة الحقيقية والثقافة وأخلاقية الإنسان[١٥] ويلخص موقفه بالملاحظة التالية (ص٦٠٣) «إن الفلاحين في بلادنا أوفر حظاً بدون شك من تلك الشعوب» وقد أغضبه زعم مستشرق أوروبي بأن الأوروبيين يملكون كل معرفة ضرورية باللغات الشرقية وإن العلماء الأوروبيين أصبحوا أساتذة الفرس ومعلمي العرب ، وقد حشد الشدياق ثمانية عشرة مرادفاً لكلمة «كذب» للرد على هذا الادعاء وشن هجوماً عنيفاً على المستشرقين[١٦] وكان الشدياق وكثيرون مثله مدافعين أقوياء ومحامين عن الإمبراطورية العثمانية ، ويمكننا الرجوع إلى كتاباتهم كعثمانيين محافظين .

ولم تكن هذه المقالات التمجيدية أو السجالية التقليدية في أذهان المثقفين العثمانيين الآخرين كافية للذود عن الإسلام إذ كانوا مختلفين عن أولئك المحافظين فيسلمون بأن الإسلام في أيامهم كان في حال محزنة ، وكانوا متفقين على كل حال مع المحافظين بأن الإسلام والشرق متفوقان أصلاً على الأديان الأخرى وعلى الغرب ، ويحاجّون بأن الإسلام لا يتعارض مع تقدم الحضارة كما هي في أوروبا ، ويعيش المسلمون في شروط محزنة لأن الإسلام الحقيقي الأول قد طرأ عليه ما أفسده وكانت النتيجة أن المسلمين لم يعودوا قادرين على الاستمرار في التقدم الكبير الذي تم لهم في العصور المبكرة ، والعلاج سهل وهو إحياء الإسلام وإعادته إلى أصوله النقية وهكذا يستطيع المسلمون بموافقتهم وتبنيهم للعناصر الضرورية في الحضارة الحديثة أن يستعيدوا عظمتهم السابقة ، ويمكن أن نسميهم بعد الآن تحديثيين في مقابل المحافظين ومع أن الفريقين كانا يدافعان عن دولة عثمانية قوية ، فلنشر إليهم على أنهم عثمانيون تحديثيون ، وكانت وجهة النظر بين العناصر التركية في الإمبراطورية تتمثل في «العثمانيين الجدد» الذين بدأ نشاطهم في أعوام ١٨٦٠ وقد تبنت هذه المجموعة بوضوح أفكار الوطنية العثمانية والوطن العثماني[١٧] وفي سنوات ١٨٧٠ انتشرت أفكار مشابهة تماماً في مصر نتيجة لنشاطات جمال الدين الأفغاني[١٨] (ص١٦٥ ــ ١٦٧) وقد طلب من أتباعه أن يُعملوا عقولهم وأن يختبروا أسس إيمانهم وبرهن مستشهداً بمقاطع من غيزو Guisot أن تقدم أوروبا كان نتيجة ظهور لاهوت مشابه فيها هو المذهب البروتستانتي .

ومع أن معظم التحديثيين كانوا ذوي نزعة عثمانية فإن قلة من المسيحيين السوريين الذين كانوا يشاركون التحديثيين أفكارهم العامة قدموا فكرة قومية عربية شبه علمانية ، وأتاحت المدارس التبشيرية الأمريكية والفرنسية في لبنان لعددٍ من السوريين ومعظمهم مسيحيون اتصالاً وثيقاً بالغرب وفي سنوات ١٨٦٠ أسهم هؤلاء العرب إسهاماً عظيماً في

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

ء حياء الأدب العربي القديم وفي نشر المعرفة الحديثة ، وكان أحد أهم ممثلي هذه المجموعة ابراهيم اليازجي الذي دعا في عام ١٨٦٨ إلى إحياء قومي عربي ، وقد اتفق مع التحديثيين العثمانيين على أن الشرق كان في أيامه في وضع محزن مع أنه كان مهد الحضارة ، وكان اهتمامه منصرفاً إلى العرب وحدهم ، وقد أعاد إلى الأذهان بحيوية كبيرة مجد العرب وعظمتهم في الماضي ، والعرب في نظره أعظم الأمم مكانة لأنهم أنجزوا في فترة قصيرة من الزمن أكثر مما أنجزه أي شعب آخر ، وقد أحرز الأوروبيون تقدماً سريعاً لأنهم كانوا قادرين على الاقتباس مباشرة من العرب ، وانحدر العرب منذ أن جاء غير العرب (الترك) ليحكموهم وليردوا تعلم العلوم الدينية والدين نفسه إلى التعصب الأعمى والتزمت ، ويرى اليازجي أن وسيلة العرب إلى استعادة مجدهم الشرعي هي أن تنبذ الأمة العربية الأجانب وأن تحرر نفسها من التعصب الأعمى والتزمت وسوف يعود مجد العرب القديم عندئذ ويستعيدون تقدمهم الماضي في مضمار الحضارة[١٩] .

ولم يصادف تبشير المسيحيين بالعروبة هوى في نفوس العرب المسلمين من السوريين بل كان هؤلاء يشعرون بالمهانة وهم يرون المسيحيين يتخذون موقع الأساتذة في التعليم العربي وكان الهجوم على دعاوى اليازجي وغيره من الأدباء المسيحيين شائعاً ، وقد تبنى العرب المسلمون في سوريا شعاراً في تلك المعركة يقول : « إن العربية لن تتنصّر »[٢٠] ولم تظفر عروبة اليازجي العلمانية إلا بالقليل من الأتباع وظلت النزعة العثمانية سواء كانت محافظة أو تحديثية العقيدة المسيطرة ضمن البلدان العثمانية حتى عام ١٩١٤ .

ومما يدعو إلى السخرية أن الخطوط العريضة للنظرية الإسلامية في القومية العربية اقترحها أحد أعظم العثمانيين العرب التحديثيين وهو المصري محمد عبده الذي كان هدفه الأول إحياء الإسلام وكان خلال حياته السياسية مدافعاً عن الدولة العثمانية .

وقد أكد محمد عبده على أولوية الإسلام الجوهرية واستعادة ماضي الإسلام المجيد وانتشاره السريع والحضارة الرائعة[٢١] ، والإسلام هو الدين الكامل لأنه مبني على العقل وهو يطلب من أتباعه أن يمارسوا ملكاتهم العقلية وأن يعرفوا أسس عقيدتهم ، وهذا هو سبب التقدم الإسلامي العظيم في الماضي (ص٦ ــ ١٠) (١٩٤ ــ ٢٢٣) والأديان الأخرى أقل شأناً من الإسلام « وقد طور محمد عبده استخدام الأفغاني لغيزو Guizot وأعلن أن أوروبا لم تبدأ تقدمها المذهل في الحضارة إلا عندما بدأ الأوروبيون بالتعلم من المسلمين وتبنوا عقيدة تنسجم مع الإسلام فيما عدا الاعتراف بالرسالة المحمدية ونظموا حياتهم بطريقة مماثلة لمبادئ الإسلام (ص١٠٩ ، ١٣١ ــ ١٣٢) » ، وقد انحدر الإسلام عندما انحرف إذ خلط العلم

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

بالدين الذي يجب أن يبقى منفصلاً وهكذا توقف المسلمون عن إعمال العقل (ص١٣ ــ ١٩).

وشدد عبده على كفاية الإسلام الجوهرية وتفوقه كطريقة في الحياة، ومرد الظروف المحزنة التي يعيشها المسلمون في أيامه هو الانحراف عن الإسلام الأصلي. لقد أمضى المسلمون زمناً وهم يلحقون الأذى بأرواحهم وهدروا وقتهم في زعزعة أسس إيمانهم وكتب في عام ١٨٨٧ «وألحقوا الأذى بأواصر اعتقادهم بسبب ظلال الجهل التي حجبت عنهم جذور إيمانهم، ومضى يعزو انحطاط أقدار الإسلام السياسية إلى إفساد الإسلام الحقيقي.

والضعف تبعه فساد الأخلاق وانحطاط السلوك، وذل النفوس وهكذا أصبح معظم الناس يشبه القطيع لا يطمعون إلا في قضاء عمرهم يأكلون ويشربون ويتناسلون قانعين بحياتهم البهيمية، وبعد ذلك سواء عندهم أن يغدو السلطان من لدن الله ورسوله أو من لدن أي سيد يحكمهم».

كان علاج محمد عبده للأمراض التي ألمت بالإسلام رفض الحضارة الغربية والعودة إلى الإسلام النقي وقد حذر من إرسال المسلمين إلى مدارس البعثات التبشيرية التي هي بمثابة «شياطين أجنبية» استطاعت وسوستها الشيطانية أن تُضل عدداً غير قليل. أما علاج محمد عبده الذي يراه فهو الإسلام الأولي الذي لم يفسد وليس التعليم الذي يقدمه المبشرون. ولاكتساب تلك المعرفة الحيوية كتب عام ١٨٨٦:

نحن لا نحتاج إلى البحث عن الاستفادة من هؤلاء الغرباء عنّا، بل يكفينا أن نعود إلى ما أغفلناه وأن نطهّر ما أفسدناه وذلك موجود في ديننا وكتبنا الإنسانية التي تحتوي ما هو أكثر من الكفاية مما نحتاجه وليس ثمة في كتب الآخرين ما يضيف إليها أي شيء اللهم إلا ما لا حاجة لنا به، ويعتقد محمد عبده أن الإحياء الديني هو الطريقة الوحيدة التي تمكن المسلمين من استعادة عظمتهم السياسية وقد كتب عام ١٨٨٧:

إن أي مسلم يملك قلباً مؤمناً يعتقد أن الحفاظ على الدولة العثمانية العلية هو البند الثالث من بنود الإيمان وذلك بعد الإيمان بالله وبرسوله، لأنها هي وحدها الحافظة لسيطرة الدين والضامنة لممتلكاته وليس للدين (الإسلامي) حكومة غيرها (الدولة العثمانية).

ثم يتابع القول:

إن للخلافة الإسلامية قلاعاً وأسواراً، وكل ما يقوي الثقة بها ويضرم الحماسة للدفاع عنها في قلوب المؤمنين يقوي أسوارها، ولا شيء يغرس الثقة ويشعل الحماسة في قلوب المسلمين مثل ما يبعثه الدين فيهم، وإذا كان ثمة من يظن أن اسم الوطن أو التعلق بالبلاد

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

وغير ذلك من الكلمات الرنانة يمكن أن تحل محل الدين في إذكاء الطموحات والاندفاع إلى تحقيقها فقد ضل سواء السبيل[٢٤] .

كان محمد عبده طيلة أيام حياته يمارس فعالية سياسية في سنوات ١٨٨٠ وكان مدافعاً قوياً عن الدولة العثمانية وقد أدى به إيمانه بضرورة العودة إلى الإسلام إلى صياغة فكرة مناقضة في مضمونها للعثمانية ، إذ رأى أن شفاء المسلمين من أمراضهم يكمن في إحياء الإسلام الحقيقي الإسلام الأصيل وهذا يعني إسلام العرب ، وقد كتب عام ١٨٨٧ : إن القرآن هو مصدر نجاح المسلمين » « وليست هناك قوة قادرة على إصلاح شؤونهم سوى العودة إليه ، ويجب أن يؤخذ القرآن في أكثر جوانبه دقة متفقاً مع قواعد اللغة العربية وهكذا تتم الاستجابة له كما فعل الرعاة وسائقو الإبل الذين نزل القرآن إليهم وبلغتهم . إن القرآن قريب من طالبه عندما يكون عارفاً باللغة العربية وبتاريخ العرب وبعاداتهم أيام نزول الوحي ، وكيف يمارس العرب الجدل فيما بينهم ، ومعرفة هذا كله هي أعظم طريقة لفهمه » . ويمضي محمد عبده بعد ذلك في مطالبته بإحياء مكثف للأدب العربي القديم وللدراسات الدينية[٢٥] ، باعتباره أساساً ضرورياً للإحياء الديني .

وقد تخلى محمد عبده في سنواته الأخيرة عن النشاط السياسي الذي مارسه في منتصف العمر إلا أنه لم يتخلّ أبداً عن أفكاره الأساسية ، وعندما زعم بعض المسيحيين والعرب والأوروبيين أن الإسلام ليس كافياً في الأساس لمواجهة مشاكل العالم الحديثة تصدى لهم محمد عبده بقوة مؤكداً أن الإسلام هو النظام الأكمل وإذا تم إحياؤه بكل زخمه ففيه الكفاية التامة لمواجهة الحياة الحديثة ، ومع أنه تخلى عن نشاطه السياسي إلا أنه شدد بقوة متزايدة على الإصلاح الديني واستمر في إصراره حتى النهاية على أن الإصلاح الديني الجذري يتطلب إحياء الدراسات العربية[٢٦] وحمل لواء أفكار محمد عبده من بعده شريك حميم وتلميذ متفانٍ وهو السوري محمد رشيد رضا الذي بثها بعد آذار ١٨٩٨ من خلال جريدته « المنار » وكان رضا مهتماً أيضاً بكيفية استعادة الإسلام والشرق مجدهما التليد وكان جوابه على تساؤل محمد عبده القائل : « هل يمكن إحياء مجد الشرق من خلال قوة الإسلام ؟ » « نعم وألف مرة نعم » ، ومضى يقول : « إن جذور الدين الإسلامي وتعاليمه الحقيقية وتعليمه الإنساني وحّدت القبائل العربية وأخرجتها من أعماق البربرية إلى قمة التفوق وشرّفتها على دول العالم كله بالسيادة والسلطان وأرشدتها إلى العلوم والفنون ، وأعلن على غرار محمد عبده أن الله أرسل في الإسلام شريعة صحيحة .. أصبحت ممالك أوروبا من خلالها ذات مجدٍ وقوة ذلك أن أوروبا استمدت ذلك من الإسلام وحده » .

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

وكان تشخيص محمد رشيد رضا ووصفه للعلاج مطابقاً تماماً لما قاله محمد عبده.

«مما لا ريب فيه أن انحراف المسلمين عن سبيلهم السوي حرمهم من مآثرهم وأن عودتهم إليه سوف تربط بين قلوبهم جميعاً وتوحدهم وتعيد إليهم سلطانهم... وإذا ما وضع (علماء المسلمين) القرآن نصب أعينهم وبعثوا معانيه من جديد بذكاء فإن روح الوحدة تهبط على جماعة المسلمين من السماء وسيتوحد أهل الشرق والغرب (من أهل الجماعة) ويعود إلى الشرق مجده»[٢٧].

وتوصل رشيد رضا، كما فعل محمد عبده، من خلال مذهبه في إحياء الإسلام الأولي إلى التشديد على أولوية العرب ذلك أن العودة إلى الإسلام الأولي تتضمن بلا شك إحياءً عربياً، كان إصلاح رشيد رضا يدعو السلطان العثماني لتنفيذه فهو كخليفة يستمع إلى نصح جماعة من رجال العلم مقرها في مكة، وكان أحد بنود هذا الإصلاح المقترح إحياء الدراسات العربية التي هي في الحقيقة جذر المسألة «من الضروري نشر اللغة العربية أكثر من التركية، ذلك أن العربية لغة الدين ونشرها هو الوسيلة إلى نشر الدين وفهمه»[٢٨] ويمضي رشيد رضا إلى إيضاح ذلك بأجلى صورة فيرى أن الإحياء العربي هو الطريق الوحيدة إلى بعث الإسلام «إن اعتزاز المرء بتاريخ العرب والكفاح من أجل إحياء مجدهم هو في الوقت نفسه عمل من أجل الوحدة الإسلامية التي أتمها في الماضي العرب وحدهم والتي لا يمكن إعادتها في هذا القرن إلا على أيديهم وأن أسس هذه الوحدة هو الإسلام نفسه وليس الإسلام شيئاً غير كتاب الله وسنة نبيه وكلاهما باللغة العربية ولا يمكن لأحد أن يفهم الإسلام إذا لم يفهمهما على وجه الدقة معاً ولا يمكن لأحد أن يفهمهما على هذا الوجه إذا لم يفهم لغتهما النبيلة».

وهذه خطوة يسهل من بعدها تمجيد العرب «فإن عظمة أمجاد الفتح الإسلامي تعود إلى العرب وقد انتشر الدين وتعاظم على أيديهم وكانت أسسهم هي الأكثر صلابة ونورهم هو الأكثر جلاء وهم في الحقيقة خير أمة أخرجت للناس»[٢٩] وبهذا يكون رشيد رضا قد طوّر وأكمل تأكيد محمد عبده على ضرورة الإحياء العربي كأساس لإحياء إسلامي عام، وأوضح رشيد رضا في الوقت ذاته المفهوم القائل بأن العرب هم خيار المسلمين، ولا ريب في أنه ظل يأمل مدة طويلة في أن يجد إصلاحه طريقاً للتنفيذ تحت رعاية السلطان العثماني وبفضل إخلاصه للدولة العثمانية، وكان على عربي سوري آخر وزميل لرشيد رضا أن يضيف محتوى سياسياً إلى النظرية، وذلك ما فعله عبد الرحمن الكواكبي الذي جاء إلى القاهرة عام ١٨٩٨.

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

كان الكواكبي يعتقد أن الفوضى والضعف يشملان كل المسلمين [٣٠] في أيامه » وقد ظل فخوراً على أية حال بماضي الإسلام وأكد على تفوقه على كل طريقة أخرى في الحياة ، وإنما تفوق غير المسلمين على المسلمين في العلوم التجريبية والفنون وحسب (ص٩) أما الإسلام فهو يظل الدين القويم الثابت ، الصحيح ذا الأساس المكين الذي لم يتجاوزه بل لم يقاربه أي دين آخر في حكمته ونظامه وثبات بنيته (ص١٥ انظر ص٦٧) ، والواقع أن المسيحيين لم يحرزوا تقدماً في الفنون والعلوم حتى جاءت البروتستانتية التي هي شبيهة بالإسلام الحقيقي وقد ظلت الأرثوذكسية والكاثوليكية موضع تعلق بين الجمهور ولكنهما تضاءلتا تماماً بين المثقفين لأن المسيحية والعلم لا يتفقان أبداً » .

إن من يتبع الإسلام الحقيقي النقي يزداد إيمانه كلما ازداد علمه أو فكره التجريبي ... ذلك لأنه لن يجد في هذا الإسلام ما ينكره العقل أو يرفضه البحث العلمي (ص١٢٤ — أنظر أيضاً الصفحتان ٩٢ — ٩٤)

ويرفض الكواكبي كذلك التقليد الأعمى للغرب ، وينتقد بشدة مسلمي الطبقات العليا من ذوي « الشخصيات الضعيفة » الذين يرون الكمال في الأجانب كما يرى الأطفال الكمال في آبائهم . إن الأجانب يخدعون المسلمين ويضللونهم إذ يدفعونهم إلى الخجل من دينهم ومن عاداتهم (ص١٦٠) . ولا يختلف تشخيص الكواكبي للمرض عن تشخيص التحديثيين العثمانيين ، ومما كتبه « هل بقي من يراوده الشك في أن الدين الحالي ليس هو الدين الذي تميز به أسلافنا عن العالم كله ؟ كلا إن تغييرات مؤسفة أدخلت إلى الدين فغيّرت في أسسه » (ص٦٠) وهكذا كان الخلل الديني هو السبب في وهن المسلمين (ص٢٠٠)

ويبقى العلاج هو نفسه :

علينا أن نعتمد على معرفتنا الجلية بآيات الكتاب الكريم والمشهور من سنة الرسول ﷺ وما ثبت من الإجماع ، ذلك أن عقيدة أجدادنا هي المصدر الذي لا ترفضه الجماعة ولا تأبى العودة إليه (ص٢١ ، وكذلك ٦٧)

والكواكبي مثله مثل محمد عبده ورشيد رضا يقوده تشخيصه لأمراض الإسلام إلى التأكيد على تفوق العرب وعلى دورهم الفريد في إحياء الإسلام ، والعودة إلى الإسلام الصحيح تعني نهضة العرب المسلمين لأن القرآن والسنة لا يمكن فهمهما إلا من خلال معرفة اللغة العربية التي هي لغة القرآن .. (ص٧١ ، وانظر كذلك ص٩٥ ، ١٧٠) وينسب الكواكبي كما فعل رشيد رضا إلى العرب كثيراً من المآثر في الإسلام (ص١٩٥ — ١٩٨) ويخلص إلى

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

القول ... «إن العرب هم السبيل الأوحد إلى الوحدة الدينية ، ليس ذلك وحسب بل لوحدة الشرق كله (ص١٨٩) ويذهب الكواكبي إلى أبعد من سابقيه فيصطفي عرب الجزيرة العربية ويرى أنهم أفضل العرب وذلك لأنهم كانوا الأقرب إلى المسلمين الأصلاء (صفحات ١٢ ، ١٩٣ ــ ٥) وهو يرمي إلى أهداف سياسية ، ومع أنه يحترم الإمبراطورية العثمانية كدولة عظمى تهم شؤونها عامة المسلمين (ص١٤٢) ويتمنى إصلاح الإدارة فيها (ص١٤٢ ــ ١٤٨) ويحب السلاطين العثمانيين لدماثة تصرفاتهم ولإعلائهم من شأن الطقوس الدينية (ص٢١٠) إلا أنه يعتقد من جانب آخر «أن لكل أمة موجودة ضمن سكان تركيا الحق في الحصول على استقلال إداري» (ص١٤٣) وينتقد فضلاً عن ذلك الروح الانتهازية في السياسة العثمانية حيال المسلمين وكذلك سياسة خلافتهم (ص٢١١ ، ٢٠١ ــ ٢٠٧) ويقترح الكواكبي في نهاية المطاف تأسيس «خلافة» عربية في مكة لا تكون وريثة للخلافة التاريخية بل وسيلة لتسهيل الإصلاح الإسلامي وتشكيل اتحاد إسلامي كبير[٣١] (ص٢٠٧ ــ ٢١٠).

وهكذا نرى أن نظرية الوحدة العربية انبثقت من التشخيص التحديثي للانحدار الإسلامي والعمل على استنهاض المسلمين ، إن المنظرين القوميين العرب كانوا عروبيين تحديثيين يتميزون عن نظرائهم المقربين أي العثمانيين وكان كلاهما يشتركان في صفة واحدة مع المحافظين إذ كان الجميع يرفضون القبول بدونية الشرق تجاه أوروبا بل يؤكدون جميعاً بدلاً من ذلك ، أن الإسلام وثقافة الشرق كانا متفوقين جوهرياً على المسيحية وعلى الحضارة الغربية ، كان المحافظون ينكرون الدونية ببساطة ويعودون إلى تأكيد التفوق ، أما التحديثيون من عروبيين وعثمانيين فقد سلّموا بالدونية في الوقت الحاضر ولكنهم يعللون ذلك بالعودة إلى الماضي فيعتبرون الدونية نتيجة للانحراف عن الإسلام الحقيقي ، الذي هو في جوهره نظام كامل ، وقد جرى تفسير ذلك على أنه ببساطة تعصب ديني ، إلا أن هؤلاء المثقفين المسلمين كانوا يدافعون عن حضارة بقدر ما كانوا يدافعون عن دين ، وقد شاركهم في موقفهم العديد من المسيحيين المثقفين الذين رفضوا مثل إخوانهم المسلمين القبول بدونية الشرق حيال الغرب ، وقد وضع بعض المسيحيين العرب مثل ابراهيم اليازجي نظرية مبكرة تدافع ضمناً عن قومية علمانية ، ولما كان المسلمون لا يستطيعون القبول بفصل الإسلام عن العروبة فهناك ما يدعو إلى الشك بأن أفكار اليازجي كان لها أي تأثير على مجرى الفكر القومي العربي وبقي الموضوع مطروحاً للبحث ، ولكن يبدو أن أفكار اليازجي تلك قد أسهمت في تطوير النزعات القومية المحلية بين مسيحيي سوريا ولبنان[٣٢]

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

وكان اليازجي يتفق مع التحديثيين العثمانيين في نقطة واحدة، هي أن الشرقيين والعرب منهم على الأقل، بدلاً من أن يكونوا أدنى من الأوروبيين، فهم الذين كانوا أعظم شعب وهو شعب حمل المدنية إلى الغرب، ولم يكن اليازجي مثل بقية التحديثيين العثمانيين يبحث عن سبيل لإحياء ماضي العرب المجيد وقد وجدها في العودة إلى الروح الحقيقية للأمة العربية.

وكان ثمة مثقفون مسيحيون عرب يشاركون اليازجي رغبته في إحياء عظمة الشرق إلا أنهم خلافاً لرأيه يرون الشرق في مجالات أكثر اتساعاً، وأحد هؤلاء أديب إسحاق وهو معاصر لليازجي في بيروت وصار بعد ذلك مساعداً للأفغاني ومحمد عبده في القاهرة وذلك في أواخر سنوات ١٨٧٠ ويؤكد إسحاق أن الشرق كان «موطن نشوء الحركات الدينية والسياسية التي غيرت وجه الأرض وظروف بني البشر»[٣٣] وقد أغضبه التشهير الذي كان يشنه الغربيون على الشرق الذي علم الغرب الحضارة (ص١٩٨ ــ ١٩٩) نعم إن إسحاق يسلّم بوجود انحطاط في أيامه؛ إلا أن الشرق هو الأخ الأكبر للغرب أرضعه طفلاً وأطعمه صبياً وأعانه شاباً غضاً وهو يحتاج إليه كرجل ناضج (ص٤٧٣) ويرى إسحق أن التضاد بين حضارة الغرب وحضارة الشرق نتيجة لنبذ «شريعة» الشرق الصحيحة والتردي الحاصل في الروح وفي التعليم (ص٥٤ ــ ١٢، ٢٠١ ــ ٢) وسوف ينهض الشرق ليس بفضل جهود الأجانب الذين يخططون من أجل مصالحهم الأنانية الخاصة (ص١١٣ ــ ١١٤) بل بفضل جهود المواطنين الشرقيين المخلصين بعد أن يتحركوا لإعادة الاحترام إلى المجد القديم ويغضبوا للإذلال الجديد وعندئذ تشتعل في قلوبهم نار الطموح والحمية (ص١٧٤ ــ ٥) ويقضون على البدع المخجلة ويطهرون الشريعة الحقة (٢٠٢) ويقودون الشرق إلى إحياء عظمته السالفة (ص١١٢، ٢٠٢ ــ ٣)

كان توجه إسحاق رهين المشكلة الكبرى في أيامه وهي مماثلة ذاته مع «الشرق» الذي كان عبارته المفضلة ليشير بها إلى الوطن، فهو عثماني على وجه الخصوص (صفحات ٩٦ ــ ٧، ١١١ ــ ١١٣، ١٢٨ ــ ٩، ١٣٢، ٣٨٢ ــ ٤) وكان فخوراً بأنه عربي إلا أن فخره بالعرب كان مرتبطاً بعثمانيته وشرقيته (ص١٤٩ ــ ٥٠، ٢٠٠) وثمة مسيحيون عرب آخرون ماثلوا أنفسهم بحضارة الشرق أكثر مما فعل إسحاق وكانت أبرز حالة في هذا المجال أحمد فارس الشدياق[٣٤] الذي ولد مسيحياً إلا أنه تحول إلى الإسلام قبيل عام ١٨٦٠ وأصبح واحداً من أكثر المحافظين العثمانيين شهرة، كان اليازجي وإسحاق يجدان الأمل في عظمة الشرق السالفة عندما يواجهان التناقض بين الشرق والغرب وعندما يفعلان ذلك كانا يستذكران عظمة المسلمين السالفة لا عظمة المسيحيين، أما الشدياق، حتى قبل

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

تحوله إلى الإسلام، فيفعل ذلك صراحة بعد مطابقته لحضارة الشرق مع الإسلام، وقد كتب جواباً على الملاحظات التصغيرية للمستشرقين الأوروبيين، «هؤلاء الأساتذة الأوروبيون لم يأخذوا العلم عن «شيوخهم» كالشيخ محمد أو الملّا حسين أو الأستاذ سعدي، كلا بل تطفلوا عليها وأخذوها ظلماً وكل من تثقف منهم فيها إنما تثقف فقط على يد الخوري حنا أو الراهب توما والقسيس متى وبعدئذ يضع رأسه بين الكوابيس وتدخل الكوابيس رأسه ويظن أنه يعرف شيئاً ما ولكنه جاهل» واقتفى مسيحيون آخرون أثر الشدياق ولكن دون التقليل من شأن دينهم الذي ولدوا فيه، وبحلول عام ١٩١٤ كان بعض المسيحيين العرب قد قطعوا شوطاً طويلاً نحو قبول نظرية العروبة التي سبقهم إليها رشيد رضا والكواكبي وكان أحدهم ندره مطران وهو من أصل لبناني وكان لرؤيته القومية أسس عرقية «إن الفخار العرقي فضيلة أساسية» كما قال عام ١٩١٣ و «ولست أعرف أمة كانت أكثر قوة ولا أعمق أثراً من الأمة العربية، وكان راغباً في التسليم بأن الإسلام أحد أمجاد الأمة العربية ويذكر كيف أن الجيوش العربية الإسلامية عندما تقدمت لفتح دمشق وقف الغسانيون الذين هم عرب مسيحيون إلى جانبها وبدلاً من قتال المسلمين والوقوف في وجههم، حركتهم مشاعر الأخوة وتخلوا عن رابطتهم الدينية وعن الرابطة السياسية التي كانت تجعل منهم وكلاء للرومان ومنحوا ولاءهم وإخلاصهم لأبناء لغتهم وأبناء أمتهم» وقد كان خيراً للمسيحيين العرب في سوريا أن يخضعوا لحكم المسلمين لأن هؤلاء «كانوا عرباً يحكمون بلداً عربياً له الحق في أن يفخر بهم ويفخر بنفسه وبأعمالهم وفتوحاتهم... ويذهب مطران إلى القول بأن مجد الإسلام يعادل بالفعل مجد العرب.

«إن المشاعر الدينية تسيطر على اتباع الدين في كل الأمم دون استثناء وكذلك كان الأمر عند المسلمين وليس غريباً أن نراهم (أي المسلمين العرب) يخضعون لحكم السلاجقة ولسيطرة الأيوبيين ولهيمنة العثمانيين منذ أن اعتقدوا بأن أولئك قادرون على تدعيم مجد الإسلام وعلى رفع راية الخلافة[٣٥]».

لقد كان خيراً للمسيحيين العرب أن انضموا إلى المسلمين لأن ذلك يحمل للعرب مجداً، وكذلك كان خيراً للعرب أن يخضعوا لحكم المسلمين من غير العرب لأن ذلك يوطد مجد الإسلام، وقد اختلفت أفكار المسلمين والمسيحيين العرب إذ قال العرب إن المسلمين هم خير أمة وذلك لأن الله اصطفاهم لتقبل الدين الكامل أي الإسلام ويقول المسيحيون: إن الإسلام عزيز على كل عربي لأنه جعل العرب أمة عظيمة وثمة مسيحي سوري معاصر لمطران يوضح الأمر: «اترك أي امرئ منا يقول أنا عربي... وإن لم يكن للمرء أن يكون عربياً دون

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

أن يكون مسلماً فدعْهُ يقل إنني عربي ومسلم »[٣٦] ، انبثقت العروبة إذن من لدن التحديثيين العثمانيين وكجواب على المحرض ذاته فكلا النظريتين كانتا تهتمان أول الأمر بدفع تهمة دونية الثقافة الشرقية عن مثيلتها الغربية ، وكان الطرفان يشتركان في هذه السمة مع النزعة العثمانية المحافظة ، إن جزءاً من البنية الانفعالية لدى كل المنظرين كان من وحي أديب إسحاق الذي جعل من « حب الذات مصدراً لحب الوطن والأمة » ويشرح ذلك في مكان آخر فيقول : « إن الانتماء إلى وطن يربط المواطن برباط متين من الشرف الشخصي ويجعله غيوراً عليه ومدافعاً عنه كما يدافع عن أبيه الذي أنجبه حتى ولو كانت بينهما جفوة » . كان تخلف وطن إسحاق إذا ما قورن بالغرب مصدر مهانة شخصية له وكان هدفه الأكبر مثله مثل التحديثيين الآخرين عروبيين وعثمانيين تخليص الشرق من مهانته ، وقال : « لقد ألفنا كتاباً عن تاريخ الثورة الفرنسية وذلك ليجعلنا نتذكر فقط أنه أمثولة ودرس لأمة تتذكر وتفكر ، ولنعلّم أولئك الذين يعانون من الاستبداد ، أولئك الذين يتوقون للخلاص من المهانة ، كيف أن شعوباً قبلهم حققت أهدافها واستبدلت بضعفها قوة ، وبذلها عظمة وبعبوديتها حرية ورفعت رأسها وابتهجت نفوسها »[٣٧]

كانت الهوة بين التقدم العام في الشرق الإسلامي ومثيله في الغرب المسيحي هي المجدد العظيم في الفعالية الثقافية والسياسية العثمانية خلال القرن التاسع عشر . ذلك أن بعض سبل الأجانب والكفرة في الغرب أصبح من الواضح أنه يجب تقليدها في رأي أقلية ذات شأن متميز ، صحيح أن الأكثرية بقيت في الغالب ثابتة في أصوليتها وظلت إما معارضة لأي تجديد أو داعية إلى ترك الشؤون الكبرى التي تخصها في يد الله تعالى ، لكن أصحاب النفوذ وموجهي سياسة الدولة كانوا مرغمين على النظر إلى الغرب وكانت الحاجة الماسة إلى تقليد الأجانب الكَفَرة لطمةً شديدة لفخارهم واعتدادهم الذاتي ، وكانت النتيجة أن دفاعهم عن التغريب ظل ممزوجاً بالدفاع عن الإسلام وعن الشرق .

في البداية عندما كانت الهوة بين الشرق والغرب تبدو قابلة للجَسْر كان المدافعون عن التغريب معتدلين ومتحفظين وعندما أصبحت الهوة أكثر اتساعاً أخذ التغريبيون يتحولون إلى الاعتذار في أول الأمر ثم ما لبث الدفاع عن التغريب أن أخذ يطفو في سيل من التبرير الذاتي ومن مناهضة النزعة التغريبية ، وانتهى الأشخاص الذين تصدوا للقول بأن الشرق الإسلامي يمكنه أن يدرك الغرب المسيحي أو يتخطاه إلى تكريس معظم طاقاتهم إلى إيضاح تفوق الشرق في الحقيقة ، وأحس المحافظون بالسرور ولدى إظهار زيف المسيحية بفضل المدافعين الأصوليين والسجاليين وبالتأكيد على المظاهر غير السارة في الحياة الأوروبية . أما الآخرون

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

ومنهم التحديثيون فقد ذهبوا إلى القول بأن الأوروبيين أحرزوا تقدمهم الحالي بفضل تمثلهم بعضاً من روح الإسلام الحقيقي الذي هجره المسلمون وا أسفاه .

كان الاهتمام بالنزعتين الوطنية والقومية إحدى نتائج الاهتمام العثماني بالفوارق المذلة بين الشرق والغرب وبالوسائل المؤدية إلى محوها ، اعتقد التحديثيون العثمانيون أن الوطنية القومية كانت إحدى مصادر قوة الغرب وتقدمه وعلى العثمانيين أن يتبنوها إذن كما تبنوا التقنيات العسكرية والإدارية وأدى هذا الاعتقاد إلى ظهور عثمانوية إسلامية جرى تعميمها ضمن العنصر التركي في الإمبراطورية وإلى نزعة قومية إسلامية مصرية محلية بإضافة معنى عثماني في مصر ، وقد اتفق المحافظون بصورة عامة مثل إصلاحيي التنظيمات وأحمد فارس الشدياق مع التحديثيين مثل العثمانيين الجدد والأفغاني ومحمد عبده في شبابه على وضع الدفاع عن الإمبراطورية العثمانية وعن الشرق الإسلامي في الموضع الأسمى ضد الغرب المسيحي .

وقد خلق التبرير التحديثي للشرق الإسلامي أسس نظرية القومية العربية فلكي يظهر التحديثيون كم أن الشرق قادر على اللحاق بالغرب ولكي يبرهنوا على أن الشرق كان متفوقاً على الغرب في الواقع ، وجدوا النظام الكامل وهو الإسلام الأصيل الذي لم يلحق به فساد ، فالعودة إلى الإسلام النقي في نظرهم كانت جواباً على مشاكل زمنهم إلا أن محمد عبده كان أول من قال مؤكداً على أن الإسلام الأول رفع من شأن العرب وأظهر أهمية لغتهم وماضيهم في الدفاع عن الإسلام والشرق وفي إحيائهما .

والإسلام مركز العروبة كما هو مركز العثمانوية ، وكانت هاتان النزعتان شيئاً آخر يتجاوز إثارة العصبية الدينية والتعصب وكانت كلتاهما تقفان ضد الغرب لا ضد المسيحية وحدها ، كما كانت كلتاهما تبريراً لحضارة الشرق الذي يملك الأهمية والكفاية على ما يوجه من أسئلة حول تقدم الغرب وكان بعض المسيحيين العثمانيين ، على الأقل بين العرب يشاطرون المسلمين إحساسهم بالهوان الشخصي لوجود هوة بين الشرق المسلم والغرب المسيحي ، وقد انضموا إلى المدافعين عن الشرق ضد الغرب وأعلنوا عن اعتزازهم بعظمة الإسلام السالفة(٣٨) .

كانت العروبة كالعثمانوية نتيجة للاهتمام بالمشكلة التي طرحها التقدم العام في أوروبا على سكان الإمبراطورية العثمانية ، وأدى هذا الاهتمام إلى إعطاء الجنسية محتوى سياسياً في منطقة كان الدين والسلالة الحاكمة فيها ركني الدولة اللذين لا ينفصمان .

كانت الجنسية مجازاً إلى مخطط فكري اتجه بشكل رئيسي إلى إيضاح خطة للتقدم وإلى تبرير لقيمة طريقته في الحياة ، حاول العثمانيون أن يجعلوا جنسية وحيدة للعناصر الاثنية المتعددة التي تعيش في ظل الإمبراطورية العثمانية ، أما العروبيون فقد رفعوا من شعب واحد هم

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

العرب إلى موقع التفوق وكان هدف الجانبين على أية حال الدفاع عن الإسلام وتعزيز موقعه في وجه الغرب وكان الهدف المشترك لكل من العروبة والعثمانوية يتجلى في الشعور بالمماثلة الذي يشترك فيه معظم العثمانيين في عالم تهيمن عليه الحضارة الأوروبية ، ومهما كانت خلافاتهم فقد كانوا في أوقات الأزمات يرصون صفوفهم حول ضرورة أساسية هي التأكيد على هويتهم الثقافية وجدارتهم الذاتية ، إلا أن الخلافات قد وجدت ، فعلى الرغم من أن العروبة والعثمانوية بنزعتيهما المحافظة والتحديثية كانتا استجابة متشابهة للمشكلة ذاتها تبقى الخلافات بين الردود ذات دلالة . والسؤال الذي يتبادر هنا هو كيف يمكن لأفراد مختلفين من خلفية متماثلة أن يقدموا حلولاً متباينة للمشكلة ذاتها عند تعرضهم للموقف نفسه ؟ ولا شيء في محتوى البنية التقنية للأفكار التي نبحثها يمكنه أن يقدم إجابات على هذا السؤال ، والتحديثي يمكن أن يكون عثمانوياً أو عروبياً ، ويمكن للعثمانوي أن يكون محافظاً أو تحديثياً ولا تساعد المشاعر الاثنية عند العرب على مزيد من الإيضاح فعلى الرغم من القيمة الواضحة لنظرية العروبة في إذكاء العزة القومية فقد ظل معظم العرب عثمانويين حتى عام ١٩١٨ ، ولا بد للبحث عن شرح كامل لانبثاق العروبة من العثمانوية من المضي إلى أبعد من ميدان الأيديولوجيات ويطرح هذا على كل حال مسألة جديدة ليس هنا مجال لمعالجتها ، ويمكن اقتراح نتيجة واحدة : أن العروبة تطورت من العثمانوية التحديثية وهي على شاكلة العثمانوية التحديثية والمحافظة كانت ردة فعل على فشل الحضارة العثمانية في مواكبة مسيرة أوروبا .

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

ملاحظات

١ — A. N. Poliak, «L'Arabisation de l'Orient sémitique». Revue des Etudes Islamiques, 1938, pp. 37-40; Ignaz Goldziher, Muhammedaniseche Studien, 2 vols. (Hale, 1889-1890), I, 101-176.

٢ — Bernard Lewis, The Impact of the French Revolution on Turkey», Journal of World History, I (July 1953), 107-108.

٣ — J. Heyworth-Dunne, «Rifa'ah Badawi Räfi at-Tahtäwi: The Egyptian Revivalist», Bulletin of the School of Oriental and African Studies (London University), IX (1939), 961-967; X (1940), 400-401. The long-standing need for a systematic and comprehensive treatment of modern Arab intellectual history has now been satisfied by Albert II. Hourani's masterful Arabic Thought in the Liberal Age, 1798-1939 (London : Oxford University Press, 1962: rpt, Oxford Paperback, 1970).

٤ — Räfi'al-Tahtäwi, Kitäb talkhis al-ibriz ila talkhis bäriz [The Book of the Distillation of Pure Gold, Even the Distillation of Paris] (Cairo, 132311/1905), pp. 5, 7, 14, 19, 20-21, 55-58, 258, 260, 262.

٥ — Walther Braune, «Beiträge zur Geschichte des neuarabischen Schrifttums», Mitteilungen des Seminars für Orientaltschen Sprachen zu Berlin, XXXVI(1933), 119-123; Heyworth-Dunne, BSOS, X (1939), 399-400. 403, 404. For examples of his Patriotic poems. see «Abd al-Rahmän al-Räfi'i, Shu'arä al-wataniyah (The Poets of Patriotism) (Cairo: Maktabah al-Nahdah al-Misrivah. 137311/1954), pp. 8-12.

٦ — Roderic H. Davison. «Turkish Attitudes Concerning Christian-Muslim Equality in the Nineteenth Century», American Historical Review. LIX (1954). 852. For more recent scholarship. see below, note 17.

٧ — The same was true of much later writers on nationalism; see Sylvia G. Haim. «Islam and the theory of Arab Nationalism». Die Welt des Islams. n. s. IV (1955). 127-140 and above, pp. 77--85.

٨ — For an example, see Lewis, p. 118. note 35.

٩ — Tahtäwi, pp. 54-55.

١٠ — For suggestive remarks, see Nivazi Berkes. «Historical Background of Turkish Secularism». Islam and the West. ed. Richard N. Five(The Hague Mouton and Co., 1957), pp. 48-62. and Davison, pp. 849-853. For more recent works, see below, nore 17.

١١ — Tahtäwi, p. 9 in this paragragh, other refercnces to this work will be given in the text.

١٢ — Journal Asiatique. 7th ser.. XIX (1882), 169-170: 8th ser.. V (1885). 244: IX (1887). 360.

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

١٣ — Ignaz Goldziher, «Ueber Muhemmedanische Polimik gegen alli al Kitab», Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft, XXXII (1878), 343-344; C. Snouck Hurgronje, Mekka in the later part of the Nineteenth Century, trans. J. H. Monahan (Leiden: E. J. Brill, and London: Luzac and Co., 1931), p. 173.

١٤ — C. Brockelmann, «Färis al-Shidyäk Ahmad b. Yüsuf». Encyclopaedia of Islam, [Ist ed.], II, 67-68; M. Hartmann, «Djarîda», ibid., I, 1019.

١٥ — Ahmad Färis al-Shidyäq (Färis El-Chidiac), Kitäb al-säq ala al-säq fi-ma huwa al-faryäq (La Vie et les aventures de Fariac) (Paris, 1855), pp. 597-605, 641-644, 659-660, esp. pp. 603-605, 659 for denial of true civilization to the Europeans.

١٦ — Ibid., appendix, pp. 1-2. The contrast between the new conservatives like Shidyäq and the older ones is well illustrated by the contrast between this appendix and the remarks of Tahtäwi (pp. 68-75)concerning Orientalists.

١٧ — T. Menzel, «Kemäl Mehmed Nämik», Encyclopaedia of Islam, [Ist ed.], II. 849-850, Davison, 861-864; Niyazi Berkes. «Ziya Gökalp: His Contribution to Turkish Nationalism», Middle East Journal, VIII(1954), 379-480; Ettore Rossi, «Dall Impero Ottomamo alla Repubblica di Turchia», Oriente Moderno, XXIII(1943), 364-366, 367-368, 369. Since the first publication of this essay, a number of major studies relating to nineteenth-century Turkish Ottoman intellectual history have appeard Bernard Lewis, The Emergence of Modern Turky, 1st ed. (London: Oxford University Press, 1961; 2end ed., 1968); Serif Mardin, The Genesis of Young Ottoman Thought(Princeton, N. J: Princeton University Press, 1962) rodric; Niyazi Berkes, The Development of Secularism in Turkey(Montreal: McGill University Press, 1964).

١٨ — Jamäl al-Din al-Afghäni, Réfutation des Matérialestes, trans, A. M. Goichon(Paris: Paul Geuthnur, 1942), pp. 121-130, 133-134, 152-171. Cf. Charles C. Adams, Islam and Modernism in Egypt(London Oxford University Press, 1933), pp. 15-16. Afghäni has subsequently received new attention. Elie Kedourie, Afghani and 'Abduh: An Essay on Religious Unbelief and Political Activism in Modern Islam(New York: The Humanities Press, 1966), primarly on the basis of the political activities of Afghäni and 'Abduh, convicts both of unbelief, cynical opportunism, and the delibrate subversion of Islam. Nikki R. Keddie, An Islamic Response to Imperialism: Political and Religious Writings of Sayyid Jamäl al-Din al-Afghäni' (Berkeley and Los Angeles University of California Press, 1968), concentrating the analysis on Afghäni's writings, handles the problem with care and subtlery. She concludes that Afghäni was 'some kind of «Islamic deist», a believer in a creator who set the world in motion and made it operate according to natural law (p. 96), who followed the old philosophical tradition of the Islamic world by which the Islam of the ulama was

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

regarded as an instrument for managing the masses which, being a lower truth if not false, was both needless for and unworthy of the elite. Albert H. Hourani, reviewing Keddie in International Journal of Middle East Studies, I (1970), 90-91, 189, convincingly counters the more recent arguements and reaffirms the view presented in his Arabic Thought in the Liberal Age, rpt., pp. 107-129, which had already drawn attention to the complexities of Afghäni's career as political revolutionary, religious reformer, and believing Muslim.

١٩ — See Ibrähim al-Yäziji's essay, «al-Ulüm 'inda al-'arab [The Sciences among the Arabs], and his poem «Tanabbahu wa istafiqu [Awake! Awake!]». in «Isa Mikhä'il Säba, al-Shykh Ibrähim al-Yäziji. 1847-1906. Nawäbigh al-fikr al-'arabi, 14 (Cairo Där al-Ma'arif, 1955), pp. 49-50, 71-74.

٢٠ — Ignaz Goldziher, ZDMG, XXVIII (1874), 167-168.

٢١ — Mohammed Abdou. Rissalat al Tawhid: Exposé de la religion musulmane. trans. B. Michel and Moustapha Abdel Razik (Paris: Paul Guethner, 1925), pp. 123-130. In this paragraph, subsequent references to this work are given parenthetically in the text. This work, which was first published in 1897, is a reworking of lectures deliverd in Beirut in 1885-1888.

٢٢ — Muhammad Rashid Rida, Ta'rikh al-Ustädh al-Imam al-Shaykh Muhammad 'Abduh. 2nd ed. (Cairo: al-Manär, 134411/1925-26), II, 506.

٢٣ — Ibid., pp. 507, 353.

٢٤ — Ibid., p. 506.

٢٥ — Ibid., pp. 515-516.

٢٦ — See'Abduh's al-Isläm wa al-nasräniyah ma'al-'ilm wa al-madaniyah [Islam and Christianity Compared with Respect to Science and Civilization], ed. Muhammad Rashid Rida, 7th ed. (Cairo: al-Manär, 136711/1947-48), esp, pp. 62-64 (for Islam as the final and perfect religion), and pp. 81, 119-121, 151-154 (for Arab revival as the foundation of Islamic revival). This book, which was first published in 1902, is a compilation of articles which had previously been published in periodicals.

٢٧ — Al-Manär, I, no. 40 (I Sha,bän 1316/Dec. 24, 1898, 2nd printing 132711/1909), 799, 800, 800-801, 885. Rashid Rida had already expounded these ideas at length in a series of articles: ibid, 606-610, 628-633, 649-655, 670-679, 696-704, 722-730.

٢٨ — Al-Manär, I, 764-771, 788-793 (quotation on 770).

٢٩ — Quoted in Sylvia G. Haim, «Intorno alle origini della teoria del panarabismo», Oriente Moderno, XXXVI (1956), 415, 416. The passages were published in May and July, 1900.

٣٠ — 'Abd al-Rahmän al-Kawäkibi, Umm al-qura [The Mother of Villages (one of the names for Mecca)] (Cairo: al-Matha'ah al-Misriyah bi-al-Azhar, 135011/1931), p. 3. Subsequent references to this book and the following paragraphs will be given in the text.

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

٣١ — For a discussion of al-Kawäkibi's caliphate, see Sylvia G. Haim, «Blunt and al-Kawäkibi», Oriente Moderno, XXXV (1955), 132-143.

٣٢ — Relatively few Christians actually participated in the Arab political movement of the early twentieth century. They worked instead for Lebanese or Syrian nationalism . Al-Yäziji himself exhibites traces of Syrian nationalism in his essay, «Syria»: Säba, pp. 93-95.

٣٣ — Adib Ishaq, Al-Durar [The Pearls], ed. 'Awni Ishaq (Beirut): al-Matha'ah al-Adabiyah, 1909), p. 105. In this and the succeeding paragraphs, further references to this work will be given in the text.

٣٤ — Shidyäq, Appendix, p. 2; see also pp. 703-704.

٣٥ — Text of Maträn's speech in al-Mu'tamar al-'arabi al-awwal [The First Arab Congress] (Cairo: al-Lajnah al-'Ulya li-Hizb al-Lämarkaziyah, 133111/1913), pp. 58, 55, 56.

٣٦ — Sylvia G. Haim, «The Arab Awakening»: A Source for the Historian? Die Welt des Islams, n. s., II (1953). p. 249, n. 1. For a later (1930) expression of the same idea, see Oriente Moderno, X (1930), 57, 37.

٣٧ — Ishaq, pp. 102, 454, 165.

٣٨ — Additional evidence of Christian Arab Ottomanism and resentment of the West, including Protestant missionary activity, is contained in A. L. Tibawi, British Interests in Palestine, 1800-1901: A Study of Religious and Educational Enterprise (New York: Oxford University Press, 1961), pp. 9-12, 21-28, 89-116, 175-177, and the same author's «The American Missionaries in Beirut and Butrus al-Bustäni», St Anthony's Papers, no. 16 (Carbondale: Southern Illinois University Press, 1963), pp. 166, 170-173. See also Hourani, rpt., pp. 99-102, on Bustäni's thought.

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

١٩١٩ : الاندفاعة العمالية والثورة الوطنية

Joel BEININ and Zachary LOCKMAN جويل بينين وزخاري لوكمان

ظلت الطبقة العاملة المصرية هامدة لا تحرك ساكناً خلال السنوات الأولى من الحرب العالمية الأولى ، وبدا واضحاً أن الحركة القومية التي أمدتها بالقسط الأكبر من القادة قد تم قمعها ، وفرض على مصر في عام ١٩١٤ صيغة أكثر مباشرة من الحكم البريطاني وأخذ المخططون الاستعماريون يتطلعون بثقة أعظم إلى دمج البلد في الإمبراطورية بعد انتهاء الحرب دون مواجهة أية عقبات . إلا أن الحرب وأوزارها لم تكن لتمر دون أن تخلف أثراً سيكون نقطة تحول كبرى في التاريخ المعاصر سواء في مصر أو في أية دولة أخرى من الدول العديدة الممتدة من قلب أوروبا إلى مستعمرات آسيا ، وفي الحين الذي انهار فيه النظام القديم في أغلب العواصم الأوروبية ثار العديد من الشعوب الخاضعة للسيطرة الاستعمارية ثورة نضالية امتازت أحياناً بالعنف طلباً للاستقلال وكانت مصر في عام ١٩١٩ جزءاً من الموجة العارمة للاندفاعة الثورية القديمة التي اجتاحت الهند والصين وإيرلندة وتركيا والمشرق العربي ، وكانت الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي أحاطت بمصر عقب الحرب بمثابة الفتيل الذي أشعلته مشاعر التذمر والاستياء القومي فتمخض عن الانتفاضة الشعبية ضد الحكم البريطاني التي عرفت فيما بعد باسم ثورة ١٩١٩ .

أصبحت فعالية الطبقة العاملة وتنظيمها أحد الملامح الرئيسية الدائمة والهامة للحياة السياسية والاقتصادية للبلاد خلال تلك الثورة والفترة المتطاولة من الاضطرابات والنضال الوطني التي تلتها . وهكذا شهد عام ١٩١٩ ولادة الحركة الوطنية من جديد وانخراط قطاعات

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

واسعة من السكان المحليين البسطاء في النضال لنيل استقلال مصر بالإضافة إلى مولد الحركة العمالية التي ستثبت وجودها بزخم أكبر في السنوات التالية للحرب على الرغم من الهزائم التي أحاقت بها، ومن فترات الوهن الطويلة التي عرفتها. ولم يكن ظهور هذه الحركة في زمن الاندفاعة الوطنية من قبيل الصدفة، فإذا ما أخذنا بعين الاعتبار وضع مصر شبه المستعمرة وصيغة التطور الرأسمالي الذي عرفته لا يمكن لنا أن نفصل المسألة القومية بسهولة عن المظالم الاجتماعية والاقتصادية التي مرت بها الطبقة العاملة وعبرت عنها، لذلك كانت ثورة ١٩١٩ أول بادرة تعبير صريح عن الرابطة الخاصة القائمة بين العمال والوطنيين وهي رابطة بدأت إرهاصاتها تتضح في الدور الذي لعبه الحزب الوطني في شؤون العمال قبل الحرب كما ستسهم إسهاماً فعالاً في إعطاء الحركة النقابية المصرية شكلها في العقود التي تلي.

الجدول رقم (١) أسعار الجملة للمواد الغذائية الرئيسية،
القاهرة (١ كانون الثاني/يناير ١٩١٣ ــ ٣١ تموز/يوليو ١٩١٤ = ١٠٠)

	القمح المحلي	البقول الصعيدية	الذرة الشامية	السكر	طحين	البصل	الزيت	البيض	العدس	الوزن التقريبي
المعدل عام ١٩١٥	١١٢	٨٢	٧٧	١٣٢	١١٦	١٠٨	٩٦	١٠٣	١٠٩	١٠٣
المعدل عام ١٩١٦	١٢٣	١١١	٩١	١٤٤	١٣٥	٩٤	١١٩	١٣٣	١٢٥	١٢٨
كانون ٢/يناير ١٩١٧	١٧٢	١٦٥	١٠٢	١٥٢	١٨٢	١١٤	١٣٦	١٣٠	١٣١	١٥٠
تموز/يوليو ١٩١٧	٢٠٤	١٩٢	١٦٧	١٦٠	٢٢٩	١١١	٢٠٧	١٣٦	١٦٧	١٩٣
المعدل عام ١٩١٧	١٩٩	١٦٢	١٣٨	١٧٩	٢١١	١٤٩	١٦٥	١٥٩	١٣٩	١٧٦
كانون ٢/يناير ١٩١٨	٢٦٦	١٤٥	١٣٨	٢٤٨	٢٧٧	٢٢٨	١٧١	٢٠٩	١٢٧	٢٠٨
تموز/يوليو ١٩١٨	٢٢٥	١٧٤	١٧٠	٢٥٠	٢٤٨	٧٠	١٩٦	١٩٢	١٦٩	٢٠٦
المعدل عام ١٩١٨	٢٤٢	١٦٥	١٦٤	٢٧١	٢٦٥	١٠١	٢٣٢	٢١٠	١٥٨	٢١١
كانون ٢/يناير ١٩١٩	٢٢١	١٧٠	١٦٦	٢٩٤	٢٤٨	٨٧	٢٩٦	٢٣١	١٦٧	٢١٥
آذار/مارس ١٩١٩	٢٢١	١٧٠	١٦٦	٢٩٤	٢٤٨	٩٠	٣١٤	٢١٥	١٦٧	٢١٦
المعدل عام ١٩١٩	٢٥٧	٢٤٧	١٨٩	٢٩٤	٢٣٩	١٢٩	٣١٨	١٧٨	٢٣٠	٢٣٩

المصدر: Annuaire Statistique 1923/1924, pp. 212—15

صحوة النشاط العمالي

كان لكل فئة من المجتمع المصري في نهاية الحرب العالمية الأولى أسبابها في بغض الحكم

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

البريطاني وتقبل الاهتياج القومي الذي ثار مجدداً، فالحرب قد دمرت اقتصاد البلد، وعلى الرغم من أن ملاك الأراضي الكبار قد استفادوا عموماً من أسعار القطن المرتفعة فقد أثارت حفيظتهم السياسات الرسمية الخاصة بالزراعة والمصممة خصيصاً لخدمة المصالح البريطانية لا لخدمة مصالحهم هم. وعانى القسم الأعظم من الفلاحين من مصادرة دوابهم وحبوبهم ثم من سوقهم الإجباري بمئات الآلاف أثناء نشوب الحرب للقيام بأعمال قسرية مع جيوش الحلفاء في الشرق الأوسط وأوربا، وأدى الضعف المؤقت للروابط مع الاقتصاد الأوربي إلى تنشيط تلك الصناعات المنتجة لبدائل عن المستوردات التي لم تعد متوفرة أثناء الحرب أو الصناعات التي تقوم بتوفير ما يحتاجه الأثرياء المصريون وكذلك قوات الحلفاء المتمركزة في مصر. وارتفعت أعداد المستخدمين العاملين في الصناعة إجمالاً، إلا أن بعض الصناعات كصناعة التبغ مثلاً تضررت ضرراً بالغاً بفقدها لأسواق التصدير ومصادر المواد الخام فسرّحت العديد من العاملين فيها[1].

لم تلبث المكاسب التي أحرزتها الطبقة العاملة في المدينة سواء في الحصول على عمل

أو على أجور أن تبددت على يد عاملين متضافرين أسهما في تحديد الوضع الذي سيؤدي إلى المد المتعاظم لتذمر العمال في ١٩١٧ ــ ١٩١٨ وكذلك في إعداد الساحة التي ستتفجر منها الثورة الاجتماعية عام ١٩١٩، كان أول هذين العاملين هو النقص الهائل في المواد الغذائية خاصة في المدن الكبرى. إذ أدت الاحتياجات التي لا تنتهي لقوات الحلفاء بالإضافة إلى قطع الإمدادات الأجنبية وازدياد المساحات المزروعة قطناً بعد رفع الحظر، إلى نقص حاد في المؤونة الغذائية مع نهاية ١٩١٧. وأفضى هذا العامل بدوره إلى عامل آخر وتضافر معه وهو ارتفاع معدل التضخم ارتفاعاً كبيراً، كان سعر العديد من المواد الغذائية يرتفع شيئاً فشيئاً ولكن بمعدل ثابت ما بين ١٩١٥ و١٩١٦ إلا أنه قفز قفزة عملاقة مفاجئة بعد ذلك العام كما يبين لنا الجدول رقم (١). وأخذت أسعار التجزئة ترتفع بمعدل أسرع من أسعار الجملة في الحين الذي باءت فيه مساعي الحكومة لتحديد أسعار قصوى للمواد الغذائية الأساسية بالفشل وكذلك لم تفلح محاولتها لاستيراد قمح من أستراليا لتوزيعه كخبز بسعر أقل من الكلفة. وكان أثر تواقت نقص المواد الغذائية والتضخم المالي مدمراً على مستوى معيشة العمال المأجورين والمستخدمين برواتب شهرية والذين انتهى بهم الأمر إلى السعي لسد رمقهم بكفاف العيش لا أكثر. وقد أجرت السلطات البريطانية بعض الحسابات؛ فوجدت مثلاً أن النفقات الشهرية الخاصة بالطعام وحده لعائلة متوسطة في

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

القاهرة « من أفقر الطبقات » ارتفعت من ١٠٩ قروش في الشهر في شباط /فبراير ١٩١٤ إلى ٣٠٥ قروش عام ١٩١٩[٢] . وكان للانحدار السريع في معدل الأجور الفعلية للعديد من العمال المصريين والذي تسبب في معاناة وبؤس للكثيرين ، اليد الطولى في صحوة النشاط العمالي خلال السنة الأخيرة من الحرب .

لم يكن بإمكان العمال المصريين بحكم شروط القانون العرفي أن يعبروا عن مظالمهم إلا من خلال تقديم عرائض للسلطات ، وكانت شكاواهم تشبه تلك التي تقدموا بها قبيل الحرب : الأجور الزهيدة ، ساعات العمل ، المعاملة الفظة ، والطرد من العمل دون سبب عادل . إلا أن اللهجة المتواضعة بل المنسحقة المتذللة الخنوع لبعض تلك العرائض إنما تعكس الآثار المحبطة للقمع أيام الحرب[٣] ، ولكن مع انحسار جبهة القتال باتجاه الشرق بعيداً عن حدود مصر ومع تراخي قبضة النظام المحكمة إلى حد ما بدأ العمال باستئناف نشاطهم المنظم ومواجهة مستخدميهم بعزيمة أشد ، وبدأ شبح التهديد بالقمع يفقد هيبته في حين أصبح اتخاذ خطوات فعالة في مضمار العمل أمراً لا مناص منه في قلب دوامة التضخم التي أخذت تتسارع وتشتد قوتها .

كانت أول فئة من العمال تستلم زمام المبادرة هي الطليعة الأساسية الأولى في الحركة العمالية وهي عمال لفائف التبغ . إذ تدهور وضعهم الذي كان سيئاً قبل ١٩١٤ وأصبح أصعب مع ما لحق بهم أثناء الحرب ؛ فالأجور قلت والبطالة ارتفعت . وتم تنظيم إضراب منذ آب/أغسطس ١٩١٧ في مصنع كوتاريللي في الاسكندرية وشهر شباط/فبراير الذي تلا سلسلة من الإضرابات الأكبر حجماً ابتدأت في الاسكندرية والقاهرة معاً . وتمكن عمال التبغ في الاسكندرية من إحراز مكسب متواضع عندما ازدادت أجورهم زيادة بسيطة بسبب تنظيمهم المحكم والتزامهم الدقيق بالنظام وتعاطف الصحافة معهم في حين كان المضربون في القاهرة أقل تماسكاً ووحدة وواجهوا قمعاً شديداً على يد رجال الشرطة . ويقول رسل T.R. Russell وهو مساعد القائد العام لشرطة القاهرة ــ في رسالة له لأحد أصدقائه :

> « كنت مشغولاً لمدة أربعة يام مع بعض لفّافي السجائر المضربين ، لدينا بالطبع قوانين صارمة للغاية بشأن التجمعات غير القانونية ، وقد رفض حوالي خمسمائة مضرب هذا الصباح قبول الشروط الممتازة التي حصل عليها المحافظ [في القاهرة] من الشركة لصالحهم ، وجاؤوا إلى هنا بأعداد كبيرة فأمرتهم بالمضي في حال سبيلهم ولكنهم أعلنوا عندئذ عزمهم على

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

السير باتجاه قصر عابدين، تركتهم يبدأون مسيرتهم ثم أرسلت من يبلغهم أنني سأقابلهم ثانية، عادوا جميعاً إلى مقر القيادة وعندما تأكدت من وجودهم جميعاً داخل الباحة أقفلت البوابة وشددت عليهم الحراسة وقمت بتفتيشهم وتدوين أسمائهم جميعاً ثم قرأت عليهم البنود المتعلقة بإثارة أعمال الشغب وصرفتهم، بلغني أنهم قبلوا بالشروط منذ ذلك الحين (٤).

وما حدث بالفعل هو أن الإضراب في القاهرة لم ينته إلا بمساعدة الشرطة وبعد صدامات عنيفة واعتقال أعداد كبيرة.

وليس بالمستغرب أن يكون العاملون بلف السجائر هم البادئون بالنشاطات السافرة النضالية بعد ثلاث سنوات من الصمت، فقد ظل هؤلاء العاملون ينتمون للنخبة بين صفوف الطبقة العاملة ــ فأجورهم مرتفعة وتعليمهم متقدم نسبياً وفيهم نسبة عالية من الأجانب، وقد أتاح لهم تاريخهم الطويل في النضال والتنظيم الفرصة للتقدم سريعاً في الامتناع عن العمل لفترات محدودة في ١٩١٧ لم تجد نفعاً إلى الإضرابات العامة المثمرة عام ١٩١٨، وتمكنوا دون صعوبة تذكر من إحياء النقابات التي أنشأوها لأول مرة منذ أكثر من عشر سنوات. وكانت هذه الخطوة بالفعل ضرورية جداً بالنسبة لهم إذ أنهم كانوا مهددين ليس بالبطالة التي ترافق الأزمات الاقتصادية وبانخفاض الأجور فقط بل بالخطر الماثل لتهديد المكننة. بدأت فئات أخرى من العمال بتصعيد نشاطاتها بحذر خلال الأشهر القليلة التي تلت، وكان من بينهم عمال الترام في القاهرة الذين بدأوا منذ كانون الأول/ديسمبر ١٩١٨ بالمطالبة بشروط مماثلة لتلك التي قاتلوا للحصول عليها عام ١٩٠٨ ــ ١٩١١. لم يكن لديهم آنذاك أية صيغة من صيغ التنظيم النقابي وكانوا يقتصرون على تقديم العرائض للإدارة إذ كان من شأن الإضراب أن يؤدي حتماً إلى مواجهة مع السلطات لم يكن للعمال أي فرصة للخروج منها بمكسب. إلا أن الحركة النقابية أخذت تنتعش مع بداية عام ١٩١٩ وبدأت معالم الحياة والحركة تدب بين صفوف العمال في مختلف الحرف.

كانت إحدى هذه العلائم ظهور (نقابة عمال للحرف اليدوية) من جديد في الاسكندرية التي ستبقى ركيزتهم الأساسية من الآن فصاعداً. وقد أعيدت هذه المنظمة إلى الحياة على يد النقابيين النشطين في الفرع المحلي قبل الحرب وبتعاون الحزب الوطني الذي دب فيه النشاط شيئاً فشيئاً. وسعت نقابة العمال هذه كعهدها من قبل إلى توحيد جميع العمال والحرفيين المصريين بغض النظر عن حرفتهم أو علاقتهم بملكية وسائل الإنتاج ــ وضمهم

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

جميعاً تحت جناح منظمة تشمل المدينة بأسرها، وهذا نقيض ما نجده في النقابات الحرفية والصناعية التي كانت في ذلك الحين تعيد تأسيس صفوفها أو تتشكل من جديد على يد العمال المصريين والأجانب. كانت (نقابة العمال للحرف اليدوية) مدركة كذلك الفرق ومصرة على تأكيد أن النموذج الذي تمثله إنما هو النموذج الأكثر ملاءمة للحركة العمالية، ويطرح البيان الذي أصدرته النقابة بعد أيام قليلة من إعادة تأسيسها رسمياً في بداية آذار/مارس ١٩١٩ ذلك الرأي فتقول:

«تدعو النقابة في الاسكندرية جميع العمال خارج صفوفها للانضمام إليها لأن ذلك سيخلق وحدة ويعزز قوة النقابة في مسيرتها، ونحن نحذر العمال من أولئك الذين يتسللون إلى صفوفهم لتحريضهم على إنشاء نقابة جديدة تدمر وحدتهم، فليس هناك أي داع لوجود عدة نقابات في مدينة واحدة مثل الاسكندرية»(٥).

ويعكس هذا التحذير دون شك رغبة (نقابة العمال) ومناصريها ومن يرعاها من الحزب الوطني في احتكار تنظيم الطبقة العاملة المصرية في الاسكندرية، مع أن التحذير يعكس أيضاً نوعاً من الوعي ما يزال متأصلاً في الأوساط الاجتماعية للإنتاج السلعي البسيط ولعدم التفرقة بين العمال المأجورين من جهة وبين الحرفيين والملّاك الصغار ومستخدميهم من جهة أخرى. ومن شأن هذا المنظور أن يخفف من حدة الفوارق الحقيقية والمحتملة بين هذه الفئات بتصنيفها جميعاً في خانة مثالية تحت اسم «عمال الحرف اليدوية». وعلى الرغم من أن الحزب الوطني وما ينطوي تحت لوائه من منظمات عمالية بقي مخلصاً لوجهة نظره هذه لسنوات عدة إلا أنه أصبح مغرقاً في بعده عن الحل الملائم لواقع الطبقة العاملة فيما بعد الحرب وللحركة العمالية. إلا أن النقابة في ١٩١٩ في الاسكندرية أحرزت نجاحاً ملموساً في مساعيها لتنظيم عمال السكك الحديدية وهم القاعدة التقليدية التي تقدم الدعم من ضمن فئات العمال في الصناعة الحديثة. وكانت (نقابة العمال) هي أول منظمة تعاود الظهور على المسرح العمالي المحلي، إذ كان لديها سجلّ عمالي معروف ومصداقية سياسية متينة وكان الدكتور محجوب ثابت يتبوأ مركز القيادة فيها إبان تلك السنة الحافلة بالأحداث، وهو أحد رواد الاندفاعة الثورية العمالية ــ القومية فيما قبل الحرب ويتمتع بشعبية واسعة بين صفوف العمال.

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

العمال المصريون والوطنية المصرية

إن البحث في الكيفية التي دب فيها النشاط مجدداً في الحركة العمالية في نهاية عام ١٩١٨ وخاصة في الشهرين الأولين من ١٩١٩ يجب أن يتم ضمن سياق التطورات السياسية؛ فالحرب انتهت في أواخر تشرين الثاني ١٩١٨ وأضحت مسألة وضع مصر المستقبلي أمراً مطروحاً وملحاً. وقامت مجموعة من السياسيين والوجهاء الوطنيين معظمهم من ملاك الأراضي الكبار بتشكيل وفد بقيادة سعد زغلول باشا طالب بحق التقدم بطلب استقلال مصر في مؤتمر السلام، إلا أن السلطات البريطانية رفضت الاعتراف بـ«الوفد» أو السماح له بالسفر إلى أوروبا للدفاع عن مطالبه، وكان رد الوفد أن نظم حملة جمع فيها تواقيع الموظفين المنتجين السابقين والأعيان وأعضاء آخرين من الطبقات المتوسطة العليا وأناط بهم دور الممثل الشرعي الوحيد للأمة في النضال السلمي لتحقيق الاستقلال، ثم تمت إضافة ممثلين آخرين من الحزب الوطني ــ اختارهما زغلول وليس الحزب وبدا واضحاً أن زغلول قد أصبح الزعيم القوي المحبوب للحركة الوطنية ــ كما أضيف ممثلون عن الجالية القبطية إلى مجموع الوفد، وأدت الشعبية المتزايدة للوفد وما أثاره من الرأي العام من حوله إلى استقالة الحكومة المصرية التي كانت خلافاً للوفد لا تعارض من حيث المبدأ الوصاية المفروضة وبهذا فقدت مصداقيتها كمتحدث باسم الأمة. وحاول البريطانيون إيجاد مخرج من تلك الأزمة السياسية وإخماد الاندفاعة الثورية القومية فاعتقلوا زغلول وثلاثة من زملائه في ٨ آذار/مارس ١٩١٩ ونفوهم إلى مالطا[٢].

ليس هناك ما يثبت وجود أي ارتباط مباشر بين ما استثاره الوفد من اهتياج سياسي في بداية عام ١٩١٩ والمد المتزايد للإضرابات العمالية. إذ لم يكن لدى أعضاء قيادة الوفد اهتمام يذكر بمشاكل الطبقة العاملة في المدن أو حتى بالمشاكل الاجتماعية عموماً، بل كانوا يسعون أساساً إلى تحريك الرأي العام للطبقات الوسطى والعليا لإنجاح حملة مسالمة لتحقيق استقلال مصر ــ أي إلى نضال يرغم البريطانيين على نقل السلطة إلى صفوة أبناء البلد. وبالطبع فإن منظمي الوفد والأعضاء النشيطين فيه كانوا ينتمون إلى طبقة «الأفندية» نفسها التي اجتذبها الحزب الوطني قبل الحرب. وعلى الرغم من أن القمع الذي فرض أثناء سنوات الحرب قد نال من قوة الحزب وأوهنه فإن الحزب بقي متمسكاً بمطالبه دون هوادة لتحقيق سلام مباشر غير مشروط، كما أبدى اهتماماً بالمشاكل الاجتماعية، أما الوفد فكان غير مبال بـ ــ أو على الأقل متحفظاً حيال ــ المسائل الاجتماعية. فقادته كانوا ملتزمين بإيجاد الطرق القانونية للنضال ولم

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

يكونوا ليتوقعوا قبل آذار/مارس ١٩١٩ أي هيجان شعبي عام ناهيك عن قيام ثورة، كما لم تكن لديهم أي رغبة في تشجيع قيام شيء كهذا.

وإذا ما كانت قيادة الحركة الوطنية المصرية فيما بعد الحرب تنحصر عموماً في الطبقة العليا ومحافظة إجمالاً ــ حتى بالمقارنة مع الحركات الوطنية المعاصرة الأخرى مثل المؤتمر القومي الهندي أو الكومنتانغ، فذلك لايعني أن ما تطالب به لم يكن يمثل مصالح الطبقات الأخرى، على الأقل إلى حدٍ ما. وقد استجابت الغالبية العظمى لدعوة الوفد في ١٩١٩ لأسباب شتى، فالصراع ضد المحتل الأجنبي والهدف من هذا الصراع (الاستقلال التام) يعني أشياء مختلفة لفئات مختلفة من المجتمع المصري.

إن الدوافع الكامنة خلف دعم الطبقة العاملة المدينية للقضية الوطنية عام ١٩١٩ هي أساساً ذات الدوافع التي أوجدت الرابطة بين الطبقة العمالية والحزب في ١٩٠٨ ــ ١٩١١، فالتمييز الطبقي بالنسبة لمعظم العمال المصريين كان يترافق مع التقسيمات الاثنية والقومية في مواقع العمل. وكانت ظروف العمل البائسة والمعاملة الفظة الجائرة على يد المستخدمين ومراقبي العمل الأجانب ترتبط في أذهان العمال الذين يرزحون تحت وطأتها بالسيطرة الأجنبية على الاقتصاد وبالحكم البريطاني. كان نظام الاحتلال يحمي سلطة الاجانب وامتيازاتهم، أولئك الأجانب الذين يتحكمون بحياتهم في العمل والذين كان سلوكهم المتعجرف المجحف مثار استياء العمال وسخطهم. وعندما حاول العمال أن ينظموا أنفسهم ويحسنوا ظروف معيشتهم ظهر واضحاً الدور الذي لعبته قوات الشرطة التي يسيطر عليها البريطانيون في إخماد الإضرابات وممارسة صنوف القمع والاضطهاد ضد العمال. وكان من المحتم أن تتحد مشاعر الاضطهاد التي أحسها العمال الذين يعانون من ظروف تشتد بؤساً وعناء في العمل والمعيشة اليومية على يد المستخدمين الأجانب أو الحكومة التي يتحكم بها الأجانب، مع إحساسهم بالذل والمهانة كمواطنين مصريين خاضعين لحكم أجنبي في عقر دارهم. لذلك كان هناك ما يكفي من الأسباب الملموسة لكي يدعم هؤلاء العمال المصريون بكل حماس حركة وطنية تطمح إلى إنهاء الحكم البريطاني (وهو هدف مرغوب فيه بحد ذاته) والتي قد توفر لهم ــ إذا ما بسطت السيطرة والسيادة المصريتان ــ ظروفاً أفضل ليتمكنوا من خلق حياة أكرم لأنفسهم. كما كان لفئات من البرجوازية المصرية أسبابها الخاصة ومصالحها المبتغاة في سعيها لإنهاء الهيمنة الأجنبية على اقتصاد البلاد. إذ كان لوطنية الطبقات الوسطى والعليا مكونات اقتصادية تخلق حلقة تواصل بينها وبين العمال المصريين، وكان هناك قاسم مشترك بين جميع الطبقات تقريباً؛ مجموعة مشتركة من الأعداء والأهداف

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

بحيث قدمت الطبقة العاملة الفتية دعمها للقضية الوطنية وساهمت في أنشطتها وتقبلت قادتها البرجوازيين .

كان مدّ الفعاليات العمالية قد بدأ بالارتفاع منذ ما قبل آذار/مارس ١٩١٩ ، إذ استحثه مهماز التضخم المالي والبطالة التي تزداد انتشاراً نتيجة انكماش الصناعات الذي أعقب الحرب وكذلك البؤس والمعاناة والمظالم التي تراكمت جميعاً خلال سنوات الحرب . إلا أن العمال بموجب أحكام القانون العرفي كانوا يجدون صعوبة فائقة في تنظيم صفوفهم وكذلك في القيام بإضراب يحقق أي نجاح مأمول كما يتضح لنا من تجربة عمال لفائف التبغ في القاهرة . هزت الثورة الوطنية الشعبية التي اندلعت في آذار/مارس ــ نيسان/أبريل ١٩١٩ أركان نظام الاحتلال هزاً وأوجدت ظروفاً سياسية يمكن للعمال الذين زاد عددهم خلال الحرب أن ينظموا خلالها أنفسهم سريعاً ويبدؤوا بالإضرابات لتحقيق مطالب اقتصادية واندمج نشاطهم هذا اندماجاً كلياً بالنضال الوطني ، وساندت الانتفاضة الشعبية التي جاءت عفوية وجماهيرية هذه الحركة الاجتماعية الجديدة وأمدتها بالقوة ومكنتها من الانتشار السريع وتحقيق انتصارات متلاحقة . وكان عمال الترام والسكك الحديدية خلال هذه الفترة من الاضطرابات السياسية والاجتماعية في طليعة الحركة العمالية من جديد . وتُبين لنا دراسة مشاركتهم في المرحلة الأولى من ثورة ١٩١٩ وهي التجربة التي شكلت نوعاً ما الحركة العمالية المصرية ــ التفاعل بين الأبعاد القومية والطبقات الاجتماعية وهو تفاعل كان على غاية من الأهمية والحيوية في معظم ما تلا من تاريخ الحركة العمالية المصرية .

عمال الترام في القاهرة إبان الثورة

تتألف القوة العاملة التي تسيّر نظام الترام في العاصمة المصرية من حوالي ٢٫٠٠٠ ألفي عامل عام ١٩١٨ وهو انخفاض في العدد يقارب ١٠٪ مما يوازيه قبل قيام الحرب . غير أن عدد الركاب في الفترة نفسها قد انخفض بحوالي ٣٠٪ إذ أن عدداً إجمالياً أقل من العمال كانوا ينقلون ركاباً أكثر بكثير في حافلات أكثر ازدحاماً ضمن رحلات نقل أقل عدداً عما قبل ، وكل ما سبق يشير إلى استعجال في المردود تتطلبه الإدارة وتدهور في ظروف العمل[٧] . وتضمنت المطالب التي تقدم بها العمال إلى الشركة في نهاية عام ١٩١٨ العمل لمدة ثماني ساعات يومياً وزيادة كبيرة في الأجور (كان السائقون والجباة يتقاضون ما بين عشرة إلى خمسة عشر قرشاً عن عشر ساعات إلى اثنتي عشرة ساعة يومياً وهو أجر لم

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

يتغير منذ عام ١٩٠٨) ، وأيام عطل مدفوعة الأجر وكذلك معاملة أفضل من المشرفين ونظام عقوبات أكثر عدلاً ومساواة ، وحساب الأجر المقطوع تبعاً لسنوات الخدمات وبذلات عمل مجانية[٨] . وتتطابق هذه المطالب مع تلك التي قدمت قبل الحرب ، الأمر الذي يدل على أنه لم تطرأ أية تحسينات في العلاقة بين العمال والمشرفين ولكنه يعكس أيضاً تأثير الانخفاض الذي طرأ نتيجة للحرب على الأجور المدفوعة ، والاستغلال المغالى فيه الذي يقع ضحيته العمال ، لم تستجب شركة الترام القاهرية للمطالب وبدأ العمال في الأشهر الأولى من عام ١٩١٩ بتنظيم صفوفهم ، وعندما اندلعت الثورة كانوا على أهبة الاستعداد للانقضاض وانتهاز الفرصة .

اعتقل سعد زغلول وثلاثة من زملائه في الثامن من آذار/مارس ، وشهد اليوم التالي مظاهرات احتجاج سلمية قام بها الطلبة وفي العاشر من ذلك الشهر أضرب جميع طلاب العاصمة بما فيهم طلبة الأزهر وهو المسجد العظيم ومركز التعليم الإسلامي ، واصطدمت في ذلك اليوم مظاهرة ضخمة بقوات الأمن وسقطت أولى الضحايا التي ستقدمها الثورة . وشهدت الأيام والأسابيع التي تلت انفجارات حقيقية من الاحتجاج الطلابي وقامت مظاهرات يومية تقريباً في الشوارع في جميع المدن المصرية ووقعت صدامات دامية مع القوات العسكرية البريطانية ، ورافق ذلك هجمات على المعسكرات البريطانية والأفراد وقطعٌ للسكك الحديدية وأشكال أخرى من العنف الثوري السائد .

كانت إحدى هذه الأشكال تدمير حافلات الترام ــ وأصبح ذلك أحد الإجراءات الشائعة المتكررة لاندلاعات الاحتجاج الشعبي . وكان قلب حافلات الترام وتخريبها وسيلة فعالة لشل حركة النقل العام في العاصمة كما هي وسيلة للتنفيس عن الغضب الجماهيري بتدمير رمز بارز من رموز السلطة الاقتصادية الأجنبية ، وربما نبع هذا الغضب من كون أجرة الدرجة الثانية في الترام والتي لا تتعدى الخمسة مليمات (نصف قرش) كانت أجرة باهظة لم يكن في وسع الكثير من المصريين الفقراء دفعها . وبحلول الحادي عشر من آذار/مارس توقفت حركة الترامواياات كلها في القاهرة واعتقد الناس في البداية أن الشركة قد أوقفت أعمالها إلى حين لحماية ممتلكاتها من المتظاهرين ، غير أن الأمر لم يلبث أن اتضح وتبين أن هجمات المتظاهرين وإن أسهمت في تعطيل خدمات الترام إلا أن الحركة توقفت في القاهرة لأن عمال الترام قد أعلنوا الإضراب . كما توقف سائقو سيارات الأجرة (التاكسيات) عن العمل ولم تمر سوى بضعة أيام حتى كانت جميع وسائل النقل العام من عربات الحنطور إلى الحافلات التي تجرها البغال قد توقفت عن الطواف في الشوارع تماماً[٩] .

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

وقد بلغت أنباء إضراب عمال الترام مسامع السلطات البريطانية سريعاً دون شك إذ تلقى المفوض السامي برقية من شخص يدعى يوسف خليل يعلن فيها بدء الإضراب ويطالب باسم عمال الترام أن تتدخل السلطات البريطانية لدى شركة الترام القاهرية، إلا أن مقر المندوب السامي لم يكن حريصاً على القيام بدور الوسيط؛ وبالفعل فقد علق أحد المسؤولين بقوله إن العمال يتقاضون أجوراً معقوله ويعملون ساعات مقبولة منطقياً، وعلق آخر بأنه «في الحال الراهن ــ حيث لا يضم عقد شركة أجنبية بنوداً حول القوة العاملة ــ [أي اتفاقية امتيازات] فإنه ليس بمقدور الحكومة المصرية التدخل ما لم تلتمس الشركة مساعدتها في تسوية الخلافات مع مستخدميها»[١٠].

غير أن الذرائع القانونية المنمقة حول هذه المسألة لم تكن إلا لغواً، إذ لم يكن في وسع السلطات البريطانية في الواقع أن تتدخل بحزم كما فعلت في ١٩٠٨ أو في ١٩١١. فالوضع الثوري الذي كان سائداً في آذار/مارس ونيسان/أبريل ١٩١٩ جعل من المتعذر محاولة إنهاء الإضراب على يد السلطات البريطانية. وانتشرت قوات الشرطة والجيش في العاصمة وسواها من مدن مصر انتشاراً واسعاً قلل من جدواها في محاولةٍ لإخماد التهديدات الأشد خطراً وإلحاحاً على السلطات البريطانية ولفرض النظام. وتمتع إضراب عمال الترام في الوقت نفسه بشعبية واسعة ودعم جماهيري، إذ اعتبر السكان المحليون في القاهرة هذا الإضراب جزءاً هاماً من النضال الوطني وعبروا عن تعاطفهم ودعمهم للعمال كإخوان مصريين يعانون من قمع الرؤساء الأجانب في العمل، وحتى عندما أفلحت شركة الترام في تشغيل بضع حافلات تحت حراسة مشددة من الجنود البريطانيين بقيت الحافلات خاوية بسبب المقاطعة العامة لها، وبمرور الأسابيع استخدمت وسائل شتى أخرى لإبقاء وسائل المواصلات معطلة، وكتبت الصحافة اللندنية في أوائل نيسان/أبريل أن عمال وموظفي الترام والسكك الحديدية والموظفين الذين لم ينضموا إلى الإضراب تعرضوا لهجوم ورشقهم المعتدون المجهولون بالأحماض الكبريتية، ويعتقد أن المهاجمين هم من العمال المضربين أو أعضاء في إحدى المنظمات القومية السرية، ولا ريب أن استخدام العنف والتهديد به قد نجح في تخويف الشركة والموالين لها وأصبحت أمثال هذه الأفعال تعاقب بالموت نتيجة لصدور قانون عرفي أعلن في السادس عشر من نيسان/أبريل[١١].

شجب (الوفد) مثل هذه الاعتداءات وأدان علناً جميع أشكال العنف وذلك في خضم ثورة جماهيرية، وعلى الرغم من أن لبعض قادة الوفد روابط سرية مع المنظمات الإرهابية السرية فإن معظم الوفديين البارزين كانوا يخشون فعلاً انتشار أعمال العنف

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

ويتوجسون خيفة من أن تقوم الجماهير إن أطلق لها العنان بتهديد الممتلكات والنظام الاجتماعي، وحذرت قيادة الوفد في مصر الناس في بيان لها صدر في ٢٤ آذار/مارس من أن:

«أصدرت السلطات العسكرية تحذيراً بأنها ستلجأ إلى استخدام أشد الإجراءات العسكرية قسوة كعقوبة لدى تعرضها للاعتداءات على وسائل النقل والممتلكات العامة. ومن الواضح للجميع أن أي اعتداء على الأفراد أو الممتلكات ممنوع بموجب القانون الإلهي وقانون البلاد وإن تخريب وسائل النقل يلحق الأذى دون شك بأهالي بلدنا.. لذلك فإن الموقعين أدناه يعتبرون أن من واجبهم الوطني المقدس الإحجام عن القيام بأي اعتداءات ويطالبون الجميع ألا يخرقوا القانون ويقفوا عثرة في طريق أولئك الذين يخدمون الأمة بالوسائل القانونية».

وجاءت هذه المناشدة استجابة للإعلانات الرسمية عن تطبيق عقوبة الإعدام على أي فرد تثبت إدانته في محكمة عسكرية بريطانية تتحقق من أنه يعترض سبيل العمل العادي للسكك الحديدية أو الخدمات البرقية أو الهاتفية بأي شكل من الأشكال، وكان هذا النوع من التخريب بالذات واسع الانتشار بين الفلاحين في القرى، وعلى الرغم من أن هذه المناشدة قد ذيلت بتواقيع عدد كبير من الباشاوات وكذلك القادة الدينيين المسلمين والمسيحيين فإنها لم تجد فتيلاً في كبح مد العنف الشعبي، فقد تطلب ذلك إجراءات قمعية صارمة بما فيها إحراق القرى وقصفها بالقنابل جواً وأخيراً قبول البريطانيين بتنازلات سياسية(١٢).

استمر إضراب الترام القاهري خلال شهر آذار/مارس وبقي صامداً في شهر نيسان/أبريل بينما تفاوض العمال وشركة الترام القاهرية إلا أن الطرفين لم ينجحا في الوصول إلى تسوية، وقامت الشركة ببعض التنازلات نتيجة ضغط المندوب السامي الذي كان ينتظر بفارغ الصبر إنهاء النزاع وإعادة العاصمة إلى الحياة الطبيعية، وفي الثامن والعشرين من آذار/مارس على سبيل المثال أعلنت الإدارة عن تعيين لجنة تحقيق للبحث في التهم الموجهة من المشرفين ضد العمال. إلا أن العمال كانوا موقنين بأن مثل هذه اللجنة ستكون ألعوبة بيد الإدارة ما لم يشارك فيها ممثلون عن العمال يتمتعون بصلاحيات مماثلة؛ ورفض العرض الذي قدمته الشركة. وبقي النزاع قائماً إلى أن حل منتصف شهر نيسان/أبريل وشارك رئيس الوزراء الجديد (حسين رشدي باشا) بدور فعال في المحادثات وتم التوصل إلى اتفاقية حول جميع المسائل المتنازع عليها إلا واحدة، كانت الصيغة الأساسية للتسوية هي يوم عمل من ثماني

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

ساعات وربع وزيادة عامة ودائمة في الأجر اليومي تبلغ قرشاً واحداً مع ضم قرشين إلى المعاش الشهري تعويضاً عن نفقات المعيشة خلال أيام الحرب، وإعطاء العمال المرضى نصف أجر وكذلك يوم عطلة مأجور واحد كل اثني عشر يوماً وإقامة لجنة تحقيق لحل الخلافات القائمة بين العمال والمفتشين بشأن العقوبات، وكانت المسألة الرئيسية التي بقيت معلقة هي مسألة تعويض التسريح. إذ أصر العمال على تعويض شهر واحد على الأقل لكل سنة خدمة، كرادع لإجراءات الطرد الجماعية أو التعسفية وكمبلغ يستعين به العامل على مواجهة أيام الفاقة خلال بحثه عن عمل. واتفق الطرفان على تأجيل المسألة إلى أن يستشير مدير الشركة في القاهرة المكتب الرئاسي في بروكسل غير أن رئيس الوزراء وعد بأن تحل المشكلة بما يرضي العمال[١٣].

كانت تسوية إضراب عمال ترام القاهرة جزءاً من انحسار عام طرأ على الاندفاعة الثورية في نهاية نيسان/أبريل، وعاد رشدي باشا الذي عجلت استقالته في الأول من آذار/مارس بوقوع الأزمة السياسية التي أفضت إلى اعتقال سعد زغلول، فاستأنف منصب رئيس الوزراء في التاسع من نيسان/أبريل بعد أن وافق البريطانيون على إطلاق سراح قادة الوفد والسماح لهم بالسفر إلى أوروبا. واعتبر ذلك بمثابة هزيمة منكرة لنظام الاحتلال ونصراً للوفد. قبل المندوب السامي بهذه التنازلات لإعادة استتباب الأمن والنظام وتندرج تسوية إضراب عمال الترام ضمن تلك السياسة وتعتبر خطوة لتحقيق الغاية ذاتها. ولكن حكومة رشدي لم تلبث أن انقلبت بعد اثني عشر يوماً نتيجة إضراب موظفي الحكومةوالذي كان الأول في سلسلة من موجة إضرابات شملت قطاعات أوسع شارك فيها عمال الترام، وتبع إنهاء إضراب مستخدمي الحكومة في ٢٣ نيسان/أبريل عودة العديد من الفئات الأخرى من المضربين إلى أعمالهم بمن فيهم مجموعة عمال الترام وانحسرت أخيراً موجة الاحتجاج الشعبي والعنف. وهكذا شهد اليوم الأخير من نيسان/أبريل نهاية أول مرحلة نضالية من ثورة ١٩١٩ وانتقل مركز الصراع من أجل الاستقلال في الأشهر التالية من شوارع مصر وأريافها إلى وزارات أوروبا وغرف اجتماعاتها.

يعود الفضل في المكاسب الأساسية التي أحرزها عمال الترام في نيسان/أبريل ١٩١٩ إلى نضالهم وتعاضدهم ولكن كان للظروف السياسية الاستثنائية التي سادت خلال ربيع الاضطرابات ذاك يد طولى في نجاحهم أيضاً. وجدت الدولة نفسها غير قادرة في ذلك الحين على التدخل بعنف وإخماد الإضراب، وحظي العمال بدعم شعبي واسع، وكانت الحكومة المصرية تدعمها السلطات البريطانية سريعة الاستجابة لأسباب سياسية في ممارسة ضغوط

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

على شركة الترام القاهرية لتقديم تنازلات، وتمكن عمال الترام بدافع الوضع الاقتصادي البائس وتعاضدهم مع القضية الوطنية من إحراز مكاسب واستغلال الوضع الفريد الذي دام شهري آذار/مارس ونيسان/أبريل ١٩١٩ للفوز بالعديد من مطالبهم. وتم هذا الفوز الذي لم يسبق له مثيل دون وجود نقابة إلا أنه من المرجح وجود بعض البنى غير الرسمية مثل الاجتماعات بأعداد غفيرة يختار العمال خلالها منتدبين لمفاوضة الإدارة ويستمعون إلى تقاريرهم. ولكن لم تكن المكاسب التي تحققت في نيسان/أبريل مضمونة تماماً، إذ عندما لا تكون هناك نقابة تعترف بها الشركة والحكومة كممثل للعمال ولها السلطة في الإشراف على تنفيذ الاتفاقية فأغلب الظن أن شركة الترام القاهرية ستستعيد سلطتها ونفوذها المطلق عندما تحين ظروف أفضل. استمر المعدل العالي للتضخم المالي في الازدياد وما يزال العديد من القضايا غير محلول نهائياً أو ما يزال بانتظار حل له يرضي الطرفين، لذلك لم يكن أمراً مستغرباً أن تبقى العلاقات العمالية في شركة الترام القاهرية بانتظار تسوية لها في الشهور المقبلة وسيشهد عام ١٩١٩ أمثلة أخرى من الصراع في هذا القطاع ذي الأهمية الحيوية.

عمال السكك الحديدية إبان الثورة

كانت الاضطرابات تزداد حدة بين صفوف عمال السكك الحديدية أيضاً في الأشهر الأولى من عام ١٩١٩ وخاصة في (العنابر) في بولاق حيث يعمل حوالي أربعة آلاف عامل وكذلك في «جبل الزيتون» في حوانيت التصليحات في منطقة (القباري) في الاسكندرية، كانت (العنابر) بالطبع مسرحاً للصراعات بين العمال ومستخدميهم قبل نشوب الحرب وكانت كلتا الورشتين معقلاً للتعاطف الوطني وبالفعل كان اتحاد العمال ناشطاً لدمج عمال جبل الزيتون قبل آذار ١٩١٩ ضمن صفوفه. وقد بعث عمال جبل الزيتون في شباط/فبراير ممثلين مع محامٍ من نقابة العمال اسمه حسين العرارجي بعريضة إلى اللواء ماكولي مدير حركة السكك الحديدية مطالبين بمضاعفة أجورهم ووضع حد للتسريح التعسفي والغرامات وبحقهم في أخذ إجازات للذهاب للحج وبإجازة قصيرة لأداء صلاة الجمعة. وكانت حال عمال السكك الحديدية مشابهة لحال عمال الترام وغيرهم من العمال المصريين من حيث تدني أجورهم وسوء المعاملة التي يتلقونها من المشرفين عليهم والتي كانت جميعاً مسائل أساسية في خلافهم مع السلطة.

واعتبر ماكولي مسألة الأجور أكثر المسائل أهمية ومع أنه كان مدركاً أن بعض العمال

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

لم يتلقوا أي زيادة في أجورهم منذ أمد طويل إلا أنه عد مسألة مضاعفة الأجر أمراً مستحيلاً. وقد اعتبر المطالبة بالأجر أحد أعراض النظرة «الشرقية» الغريبة حيال العمل والأجور.

«الطريقة المحلية في النظر إلى هذه الأمور تختلف كلية عن الطريقة الأوروبية؛ فابن البلد يعتبر نفسه مخولاً أن يتقاضى أجراً يتناسب مع نفقاته، مهما بلغت النفقات في حين يتوقع الأوروبي أن يقدم ويتلقى أجراً يتناسب مع مهاراته ومؤهلاته. ولا يمكن إيجاد ما يجمع بين هاتين الطريقتين في وجهات النظر»[١٤].

ويعكس تحليل ماكولي اعتقاداً سائداً بين الموظفين المستعمرين البريطانيين وغيرهم بأن الشعوب «غير الغربية» ليست قادرة على التفكير المنطقي وأنهم نقيض الأوروبيين في كل شيء وهم ليسوا متخلفين وحسب بل مستعصين على الفهم[١٥]، إلا أن إصرار العمال على أن لهم الحق في أجر يغطي نفقات معيشتهم ليس ظاهرة «شرقية» حصراً، وكان من الواضح أن عمال السكك الحديدية الذين تقدموا بعريضة إلى ماكولي كانوا يعانون حقاً من انخفاض في الأجور التي يتقاضونها، ويبين التقرير الخاص بإنتاج كل عامل في تلك الفترة ذاتها أن الإنتاج قد انخفض بحدة نتيجة سوء التغذية المنتشر بين صفوف العمال[١٦]. والواقع أن مطالب العمال بشأن الأجور والقضايا الأخرى يجب أن تفهم كردود فعل منطقية على الظروف الحقيقية وليس كنتاج لعجز موروث في ملكة «التفكير المحلي».

وعلى أية حال اعتبرت إدارة السكك الحديدية الحكومية المصرية والبرق والهاتف هذا التململ خطراً وقامت بنقل سبعة عمال زعمت أنهم مسؤولون عن إثارة السخط، وزعم العمال الموالون للإدارة في عريضة اعترضوا فيها على ما سبقها؛ أن مثيري الشغب ما هم إلا «حفنة من الرجال السيئي السمعة معروفين بأفكارهم الثورية المستقاة من قراءة الصحف وميلهم للمبادئ البلشفية»، وعلى الرغم من فشل محامي اتحاد العمال السيد العرارجي في إعادة الرجال السبعة إلى مقر عملهم الأول فإن المنظمة استمرت في حشد العمال في جبل الزيتون وغيره في الاسكندرية[١٧].

وتمحورت المطالب التي تقدم بها عمال (العنابر) في القاهرة في هذه الأشهر حول أجور أعلى كذلك، إلا أنها تضمنت المطالبة بساعات أقل ومسائل أخرى أيضاً. وكانت إحدى المظالم التي تفرد بها عمال العنابر هي الاعتراض على جلب مجموعة من الجنود البريطانيين إلى ورشات العمل بحجة اكتساب مهارات فنية. وكان العمال يخشون من أن تكون الإدارة تعتزم تهيئة هؤلاء الجنود للحلول محلهم. وعندما اندلعت الثورة بكل عنفوانها

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

في الخامس عشر من آذار/مارس أعلن عمال (العنابر) الإضراب وأدى ذلك إلى توقف معظم أعمال الصيانة والتصليحات في إدارة السكك والبرق والهاتف وكل ما يخص الحافلات في القطارات توقفاً تاماً. وعمد العمال إلى تخريب صمامات التشغيل وقطع خطوط السكك الحديدية قرب إمبابة مما منع القطارات من الوصول إلى مصر العليا. وتدل أعمال التخريب للممتلكات العامة هذه والتي جاءت بعد يومين من فرض عقوبة الإعدام على من يقوم بمثل هذه الأعمال على أن العمال كانوا بالإضافة إلى مظالمهم في ورشة العنابر مدفوعين بمساندتهم للثورة وهم يعتبرون إضرابهم جزءاً لا يتجزأ من النضال في سبيل الاستقلال. والحق أن الفلاحين في جميع أرجاء البلاد كانوا يقومون بخطوات مماثلة لتخريب النقل بالسكك الحديدية وأجهزة الاتصالات السلكية واللاسلكية.

وأرسلت السلطات البريطانية رداً على أعمال التخريب وحدات من الجيش لاحتلال (العنابر) والمناطق المجاورة لها وسعوا لإغلاق حي بولاق للحيلولة دون أي احتكاك بين أكبر تجمهر سكاني وطني في أقدم وأهم المناطق الصناعية في البلد وبين المظاهرات الجماهيرية والصدامات التي تجري في الأماكن الأخرى من المدينة. وخطط العمال إذ حرموا من المشاركة بحشودهم في المظاهرة الضخمة التي قامت في الأزهر في السابع من آذار/مارس للقيام بمسيرتهم في اليوم التالي لكسر طوق الحصار المفروض على منطقتهم. انضم عمال الصحافة الحكومية المضربون والعديد من أهالي بولاق إلى عمال السكك الحديدية وبدأوا مسيرتهم باتجاه مركز المدينة، وفتحت القوات البريطانية نيران بنادقها على الحشد قرب جسر أبي العلاء ففرقته وقتلت وجرحت العديد من المشاركين في المسيرة[١٨].

كما انضم إلى عمال ورشات السكك الحديدية (أضرب «جبل الزيتون» في ١٦ آذار/مارس) العديد من عمال قسم تنظيم السير واستمر إضرابهم إلى ما بعد حلول شهر نيسان/أبريل. وكما حدث في إضراب عمال الترام استخدمت وسائل الإرهاب والإكراه لمنع المستخدمين الموالين للإدارة من العودة إلى أعمالهم. وذكر أن ستة وعشرين مستخدماً في مديرية السكك الحديدية تعرضوا للاعتداء عليهم برشقهم بالأحماض مع انتصاف شهر نيسان/أبريل، ولكن لا يتطرق الشك إلى أن الأغلبية العظمى من العمال ساندت الإضراب والنضال الوطني الذي يصب فيه الإضراب[١٩]. وتمكن البريطانيون بمعونة الجنود والموظفين الموالين من إعادة تشغيل السكك الحديدية بمعدل أقل بكثير من المعدل المعتاد، ولم يعد العمال المضربون إلى أعمالهم رويداً رويداً إلا بعد إطلاق سراح سعد زغلول ورفاقه. والحق أن إضرابهم هذا تلاشى شيئاً فشيئاً بدلاً من أن ينتهي نهاية مخططاً لها. وهذا يعكس

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

الاضمحلال العام في التعبئة الجماهيرية وعلى الرغم من ذلك فإن الخدمات العامة لم تستأنف مباشرة، إذ استمرت فترات التوقف القصيرة بسبب الأعطال والتباطؤ في الخدمة ثم أضرب الموظفون الإداريون في مديرية السكك الحديدية في منتصف الشهر كجزء من الإضراب العام لموظفي الحكومة، ولم تسمح الإدارة لـ١٥٥ من المضربين بالعودة إلى أعمالهم نظراً «لسجلاتهم السيئة»، واستمرت الإضرابات في بولاق وغيرها خلال شهر أيار/مايو[٢٠].

ظفر عمال السكك الحديدية بشيء من مطالبهم على الأقل كان أهمها زيادة كبيرة في الأجور إلا أن هذه المكاسب تحققت من خلال تدابير المسؤولين في مديرية السكك الحديدية وليس نتيجة لأي شكل من أشكال المساومة الجماعية وهو دليل آخر على الصعوبة التي سيواجهها حتى عمال العنابر المناضلون في تأسيس منظمات ثابتة مستقلة خاصة بهم، وإذا استثنينا نقابة عمال الحرف اليدوية في الاسكندرية، لا يوجد ما يدل على أن عمال السكك الحديدية قد أنشأوا أو أسهموا في أي نقابة خلال شهري آذار/مارس ــ نيسان/أبريل ١٩١٩ مع أنه كانت لهم صلات مع الحركة الوطنية التي يقودها الوفد ــ وسيكون لهذه الصلات شأن في تشكيل أساس لعلاقة هامة طويلة الأمد.

أنماط المساهمة والقيادة

لم يكن عمال الترام وورشة السكك الحديدية الوحيدين الذين قاموا بالإضرابات خلال ربيع ١٩١٩. إذ قام العمال في مطابع صحافة المديرية المصرية للسكك الحديدية وصحافة الحكومة وورشات الحكومة ومستودعات الأسلحة وترام الاسكندرية والسكك الحديدية الكهربائية في حلوان وشركة الكهرباء القاهرية ومركز البريد والميناء والمنارة وكذلك مستخدمو الجمارك وسائقو سيارات وعربات الأجرة، قاموا بالإضراب خلال أيام من اندلاع الثورة. واشترك أيضاً الفلاحون العاملون في الصناعة، ففي ليلة الخامس عشر من آذار/مارس هاجمت عصبة كبيرة من «السارقين» (لعلهم فلاحون محليون) محطة سكة الحديد قرب مصنع تكرير السكر في الحوامدية على ضفة النيل الغربية جنوبي القاهرة، وترك العديد من عمال مصنع التكرير البالغ عددهم ١٨٠٠ (من القرى المجاورة) أعمالهم وانضموا إلى صفوف مثيري الشغب الذين هددوا بمهاجمة المصنع نفسه، ووقف رجال الشرطة والأعيان تدعمهم قوات أوسترالية حائلاً دون ذلك إلا أن العمل في المصنع كان متوقفاً كلياً خلال شهر نيسان/أبريل لأن معظم عماله كانوا متغيبين[٢١]. وانتهز العديد من العمال الذين لم يكونوا

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

فعلاً مضربين ، هذه الفترة للبدء بتنظيم أنفسهم ، وقدموا مطالبهم لمستخدميهم وأخذوا يعدون العدة للعمل في المستقبل. وكانت هذه المطالب تتضمن دوماً زيادة في الأجور بمواجهة التضخم وأن تكون ساعات العمل في اليوم ثماني ساعات وبإجراء تحسينات في ظروف العمل التعسفية (وخاصة سوء المعاملة من المشرفين الأجانب)، وتخصيص تعويضات للمرض والتسريح من العمل. لم يظفر سوى القليل جداً من العمال فعلاً بأي من هذه المطالب في آذار/مارس ونيسان/أبريل ١٩١٩ ولم يظفر أي منهم بمثل ما ظفر به عمال الترام أو حتى عمال السكك الحديدية ، إلا أن هذه الشهور شهدت موجة من الإضرابات والاحتجاجات اشترك بها آلاف العمال المصريين ولم يسبق لها مثيل في تاريخ مصر .

كانت الأغلبية العظمى من المضربين المستخدمين في الحكومة أو في المرافق العامة التي يمتلكها الأجانب ويشكلون أكبر القطاعات المصرية من اليد العاملة التي تضم أعداداً هائلة من العمال. وعملت هويتهم الاثنية المشتركة وقوتهم المتركزة في موقع واحد على حثهم على خوض هذه التجربة العمالية الجماعية والقيام بأنشطة فعالة ببعديها الطبقي والوطني. وكان العمال وبقية أبناء الشعب المساندون للقضية الوطنية يعتبرون الإضرابات التي تسعى لتحقيق مطالب اقتصادية جزءاً أساسياً من النضال الأعم للشعب المصري من أجل الاستقلال وصون الكرامة. فالعمال مصريون ورؤساؤهم المتعسفون أجانب وتعطيل العمل كان يسهم مادياً في الحملة ضد النظام المحتل. وهذا يفسر ما يدفع بالأهالي لدعم المضربين إذ يقاطعون الترام القاهري ، كما يبين أسباب اعتبار قادة الوفد أولئك المضربين أبطالاً وطنيين وكذلك استعداد المجموعات الوطنية لاستخدام العنف ضد من يخرق قواعد الإضراب .

اشتعل فتيل موجة الإضراب العام عندما تفجر الاحتجاج الجماهيري ضد الحكم البريطاني وليس في وسعنا فهم أسباب تلك الإضرابات إلا ضمن سياق هذا الاحتجاج العام ، ولم يكن إسهام الطبقة العاملة في ثورة ١٩١٩ بأقل شأناً من سواها رغم الحجم المحدود والوزن الاجتماعي المتواضع لتلك الفئة من المجتمع ، وعلينا ألا نزيد من أهمية هذه المشاركة فنشاطات العمال لم تصل أبداً إلى حد الإضراب العام المنظم على مستوى الأمة ككل مثلاً ولكن لا يمكننا أيضاً أن نقلل من شأنها ، فالاضطرابات التي نجمت عن الإضرابات ومشاركة العمال في المظاهرات أمدت النضال الوطني بقوة إضافية وزادت من حدة الضغط على النظام المحتل ، ولولا الشلل الذي أصاب المؤسسات الحكومية الأساسية ووسائل المواصلات في البلد ــ نتيجة للإضرابات ــ لما كان لأحداث ١٩١٩ المفعول القوي ذاته ولكان من الأسهل على البريطانيين إخماد الهيجان الذي اندلع آنذاك .

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

لم يكن العمال المأجورون في المشاريع الضخمة سوى فئة من فئات عدة توقفت عن العمل في تلك الاندفاعة للتعبئة الجماهيرية ، مدفوعة ــ إلى حد ما على الأقل ــ بالتعاطف مع القضية الوطنية ، وقام الطلاب والمحامون وأصحاب الحوانيت وحتى الموظفون الحكوميون العاديون بالإضراب في آذار/مارس ونيسان/أبريل وشارك أفراد من جميع الطبقات تقريباً في مظاهرات مطالبين بإطلاق سراح سعد زغلول باشا والاستقلال التام . وترافقت هذه الموجة من النشاط الشعبي بموجة من التنظيمات شارك فيها العديد من قطاعات الشعب . وأسس الطلاب والمحامون والمعلمون و(العلماء) وآخرون أيضاً تنظيمات جديدة أو أعادوا تعبئة تنظيمات قديمة دعماً للنضال الوطني وكان مصطلح «نقابة» المستخدم في ذلك الحين كتسمية لاتحادات العمال يطلق أيضاً على التنظيمات لغير العاملين وكان مالكو الأراضي الكبار أنفسهم يسمون تنظيماتهم التي تأسست في ١٩٢١ (نقابات) . وتعكس هذه التسمية المطاطة اعتبار العمال مجرد قطاع مهني آخر من الأمة المصرية وليس كطبقة اجتماعية . وهكذا كانت إضرابات العمال والانتظام في الاتحادات مجرد جزء من اندفاعة نضالية عمت البلاد ورابطة انضم تحت لوائها أفراد من مجموعات مختلفة تبعاً لما يمتهنونه من عمل . وكان قطاع العمال ومصالحهم في كل ذلك يعد متسقاً ومطابقاً لمصالح الأمة في حين اعتبر الوفد الذي كان حتى ذلك الحين لا يتعدى حفنة من الأعيان الأثرياء المنادين بمطالب فيها الكثير من المغالاة لصالح مصر كتجسيد للقضية الوطنية .

وانعقدت في هذه الأشهر الأواصر التنظيمية الأولى بين العمال والناشطين الوطنيين ، وحيثما قام العمال بتأسيس روابطهم مع الحزب الوطني أو (اتحاد العمال للحرف اليدوية) في السنوات التي سبقت الحرب برز الأشخاص المرتبطون بذلك الحزب كقادة أو متحدثين باسم العمال في النقابات الجديدة أو التشكيلات التي أقيمت قبل النقابات ؛ وتلك كانت الحال في الاسكندرية حيث تولى الدكتور محجوب ثابت قيادة (اتحاد العمال) الذي كان أساساً من عمال السكك الحديدية . وبرز أحمد بك لطفي الذي كان رئيس حزب القوميين الوطني (واتحاد العمال) وعمال الترام القاهري في سنوات ما قبل الحرب ، من جديد كمستشار لعمال ترام هليوبوليس ، كما قاد محمد كامل حسين ومحمد زكي علي ــ وكلاهما محامٍ مرتبط بالحزب الوطني ــ عمال الترام القاهري في أوقات مختلفة . ولم تكن السهولة التي اضطلع بها هؤلاء الأشخاص بالأدوار القيادية في الشؤون العمالية إلا نتيجة لتاريخ الحزب الوطني الطويل في المساهمة في هذا المجال وللروابط التي خلقها قبل الحرب . وهناك عامل فعال آخر وهو الغياب النسبي للمنافسة بين الحزب الوطني والوفد في الأشهر الأولى من الثورة ففي

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

شهري آذار/مارس ونيسان/أبريل اتحدت جميع العصب في الحركة الوطنية في رفض حكومة الوصاية أو أية صيغة أخرى خلا الاستقلال التام. ولم يكن ثمة أهمية لحقيقة أن بعض العناصر الناشطة التي تنظم العمال في القضية الوطنية مرتبطة عملياً بالحزب الوطني وليس (بالوفد) الأحدث عهداً والأوسع انتشاراً. كما لم يكن للوفد البنية التحتية المنظمة أو الكادر الكافي الخاص به ليتمكن من المشاركة المباشرة في شؤون العمال، كحركة سياسية متميزة، وقام (الوفد) بتحويل نفسه تدريجياً إلى حركة منظمة لها جهازها الإداري الخاص وطرق تنمية الروابط والحفاظ عليها مع المؤسسات الأخرى وكذلك شبكة من اللجان المحلية المنتشرة في أرجاء البلاد. وسيصبح الحزب الوطني في السنوات القادمة المنافس الألد (للوفد) بعد أن أفل نجمه وتراجع موقعه السياسي إلى حزب هامشي بعد الشعبية الواسعة التي نالها سعد زغلول وحركته، إلا أنه في ١٩١٩ كان الحزبان جزءاً من المد الثوري نفسه وعمل الوفد كجبهة وطنية أكثر منه حزباً.

إلا أن معظم العمال لم يكن لديهم روابط مع أي قائد وطني من الطبقة الوسطى في سنوات ما قبل الحرب، قد تفيدهم في خلق قاعدة لعلاقات جديدة ولم تنعقد تلك الروابط إلا في حمأة الاندفاعة الثورية. إذ قد تلتمس فئة من العمال المناضلين معونة من أحد المحامين أو الأعيان المعروفين بنشاطهم الوطني وربما اهتمامهم بالشؤون العمالية أو قد يحدث أن يسعى شخص كهؤلاء للتقرب من مجموعة معينة من العمال وإقامة صلات معها، وفي كلتا الحالتين كان المحامي أو الوجيه يوظف مهاراته واتصالاته ومكانته في خدمة هؤلاء العمال ونقابتهم الناشئة كجزء من نشاطه الوطني.

كانت الاجتماعات المفتوحة العامة والمسيرات التي تنطلق عادة من أحد المساجد الكبيرة هي الإطار الذي يتم ضمنه عقد الروابط الأولى حيث يتصل العمال ومحاموهم الذين سيساعدونهم في إنشاء وقيادة نقاباتهم للمرة الأولى، وفي الفترة التي سبقت قيام الوفد بتشكيل منظماته رسمياً وتنمية روابطه المؤسساتية مع الجماهير خاصة في الأسابيع العاصفة الأولى من الثورة كانت الاجتماعات العامة هي الوسيلة الأساسية للاتصال وتعبئة الجماهير في المدينة. إذ يجتمع الآلاف أو حتى عشرات الآلاف من الناس بمن فيهم العمال والحرفيون وأصحاب الحوانيت والطلبة والمهنيون يومياً تقريباً لسماع خطب قادة الوفد وتقاريرهم ولتبادل المعلومات وتنسيق النضال الوطني، وفي المناسبات الخاصة مثل مسيرة السادس عشر من نيسان/أبريل التي قامت لدعم إضراب موظفي الحكومة احتشد ٨٠٫٠٠٠ شخص وسدوا منافذ الساحات المحيطة بمجمع الأزهر الشريف وما يجاوره من شوارع[٢٢]. ومن هناك كانت

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

تنطلق المظاهرات سالكة طريقها عبر شوارع المدينة إلى أن يفرقها رصاص بنادق البريطانيين. لعبت المساجد الكبرى لقرون عديدة دور المراكز الحيوية للمجتمعات المدنية وتمتعت بأمن نسبي كأماكن مقدسة مغلقة في وجه تدخل القوات البريطانية؛ وبحكم موقعها في المناطق القديمة التي يقل فيها وجود الأوروبيين كانت الجوامع بمثابة رموز اجتماعية وثقافية للهوية المصرية المتميزة وللأمة المصرية كما كانت العصب المركزي للحركة الثورية بالإضافة إلى المنازل الفخمة لأعضاء الوفد.

وعلينا ألا نجنح هنا إلى الاعتقاد بأن الدافع الأساسي لأولئك الذين يجتمعون في الأزهر هو عداؤهم للأجانب أو نزعة كراهية للمسيحية كما يزعم الكثيرون أنها موروثة في الإسلام. إذ كانت الحشود ــ والخطباء أيضاً ــ في الأزهر وغيره تضم الأقباط كما تضم المسلمين، وكانت الصبغة العامة لثورة ١٩١٩ صبغة علمانية بكل تأكيد، ولطالما أكد (الوفد) على هويته المصرية الاثنية المحضة، وشجب جميع أشكال الطائفية ونعتها بأنها مدمرة لقضية الاستقلال الوطني، وكان الدين يعتبر أمراً شخصياً يجب فصله تماماً عن الشؤون والقضايا العامة وعن النضال السياسي، وبالطبع قد لا يكون جميع المصريين التزموا بهذه الحدود الفاصلة بنفس الدقة التي التزم بها البرجوازيون والزعماء الوطنيون الذين يحتذون مثال الأوروبيين. وقد يصح الظن بأن بعض المسلمين اعتبروا النضال من أجل استقلال مصر كحملة للدفاع عن الإسلام وطرد الحكم المسيحي القمعي من فوق الأرض الإسلامية إلا أن الغالبية العظمى المسلمة كانت ترى أن القضية الجوهرية هي تحقيق الحكم الذاتي لمصر بشكل يضمن لجميع المصريين ــ بغض النظر عن عقيدتهم الدينية ــ الحياة معاً بسلام واقتسام حضارة مشتركة ومصير مشترك وإنه لخطأ فادح أن نعزو عند قراءتنا لتاريخ مصر الحديث، الدعم الجماهيري للحركة الوطنية في ١٩١٩ إلى خوف المسلمين المبالغ به من الأجانب والذي يقال بأنه متأصل في نظام عقيدة الغالبية المسلمة في مصر. إن غياب أي برهان على وجود صراع طائفي في ١٩١٩ ينفي ويدحض هذا التفسير كما تنفيه جميع أمثلة الصراع الطبقي بين المسلمين كمثل هجمات الفلاحين المسلمين على ممتلكات ملاك الأراضي الكبيرة المسلمين التي حصلت في آذار/مارس ــ نيسان/أبريل ١٩١٩ وأوقعت الرعب في نفوس الطبقة العليا، وكذلك لم تلعب الاختلافات الدينية أي دور في تلك الفترة حين كانت المشاريع الضخمة في مصر من مشاريع صناعية ومواصلات تضم مسلمين وأقباطاً يعملون جنباً إلى جنب وقد أعلنوا الإضراب بتوافق وإجماع كلي.

وما إن انعقد التواصل المبدئي بين العمال ومناصريهم البرجوازيين حتى توثقت أواصر

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

أشد وضوحاً ، وهناك بعض الأدلة المستقاة من تقارير المخابرات البريطانية تشير إلى أن بعض العناصر النشطة الوطنية كانت تقوم أو تعد بأن تقوم بتوزيع المال على العمال المضربين من تبرعات قام رجال الوفد بحملة واسعة لجمعها من الطبقة المترفة في البلاد . ففي السادس والعشرين من نيسان/أبريل مثلاً قام أحد الخياطين ويدعى (أحمد بهنسي) يزعم بأنه فار من السلطات البريطانية لأنه حرض الناس في قريته على تدمير خط السكة الحديدية ؛ بإلقاء خطبة في حشد من الناس في جامع ابن طولون في القاهرة ، وقال بأن المحامي الوطني (محمد كامل حسنين) « قد طلب منه أن يطلب إلى المضربين أن يستمروا في إضرابهم ويستلموا أموال الإضراب منه شخصياً » ثم وزع قصاصات أوراق عليها اسم المحامي حسين وعنوانه . وقد ورد في أحد تقارير المخابرات البريطانية في أوائل أيار/مايو أن عمال السكك الحديدية في العنابر والزقازيق وكذلك في ورشات الحافلات في طنطا يشعرون بالامتعاض الشديد من استمرار الإضرابات إذ أنهم قد تلقوا الكثير من الوعود من المحرضين الوفديين إلا أنهم لم يستلموا أية مبالغ أثناء الإضراب ، وقد اضطر رجال السكك الحديدية إلى بيع حلي زوجاتهم والقطع الذهبية التي قدمت لهم هدايا في أعراسهم ــ والتي كانت الثروة الوحيدة في حوزة الفقراء ــ ليتمكنوا من البقاء في حدود الكفاف بل واضطروا أحياناً إلى بيع ملابس أفراد الأسرة ليشتروا خبزاً ، لذا لم يكونوا مستعدين للإضراب ثانية ما لم يتلقوا سلفاً دعماً حقيقياً ما[٢٣] .

من المرجح أن هناك عوامل أبعد غوراً في محاولة المخابرات البريطانية إرجاع نضال العمال إلى رشوة المحرضين من خارج دائرة العمال ، وليس من المستبعد أبداً أن يكون العمال قد تلقوا بعض المال أو على الأقل وعدوا بشيء من ذلك ، إلا أنه في مصلحة القيادة الوطنية دون شك أن تقدم للعمال ما يعينهم على المضي في الإضرابات الطويلة الأمد أو حتى أن تحرض على البدء في الإضراب في قطاعات تود القيادة شل حركتها لأسباب سياسية ، ولو لم يتلق العمال تبرعات أثناء الإضراب ولم يكن لديهم أية ادخارات لربما شعروا أن التضحيات التي يقومون بها من أجل القضية الوطنية تخولهم حق تقاضي شيء من الدعم من أبناء بلدهم الأكثر غنى ولكن ذلك لا يعني أن العمال الذين شاركوا في أحداث مارس/آذار ــ ابريل/نيسان ١٩١٩ إنما اشتركوا لأن الوفد « اشتراهم » . إن أي دعم مادي أو معنوي قدمه (الوفد) للعمال جاء بعد أن أعلنوا الإضراب بدافع من المظالم الاقتصادية والسياسية التي عانوا منها . وعلى أي حال لم تكن المبالغ التي قدمت مبالغ كبيرة على الأغلب ولم تتجاوز تعويضات بسيطة عن التضحيات التي قدمها من قاموا بالإضراب ، ولم يتلق سوى القلة القليلة منهم أي مال على الإطلاق .

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

بعد أن انتهت المرحلة الأولى من الثورة وانحسرت موجة الإضرابات جاءت فترة تميزت بالتضامن والتنظيم بدلاً من الخلافات. وقام العمال في أيار/مايو وحزيران/يونيه ١٩١٩ بتشكيل الاتحادات رسمياً بدعم من الوجهاء الوطنيين غالباً أو تحت قيادتهم، إذ أسس عمال الترام القاهري مثلاً اتحاداً خاصاً بهم في ١٥ حزيران/يونيه بعد شهرين تقريباً من تسوية إضرابهم. كان العديد من هذه المنظمات الجديدة اتحادات صناعية مؤلفة من جميع العاملين المأجورين في مشروع ضخم معين. ولكن كانت هناك أيضاً موجة من إقامة الاتحادات بين صفوف العمال المهنيين وكذلك المستخدمين في الحوانيت التجارية والمطاعم والمقاهي وغيرها من المؤسسات الصغيرة. وكانت قيادة (الوفد) في مصر بمن فيها سعد زغلول وكبار القادة الذين كانوا ما يزالون في أوروبا في ذلك الحين ــ شديدة التعاطف والدعم لهذه التطورات ــ وكانت تعتبر الاتحادات الجديدة للعمال المصريين ذخراً أساسياً للقضية الوطنية. وقد وصف (عبد الرحمن فهمي) في خريف ١٩١٩ ظهور الحركة العمالية في مصر في تقرير سري أرسله لزغلول كتب فيه:

> «سأشرح لك نتائج الجهود المبذولة لتعميم النقابات في عرض البلاد وطولها. لقد أثمرت هذه الجهود والحمد لله: شُكلت نقابة لكل حرفة ولم تبق حرفة أو صنعة في مصر دون نقابة. صحيح أن الحكومة لم تعترف بهذه النقابات حتى الآن وليس من المتوقع أن تعترف بها في ظل الظروف الحالية، إلا أنها تظل على أية حال مفيدة للحركة الوطنية وسلاحاً ماضياً لا يمكننا الاستهانة به، وإن آن أوان الأيام العصيبة سيلبون نداء الوطن بأسرع ما يمكن»(٢٤).

لعب المحامون البورجوازيون أو الأعيان أدواراً قيادية في العديد من تلك النقابات الجديدة وكانوا الرابطة التي جمعت بين الحركة العمالية والحركة الوطنية. وأخذت الصلة بين العمال المنتسبين للنقابات وأولئك الأشخاص المنتمين للطبقات الوسطى أو العليا أشكالاً مختلفة. فإذا ما وجد أعضاء ذوو خبرة وافرة في شؤون النقابات وكانوا متحمسين مستقلين أو على شيء لا بأس به من الثقافة اعتبر من يشغل منصباً مرموقاً في النقابة من غير الفئة التي تمثلها النقابة ــ وغالباً ما يكون منصب رئيس فخري أو رئيس أو مستشار أو أمين صندوق ــ مجرد شخصية بارزة أو مزيج من مستشار ومقدم دعم ووسيط في المفاوضات وحلقة وصل مع الحركة الوطنية، وفي مثل هذه الحالات كان أعضاء المجلس التنفيذي وموظفو الاتحاد الذين ينتخبون في اجتماعات عامة منتظمة يحضرها جميع أعضاء النقابة، هم الذين

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

يديرون عملياً شؤون النقابة اليومية ويبقى لمن هم من خارج النقابة تأثير فعال في اتخاذ القرارات الرئيسية المتعلقة بالأمور السياسية . أما في نقابات أخرى فكان المحامون أو الأعيان يتخذون القرارات بأنفسهم ويديرون شؤون النقابات إذ يستخدمون شلة من العمال الناشطين الموالين لهم . وينطبق ذلك بشكل خاص في الحالات التي تكون فيها النقابة الصغيرة أو الضعيفة معتمدة على زعيمها وصلاته الحزبية في استمراريتها التنظيمية وكمصدر للتمويل والحماية من التنكيل الذي يلحق بها على أيدي المستخدمين أو رجال الشرطة ، إلا أن احتمالات احتدام خلاف بين العمال ومستشاريهم تبقى موجودة في مثل تلك الحالات مما يدل على أن أعضاء النقابة لا يقفون مكتوفي الأيدي عندما يشعرون بأن مصالحهم تتعرض للإهمال أو النيل منها .

ظلت الأسباب التي دفعت بالعديد من العمال المصريين للسعي لتولية أفراد من الطبقات الوسطى والعليا أمور القيادة أو القبول بهم كقادة ، قائمة إجمالاً في عام ١٩١٩ وما تلاه من أعوام . إذ كان هناك العديد من المكاسب العملية الملموسة بالنسبة للكثير من النقابات حين تنعقد صلة مع مناصر لها ذي نفوذ سياسي أو خبرات قانونية على الرغم من أن هذه العلاقات كانت تعكس ــ وستكرس فيما بعد ــ حالة الضعف والتبعية النسبية التي تعاني منها الحركة العمالية والطبقة العاملة الفتية . كما كان خضوع البلاد للحكم الأجنبي عاملاً أساسياً هاماً في إلحاق الحركة النقابية بالحركة الوطنية التي تقودها البرجوازية . وكانت القضية الجوهرية في الحياة السياسية من ١٩١٩ إلى ١٩٥٦ هي الهيمنة البريطانية والنضال لتحقيق الاستقلال التام ، وكنتيجة لذلك كان العامل الأساسي المحرك للنشاطات السياسية للحركة العمالية في القسم الأكبر من هذه المرحلة هو صلتها بالحركة الوطنية ، وإن تولي من هم خارج عضوية النقابة ــ غالباً من المحامين المرتبطين بالوفد ــ لأمور إدارة العديد من النقابات ما هو إلا مظهر يدل على انخراط النقابات في الحركة الوطنية . ومن جهة أخرى فإن قبول هؤلاء المحامين والأعيان كقادة يرجع إلى حد ما إلى أن النقابات أصبحت بذلك جزءاً أساسياً من النضال الأعم من أجل كرامة مصر واستقلالها . لقد صهرت أحداث ١٩١٩ الوعي الوطني والوعي الطبقي معاً في نظرة عالمية موحدة بالنسبة لغالبية العمال المصريين وجعلت منها مزيجاً متآلفاً سيزداد تماسكاً عبر سياق الحياة السياسية والاقتصادية في السنوات القادمة .

قامت العلاقة المعقدة للنصير ــ الزبون بين (الوفد) والحركة العمالية على شيء من المصلحة المشتركة في مناهضة الإمبريالية وما ترعاه من مصالح أجنبية . ودارت هذه العلاقة

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

على محورين : المستوى التنظيمي ـــ العملي (خبرات وموارد ودعاية إعلامية ودعم شعبي وإدارة النقابات) والمستوى العقائدي (اعتبار الحركة العمالية حركة تفتقر إلى أهداف شرعية ومصالح خاصة بها وعلى أنها جزء من أجزاء الحركة الوطنية المتجسدة في (الوفد) الذي نادى بنفسه ممثلاً للأمة برمتها) . تطورت هذه العلاقة الخاصة في الفترة ما بين الحربين واختلفت في شكلها ومضمونها رغم أن الوطنية ظلت تلعب دوراً أساسياً في بلورة شكل الحركة العمالية . والحق أن إدراج المصالح الخاصة للحركة العمالية ضمن النضال الوطني الذي صاغ قالبه أفراد طبقة اجتماعية أخرى لن يخلو من آثار عميقة طويلة الأمد .

تمكنت السلطات البريطانية أخيراً من قمع الانتفاضة الشعبية التي ثارت في آذار/مارس ـــ نيسان/أبريل ١٩١٩ إلا أن ذلك لم يتحقق لها إلا عندما رضخت وأطلقت سراح سعد زغلول وسمحت له بعرض قضيته . وارتفعت مكانة (الوفد) في الأشهر التي تلت ذلك وتعاظم الدعم الجماهيري له . ومع أن (مؤتمر السلام) رفض المطالب المصرية بالاستقلال ، واعترف بالوصاية البريطانية ، أثبت نجاح (الوفد) في تعبئة الناس في مظاهرات والمقاطعة شبه التامة لبعثة ميلنر Milner ، قوته المتعاظمة . وعلى الرغم من استمرار التحريض الوطني والتمثيل البريطاني خلال عام ١٩١٩ امتازت تلك الفترة بالنضال السياسي لا بالعنف ، وكذلك بانضمام العمال للنقابات عقب العاصفة التي شهدها شهرا آذار/مارس ونيسان/أبريل وبتراجع الصراع بين العمال ومستخدميهم ، إلا أن الهدوء النسبي الذي ساد أواخر الربيع وأوائل الصيف تبدد مع إعلان إضراب هام في قناة السويس دل على أن العمال الأجانب أنفسهم في مصر قد تأثروا بشدة بالإضرابات المحلية والعالمية التي تركت بصماتها على الفترة التي أعقبت الحرب مباشرة .

التطرف والوطنية في قناة السويس

انقسمت القوة العاملة في شركة قناة السويس إلى فئتين غير متناظرتين حجماً . تألفت إحداهما من عدد قليل من العمال الأجانب غالباً ، ممن يتلقون أجوراً عالية ويعملون بعقود دائمة ، وتضم الفئة الأخرى عدداً أكبر وهم في غالبيتهم من العمال المصريين يعملون بعقود شرطية أو بشكل غير مباشر ويتلقون أجوراً زهيدة دون أية تأمينات عمل ، وأدى التضخم المالي أثناء الحرب والمظالم الأخرى إلى قلاقل بين صفوف العمال المصريين والأجانب معاً في شركة قناة السويس وغيرها من الشركات التي يملكها أجانب وتقوم بخدمة الطريق المائي قبل

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

آذار/مارس ١٩١٩ . وكان العمال اليونانيون الذين يشكلون أكبر فئة اثنية بين الكادر العمالي الدائم في شركة قناة السويس، نواة النقابة الجديدة في بور سعيد في أوائل ١٩١٩ وكان يقودهم محامٍ يدعى زيزينيا Zizinia، وقد تقدمت النقابة التي دعت نفسها (العنقاء Le Phénix) بعريضة لشركة القناة مطالبة بيوم عمل من ثماني ساعات والإضافة الدائمة لكل العلاوات المادية الممنوحة مؤقتاً أثناء الحرب إلى جدول الرواتب الرسمي وإعطاء أجر إضافي للعمل أيام الأحد والعطل ومنح العمال جميعهم تثبيتاً دائماً في العمل بشكل أوتوماتيكي بعد عدد معين من سنوات الخدمة[٢٥] .

وكان المطلب الأخير مطلباً على غاية من الأهمية بالنسبة لعمال شركة قناة السويس الذين بقوا عمالاً مؤقتين يتقاضون أجوراً أقل وليس لهم أي حقوق رغم سنوات من الخدمة قضوها في الشركة . إن مطالبة العمال الدائمين بهذا المطلب الأخير له دلالة كبيرة إذ أنه ينم عن جهد يبذله عمال الفئة الملتمسة المتميزة ليتخطوا حدود التفرقة الاثنية ويمدوا يد العون لرفاقهم من العمال المصريين الذين نهبت حقوقهم . وقد يكون الدافع الذي حدا بالعمال اليونانيين للمطالبة بذلك ليس المبادئ المجردة للتضامن الطبقي وحسب بل ربما إدراكهم بأن مكانتهم وأعمالهم قد تتداعى في أية لحظة طالما سمح للشركة بالاحتفاظ باحتياطي كبير من القوة العاملة المصرية الرخيصة . وقد قرر منظمو نقابة الفونيكس أن يلجأوا إلى إجبار شركة قناة السويس على معاملة جميع عمالها بالتساوي، بدلاً من أن يسعوا لاستثناء العمال غير الدائمين والنضال للدفاع عن مزاياهم هم وحدهم .

لم تدع النقابة للإضراب خلال آذار/مارس ١٩١٩، ولكن ما إن بدأ الوضع بالاستقرار حتى كثفت النقابة جهودها التنظيمية واجتذبت العديد من العمال المصريين في شركة قناة السويس، وكان (علي بيه لهيطة) وهو أحد الأعيان الوطنيين المحليين الذي تم اعتقاله من قبل بتهمة التحريض على الإضراب يتعاون مع (زيزينيا) في الخفاء ومنح (الفونيكس) رضى الحركة الوطنية عنها . كما اندمجت منظمة من العمال الإيطاليين كانت حتى ذلك الحين مستقلة، مع نقابة (الفونيكس) التي ازداد حجمها بين عمال القناة في بور سعيد وإلى حد أقل في السويس والاسماعيلية، وكان الإيطاليون بشكل خاص يتمتعون بسمعة حسنة في مضمار النضال اكتسبوها عن جدارة وربما كان السبب في ذلك خبرتهم الأطول في مجال الصناعة وتعرضهم للنقابات المهنية والسياسات الاشتراكية والفوضوية في إيطاليا .

بيد أن هناك عاملاً آخر ساهم في ١٩١٩ في خلق اتحاد كان مستبعداً بين

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

الإيطاليين في مصر والحركة الوطنية المصرية . إذ يفترض في شخص إيطالي له معتقدات متطرفة أن يعارض وجود حكم بريطاني في مصر على أساس مبدأ المناهضة للإمبريالية ، إلا أن العديد من الإيطاليين الذين ليسوا بمتطرفين شعروا بالاستياء المرير بعد الحرب حيال ما اعتبروه الرفض الخائن من بريطانيا السماح لإيطاليا بجني ثمار تضحياتها التي قدمتها إبان الحرب ، وقد انحاز البريطانيون بشكل خاص لمطالب اليونان في الأراضي ضد مطالب الإيطاليين مما أجج نار العداوة لدى الإيطاليين ضد البريطانيين واليونان ــ وهو موقف قاسمهم إياه الكثير من المصريين ــ وبالفعل لعب العمال والمتطرفون الإيطاليون في مصر دوراً أساسياً في الحركة العمالية في صيف ١٩١٩ مما حدا بالجنرال اللنبي ، المفوض السامي البريطاني في مصر ، للتأكيد على أن الحركة النقابية « تتمتع بدعم أهالي البلد الذين لا يبدو أنهم يدركون معناها الحقيقي ، وبدعم الإيطاليين في مصر الذين يتخذون من خلال هذه الحركة معبراً لقضية مشتركة بينهم وبين المصريين ضد النظام الحالي الذي يأملون أن يربكوه ويضعوه في موقف حرج بهذه الطريقة »[٢٦] .

ومع قدوم شهر أيار/مايو ١٩١٩ أحست نقابة الفونيكس بأنها تملك من القوة ما يخولها المغامرة بمواجهة مع شركة قناة السويس العتيدة ؛ وعندما باءت المطالب التي تقدمت بها النقابة بالفشل ولم تجد صدى لها ، دعت النقابة جميع عمال القناة إلى إضراب عام وتوقف العمل في شركة قناة السويس وفي كل شركات الشحن في ١٣ أيار/مايو . وفي اليوم التالي توقف حمالو الفحم عن العمل وانتشر الإضراب ببطء عبر منطقة قناة السويس تاركاً أثره في عمال شركات الكهرباء والتبغ أيضاً . وكانت أمور قيادة العمال المضربين تقع على عاتق لجنة مؤلفة من ثلاثة يونانيين واثنين من الإيطاليين وشخص فرنسي وآخر مصري ، وكانت تتمتع بشعبية واسعة . وجمعت تبرعات بمبالغ كبيرة لمساندة المضربين وكان المتبرعون في معظمهم من الأوروبيين المقيمين في مدن القناة . وزعمت مصادر الاستخبارات الفرنسية أن التبرعات جاءت من أشخاص أثرياء بهدف إحباط ظهور التيار البولشفي بين صفوف العمال ، في حين أكد البريطانيون أن التجار المصريين كانوا يشجعون الإضراب كوسيلة للاستيلاء على مناصب وأرباح المتعاقدين العاملين المحليين ، ولكن ليس هناك ما يبرهن على صحة أي من الزعمين . إن المظالم والضيم الذي كان يعاني منه العمال أمر لا شك في صحته ، ولم يزد حمالو الفحم وغيرهم من العمال في المنطقة على أن انتهزوا الفرصة التي أتاحها لهم إضراب نقابة (الفونيكس) لتحسين أجورهم وشروط عملهم ، وعاد حمالو الفحم إلى العمل في حزيران/يونيه بعد أن وافق أصحاب العمل على دفع ما يطلبونه من جيبهم الخاص في حين

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

بقي المضربون الآخرون على إضرابهم[٢٧].

ومع ذلك استمرت قناة السويس بالعمل في نهاية أيار/مايو وبداية حزيران/يونيه بالرغم من الإضراب حيث استلم جهاز البحرية البريطانية المراكز الأساسية الحساسة. ازدادت الحكومة الفرنسية توتراً تحت ضغط المسؤولين في شركة قناة السويس وأصحاب الأسهم فيها في باريس وطالبت بأن تقوم السلطات البريطانية بفعل شيء ما لإنهاء الإضراب. رفض اللنبي القيام بذلك وفسر الفرنسيون رفضه على أنه يخشى «إن تورط مرة في مثل تلك الأمور سيجد نفسه أشد تورطاً فيها مما يرغب وعليه أن يتخذ كل الحيطة ويتأنى في كل خطوة يقوم بها إن أراد تجنب المساس بسلطته». وأصر الوزير الفرنسي في مصر على أن هذا الإضراب له طابع سياسي إذ أن الأجانب هم الذين حرضوا على القيام به ولأنه مدعوم من قبل الوطنيين، لذلك يجب على حكومة الانتداب أن تتدخل. كان الفرنسيون فريسة اضطراب وانزعاج شديدين لما اعتبروه رفضاً أو عجزاً من حليفهم المزعوم عن حماية مصالحهم واستثماراتهم في مصر بالقوة، لكن اللنبي استمر في رفض المطالب الفرنسية وكانت حجته في ذلك أن المضربين لا يعرقلون النظام العام وأن القناة ما تزال تعمل، وكان لدى السلطات البريطانية ما يكفيها من المشاكل في مجالات أخرى ولم تكن حريصة على إرسال قوات عسكرية لإنهاء إضراب شعبي في ظرف سياسي حساس[٢٨].

واضطرت شركة قناة السويس إلى تقديم تنازلات عندما بدا واضحاً أن البريطانيين لن يتدخلوا وأن المضربين ما زالوا متراصي الصفوف. وأحرز عمال الكادر بعضاً من مطالبهم الرئيسية بما فيها ثماني ساعات في يوم العمل وإجازة مدفوعة لمدة أسبوعين مع تذكرة ذهاب وأياب إلى أوروبا ليتمكن العمال الأجانب من زيارة بلادهم، وهكذا عاد المضربون إلى العمل في العاشر من حزيران/يونيه. ومن غير الواضح أن كان عمال شركة قناة السويس من غير الكادر الدائم وكذلك المستخدمون في شركات أخرى قد تمكنوا من كسب أي شيء نتيجة للإضراب. فمما لا شك فيه أن بعض الممارسات كالاحتفاظ باحتياطي من العمال غير الدائمين والتعاقد مع عمال من خارج الشركة لم تلغَ في ذلك الحين، إلا أن النجاح الجزئي الذي حققه الإضراب هو تقديم القوة الدافعة لظهور (اتحاد العمال العالمي) في Isthmus في السويس في الأشهر التي تلت. وسعى هذا الاتحاد بقيادة الدكتور اليوناني المتطرف (سكوفوبولس) إلى توحيد صفوف جميع أولئك الذين عملوا في مشاريع تابعة لقناة السويس في منظمة واحدة يشكل عمال شركة القناة نواتها الأساسية.

واتسم إضراب عمال القناة الذي استمر أربعة أسابيع بوحدة وتعاضد لم يسبق لهما

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

مثيل بين العمال المصريين والأجانب، وكانت هذه الوحدة نتيجة اندماج نضالية العمال الأجانب (وفي بعض الحالات تطرفهم السياسي) ووطنية العمال المصريين. ويندر وجود مثل هذا التنظيم الذي يلغي الحدود الاثنية في نضال موحد في مصر، ومما سهل حدوث ذلك وجود أوروبيين في القوة العاملة في منطقة قناة السويس ممن تأثروا بالأفكار اليسارية والزعماء اليساريين وليس لديهم أي تعاطف مع النظام المحتل. وقد مهد استعدادهم للمخاطرة في سبيل مساعدة رفاقهم من العمال المصريين السبيل أمام التعاون مع الزعماء الوطنيين وتشكيل اتحاد قوي يضم جميع عمال شركة قناة السويس.

وشهد صيف ١٩١٩ حدود التعاون بين العمال المصريين والعمال الأجانب (خاصة الإيطاليين) في بقية أرجاء مصر رغم أن هذا التعاون لم يأخذ دوماً شكل التنظيم المشترك. اشترك في موجة الإضرابات في آذار/مارس ــ نيسان/أبريل العمال المصريون في معظم الحالات وكانت الإضرابات مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالاندفاعة الوطنية. وبدأت الحركة العمالية الفتية في الأشهر الثلاثة التي تلت بالظهور كحركة قائمة بذاتها وبرزت كظاهرة متميزة. ولعبت الوطنية المصرية بالتأكيد دور عامل أساسي في هذه العملية، إلا أن العمال الأجانب أصبحوا أشد فعالية ونضالاً أيضاً وغالباً ما تعاونوا مع العمال المصريين. وكانت هذه الخطوة التي لم يسبق لها مثيل هي الدافع وراء تعليق الجنرال اللنبي في تموز/يوليو ١٩١٩ بأن «الطبقات العاملة المحلية والأجنبية قد وحّدت في أذهانها الحركة النقابية والتحريض المتطرف [أي الوطني]»[٢٩]. ومن هنا كان إضراب قناة السويس في مايو/أيار ويونيه/حزيران حدثاً منذراً بانفجار آخر لصراع بين العمال ورؤسائهم في الصيف. واتخذ هذا الانفجار بعداً وطنياً بالتأكيد إلا أن بعده الطبقي كان أكثر أهمية وبروزاً من أية اندفاعة سابقة للحركة العمالية المصرية. وإذا ما كان ربيع ١٩١٩ قد شهد ولادة الحركة العمالية في قلب الثورة الوطنية فإن صيف ذلك العام تابع الطبقة العاملة وهي تجد صوتها المتميز الخاص بها وتنطلق مناضلة لتحقيق مطالبها.

آب/أغسطس ١٩١٩: «إنها تمطر نقابات!»

منذ بدايات حزيران/يونيه كان هناك دلالات على اضطرابات وقلاقل متزايدة في العديد من قطاعات الطبقة العاملة. وكان هناك أسباب حقيقية للتذمر العمالي. فمهما بلغت المكاسب في زيادة الأجور في الربيع كان التضخم المتجدد يلتهمها دون رحمة إذ بدأت

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

الأسعار تقفز متصاعدة بعد آذار (راجع الجدول رقم (١) أعلاه)؛ بالإضافة إلى أن هناك فئات معينة من العمال كانت تعاني من مظالم خاصة بها. فعمال الترام مثلاً كانوا بحاجة لأجور أعلى إلا أنهم شعروا بأن شركة قناة السويس أخذت تنكث بعهودها التي قطعتها عند التنازلات المقدمة في الربيع. فاللجنة التي شكلتها الشركة لتحري العقوبات المفروضة على العمال كانت تضم مستخدمين بارزين شديدي الولاء للإدارة ويقرون أية عقوبات يفرضها المشرفون، الزيادات الموعودة في الأجور لم تنفذ وكذلك بقيت مسألة أجر إنهاء الخدمة أمراً معلقاً، ومثلها التزامات أخرى قطعتها الشركة على نفسها في اتفاقية نيسان/أبريل ولم تجد طريقها للتنفيذ. تقدم عمال الترام في أوائل آب/أغسطس بلائحة من المطالب للشركة كي تبت في أمر تسويتها. كما أصر العمال على أن تعترف الشركة رسمياً بالنقابة الجديدة كوكيل عنهم في المفاوضات. وكان رئيس النقابة المحامي الوطني (محمد كامل حسين) الذي أفرج عنه مؤخراً قد عاد وانغمس ثانية في شؤون العمال ومشاكلهم[٣٠]. بدأ جميع العمال المصريين والأجانب على كل الجبهات (والعديد منهم أعضاء في النقابات) بالتشديد على الاستجابة لمطالبهم.

وشهد الأسبوع الأول من آب/أغسطس إضراباً مقتضباً لعمال التحميل في أرصفة ميناء الاسكندرية، إلا أن ما أشعل الإنفجار حقاً هو الإضراب المفاجئ في العاشر من آب/أغسطس لعمال ترام القاهرة. ويبدو أن الخشية والحذر اللذين انتابا النقابة من أن الشركة على وشك أن تطرد عدداً كبيراً من العمال للحيلولة دون إعلان إضراب، دفعا النقابة إلى أن تكون البادئة باتخاذ الخطوة. وتعطلت مرافق جهاز الترام تماماً وبدأت المفاوضات بإشراف الحكومة. وقد أسهم العمل الجريء الذي قام به عمال الترام الذين كانوا دائماً السباقين في إعطاء غيرهم من العمال مثلاً يحتذونه، في كسر طوق الهمود والسلبية، وفي غضون بضعة أيام أعلن العديد من العمال المصريين والأجانب في القاهرة والاسكندرية الإضراب، وضمت موجة الإضرابات العارمة في آب/أغسطس ١٩١٩ سكك الترام في القاهرة وهيليوبوليس والاسكندرية وسائقي الحافلات العمومية وعمال سكك الحديد في (العنابر) و(جبل الزيتون) والعديد من معامل التبغ ومصنع السكر في (أبو قرقاص) ومصفاة (الحوامدية) وكذلك عمال المطابخ والندل في المقاهي الرئيسية والمطاعم، ومخابز القاهرة والاسكندرية ومستخدمي المصارف والحوانيت وعمال الأفران، وعمال مقالع الأحجار في (المعصرة) وعمال شركة (كانديدا) الهندسية ومستودعات مخازن الجمارك ومصنع الصودا (سباثيس). كما أعلنت الإضرابات في السويس وطنطا والمنصورة. ورافقت موجة الإضرابات

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

موجة تشكيل نقابات شملت الكثيرين ـــ وإن لم يكن جميع ـــ العمال الأجانب ذوي المهارات إلى حد ما أو المتعلمين والمستخدمين الأعلى مرتبة. وخلال هذه الأسابيع أقيمت مثلاً نقابات جديدة من قبل مستخدمي المصارف والفنادق والحوانيت، والصحفيين والخياطين والنجارين والكهربائيين (مصريين وأجانب) وعمال النقش على الحجر وعمال المخابز والندل والسائقين الخاصين وعمال ميكانيك السيارات والعاملين في مكاتب المحاماة والرسامين ومصففي الشعر. وكان هذا الانتشار السريع المتلاحق لنقابات العمال هو الذي دفع بصحيفة La Bourse Egyptienne إلى أن تجعل عنوانها الرئيسي في عددها الصادر في ٢١ آب/أغسطس: «IL Pleut des Syndicats!» «إنها تمطر نقابات!».

لم يكن سريان حمى الإضراب من عمال ترام القاهرة إلى العمال الآخرين سرياناً عفوياً تماماً على ما يبدو، فعندما بدأ إضراب عمال الترام نقلت الاستخبارات البريطانية شائعات تقول بأن بعض العمال الوطنيين والأوروبيين يحاولون اجتذاب عمال المرافق العامة الأخرى للإضراب أيضاً. وكان لهذه الشائعات أساسها من الصحة في الواقع إذ كانت فئة من المتطرفين الإيطاليين بدعم خفي من (الوفد) تحاول فعلاً تعميم الإضراب وتشجيع تشكيل النقابات. ولعب شخصان دوراً هاماً في إثارة هذه الموجة، أحدهما يدعى ماكس دي كولاتو Max di Collato مؤسس وصاحب الجريدة اليومية القاهرية الصادرة باللغة الإيطالية (روما Roma) وزعيم (الجمعية الدولية للمستخدمين في القاهرة) التي تضم ألف عضو، وكان دوره يقتصر على الدعاية الإعلامية. والثاني وهو إيطالي أيضاً يدعى (جيسيبي بيزوتو) Giuseppe Pizzuto كان أكثر نشاطاً في النضال العمالي. خدم (بيزوتو) وهو مواطن إيطالي مولود في مصر، في الجيش الإيطالي أثناء الحرب ثم عاد وأصبح رئيساً لنقابة عمال المطابع. ورغم أنه من الصعب تحديد ميوله السياسية الدقيقة فقد كان دون شك اشتراكياً ثورياً متأثراً إلى حد بعيد بالاندفاعة المتطرفة التي كانت في أوجها في إيطاليا آنذاك. كان (بيزوتو) شديد الالتزام بمبادئه الأممية إذ أنه أقنع نقابة عمال المطابع (التي كانت حتى ذلك الحين مقتصرة على الأوروبيين) بقبول المصريين كأعضاء على قدم المساواة. وكان عمال مؤسسات الطباعة لفترة لا بأس بها من أكثر الفئات تطرفاً في الطبقة العاملة وهي ظاهرة منتشرة في العديد من البلدان[٣١].

اندفع (بيزوتو) إلى العمل لدى أول فرصة سانحة. فحضر أول اجتماع لعمال الترام المضربين مصحوباً بستين عاملاً إيطالياً تعبيراً عن دعمهم لنضال العمال، وطرح فكرة أن تستلم الحكومة زمام الأمور في شركة سكك الترام، وقيل أن الإيطاليين كانوا يهتفون في طريق

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

عودتهم لمنازلهم « لتحيا البولشفية ! » . وما لبث بيزوتو أن أسس «Bourse de Travail» « مجتمع نقابات العمال » في القاهرة وعمل سكرتيراً له . ولعب « المجتمع » خلال شهر آب/أغسطس دوراً شبيهاً بمركز نقابة مهنية يشرف على تشكيل نقابات جديدة (معظمها نقابات مهنية للعمال الأجانب المهرة) ويساعد في المفاوضات مع المستخدمين ويصدر نشرات يومية تقريباً للصحافة فيما يتعلق بالإضرابات والنزاعات والمطالب ونشاطات النقابة . وادعى « مجتمع النقابات » أنه يضم ١٥٫٠٠٠ عضو في ١٢ نقابة ملحقة به ، ولكن ذلك الرقم يبدو مبالغاً به

تميزت موجة إضرابات آب/أغسطس بعاملين مختلفين إلا أنهما متصلين . فالعمال الذين هم غالباً من المصريين ممن يعملون في قطاع النقل وغيره من المشاريع الكبيرة المعدودة هم نواة اندفاعة الصراع الطبقي . وفي الوقت نفسه أعلن العمال في القطاعات المهنية والخدمات الذين هم غالباً من الأجانب ، الإضراب أو قاموا على الأقل بتشكيل النقابات وكان النضال في هذه القطاعات ينسق من قبل مجتمع نقابات العمال الذي أسسه المتطرفون الإيطاليون . وتبدو الوحدة متماسكة راسخة بين المجموعات الاثنية والوطنية والدينية دون وجود أي شيء يشير إلى صراعات داخلية ضمن صفوف المضربين ، إلا أن موجة الإضراب بين صفوف العمال الأجانب سرعان ما انحسرت بعد عدة أسابيع . إذ أن أغلبيتهم قد حظي بمكاسب وفيرة من الملاك الصغار الذين يستخدمونهم وكانت نقاباتهم قد تم تأسيسها تأسيساً متيناً فعادوا إلى أعمالهم . واعترضت السلطات البريطانية على « مجمّع نقابات العمال » الذي اعتبرتها مركزاً للتحريض المتطرف متصل بالحركة الوطنية . وبذل اللنبي جهداً لنفي (كولاتو) إلى إيطاليا إلا أن جهوده لم تفلح في أول الأمر . وعندما شنت صحيفة Egyptian Mail الموالية لسلطات الاحتلال حملتها الإعلامية ضد الجمعية وزعيمها (بيزوتو) وافق عمال المطبعة في الصحيفة على عدم المساهمة في طبع أي مقال معاد للمنظمة التي ترتبط بها نقابتهم . ولم يتم تسفير (كولاتو) و (بيزوتو) إلى خارج مصر إلا بعد نهاية أيلول/سبتمبر وهي خطوة أثارت الرأي العام وأدت إلى إضراب احتجاج قصير الأمد قام به عمال المطابع في القاهرة[٣٢] ونجم عن ترحيل هذين الناشطين الإيطاليين توقف « مجمّع نقابات العمال » الذي لم يعش طويلاً إلا أنه كان ذا نفوذ .

حل العقدة : إضراب ترام القاهرة

في الحين الذي كان فيه (مجتمع النقابات) في أوج نشاطه كان التركيز الأكبر

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

للاهتمام الرسمي والشعبي معاً منصباً على إضرابات الترام في القاهرة والاسكندرية وهيلوبوليس. إذ أن الإضرابات التي كانت تضم العمال الأجانب كانت قصيرة الأمد عموماً، وأغلبية فترات التوقف عن العمل التي قام بها العمال المصريون انتهت في آب/أغسطس، إلا أن إضرابات الترام استمرت. وكان من الواضح في القاهرة بعد أن بدأ الإضراب بقليل أن القضية الأساسية هي الاعتراف بالنقابة. إذ ادعت شركة الترام القاهري أنها مستعدة للتفاوض مع عمالها إلا أنها رفضت بعناد وحزم التفاوض مع (محمد كامل حسين) أو أي شخص آخر يمثل نقابة عمال الترام. وكان العمال قد وطنوا العزم على أن يتم الاعتراف بنقابتهم وبينوا ذلك في اجتماع ضم حوالي ٢٫٠٠٠ من العمال المضربين ــ وهم عملياً القوة العاملة كلها ــ في ١٥ آب/ أغسطس بعد خمسة أيام من بدء الإضراب. ترأس (محمد كامل حسين) الاجتماع كرئيس للنقابة وتم تمثيل العمال حسب درجتهم ومراتبهم في القيادة عبر وفود انتخبوا من الفروع المختلفة للشركة. ومثلت هذه الوفود شرائح مختلفة من العمال تمثيلاً عادلاً فكان ممثلو السائقين والجباة في المراكز الثلاثة للترام من المسلمين المصريين غالباً؛ أما الشخصان اللذان مثلا المفتشين ورؤساء المحطات فكانا من الأجانب، وتألفت الوفود الممثلة للورشات من يهودي وإيطالي ومسلم مصري ومسيحي سوري. وبرزت الطبيعة غير الطائفية للنقابة والإضراب بصورة أوضح عندما ألقى كلمة الافتتاح قسيس هو الأب زكريا الأنطوني الذي تحدث عن مزايا الوحدة والتضامن، وصوّت العمال في هذا الاجتماع (باعتراض صوت واحد) على نبذ اقتراح رئيس الوزراء بأن يتفق الرئيس والوفود النقابية على المفاوضة مع شركة الترام ليس كممثلين عن النقابة بل كممثلين عن المستخدمين في الشركة[٣٣].

انعقد اجتماع عام آخر بعد ثلاثة أيام في (مسرح السينما الكونية الأمريكي) وأكد من جديد على تمسكه بالقرار السابق كما تبنى استراتيجية جديدة لم يسبق لها مثيل ابتكرها رئيس النقابة. إذ اتفق العمال كي يجبروا الشركة على الاعتراف بالنقابة على أن يفوضوا النقابة لاستلام جميع الأجور المتراكمة المستحقة لهم من الفترة التي سبقت الإضراب، ووقعوا بيانات تطالب الشركة بإيداع أجورهم في حساب النقابة في مصرف Banco di Roma. ورفضت الشركة كما هو متوقع التعاون، كما رفض العمال تقاضي أجورهم مباشرة من الشركة. وانفرج المأزق بأن تعهد محافظ القاهرة بالتوسط وتراجع العمال إلا أن هذه الاستراتيجية ستعود للظهور من جديد إذ سيستخدمها (محمد كامل حسين) ثانية[٣٤].

كانت الصحافة الوطنية بالطبع شديدة الدعم للإضراب، واعتقد البريطانيون بأن اللجنة المركزية للوفد تقوم بتوزيع مبالغ كبيرة من المال على عمال الترام في العاصمة. كما قيل أن

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

الوطنيين قد فرضوا أيضاً ضريبة خمسة عشر قرشاً على كل سائق تاكسي في اليوم لصالح المضربين[٣٥] . كما جاء دعم عمال الترام وانتقاد شركة ترام القاهرة أيضاً من دوائر خارج الدوائر السياسية ومصالحها في تقويض دعائم السلطة البريطانية ، إذ قام (محمد طلعت حرب) مثلاً ، المنادي باستقلال مصر الاقتصادي ومن ثم مؤسس مصرف (بنك مصر) ، بدافع من الإضراب الطويل بكتابة سلسلة من المقالات في أيلول/سبتمبر ١٩١٩ حول قضية سكة الترام ، وهاجم (حرب) بضراوة بُنية الشركة وشروط التنازل السهلة التي منحتها إياها الحكومة المصرية وكان شديد النقد للهيمنة الأجنبية على اقتصاد مصر وحريصاً على الترويج للتنمية الرأسمالية المصرية . بدأت شركة الترام القاهري آنذاك بالادعاء بأنها غير قادرة على زيادة أجور عمالها ما لم يسمح لها بزيادة أجرة ركوب الترام ، إلا أن (حرب) احتج بأن مثل هذه الزيادة لن تعود بالفائدة إلا على مؤسسي الشركة ومديريها . كانت مقالات (حرب) تأخذ جانب العمال وتتعاطف معهم ، ولخصت تقارب مصالح الطبقة العاملة الفتية والبرجوازية الصناعية المصرية الناشئة وكلتاهما تحاربان سلطة الرأسمال الأجنبي في بلادهما[٣٦] .

كما عبر معظم الأوروبيين من الطبقة الوسطى ومن يركب الترام من الناس الشرقيين عن استيائهم من الشركة وتعاطفهم مع العمال . وقد مثل (أميل بولاد) وجهة نظرهم وهو محام من أصل سوري يمارس مهنته في المحاكم المختلطة والوطنية معاً . وقد نشر كتيب له بعنوان (ترام القاهرة في ١٩١٩) «Les Tramways du Caire en 1919» أثناء الإضراب ، وألقى (بولاد) اللوم فيه على الشركة . ويعتقد (بولاد) بأن منح العمال أجراً أدنى يعادل /١٥ قرشاً / وبزات رسمية مجانية ، وتحديد يوم العمل بثماني إلى تسع ساعات ، وإعطاء شروط معقولة بشأن أيام العطل ، ودفع تعويض عند التسريح من الخدمة ومنح إجازات مرضية مدفوعة الأجر ، كل ذلك سيضع حداً لمشاكل العمال في الشركة . كما انتقد الإدارة للخدمات السيئة ولعربات الحافلات القذرة المزدحمة ولنقص عدد مقاعد الدرجة الأولى والعمال الذين لم تخضعهم الشركة لأي تدريب . وأدان (بولاد) خطة الشركة لدفع أجرة ركوب الترام ودعى إلى تخصيص ترامات بنصف الأجرة للعمال خلال ساعات معينة من اليوم . إلا أن هذا المطلب الأخير يبدو نابعاً من رغبة في فصل العمال عن الطبقة الوسطى أكثر منه تعاطفاً مع معاناة العمال الفقراء . واقترح (بولاد) رغبة منه في حماية المصالح العامة ووضع حد للكفاح المستمر للطبقة العاملة أن يتم تعيين محام مستقل وغير منحاز في أقسام الشركة المعنية بتعيين العمال وتنظيمهم . وقدمت اقتراحاته إلى اجتماع عام لركاب الترام عقد في سينما (أوبليسك) في الثامن والعشرين

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

من أيلول/سبتمبر ، وتم اختيار أربعة وفود للمساعدة في التوسط لإنهاء الإضراب الذي دام حتى ذلك الوقت سبعة أسابيع .

لم تتدخل السلطات البريطانية مباشرة لإنهاء الإضراب ـــ وهو مؤشر على مدى الضعف الذي ألم بها من جراء الثورة فأوهن من تحكمها بأمور السلطة في مصر ـــ إلا أنها كانت شديدة القلق حيال المضامين السياسية الخطرة للإضرابات المتواقتة في ترام القاهرة والاسكندرية وهليوبوليس . وقد كتب أحد المسؤولين يقول :

«إذا ما نجحت الإضرابات في فرض مطالبها فإن نجاحها لن يكون نصراً لهم فقط بل سينظر الأهالي إليه كهزيمة للمستخدمين والسلطات معاً . وهذا سيشجع جماهير الناس على إثارة الشغب »(٣٧) .

وبناء على ذلك تم اتخاذ إجرائين في نهاية آب/أغسطس لخنق موجة الإضراب التي بدأها عمال ترام القاهرة . فتم القبض أولاً على (محمد كامل حسين) بحجة أنه يحاول تنظيم عمال (العنابر) وحضهم على الإضراب . وكان عمال ورشة السكة الحديدية قد أضربوا إضراباً لم يطل أمده في منتصف آب/أغسطس إلا أنهم عادوا إلى العمل ولم تصدر عنهم أية بادرة أخرى حتى حلول الصيف . واستمرت نقابة عمال الترام بالعمل رغم اعتقال (حسين) وبقي العمال على إضرابهم(٣٨) .

كان الإجراء الآخر أبعد أثراً في نتائجه ؛ إذ حتى ذلك الحين لم يكن هناك نظام مؤسساتي لحل نزاعات العمال . وإذا ما كان الإضراب أو النزاع على درجة من الأهمية يقوم محافظ المدينة أو حتى رئيس الوزراء بجمع الطرفين معاً في محاولة لفض الخلاف .

لم يتمكن هذا النظام من مجاراة موجة إضرابات آب/أغسطس وانهار تماماً فأعلنت حكومة (محمد سعيد باشا) بتشجيع من الجنرال اللنبي إنشاء (مجلس صلح عمالي) في ١٩ آب/أغسطس . وكان على هذه الهيئة تحري أصول النزاع بين العمال ومستخدميهم وتعيين وسطاء لعقد جلسات المفاوضات واقتراح إجراءات لحل الخلاف ، والمشاركة في التطورات الجارية لتمثيل العمال والمستخدمين . كان أول رئيس لمجلس الصلح هو الدكتور (الكسندر جرانفيل) Alexander Granville الذي كان يشغل أيضاً منصب رئيس مجلس المحجر الصحي ونائب رئيس لجنة بلدية الاسكندرية ورئيس الصليب الأحمر ، وكان الأعضاء الآخرون في المجلس (رفلة تادروس بيه) موظف حكومي و(محمد صادق بيه) رئيس مكتب النائب العام في الاسكندرية و(ويليام هورنبلور) وهو موظف بريطاني مالبث أن استقال(٣٩) .

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

إن إنشاء مثل هذه الهيئة المختصة للعناية بشؤون نزاعات العمال هو دليل واضح على مدى اهتمام المسؤولين البريطانيين المستعمرين والحكومة المصرية بهذه الظاهرة الجديدة للنزاعات الطبقية. وكان واضحاً أن الوقت قد حان لتطوير وسيلة ما لتخفيف أثر الكفاح العمالي الذي قد ينفجر ويهدد الاستقرار السياسي لنظام الاحتلال ومصالح رأس المال الأجنبي. إلا أن مجلس الصلح العمالي لم يمنح سوى سلطات محدودة للغاية تماشياً مع مبادئ الليبرالية التقليدية، فلم يكن بوسعه فرض أحكام ملزمة أو فرض تنفيذ ما تتوصل إليه الاتفاقات التي تمت تحت إشرافه، بل تقتصر صلاحيته على تبليغ ما توصل إليه من نتائج واقتراح توصيات. كما لم يكن باستطاعة المجلس التوسط في كل نزاع وعاد أمر التوسط من جديد يقع على كاهل المحافظ في المدينة إلا أن إنشاء مجلس الصلح كان خطوة أولى هامة خطتها الحكومة المصرية في الاعتراف بأهمية الطبقة العاملة والحركة العمالية وفي استخدام طرق للسيطرة دون اللجوء إلى الشرطة.

كان المسؤولون البريطانيون يعتزمون المضي إلى أبعد من ذلك في الخريف الآتي، إذ بحث السير (مايلز تشيتام) Miles CHeetham ــ الذي حل محل اللنبي خلال فترة غياب الأخير في إنجلتره ــ مع وزارة الخارجية مسودة مشروع اعتراف رسمي بالنقابات المهنية للعمال من غير الموظفين من المراتب العليا، ويشترط في كل حالة موافقة وزير الداخلية.

كانت الحكومة المصرية في حاجة ماسة لزيادة شعبيتها، وأبدت كما يقال استحسانها للفكرة. فامتلاك السلطة لرفض منح مكانة قانونية رسمية للنقابات التي لم توافق الحكومة على دستورها سيكون وسيلة فعالة لبسط السيطرة في حين تتمكن المحاكم من حل أي نقابة يتعارض مسلكها مع السياسة العامة. إلا أن المفوض السامي كان يشعر بالقلق حيال ما سيفهمه الناس من تلك الخطوة في زمن انتشر فيه النضال العمالي والتحريض الوطني. وأبرق (تشيتام) إلى (كيرزون) Curzon يقول:

> « إن اعتراف الحكومة سيعطي قوة [للحركة النقابية المهنية] وسيعد نصراً للمتطرفين ومن المشكوك فيه أن تثبت سياسة الحكومة في الظروف الحالية وبالشكل المطروح، فعاليتها... أعتقد بأن القانون قد يفسر على أنه دليل ضعف في الوقت الحاضر وسيزيد من تأثير المتطرفين »(٤٠).

وفي نهاية المطاف طرح الاقتراح جانباً، واستمر سنوات عديدة قبل أن يحتل الاعتراف الشرعي بالنقابات مكاناً جدياً على لائحة أعمال الحكومة. وفي عام ١٩١٩ كان المسؤولون البريطانيون الذين أداروا شؤون مصر يشعرون بخشية شديدة لها ما يبررها من أن

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

النقابات الجديدة ستكون أداة في يد (الوفد) وربما العناصر المتطرفة الأخرى تتمكن من خلالها من تعبئة الطبقة العاملة لفرض هذه الخطوة. وكان إنشاء مجلس وساطة بصلاحيات محدودة هو أبعد ما هم مستعدون للمضي فيه في مواجهة بروز حركة عمال مصرية ناشطة.

كانت أولى المهام الرئيسية التي اضطلع بها مجلس الصلح العمالي الجديد هي تسوية إضراب الترام القاهري الذي بقي مستعصياً على الحل. إذ ادعت الشركة أنها غير قادرة على تقديم أية تنازلات كبيرة ما لم تزدد أجور الترام، على الرغم من أن المحاسبين الذين ندبتهم الحكومة لدراسة دفاتر حسابات الشركة لم يقبلوا هذه الحجة، ولم يتم التوصل إلى اتفاق إلا مع بدايات شهر أكتوبر/تشرين الأول، واستأنفت خدمات الترام حركتها في الخامس من ذلك الشهر بعد ستة وخمسين يوماً. حصل السائقون والجباة بموجب اتفاقية اكتوبر/تشرين الأول على زيادة في أجورهم وبلغ ما يتقاضونه في اليوم ما بين ستة عشر وواحد وعشرين قرشاً إذا ما أدخلنا في الحساب الإضافات بسبب التضخم المالي. كما حصل العمال الآخرون في شركة الترام القاهري على زيادة في الأجور، إذ وافقت الشركة على إعادة جميع المضربين إلى أعمالهم وعلى عدم معارضة نشاطات النقابة مع أنها استمرت في رفض الاعتراف فعلاً بالنقابة أو التعامل معها. وكان على جميع العقوبات التي يفرضها المفتشون أن تمر على قسم المرور للموافقة عليها بعد استشارة لجنة التفتيش التي يتحتم عليها أن تضم ممثلاً عن الإدارة يتكلم العربية ومستخدماً من الموظفين يقوم بالتسجيل، وعاملاً تعينه الشركة. ومن الأمور الهامة أيضاً الوعد الذي قطعته الشركة بأن تنشر (بالفرنسية والعربية) وتوزع نسخاً عن قوانين العمل فيها وشروط الخدمة (لائحة الخدمة) على العمال. وانتهى كذلك الإضراب في ترام الاسكندرية وهيلوبوليس على أساس اتفاقية مشابهة لتلك التي تم التوصل إليها في القاهرة. إلا أن الإضراب في الاسكندرية لم يصل إلى تسوية إلا بعد أن هددت لجنة البلدية التي أعياها تصلب شركة الترام وخططها لمضاعفة أجور الترام، بأن تشتري امتيازات الترام وتدير المؤسسة بنفسها.[٤١]

كانت تسوية إضرابات الترام هي آخر نبضة في موجة الإضرابات العارمة التي تفجرت في منتصف آب/أغسطس. تقلبت أحوال عمال «العنابر» بين اضطراب وهدوء خلال فترات الصيف والخريف وبدا أن إضراباً ما وشيك الوقوع في نهاية أكتوبر/تشرين الأول. إلا أن عمال الترام اقتنعوا في النهاية بإضراب احتجاج دام أربعاً وعشرين ساعة للمطالبة برفع الأجور، ولم يكن عمال (العنابر) إجمالاً مشتركين في النضال العمالي إلا مشاركة هامشية في النصف الثاني من عام ١٩١٩[٤٢]. إن عمال الترام وخاصة العاملين

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

منهم في القاهرة هم الذين أشعلوا فتيل الاضطرابات العمالية، وهم الذين استمروا في الإضراب لفترة طويلة بعد أن عاد العمال المصريون والأجانب ــ الذين اقتفوا خطواتهم في البداية ــ إلى أعمالهم. وجسدت اتفاقية أكتوبر/تشرين الأول ١٩١٩ التي أنهت إضراب عمال ترام القاهرة مكاسب عظيمة للعمال خاصة فيما يتعلق بالأجور إلا أنها لم تخل من تنازلات، فلم ينجح العمال في الحصول على حق الاعتراف بنقابتهم أو بتعويض عن التسريح من الخدمة كما بقيت تركيبة لجنة التحري على ما هي عليه فلم تمنحهم الحماية الفعالة التي كانوا يسعون إليها لمواجهة المعاملة الجائرة التي تمارسها الإدارة ضدهم. ومع ذلك فقد اعتبرت الاتفاقية نصراً للعمال وأصبحت نقطة مضيئة يرجعون إليها في العديد من الصراعات التي خاضوها في السنوات المقبلة. وتعد هذه الاتفاقية مقياساً للدرجة التي بلغتها الظروف السياسية المواتية التي أتاحت لعمال ترام القاهرة الظفر بالمكاسب الهامة التي حصلوا عليها في ١٩١٩ والتي مرت عقود طويلة من السنين قبل أن تتحقق الوعود التي قطعت في اتفاقية أكتوبر كاملة.

إن الانتفاضة الشعبية التي ثارت في الربيع الذي سبق موجة الإضراب هي التي جعلت من الإضرابات المتتالية في آب/أغسطس ١٩١٩ أمراً ممكناً. لقد فتحت الثورة الوطنية ضد الحكم البريطاني الباب على مصراعيه أمام التنظيم العمالي والعمل النضالي. وقد ضمنت في الحين نفسه الزيادة المتصاعدة في معدلات التضخم المرتفعة استمرار النشاط العمالي. وفي ١٩١٩ حرض تضافر ظروف معينة سياسية واجتماعية واقتصادية العمال العاملين في مشاريع اقتصادية ضخمة وفي مؤسسات النقل على الاندفاع إلى العمل النضالي، وليس هذا وحسب بل مكنهم من كسب شرعية شعبية ودعم مادي في كفاحهم. وكانت جهود العمال لتحسين ظروف معيشتهم تعتبر جزءاً لا يتجزأ من نضال الأمة المصرية بأكملها لتحرير نفسها من ربقة السيطرة الأجنبية، واستمرت هذه الوحدة في الهدف، تؤجج التعاطف الشعبي مع العمال خلال الصيف والخريف من ذلك العام حتى عندما كانوا يناضلون لتحقيق مطالب اقتصادية محضة. وقد انضم العمال الأجانب في مصر أيضاً إلى المطالبة بالشروط نفسها، وانتهزوا الفرصة التي سنحت لهم من جراء ضعف النظام الاستعماري فقاموا بتشكيل نقابات جديدة وبالتصدي لرؤسائهم في العمل. وتأثر العديد من العمال الأجانب بالاشتراكيين الإيطاليين الذين رسخوا دعائم فكرة جديدة ومتطرفة ــ إلى جانب أمميتهم ومناهضتهم للإمبريالية ــ وهي فكرة الهوية الطبقية والوحدة بين المجموعات الاثنية وأفراد المهنة الواحدة. وقد يبدو الأمر على شيء من التناقض إذ نجد أن

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

العمال الأجانب لم ينضموا إلى رفاقهم المصريين في نضالهم المشترك ضد رؤسائهم إلا عندما بلغت الوطنية المصرية أوج نشاطها وفعاليتها، إلا أن ما حدث في الواقع هو أن انبعاث الوطنية من جديد هو الذي أتاح المجال لظهور الحركة العمالية التي تمكنت إلى حين ما من ضم عمال من جنسيات مختلفة تحت لوائها. وقد تأسست في فترة الصراع السياسي الذي شاركت فيه أعداد هائلة من الشعب، أرضية مشتركة مكنت العمال المصريين الذين يناضلون بدافع من الظلم المحيق بهم في أماكن عملهم وبالعاطفة الوطنية، من الوقوف جنباً إلى جنب مع رفاقهم الأجانب على قدم المساواة.

كان هناك ما يقدر بإحدى وعشرين نقابة في نهاية ١٩١٩ تعمل في القاهرة، وسبع عشرة نقابة في الاسكندرية وعدد آخر في مدن قناة السويس والدلتا وغيرها من المدن[٤٣]. لقد شهدت هذه السنة البالغة الأهمية ولادة الحركة العمالية المصرية المرتبطة بعرى وثيقة مع الاندفاعة الوطنية التي ظهرت في الوقت نفسه. وستحمل هذه الحركة إلى وقت غير قصير البصمات التي تركتها عليها ظروف ولادتها والتي ستأخذ شكل علاقة خاصة مع الحركة الوطنية المصرية. وهذا لا يعني أن سنة ١٩١٩ قد حددت معالم الأحداث المستقبلية للحركة العمالية المصرية مسبقاً ولكن هذه الثورة كانت التجربة التي أسهمت بأشكال شتى في صياغة الحركة النقابية المصرية ــ تجربة لعبت دوراً كبيراً في قولبة المنظور العقائدي والسياسة التنظيمية لكل من العمال النقابيين والوطنيين البرجوازيين الناشطين في شؤون الحركة العمالية. وستترسخ «الدروس» التي لقنتها سنة ١٩١٩ للعمال عبر التجارب اليومية والنضال الذي خاضوه داخل دائرة العمل وخارجها. وأسهم ذلك في رعاية تبعية مستمرة للوطنيين البرجوازيين كزعماء أو مناصرين وعلى الوطنية البرجوازية كإطار عقائدي مهيمن. وبالطبع ظهرت أفكار وتيارات موازية وستفضي مع الوقت إلى تفتح أعين العمال المصريين على مساوئ وتناقضات العلاقة بين العمال والوطنيين وستبقي العديد من إشارات الاستفهام حولها، إلا أنه في ١٩١٩ كان ذلك كله سابقاً لأوانه بكثير، وخلال بضعة شهور عاصفة برزت للوجود الطبقة العاملة المحلية واتخذت مكانها بفعالية وحزم على مسرح التاريخ بالأشكال التي اختارتها لنفسها من صيغ التنظيم والنضال. ولن تخلُوَ مصر بعد اليوم من حركة نقابية تضرب جذورها في الأعماق بين صفوف العمال، مهما كانت ضعيفة أو مفككة أحياناً، وتظل عاملاً هاماً في الحياة العمالية والسياسية.

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

ملاحظات

١ ــ لمطالعة تأثير الحرب على مختلف الطبقات انظر كتاب عبد الرحمن رمضان «تطور الحركة الوطنية المصرية من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٣٦» (القاهرة) صفحات ٦٦ ــ ٨٢ . وللاطلاع على سرد تقليدي وطني لأحداث الثورة راجع كتاب عبد الرحمن الرافعي «ثورة ١٩١٩» (القاهرة، الطبعة الثالثة) الجزء الأول، الصفحات من ٤٠ إلى ٤٤ .

٢ ــ بريطانيا العظمى /وزارة الخارجية، أرشيف مكتب السجلات العامة :Fo 407/186/325 . استناداً إلى العيساوي فإن سوء التغذية التي نجمت عن الحرب كان لها تأثير كبير في نسبة الوفيات في مصر حيث ازداد العدد الإجمالي للوفيات في السنة من ٣٠٠٫٠٠٠ قبل الحرب إلى ٥٠٠٫٠٠٠ في ١٩١٨ . راجع شارل العيساوي :

Egypt at Mid-Century (London, 1954) p. 41

٣ ــ انظر على سبيل المثال : مصر، محفوظات مجلس الوزراء، وزارة الأشغال، مصلحة السكة الحديد، العلبة المؤرخة «٢ كانون الثاني /يناير ١٨٨٢ ــ ٢٢ ديسمبر /كانون أول ١٩١٨»، التماس كلمة حق أوحت بنشرها «عواطف الإخلاص» وكذلك «سدان التماس كومسارية السكة الحديد»، وهما منشوران صدرا بالإجماع عن عمال : السكك الحديدية في فترة ما بين نوفمبر /تشرين الثاني ١٩١٦ واكتوبر /تشرين الأول ١٩١٧ .

٤ ــ مقتطفة من Ronald Seth, «Russell Pasha» (London, 1966), p.130

انظر أيضاً : أمين عز الدين في كتابه «تاريخ الطبقة العاملة في مصر منذ نشأتها حتى ثورة ١٩١٩» (القاهرة ١٩٦٧) صفحات ١٦١ ــ ١٧٤ .

٥ ــ «المقطم»، ٦ آذار /مارس ١٩١٩، مأخوذة عن عز الدين (١٩٦٧) ص . ١٨٤ .

٦ ــ للاطلاع على سرد أكثر تفصيلاً عن هذه الأحداث راجع (الرافعي)، ١٩١٩، (رمضان) «تطور ..» أو (ماريوس ديب) :

Party Politics in Egypt: The Wafd and Its Rivals: 1919-1936 (London, 1979), ch. 2.

٧ ــ انظر Egypte, Ministère des Finances, Annuaire Statistique 1914, pp. 218-19; Egypte, Ministère des Finances, Annuaire Statistiques 1919, pp. 138-40.

٨ ــ محمد زكي علي، «تقرير عن حالة عمال الترام بالقاهرة» (القاهرة ١٩٢٠) أمين عز الدين، «تاريخ الطبقة العاملة المصرية ١٩١٩ ــ ١٩٢٩» (القاهرة ١٩٧٠) صفحة ١٦ .

٩ ــ الرافعي، (١٩١٩)، الجزء الأول، صفحة ١١٧ ــ ١١٩؛ «الوطن» . ١٤ آذار /مارس ١٩١٩ . مقتطفة في كتاب عز الدين (١٩٧٠) صفحة ١٦ . حول السمعة العامة الرديئة لشركة الترام انظر

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

كتاب أميل بولاد :

Emile Boulad, «Les Tramways du Caire en 1919 (Cairo 1919) p. 14-19.

١٠ — انظر Fo 141/748/8839/1, notes by Thomas a Masworth

١١ — الرافعي «١٩١٩»، الجزء الأول صفحة ١٢٦، وميخائيل مصري «Michael Messeri»,«Thu'at hapo'alim bazira hapolitit bemitzayyim», 1919-1936-I: Tza'adim rishonim, Hamisrah Hahadash 21 (1971): 148; Seth, Russel Pacha, p. 146.

١٢ — الرافعي، «١٩١٩» صفحة ١٦٨ — ١٦٩، للاطلاع على الروابط بين المجموعات السرية وبعض الوفديين البارزين وخاصة عبد الرحمن فهمي الذي كان الأمين العام للجنة المركزية الوفدية في القاهرة انظر كتاب محمد أنيس : «دراسات في وثائق ثورة ١٩١٩، الجزء الأول : المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمي (القاهرة ١٩٦٣) وكتاب «رمضان» : تتطور ...، صفحة ١٥٨ — ١٧٥.

١٣ — محمد زكي علي : تقرير عن حالة عمال الترام بالقاهرة مع كلمة عن العمال (القاهرة) ١٩٤٥ ص ١٢؛ وعز الدين (١٩٧٠) ص ٢٦ — ٢٧.

١٤ — انظر Fo 141/687/8705/2.

١٥ — انظر مثلاً Earl of Cromer, Modern Egypt (London, 1908), p. 1, ch. 1, II, ch5, 61-2

كان هذا الكتاب مرجعاً من المراجع التي يقرؤها المسؤولون البريطانيون في مصر ويعدون ما جاء فيه حقيقة لا جدل فيها وعصارة حكمة وخبرة الحاكم الفعلي لمصر عبر عقدين من السنوات.

١٦ — راجع Messiri, «Tnu'at hapo'alim», I, p. 145

١٧ — راجع Fo 141/687/8705/3., 4

١٨ — راجع Fo 141/687/8705/28, Blakeney to Cheetham, October 23, 1919,

وأيضاً (الرافعي) «١٩١٩»، الجزء الأول صفحة ١٢٥ — ١٢٦، ١٣١ — ١٣٢، ١٤١؛ ومذكرات عبد الرحمن فهمي باشا (في دار الوثائق، القاهرة). ص ١٢٢.

١٩ — انظر Fo 141/687/8705/8, Macauley to General Officer Commanding Forces in Egypt, March 22 1919

٢٠ — انظر Fo 141/781/8915, çeneral staff jintelligence, April 10,28;1919; Fo 141/687/8705/14, Fo 407/184, Allenby to Curzon, no. 277, May 1-2-1919

٢١ — انظر France, Archives of the French Embassy in Cairo (hereafter F) 1512, Henri Naus (general director of the Sugar company) to the French minister in Cairo, Abril 30, 1919. 22, al-Rafii, 1919, pp. 138-9

٢٢ — انظر الرافعي، «١٩١٩»، ص ١٣٨ — ١٣٩.

٢٣ — انظر Fo 141/781/8915, Reports of April 28, May 7 July 8, 1919.

٢٤ — مقتطف من «أنيس» : دراسات ... ص. ١٥٤.

٢٥ — انظر Fo/510, Services de Informations de la Marine dans le Levant (hereafter SIML), no. 198-CE, Port Said, March 30, 1919, «Rapport de l'agent D.»; Fo 141/487/7392/7-9.

٢٦ — انظر Fo 407/185/27, Allenby to Curzon, July 1 , 1919; Fo 407/185/136, Allenby to Curzon, July 12 1919; F/512, SIML, no. 210-CE, May6, 1919.

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

كان العمال اليونان والإيطاليون في نقابة «الفونيكس» يتعاونون تعاوناً وثيقاً باستثناء العمال اليونان الذين هم من جزر Dodecanese (التي كانت آنذاك تحت الحكم الإيطالي) والذين كانوا معادين حيال رفاقهم من العمال الإيطاليين.

٢٧ — انظر Fo 141/781/8915, May 14, 26, June 4, 1919, Fo 141/487/7392/2, 3, 4, 5; F/S10, SIML, no. 213-CE (May 17, 1919) and no. 214-CE (May 22, 1919)

٢٨ — انظر F/39, p. Lefevre-Pontalis to S. Pichon, Minister of foreign Affaires, June 5, 1919, Fo 141/487/7392/23, June 23, 1919 أيضاً

٢٩ — انظر Fo 407/185/57, Allenby to Curzon, July 22, 1919

٣٠ — انظر Fo 141/781/8915, June 3, 1919; Fo 141/748/8839/12, D. Granville, «Note on the Strike of Cairo Electric. Tramways», October 6, 1919;

وأيضاً: محمد زكي علي «تقرير ...»، ص ١٢٠؛

الرافعي (١٩١٩)، الجزء الثاني، ص ٢٩٠.

٣١ — انظر Fo 141/748/8839, Department of Public Security/Military Intelligence, August 10, 1919, Fo 407/185/57, Allenby to Curzon, July 22, 1919; Fo 407/185/171, Cheetham to Curzon, September 8, 1919; Fo 141/779/4065/12 أيضاً

٣٢ — انظر La Bourse Egyptienne, August 21, 1919; Fo 407/185/137, 171, 215; Fo 141/781/8915; F/39, Alexandria, September 20, 1919.

٣٣ — انظر La Bourse Egyptienne, August 18, 1919

٣٤ — انظر La Bourse Egyptienne, August 19, 27, 1919; Fo 141/748/8839/39, August 19, 1919

يبدو أن مصرف Banco di Roma عمل كمقر إيداع وكقناة لأموال الوطنيين والعمال وهذا يدل على العلاقة الخاصة القائمة بين بعض شرائح المجموعة الإيطالية في مصر وحركة الاستقلال. كان المسؤولون في شركة الترام والبريطانيون مدركين بالطبع للدور الذي يلعبه المصرف، انظر على سبيل المثال:

Fo 141/748/8839/7.

تقرير وزير الدولة للشؤون الخارجية المرسل إلى المندوب السامي في ١٥ أيلول /سبتمبر ١٩١٩ والذي يتضمن نسخة من رسالة حول هذا الشأن من (جاستون ايثير) Gaston Ithier من إدارة شركة الترام القاهري الأساسية في بروكسل.

٣٥ — انظر Fo 407/185/205, Cheetham to Curzon, August 18, 1919; Fo 141/781/8915, August 26, September 6, 1919.

٣٦ — نشرت هذه المقالات أصلاً في جريدة «الأهرام» وانتهت في ١٧ سبتمبر /أيلول ١٩١٩، ونشرت كذلك في كتاب حافظ محمود «طلعت حرب» (القاهرة ١٩٣٦) ص. ٧٤ — ٨٢. ولدراسة أشمل حول طلعت حرب وتاريخ بدايات بنك مصر انظر: Eric Davis: «Challenging colonialism: Bank Misr and Egyptian Industrialization, 1920-1941 (Princeton: Princeton University Press, 1983).

٣٧ — انظر Fo 141/781/8915, August 18, 1919

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

٣٨ ــ المصدر السابق ٢٥ آب /أغسطس ١٩١٩ .

٣٩ ــ انظر La Bourse Egyptienne, August 19, 1919

٤٠ ــ انظر Fo 407/185/181, 202, 208, Cheetham to Curzon, September 25, 26, October 6, 1919; /219, Curzon to Cheetham, October 13, 1919

٤١ ــ انظر Fo 141/748/8839/12, Granville, «Note», October 6, 1919; Belgium, Ministère des Affaires Etrangères, N. Leysbeth (Consul in Alexandria) to Paul Hymans, Foreign Minister, September 22, October 10, 1919; La Bourse Egyptienne, August-October 1919, Passim, Fo 141/687/8705/17, Macauley to the Residency. September 1, 1919, /27, Major Courtney, Intelligence, to the Residency, October, 22, 1919; /28, Blakeney (ESR general manager) to Cheetham, October 23, 1919; Fo 407/186/325; Fo 141/781/8915, Intelligence October 27, 1919.

يمكن تفسير همود عمال «العنابر» وانعدام نشاطاتهم بالإجراءات القمعية التي اتخذت ضدهم مثل اعتقال م . ك . حسين وتهديدات الحكومة لوضع حراسة عسكرية على السكك الحديدية ، وكذلك بأنهم حصلوا فعلاً على زيادات لا يستهان بها على أجورهم في وقت سابق من ذلك العام .

٤٢ ــ انظر A. D. I. EL-Gritly, «The Structure of Modern Industry in Egypt», L'Egypte Contemporaine, no. 241-2 (November-December 1947).

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

التحول في السياسات المدينية السورية
أحياء دمشق أثناء الانتداب الفرنسي

فيليب س. خوري

كانت سنوات الحرب العالمية الأولى هامة جداً في السياسات المدينية في سوريا فقد كانت البلاد في مرحلة انتقالية ومرتهنة بين أربعة قرون من الحكم العثماني وبين الاستقلال الوطني، وعلى الرغم من أفول نجم الإمبراطورية وتوفر أشكال جديدة من التنظيمات الاجتماعية والسياسية فقد بقيت ثمة نظرة عثمانية مميزة إلى النخب المدينية السورية، في هذه الأثناء احتلت فرنسا المنطقة واتسم حكمها بقلة المهارة وبقدر متزايد من عدم اليقين، وقد نص نظام الانتداب نفسه على أن فرنسا لا تستطيع أن تبقى في سوريا بشكل غير محدود، ومع أن النزعة القومية العربية كانت غير ثابتة الدعائم ولا واضحة فقد أصبحت هي الفكرة المسيطرة في ذلك الوقت ودوّت صيحة الاستقلال في كثير من أنحاء سوريا وكان صداها يومئذ أكثر ارتفاعاً وأشد وضوحاً في مدنها وهي المراكز التقليدية للحياة السياسية.

وقد حافظت المدينة السورية طيلة فترة الانتداب الفرنسي على مكانتها المحورية الهامة والتي تعود إلى العصر الوسيط فالجامع الذي يحتشد فيه جمهور المصلين والقلعة والأسواق المركزية ومزيج من الأحياء السكنية القديمة. وظلت متسمةً بتصدعات عميقة بين الطوائف الدينية المختلفة والجماعات العرقية، وبين الأغنياء والفقراء وبين التجارات المتعددة وكذلك بين السكان الذين عاشوا في المدينة منذ زمن طويل وبين المهاجرين من الريف حديثي العهد بالإقامة فيها. وظل الحرفيون منظمين تنظيماً هشاً في تعاونيات (أصناف) وكان أهل كل حرفة يتجمعون معاً وفي شارع واحد على الأغلب أو زقاق. وكانت الأقليات الدينية

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

مسيحيين ويهوداً محصورة في أحيائها الخاصة وفي أماكن عبادتهم (باستثناء قلة نادرة من المثقفين والأغنياء). كانت الأحياء السكنية نظيفة وغارقة في حياتها الضيقة ونادراً ما كان أحد يفكر بالجماعة كلها أو يعنى بمصالحها. «وكانت أكثر التصدعات حدة، في بعض النواحي، هي التي توجد بين الأحياء المختلفة التي كان كل منها منفصلاً عن الآخر بأسوار وبوابات محكمة الإغلاق منذ الغروب على أيدي رجال يحرسونها. وقد نجم هذا الفصل الطبيعي عن عوامل عديدة ربما كان أولها «تعبيراً عن دافع فطري إلى الحماية من خلال الجماعة»[١].

ومع أن الأحياء[٢] حافظت على تميزها وهدفها في أوائل القرن العشرين إلا أن تماسكها قد بدأ يتآكل بفعل القوى الاجتماعية الجديدة وكان ذلك نتيجة مباشرة للتغيرات البنيوية التي عصفت بالشرق الأوسط منذ أوائل القرن العشرين، تغيرات في الإدارة والقانون، في التجارة والصناعة والزراعة، وفي حركة البضائع والأشخاص والأفكار وأكثر من ذلك كله في علاقات الدولة العثمانية بأوروبا. ولم يُحدث ذلك كله تحولاً في الأهمية النسبية للمدن السورية من الداخل باتجاه الشاطئ وحسب بل كان هناك تحول في الأهمية النسبية لأقسام مختلفة من المدينة وتغيرات في أولويتها ووظائفها الاقتصادية والإدارية.

كان اندماج الشرق الأوسط في الاقتصاد العالمي يعني، أن الاقتصاد المحلي القديم يتلاشى، مع اعتبار لاختلاف السرعة والإيقاع، كاقتصاد رعوي أو ذي قوام زراعي ويفسح الطريق أمام زراعة مستقرة وذات أسواق موجهة وفي أثناء ذلك أخذ يتأسس اقتصاد وهيكل قانوني للملكية وتركيز إلى الحد الأقصى للتملك وكانت المدن قادرة على بسط نفوذها إلى ما هو أبعد من الريف المجاور لها مباشرة، وتخلق بذلك وحدات[٣] اقتصادية وسياسية إقليمية أكثر تكاملاً.

وثمة نماذج من الهيمنة على الأراضي اجتثت الفلاحين وشجعت على ازدياد الهجرة إلى المدن. كما أن نماذج جديدة من التجارة والإنتاج أسرعت في إفقار بعض الأحياء وإغناء بعضها الآخر، وساعد تمركز الثروة الذي تزاوج مع انتشار الثقافة الحديثة على الإسراع بعملية الاختلافات الطبقية، وتحرك المهاجرون إلى داخل الأحياء التي هجرها الأغنياء والمثقفون الجدد، كما أن الدولة أسكنت لاجئين في هذه المناطق، وسكن مهاجرون آخرون ولاجئون في ضواحي المدينة وخلقوا بذلك أحياء هامشية فقيرة.

كما ساعد على حركة السكان إلى داخل المدن السورية وإلى خارجها وسائل السفر الجديدة الرخيصة والحرب العالمية الأولى التي نشطت الهجرة إلى الأراضي المجاورة وإلى الغرب.

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

وأفاد نماء السوق الاقتصادية تدريجياً في خفض الحواجز بين الأحياء وبين الجماعات الدينية والعرقية وشجع بعدئذ أشكالاً راقية من التكامل الاجتماعي والتنظيمات في المدينة كلها وقد ساندت هذه العملية دولة تم تحديثها وتقويتها وأصبحت قادرة بصورة متزايدة على توطيد سلطتها بطرق لم يشعر بها السكان من قبل أبداً.

ومع أن رياح التغيير في سوريا قد اشتدت بعد الحرب العالمية الأولى فيجب ألا نبالغ في تأثيرها على السياسات المدينية، وعلى سبيل المثال اتصفت ممارسة السلطة السياسية المحلية بدرجة كبيرة من الاستمرارية التي لم يمزقها انحلال الإمبراطورية العثمانية وحلول الانتداب الفرنسي محلها وفي معظم الحالات ظل الأشخاص الذين كانوا يتمتعون بالأهمية في الشؤون المحلية في ظل العثمانيين هم أنفسهم أو جاء أولادهم يمارسون النفوذ السياسي في ظل الفرنسيين. واستمر القادة السياسيون في تنظيم أساليب دعمهم الشخصي كما كانوا يفعلون في أواخر زمن العثمانيين وظلت القيادة المدينية البناء الأساسي الراسخ للنفوذ السياسي في سوريا وإلى جانب قلب السياسات المدينية كانت الأحياء، وهي الميدان التقليدي الذي تمارس فيه القيادة السياسية عملها ومنه تستمد الكثير من دعمها.

وعلى الرغم من استمرارية الأهداف والأشخاص وحتى طرائق التنظيم فقد كان القادة السياسيون في ظل الانتداب مجبرين على توسيع مدى عملياتهم لكي يحافظوا على قوة مستقلة ونفوذ. ولم تكن العلاقات في ظل عداء مفتوح مع المسيحيين وفي ظل قوة إمبريالية تشبه في سلاستها تلك العلاقة التي كانت لهم بالعثمانيين. وكانوا ينظرون إلى الفرنسيين كسلطة غير شرعية. ولحسن حظ القادة المدينيين أوجدت قوى التغيير طرائق جديدة جاهزة وآليات عمل، ومؤسسات وطبقات يستطيعون أن يعودوا إليها ليقووا من مراكزهم وليدعموا سلطتهم وبدأت ولاءات جديدة للمدينة وللدولة وفي آخر الأمر للقومية تحل عرى الروابط القديمة بالحي والأسرة والقبيلة والزمرة الطائفية. لقد أنتجت القومية حركات ومنظمات شديدة التعقيد ومقياساً إقليمياً[٤].

ولم تستطع الأحياء القديمة ـــ التي تتميز بمساجدها ومآخذ مياهها وحماماتها وحوانيتها الصغيرة ومقاهيها ـــ أن تنأى بنفسها عن الظروف المتغيرة، وقد حافظ بعضها على قدر معين من الثبات ولكن أكثرها لم يفعل. ومما يدعو إلى السخرية أن سكانها على قدر ما بلغوه من مستويات عالية في الوعي السياسي والتنظيم، ظلوا يعانون تآكلاً مستمراً في السيطرة على السياسات المدينية والقوى الاجتماعية الحية.

وفي خارج الأحياء كانت مؤسسات جديدة وطبقات تولي قدراً عظيماً من الاهتمام

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

والوقت للقيادات المدينية بحيث أصبحت من خلال العمل نقاطاً جديدة ومتحركة ومحورية للمقاومة الوطنية . وعلى الرغم من بقاء الأحياء إحدى الأسس الراسخة للسياسات المدينية أثناء الانتداب الفرنسي فإن مركز الجاذبية السياسية في المدن السورية بدأ يتحول بصورة لا رجعة عنها .

أحياء دمشق

ما من مدينة أكثر أهمية ولا ملاءمة إذا أردنا تمحيص سمات التغيير في سياسات المدن السورية ، من دمشق فهي التي جسّدت بطاقاتها كأكبر تجمع وكعاصمة ومركز للصراع من أجل الاستقلال الوطني ضد الفرنسيين وشكلت وعكست تقريباً جميع الاتجاهات السياسية الرئيسية في تلك المرحلة ، وتجربة دمشق فيما يتعلق بتآكل النماذج المدينية القديمة وتشكل نماذج جديدة تمثل صورة عن تجربة المدن السورية الرئيسية الأخرى خلال سنوات ما بين الحربين[٥] كانت دمشق في سنوات الثلاثينيات تشتمل على ما يقرب من أربعين حياً يمكن تعيينها (انظر الخريطة رقم ١ والجدول رقم ١) مع أن بعضها ليس أكثر من حي مجاور ضمن أحياء أكثر اتساعاً من أحياء المدينة الشمالية الغربية والجنوبية . وتتوضع معظم الأحياء وأغلب سكان المدينة على ضفة بردى الجنوبية وهو النهر الذي ارتبط بالتاريخ الحقيقي لدمشق إذ يروي بساتينها (المعروفة باسم الغوطة) إلى الشرق والغرب[٦] من المدينة ويمكن تقسيم المدينة توخياً للسهولة إلى أربعة أقسام أو مناطق .

الجدول رقم ١
أحياء دمشق وسكانها بحسب طوائفهم الدينية . حوالي عام ١٩٣٦

الحي	مسلمون	مسيحيون	يهود	المجموع
المجموعة الأولى				
القيمرية	٥٫٨١٧	٢٤١		٦٫٠٥٨
باب توما		٦٧٥٠		٦٫٧٥٠
حي اليهود [باب شرقي]			٩٫٧٠٦	٩٫٧٠٦
الخراب	١٨٤٩			١٨٤٩
مادنة الشحم	٧٧٥٠			٧٧٥٠
الجورة	١٣٧٨	٥٩١		١٩٦٩
باب البريد	١٧١٥			١٧١٥
باب السلام	١٥٩٩			١٥٩٩

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

عماره جوانية	٤٠٤٤			٤٠٤٤
شاغور جواني	٦٣٨٣			٦٣٨٣
المجموعة الثانية				
سوق ساروجة	٦٨٦٨			٦٨٦٨
عقيبه	٥٠٩٥			٥٠٩٥
باب سنجقدار	٢٦٥٥	٣١٠		٢٩٦٥
القصاع		١٨٧٢		١٨٧٢
عمارة برانية	٧٨٩٠			٧٨٩٠
مسجد الأقصاب	٦٩٠٠			٦٩٠٠
شاغور براني	١٢٣٣٢			١٢٣٣٢
القنوات	٨٦٢٥			٨٦٢٥
باب الجابية	١٩٣٣			١٩٣٣
باب سريجة	١٢٠٠٠			١٢٠٠٠
قبر عاتكة	٨٠٢٧			٨٠٢٧
بركة حطّاب	٢٠٢٠			٢٠٢٠
السويقة	٥٦٢٠			٥٦٢٠
التيامنة				
المجموعة الثالثة				
الموصللي	٢٨٢٦			٢٨٢٦
سوق الميدان	٧٠١٥			٧٠١٥
الحقلة	١٤٩٣			١٤٩٣
ميدان فوقاني	١٠٥٩٥			١٠٥٩٥
ميدان تحتاني	١٧٣٠			١٧٣٠
القاعة	٣٤٠٠			٣٤٠٠
الساحة	٣٠٤٠			٣٠٤٠
باب مصلى	٥٢٧٩	١٢١٧		٦٤٩٦
المجموعة الرابعة				
الأكراد	٦٦٥٠			٦٦٥٠
الشركسية	٩٦١٠			٩٦١٠
أبو جرش	٩٦٠٠			٩٦٠٠
الصالحية	٢٦٢٢	١٨٢	١٠	٢٨١٤
المهاجرين	٣٤٤٢			٣٤٤٢
	١٧٧٫٨٩٢	**١١١٦٣**	**٨٧١٦**	**١٩٨٧٧١**

المصدر : **M.Ecochard, Paul Danger, René Danger** (غير منشور) **Damas: Rappart d'enquête monographique Surlaville 1936**

أُخذت أرقام السكان هذه من تقرير في الدوائر العقارية نظمته اللجنة الفرنسية العليا في منتصف سنوات الثلاثينيات وليس من الضروري أن تكون مطابقة للحدود الدقيقة بين الأحياء إلا أنها تعكس حجم السكان التقريبي للأحياء .

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

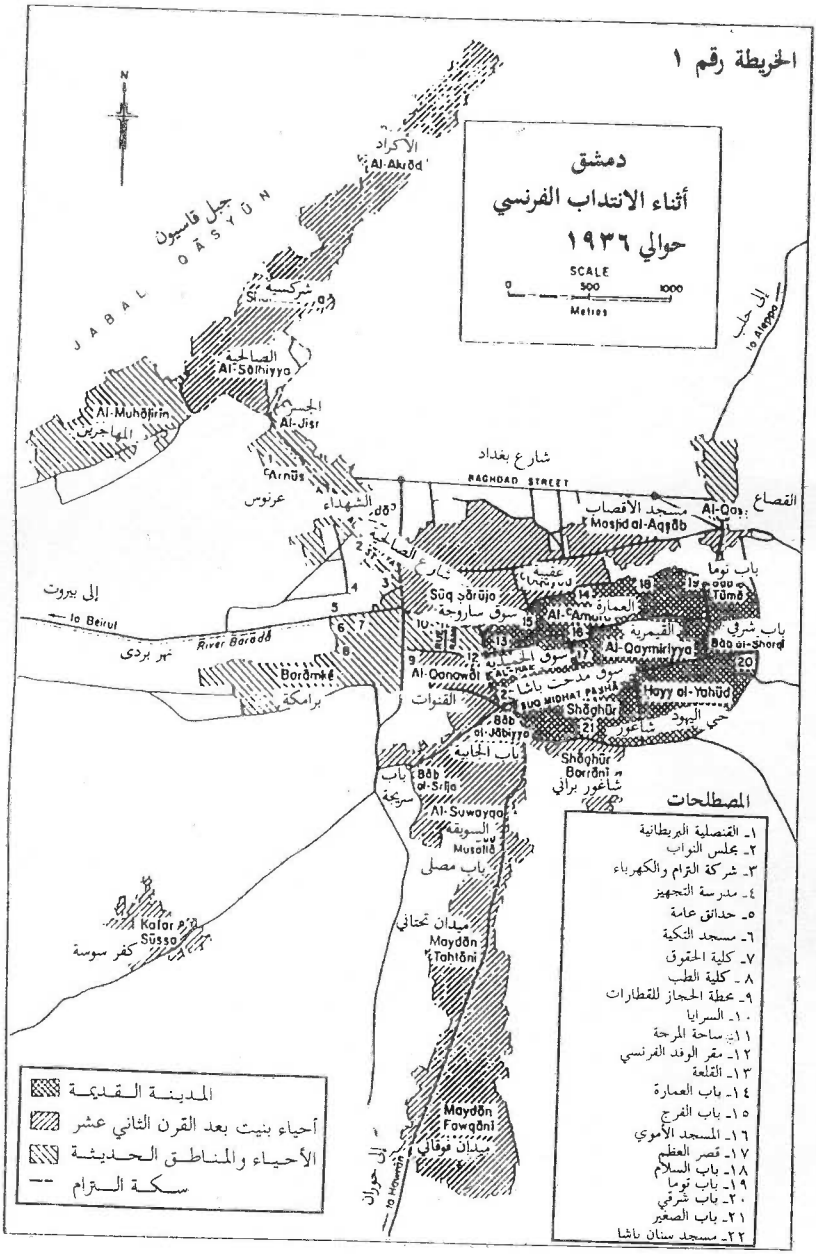

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

القسم الأول دمشق القديمة (انظر الجدول رقم ١ المجموعة الأولى) وهو شبكة معقدة من عشرة أحياء يحيط بها السور القديم وبعض الأحياء (كالعمارة والشاغور) ينقسم إلى جزءين يوجد جزء من كل منهما داخل السور ويقع الجزء الآخر خارجه[٧]. كان المقيمون في الأحياء المسلمة ناشطين في مجالات حياة المدينة التقليدية والسياسية والتجارية حيث كانت تتمركز حول الجامع الكبير (الأموي) والقلعة وسوق الحميدية ومدحت باشا (الذي يعرف أيضاً بالسوق الطويل أو الشارع المسمى بالشارع المستقيم).

وإذا كانت تلك الأحياء سكنية حصراً على وجه التقريب (فلم تكن تشتمل إلا على حوانيت غير متخصصة وأسواق (سويقة) وبعضاً من الإنتاج الحرفي المحدود) فإن عدداً كبيراً من سكانها الذكور كانوا يشتغلون في أماكن أخرى وفي المنطقة التجارية القديمة غالباً. وكان هذا الوضع ينطبق على الحيين اللذين يضمان الأقليتين الدينيتين القديمتين في دمشق، باب توما حيث يسكن ستون بالمئة من الطائفة المسيحية في المدينة، وحي اليهود الذي كان يسكنه كل اليهود تقريباً أثناء الانتداب الفرنسي (انظر الجدول ١ المجموعة الأولى) وكانت الأسواق المركزية (البازارات) تحتوي فضلاً عن أصحاب حوانيتها وتجارها الأغنياء مجموعة كبيرة من الفعاليات المنتجة ــ ومعظمها صناعات يدوية كالملابس والبضائع التي جلبتها ربات البيوت، والسلع المعدنية والمجوهرات وكانت تتجمع كلها في عشر نقابات تتوضع كل منها على طول شارع وحيد أو زقاق[٨] وليس واضحاً متى ولا أين امتلكت تلك النقابات ذلك الحس التضامني والتنظيمي الذي كان من القوة بحيث سمح لهم أن يستخدموه لأغراض سياسية في زمن الانتداب وقد اختفى عدد من تلك الصناعات تحت تأثير وقع الغزو التجاري الأوروبي ولكن بعضها الآخر لقي ازدهاراً، بل إن أكثرها وضع تحت إشراف الدولة في العقود الأخيرة من حياة الإمبراطورية العثمانية وقد رغبت سلطات الانتداب الفرنسية في دعم هذا الوضع وقد أعلنت الأسواق الكبرى الإضراب مراراً أثناء فترة الانتداب ولكن هل تم ذلك بفعل إرادتهم الخاصة أم أن القيادات القومية أجبرتهم على ذلك فتلك مسألة جديرة باستقصاء أكثر اتساعاً[٩].

وشهدت بعض الأحياء تمركزاً كبيراً ذا مغزى في سكانها الأغنياء مما لم يوجد في أحياء أخرى وخاصة في حي العمارة (وهو مقر الارستقراطية الدينية المحلية) وحي القيمرية (الذي عُرف بتجاره الأغنياء) ومارس بعضها نوعاً من الهيمنة الاقتصادية، إلا أن هذا لا ينطبق على الحيين المسيحي واليهودي، ويبدو أن سكان بعض الأحياء التي يسكنها المسلمون حصراً شكلوا مجموعات بسبب انخراطهم في اهتمامات متشابهة أو تجارات ولم يكن هؤلاء الأفراد

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

ينتمون بالضرورة إلى الجماعات العرقية ذاتها ولا هم قدموا من أماكن مواطنها الأصلية ، بل إن مستواهم الرفيع من الوعي الجماعي والغايات نتج عن روابط اهتمامات وقربى تطورت خلال زمن طويل من إقامتهم في الحي ، وهي روابط نجمت عن الإقامة والتواصل شجعت الجوار وحضت على التضامن الواسع في الحي وهيأت السكان المحليين للعمل الجماعي .

كانت أحياء المدينة القديمة تتميز بأسوارها وبشوارعها الضيقة الملتوية وبيوتها ذات المظهر المتجه إلى الداخل ومبنية حول باحات داخل الدور[١٠] . وفي سنوات الثلاثينات كانت المدينة القديمة تشتمل على ربع سكان دمشق تقريباً ، إلا أن التوسع الديمغرافي السريع في فترة ما بين الحربين واتساع المدينة الطبيعي في الاتجاه الشمالي الغربي جعل حصة دمشق القديمة من عدد السكان تتناقص إلى درجة كبيرة .

أما القسم الثاني من دمشق (أنظر الجدول ١ المجموعة الثانية) فيتضمن الأحياء والحارات الشمالية والغربية والجنوبية من محيط المدينة القديمة والتي تقع مباشرة خارج السور القديم ويشتمل هذا القسم على أربعين بالمئة من سكان المدينة في سنوات الثلاثينيات وقد نجمت معظم أحيائه عن المدينة القديمة وبدأت تتخذ شكلها في أواخر العصر الوسيط ثم انتهى بها الأمر إلى أن اندمجت تماماً في حياة المدينة وكان بعضها مقراً للطبقات الغنية ، سوق ساروجة مثلاً الذي يرجع إلى القرن الرابع عشر أصبح معروفاً في القرن التاسع عشر بأنه «استنبول الصغرى» ويعود ذلك إلى سكانه من الموظفين العثمانيين ، وحي القنوات الذي تأسس في أوائل القرن السادس عشر إلا أنه عرف بجوه الكوسموبوليني (غير المنتمي إلى وطن معين) في القرن التاسع عشر ، وكان الحيّان كلاهما مسكناً لقادة سياسيين أقوياء في أيام العثمانيين الأخيرة وفي أيام الانتداب ، أما الأحياء الأخرى مثل العقيبة التي قامت إلى الشمال من دمشق القديمة وأصبحت في الثلاثينيات أحد مراكز الصناعة الحديثة فقد كانت أقل ترفاً[١١] وأصبح حي القصاع إلى الشمال الشرقي ملحقاً بباب توما في أوائل القرن العشرين حيث سكنت فيه عائلات مسيحية غنية كانت قد وجدت الحياة في باب توما المكتظ والذي تتراص فيه الأبنية القديمة تزداد صعوبة[١٢] وكانت الدولة العثمانية تضمن الأمن هناك وخاصة بعد مذابح عام ١٨٦٠ في دمشق وعندما قوي نفوذ الدول الأوروبية أسهم ذلك بلا ريب في تطور هذا الحي الجديد إلى ما وراء أسوار باب توما القديمة الحصينة .

أما القسم الثالث من دمشق (الجدول رقم ١ المجموعة الثالثة) والذي يعود بمعظمه إلى الميدان فقد اتخذ شكله كضاحيه بعد الاحتلال العثماني لسوريا[١٣] في القرن السادس عشر

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

وهو يتألف حالياً من سلسلة من الأحياء ضيقة طويلة ومن أحياء فرعية تمتد إلى الجهة الجنوبية باتجاه حوران المنتجة للحبوب، ولم يكن الميدان يتميز بتلك الكثافة السكانية التي عرفتها الأحياء الأكثر قرباً من المدينة القديمة وقلما كانت أبنيته التجارية أو السكنية تزيد عن طابق واحد وكان سكانه في منتصف الثلاثينيات ويشكلون نسبة تقرب من خمس مجموع سكان المدينة، المجموعة الاجتماعية الأقل تجانساً في دمشق فقد كان يعج بالفلاحين الحورانيين وأبناء الجبل من الدروز والقبائل البدوية في الشتاء، ومجموعة صغيرة من المسيحيين الحرفيين والمرابين في باب مصلّى وجميعهم يعيشون حياة قريبة من البداوة، كما كان يعيش في الميدان مجموعة غنية مسلمة من تجار الحبوب والمواشي والمرابين الذين جاؤوا من القوات الانكشارية المحلية (اليَرْلي) التي هيمنت على الميدان حتى القرن التاسع عشر، وكان الميدان يحتوي باعتباره سوقاً للبيع بالجملة يموِّن المدينة، على بازارات قليلة أو صناعات، ولكنه كان يضم عدداً كبيراً من أماكن التخزين (الحواصل) التي كانت تمسك بتجارة الحبوب والمواشي التي تأتي من حوران وفلسطين، كما كانوا يمونون الحجيج السنوي إلى مكة الذي يبدأ من دمشق[١٤] ومع أن الميدان بدأ يندمج ببطء في حياة دمشق منذ القرن التاسع عشر عندما بدأت تقوى تجارة المواد الزراعية في سوريا إلا أنه ظل أثناء الانتداب الفرنسي متميزاً بصراعات اجتماعية حادة وبمعدلٍ عالٍ للجريمة لأن معظم سكانه المهاجرين كانوا فقراء وقد جاؤوا من أصول عرقية مختلفة وقد اضطروا إلى السكنى في الميدان لأن إيجار الأراضي والمساكن كانت أقل سعراً منها في دمشق. ولم يكن هذا الحي قادراً على تطوير وعي جماعي مستقل ناهيك عن قيادة سياسية مستقلة مشخصة، وقد شاركت بعض الجماعات في الميدان مشاركة فعالة في جهود المقاومة الوطنية أثناء الانتداب إلا أنه كان من المستحيل تكوين تنظيم للعمل الجماعي.

كذلك كان القسم الرابع من دمشق (الجدول رقم ١ المجموعة الرابعة) أقل أقسامها كثافة بناء وأحدثها عهداً وكانت أحياؤه في أواسط الثلاثينيات تقوم إلى الشمال الغربي من المدينة القديمة وتتسلق منحدرات جبل قاسيون ويأوي إليها خمسة عشر بالمئة من سكان المدينة وحسب، وثمة أحياء أخرى ضمن هذا القسم تستحق إشارة خاصة لأن لكل منها صفاته المميزة الخاصة به. كان حي الصالحية أقرب هذه الأحياء إلى دمشق القديمة بموقعه الطبيعي وبمظهره الاجتماعي والصالحية أصلاً قرية من العصر الوسيط خلقت خلقاً جديداً في أواخر القرن التاسع عشر، هنا يمكن أن تجد مجموعة نمطية من الأبنية الورعة، مساجد ومدارس دينية منتشرة في الأحياء القديمة عبر نهر بردى[١٥]. وبين الصالحية ودمشق القديمة أثناء الانتداب كانت تمتد مناطق حديثة من بساتين متعددة (كان أكثرها شهرة الشهداء، عرنوس

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

والجسر) والتي كان يسكنها موظفون فرنسيون وأعضاء آخرون في الجالية الأوروبية الصغيرة بالمدينة بالإضافة إلى عدد متزايد من العائلات المسلمة الغنية وقد بنيت في هذه المنطقة مدارس حكومية جديدة ومقر المجلس النيابي (البرلمان) وفنادق على الطراز الأوروبي وأندية اجتماعية ومنطقة تجارية حديثة مزدهرة على طول الشارع الشهير المسمى بشارع الصالحية وكانت ساحة المرجة هي الأكثر قرباً من المدينة القديمة وكذلك الأبنية المتعددة التي تضم الإدارة الفرنسية بما فيها دار الحكومة (السراي) وكان هذا المركز الجديد للحياة المدينية حسن التخطيط وطرقه مبلطة كما أن غياب الأسوار يخلق إحساساً بالانفتاح والأمان .

وعلى مسافة أبعد فوق الهضبة يقوم حي المهاجرين وهي ضاحية بعيدة قليلاً يسكنها لاجئون مسلمون من كريت جاؤوا في أواخر القرن التاسع عشر [١٦] ، أما الحي الآخر المتميز في المجموعة الرابعة فقد كان حي الأكراد الذي كان في الأصل قرية أسسها سكانها الأكراد أثناء حكم صلاح الدين وقد أصبحت في القرن التاسع عشر ملجأ للمهاجرين الأكراد الذين لم يكونوا موضع ترحيب في داخل دمشق . وهناك بنوا على أرض غير محروثة ، حيّهم ونظموا قواهم الخاصة شبه العسكرية وكان الحي الكردي فقيراً بصورة عامة وشوارعه ملتوية لغايات الحماية ، على العكس من حي المهاجرين بسكانه الأغنياء وشوارعه المخططة بزوايا قائمة وقد فقد الأكراد الذين انخرطوا في الزراعة وتجارة المواشي كثيراً من عاداتهم الخاصة وحتى لغتهم وأصبحوا جزءاً أكثر تكاملاً من دمشق العربية ، إلا أن بنيتهم القبلية لم تتفكك بتلك السهولة على كل حال . واستمر رؤساء القبائل في ممارسة مزيد من التأثير المحلي في الحي حتى بعد أن انتقل بعضهم إلى داخل المدينة وسكنوا في أحياء أكثر غنى مثل سوق ساروجة في النصف الأخير من القرن التاسع عشر [١٧] .

القيادة المدينية

ظلت الأحياء القديمة مراكز محورية هامة للتنظيم الاجتماعي والسياسي على الرغم من الضغوط الخارجية المتنوعة التي اخترقت تحفظها الذاتي وبنيتها الانعزالية وقد حاول كل حي فضلاً عن ذلك أن يحتفظ بشخصيته الخاصة أثناء الانتداب . وكانت للحي النمطي القديم قيادته المحلية الخاصة وهي تشمل المختار ويدعونه الآغا في بعض الأحياء ، والأئمة في المسجد المحلي والوجهاء الذين كانوا عادة من أغنياء الملاكين الكبار ، وكانوا يجلسون معاً في مجلس الحي الذي كان يتصرف كحكومة مصغرة ليحمي سكان الحي من تدخلات الدولة

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

المتلاحقة ويمثل الحي في النزاعات بين الأحياء الأخرى وليتوسط في الصراعات الداخلية وغالباً ما كان يوجد أحد هؤلاء القادة التقليديين في المجلس البلدي لمدينة دمشق، وفي النهاية الدنيا للسلم الاجتماعي في الحي كانت حياة الجماعة تدور حول مجموعات الأقارب والجمعيات الدينية وعصابات الشوارع[١٨].

كانت الحماية من وكلاء الحكومة إحدى أعظم الخدمات التي ينهض بها الأشخاص المحترمون من علمانيين ورجال دين حيال جيرانهم وأصدقائهم وزبائنهم، وفي أيام الانتداب عندما كان جباة الضرائب في دمشق يقومون بجولاتهم ليستجوبوا الأفراد الذين لم يدفعوا ما عليهم من ضرائب لم يكن يرافقهم ضابط الشرطة وحده بل مختار الحي والإمام. والحقيقة أن جباة الضرائب في بعض الأحياء لم يكن يُسمح لهم بأن يقوموا بتحرياتهم إلا بعد أن يضمنوا موافقة الحي أو وجيهاً من قيادته مسبقاً. وفي حال سوق مدحت باشا الذي كان يتلقى الحماية من حي الشاغور المناضل كانت العادة تقضي بأن يذهب جباة الضرائب إلى بيت الوجيه ليطلبوا منه (بل ليلتمسوا موافقة خطية على الدخول قبل مجيئهم إلى السوق) وبدون هذه الوثيقة لم يكن الجابي يستطيع أن يؤدي مهمته الرسمية هناك[١٩].

كما أن الأحياء القديمة احتفظت أثناء الانتداب بدواوين (مجالس) غير رسمية حيث تلتقي الشخصيات المحترمة بوفود من كل الطبقات والجماعات وذوي المصالح لمناقشة القضايا اليومية الصعبة. وكانت الدواوين تعقد عادة في البهو الخارجي (المضافة أو السلاملك) لكبار المقيمين في الحي ممن ينتمون إلى كبار ملاك الأراضي ـــ البروقراطيين والعائلات التجارية الثرية ـــ وكانت تلك الاجتماعات تسهم أكثر من الصحف ومن أية وسائل إعلامية أخرى في تشكيل الرأي العام وتقويته وعندما كانت سلطات الانتداب تراقب الصحف وتعطل نشرها بين حين وآخر عمل الديوان كمصدر للمعلومات الطازجة والأكثر صدقية، وكان الوعي السياسي العام متقدماً إلى ما هو أبعد مدى من المستوى الثقافي للشعب بوجه عام وكانت أكثريته من الأميين، وهذا ما جعل الحاجة المباشرة إلى الصحف قليلة نوعاً ما[٢٠].

كانت مساهمة العائلات المهيمنة في الحي هامة في الحياة المدينية السياسية، فقد كانوا فاعلين في تعبئة القوى المحلية للاحتجاج على الحكومة ومقاومتها أو لدعمها إذ يقيمون الاجتماعات في الساحات العامة والمقاهي والمسارح والحدائق، ويقدمون مطالب متداولة ويقاطعون الانتخابات والامتيازات والبضائع الأجنبية أيضاً، ويغلقون الأسواق الكبرى ويجمعون الأموال وينشرون أخباراً سياسية ويقيسون نبض المدينة حيال (البكوات) (أعطيت

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

هذه التسمية للقيادات القومية أثناء الانتداب)[٢١] وقد لعبت تلك العائلات الوجيهة تقليدياً دور الحامي والسمسار متدخلة لصالح زبائنها لدى الحكومة أو متوسطة في نزاعاتهم الشخصية وقد ضمنت الإخلاص والدعم بفضل تقديم خدمات إلى جيرانها وأصدقائها كما خلقت لنفسها بالمقابل استقراراً مفيداً في الحي. وكان وصولها إلى الدولة يتوقف على قدرتها ورغبتها في الحفاظ على السلام الاجتماعي الذي يتوقف بدوره على درجة استقلال نفوذها في المجتمع المحلي وكانت الرعاية مصدر هذا النفوذ المستقل[٢٢].

ولقد تضاعف عدد سكان دمشق تقريباً في العقدين اللذين أعقبا الاحتلال الفرنسي لسوريا عام ١٩٢٠، فبدأت الأحياء القديمة تفقد ألفتها ودفأها وتعطل أنظمة تساندها العاطفي. وأصبحت مكتظة وبلا سمة شخصية بصورة متزايدة بسبب هجرة لا سابق لها لفلاحين وقبائل قدموا من المناطق الخارجية، وبسبب شروط صحية حسنة وتسهيلات قلّلت من نسبة الوفيات بين الأطفال[٢٣] واختل ميزان القوى الدقيق في الأحياء، وأسهم ضغط التزايد السكاني في إبطال مراكز نفوذ العائلات الوجيهة، التي وجدت أن من الصعب باطراد أن تستوعب تزايد أعداد القادمين الجدد إلى دمشق في شبكاتها الشخصية، وأصبحت الرعاية عملية أكثر تعقيداً وموضع تنافس شديد مما جعل عدداً من العائلات الوجيهة عاجزة عن الاستمرار في ممارستها بصورة مرضية، وإذ شعرت بعض العائلات الغنية بأنها محاصرة بصورة متزايدة ومهددة بتغيير ملامح أحيائها وخاصة بانعدام متزايد لأي واجهةٍ لها، فقد غادرت أحياءها القديمة إلى الضواحي الجديدة القائمة بين الحدائق إلى الشمال الغربي من المدينة[٢٤].

ومما أسهم في هذا الهروب أثناء الانتداب اتساع الفجوة الاجتماعية والثقافية بين الطبقة العليا ذات الثقافة الحديثة والمظهر الأوروبي وكذلك الطبقة الوسطى ـــ العليا اللتين أنتجتا القيادة المدينية وبين الجمهور الأمي ذي الروابط التقليدية. وقد ساعدت التغيرات البنيوية الجارفة التي حصلت في القرن التاسع عشر على تمزيق نظام الرعاية وخلقت بدلاً منها بنية طبقية متباينة بصورة مطردة وعندما أصبح التمايز الطبقي أكثر وضوحاً وجدت الطبقات الغنية والمتأوربة سبباً لتنأى بنفسها عن الطبقات الشعبية وكانت الطريقة الوحيدة البسيطة هي الخروج من أحياء أسلافهم إلى ضواحي دمشق الأكثر نظافة وأماناً والأعظم اتساعاً وكانت العائلات الوجيهة المسلمة التي ارتبطت مصالحها بسلطات الانتداب أو بالمشاريع التجارية الأوروبية بين أول المغادرين وقد فعلوا ذلك عندما لم يعد نفوذهم السياسي متوقفاً على بناء شبكات الرعاية والحفاظ عليها في الأحياء الشعبية.

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

وثمة عامل عجّل ذلك الانتقال وهو عدم الملاءمة المتزايد لبيت الأجداد ذي الباحة الداخلية في الحي القديم[٢٥] فقد أصبح مع الزمن غير قادر على التلاؤم مع التغيرات التي حدثت في بنية الأسرة من الطبقة العليا وتوجهاتها ففي غضون جيلين أو ثلاثة (أي في بداية القرن العشرين) تطورت فروع اقتصادية متميزة في الأسرة الواسعة أو العشيرة وتأسست في داخلها تراتبية في السلطة والنفوذ وانبثقت فروع منافسة[٢٦] وقد آثر الأعضاء الأغنياء الانتقال إلى بيوتهم الخاصة المصممة على النمط الأوروبي والتي تعكس النماذج الجديدة للعلاقات الاجتماعية بين الأجيال وبين الجنسين، وكان توفر المساحات في بساتين شمال غربي المدينة يتناسب بصورة مثالية مع حاجاتهم.

أضف إلى ذلك أن التحسن التقني جلب فوائد جديدة للمحظوظين كالماء الجاري والوسائل الصحية الأخرى التي لم يكن تركيبها سهلاً في البيوت القديمة وكانت الطرق المرصوفة في الوقت ذاته والسيارات ذات المحرك قد جعلت مركز المدينة على صلة قريبة معقولة بالمناطق البعيدة.

ولم يكن في مصلحة كل العائلات الغنية أن تقوم بحركة انتقال كهذه، فقد وجدت العائلات التي تملك الأراضي ومنطقة البساتين التي قدر لها أن تصبح دمشق الحديثة أن لها فائدة متميزة ومصلحة في الانتقال إلا أن العامل الحاسم كان مصدر غنى العائلة، وكان الكثيرون قادرين على مواجهة متطلبات الانتقال المالية ولكنهم لم يكونوا قادرين على ترك المكان بسبب مصدر رزقهم فالتجار الذين تعتمد مشروعاتهم مثلاً على حضورهم اليومي في مركز المدينة لم يكونوا قادرين على المخاطرة بالانتقال.

وعلى النقيض من ذلك فالعائلات التي تعيش من مزارعها ومن عائد إيجارات لها في المدينة (والتي لا تحتاج إلا إلى القليل من الاحتكاك اليومي بمركز المدينة التجاري القديم) تستطيع أن تستمتع براحة الحياة في الضاحية، كما كان التجار في المهن التقليدية الذين لم يرتبطوا مباشرة بالمصالح التجارية الأوروبية ومن الذين لم يكتسبوا تعليماً حديثاً، وبهرجة عثمانية أو ذوقاً أوروبياً والذين كانوا بعد ذلك بمعزل عن العائلات الإقطاعية البيروقراطية الغائبة عن أملاكها والتي خدمت الدولة العثمانية كأرستقراطية ريفية جاهزة للخدمة[٢٧] وكانت العائلات المسلمة التجارية تنزع إلى التمسك بالروابط التقليدية وبالتالي بروابط الحي في حين كانت الفئة الكوسموبوليتية (ممن لا يشعرون بالانتماء) ذات المظهر الخارجي البراق والموقف الجديد حيال علاقات الملكية والتي اكتسبت حديثاً الذوق الأوروبي في الملبس وأدوات التسلية تشجع العلاقات الاجتماعية الصحيحة مع العائلات التجارية الغنية جداً التي تتكلف

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

الحداثة وحسب ثم مع أفراد من الطبقة الوسطى المتعلمة الصاعدة وقد شجعت النزعة الحصرية الاجتماعية والثقافية أعضاء هذه الطبقة على العيش معاً بمعزل عن بقية المجتمع المديني[٢٨]

وفي منتصف الثلاثينيات لم تكن أعداد من العائلات الكبيرة التي كانت متعاونة مع الفرنسيين هي وحدها التي غادرت أحياء الأسلاف بل إن ثمانية من عشرة من القادة الوطنيين الرئيسيين قد حذوا حذوهم، وانتقل معظمهم إلى الضواحي الشمالية الغربية، فقد غادر جميل مردم مهندس الاستراتيجية الوطنية في الثلاثينيات منطقة سوق الحميدية حيث كان قصر آل مردم بك، كما أن شكري القوتلي ولطفي الحفار التاجر الوحيد في صفوف القادة غادرا حي الشاغور الشعبي. واستمر كل من فخري البارودي ونسيب البكري وحدهما في إقامتهما الثابتة في حييهما، وكان البارودي يسكن القنوات الذي ظل حياً مريحاً جداً لساكنيه وكان موقعه ملائماً لمشروعاته السياسية والاقتصادية أما البكري فظل في المدينة القديمة ليخدم شبكة صلاته الشخصية التي كانت تضم رؤساء الحي الشعبيين ومجاهدي الثورة الكبرى عام ١٩٢٥[٢٩].

وعلى العكس من أولئك الوجهاء الذين تعاونوا مع الفرنسيين فإن معظم القادة الوطنيين ذوي النفوذ كانوا حريصين على عدم انقطاع الروابط مع الأحياء الشعبية وقد احتفظوا بعدد كبير من الأتباع الشخصيين من جميع الطبقات وحتى من طوائف مختلفة، إلا أن حضورهم الشخصي أصبح أقل تواتراً على كل حال، أما في أوقات الانتخابات وفي الأعياد والمناسبات التذكارية الأخرى كالذكرى السنوية ليوم ميسلون أو ذكرى المولد النبوي فكان جميل مردم وشكري القوتلي يتواجدان دائماً في وسط الجمهور في الأحياء القديمة حيث كانوا يفتحون الأبهاء الخارجية الفسيحة في بيت أسرتهم للأعوان والمهنئين وكان الزعماء الوطنيون يعتبرون أحياء أسلافهم مقر إقامة دائم لهم، وفي الانتخابات التمهيدية كانت أسماؤهم موجودة في لوائح تلك الأحياء لأن بيوتهم الجديدة في الضواحي لم يكن موقعها ملائماً وأحياناً لم يكن الوصول إليها سهلاً، ولهذا كان من الضروري الاحتفاظ ببيوتهم الأصلية لغايات اجتماعية وسياسية[٣٠] أما في المناسبات الأقل أهمية فقد كان الزعماء الوطنيون قلما يحضرون. ومن الغريب أن مهمة تنظيم الإضرابات والمظاهرات والمسيرات الوطنية لم تكن تتطلب حضورهم.

وقد تطور أثناء فترة الانتداب تقسيم متنام للعمل داخل الحركة الاستقلالية وخاصة بعد فشل الثورة الكبرى التي تبعها قرار النخبة الوطنية بتبني استراتيجية مختلفة ولكنها مريحة بصورة واضحة وهي «التعاون المشرف مع الفرنسيين» وقد حظيت هذه الاستراتيجية بتأكيد

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

كبير عليها في المجال الديبلوماسي ودعمتها إضرابات منسقة بعناية ، ومقاطعة ومظاهرات كان هدفها إضعاف الثقة بجماعات الوجهاء المنافسين المتعاونين مع المفوض السامي ، وإقناع الفرنسيين بأن الوطنيين وحدهم يجب أن يدعوا لتشكيل حكومة وطنية في سوريا .

قلل إخماد الثورة السورية الكبرى من مصداقية الكفاح الثوري المسلح كاستراتيجية قابلة للحياة فهو لم يقتصر على مجرد الإضرار الكبير بمصالح النخبة الوطنية المادية وحسب بل سبب نزيفاً كبيراً في صفوف الأنصار ولم تعد القيادة الوطنية تبحث بعد ذلك عن قلب نظام الحكم الفرنسي مباشرة بل صارت تريد شيئاً أقل من ذلك وهو تعديل النظام القائم والتخفيف التدريجي من السيطرة الفرنسية وقد سعى الوطنيون في سبيل بقائهم إلى إيجاد علاقات أكثر مرونة مع الفرنسيين وفي أثناء ذلك رحبت المفوضية الفرنسية العليا بهذه الاستراتيجية الجديدة[٣١] وشجعتها تحت ضغط من باريس لتطوير سياسة ثابتة في سوريا أقل عدوانية وإمبريالية .

نظم القادة الوطنيون في سوريا أنفسهم بعد إخماد الثورة الكبرى عام ١٩٢٧ في المدن السورية الكبرى في منظمة سياسية جديدة هي « الكتلة الوطنية » ولم تكن الكتلة في كل مدينة ، حزباً موحداً أو قوي الاندماج بل كانت تحالفاً بين قادة وطنيين مدنيين ذوي عقلية متشابهة وكل منهم يرأس جماعة مستقلة يستفاد منها في القضية العامة وهي الاستقلال الوطني[٣٢] وفي فترة الانتداب ساعدت مجموعة مؤلفة من عناصر قادمة من قطاعات اجتماعية تقليدية وحديثة على تقوية تلك الجماعات السياسية ، ومع أن الخطوط بين الأقسام التقليدية والحديثة كانت مبهمة في الغالب لأن المجتمع المديني كان يتطور تدريجياً وبصورة متفاوتة إلا أن ثمة أمر واضح التميز وهو أن دعم القطاعات الاجتماعية التقليدية لم يكن ناجماً عن اعتبارات عقائدية بالقدر نفسه الذي كان يميز دعم القطاعات الحديثة ، وكان زعيم الكتلة في حيه الخاص به يبني شبكة شخصية من العلاقات ويقويها باستخدام غناه الموروث وعلاقات العائلة ليستجلب منافع هامة وخدمات لعدد كبير من الأفراد المنتمين إلى طبقات أدنى من طبقته ، وعلى الرغم من أن عملية الاستقطاب الطبقي كانت مستمرة ومن ثم وجود فرصة للصراع الطبقي إلا أن المجتمع في الأحياء الشعبية كان لا يزال منظماً بحسب علاقات التبعية الشخصية ففي قمة الهرم الاجتماعي كانت توجد العائلات الإقطاعية الكبرى المدينية مثل عائلة مردم بك والقوتلي والبارودي والبكري والغزي والتي انبثقت منها القيادة الوطنية في دمشق خصوصاً رجال الكتلة الوطنية وهي أكبر تحالف سياسي فعال في عهد الانتداب .

ولما كان رؤساء الكتلة الوطنية قد انهمكوا تدريجياً بالمساومات الدبلوماسية في قمة

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

خدمات لا تقدر بثمن إلى الحركة الوطنية . وقد ضعفت على وجه العموم مصالح المؤسسات الدينية ونفوذها لأجيال متعددة وذلك بسبب سيطرة الحكومة المتزايدة على معاهدها وبسبب تغير المناخ الثقافي تغيراً كبيراً وبدأت الأفكار الموروثة تاريخياً التي كانت حكراً على العلماء تفقد نفوذها مع وجود نخب مثقفة كما أن النشاطات التقليدية للعلماء كمفسرين للقانون (الشريعة) وكمربين وقادة للطرق الصوفية تضاءلت قيمتها الاجتماعية .

وأخذت الأهمية المتعلقة بالوظائف في المعاهد الدينية تقل تدريجياً إذ أن الثروة الكبيرة والقوة والمنزلة الرفيعة أخذت تتراكم عند أولئك الأفراد في الفروع الإدارية الحديثة وإلى حد كبير عند مالكي الأراضي. وليس القصد أن نوحي بأن التضامن الديني بين العرب قد تلاشى ، بل إنه استمر إلى جانب ولاءات أخرى للأسرة والقبيلة والجماعة العرقية أو الطائفية والجيران والقرية ، إلا أن كل هذه الروابط واجهت تحدياً بظهور ولاءات جديدة مثل بروز القومية العلمانية التي رافقت التغيرات البنيوية العامة التي بدأت في القرن التاسع عشر[٣٥] . لقد عانى القادة الدينيون إذلالاً كبيراً في عهد الفرنسيين الذين حاولوا كسلطة مسيحية أن يفرضوا إشرافاً مباشراً على المؤسسات الدينية كالأوقاف التي كانت توفر في الغالب حصة رئيسية من دخلها ويضاف إلى الإضرار بمصالحهم جهود الفرنسيين للإضرار بتأثير الإسلام وذلك بتقليل مكانته إلى وضع يصبح فيه ديناً بين أديان أخرى ، وقد ساندت المؤسسات الدينية المحاصرة التي ضُيق عليها الخناق وتحول قادتها من معلمين وقضاة في منزلة رفيعة إلى واعظين في المساجد المحلية ساندت مقاومة السيطرة الأجنبية في سوريا .

وعلى الرغم من أن تأثير الدين ومنزلة القادة الدينيين قد ضعفتا إلا أن هؤلاء الأفراد لم يفقدوا قدرتهم على تشكيل رأي عام بين الأميين وغير المتعلمين في الأحياء الشعبية ، واستمر المسجد بالنسبة لمعظم سكان المدينة في كونه مؤسسة مركزية في حياتهم يتيح للواعظين فرصة الإقناع بمقاومة الفرنسيين والدفاع عن المجتمع التقليدي بعبارات دينية ، وكانت الوطنية في نظر جمهور الشعب لا تزال مجرد كلمة ترمز إلى الدفاع عن الإسلام ضد العدوان الأجنبي على الرغم من الجهود المستمرة التي بذلها الوطنيون العلمانيون بمن فيهم قادة الكتلة الوطنية لمزج المضمون الإسلامي بالعقيدة الوطنية ، وبقدر ما ظل الإسلام مسيطراً على عقول عامة الناس ظل القادة الدينيون قادرين على تدعيم مواقعهم الخاصة كحراس للإيمان والثقافة فضلاً عن الأمة[٣٦] .

على الرغم من أن التجار الأغنياء والأئمة كانوا يجندون الأتباع ويموّلون النشاطات الوطنية المختلفة ويساعدون في تنظيم أحيائهم والأسواق على أساس سياسي فلم تكن أي

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

المناورات السياسية فقد كانوا مجبرين على ترك المهام اليومية مثل تنظيم وبقاء شبكة الرعاية منظومتهم للرعاية إلى أفراد من عائلاتهم أو كتبة شخصيين لديهم وإلى شخصيات قديرة أخرى تدور في فلكهم السياسي، وبكلمات أخرى، بدأ قادة الكتلة ينأون بأنفسهم اجتماعياً وطبيعياً عن مركز المدينة ويلجأون إلى وسطاء آخرين ممن هم أكثر ملاءمة للمحافظة على الاتصالات وجهاً لوجه وتقديم الفوائد المادية والخدمات التي يدعم بها قائدٌ شبكته الشخصية، وكان التجار المقتدرون والقادة الدينيون في الحي هم الوسطاء الطبيعيون.

ساند التجار والأئمة في الأحياء الشعبية الكتلة الوطنية لأسباب عديدة كان أبرزها اعتقادهم بأن الحكم الأجنبي أول أسباب محنتهم التي يبدو أن لا نهاية لها. وقد فرض الفرنسيون أنظمة مصرفية وضريبية تتعارض مع المنافع المالية للبورجوازية التجارية المسلمة وأدى تقسيم سوريا الكبرى إلى خسائر فادحة للتجارة والصناعة ولم يكن الفرنسيون راغبين ولا قادرين على السماح للتجار والصناعيين بالنفاذ إلى رأس المال الأجنبي وذلك بإعطائهم منافذ قليلة للاستثمار. وكان كثيرون منهم إن لم يكن كلهم[٣٣] ينظرون إلى الفرنسيين كلصوص يسرقون ثروة سوريا الوطنية وكعائق رئيسي أمام التطور الاقتصادي، وفي الوقت ذاته كانت الشرائح العليا من البورجوازية التجارية المسلمة مندمجة بقوة بطبقة ملاك الأراضي في العاصمة السورية حيث برز منها أكبر قادة الكتلة الوطنية، وقد حافظوا على صلاتهم الاجتماعية والمالية من خلال الزواج والصفقات المشتركة، وكان التجار يقدمون القروض للملاكين ويتولون غالباً توزيع محاصيلهم وكانوا يستجيبون على الفور بوجه عام لنداءات الكتلة من أجل الإضراب أو المقاطعة وكانت الاستراتيجية الجديدة التي طورتها الكتلة الوطنية بعد الثورة بتأكيدها على الدبلوماسية الصبورة تروق للبورجوازية التجارية التي عانت محناً مالية كبيرة أثناء الثورة وأصبحت تخشى من إضراب سياسي مستمر. وكان لدى طبقات التجار سبب لدعم الأساليب الجديدة للكتلة التي لن تلجأ إلى المجابهة الضيقة أو الثورة على مستوى شامل مرة أخرى إلا إذا أثبت الفرنسيون أنهم متصلبون تماماً وأوصدوا عمداً كل منفذ إلى المفوض السامي.

ومع أن العائلات التجارية ساندت الكتلة الوطنية بالأموال وبشبكة علاقاتهم الشخصية مع الحرفيين. إلا أن أصحاب الحوانيت الصغيرة والبائعين المتجولين في الأحياء والأسواق قلما أصبحوا أعضاء منظمين في الكتلة أو في أي منظمة وطنية أخرى. وكانت مشاركتهم في الأعمال السياسية الوطنية تتم عبر مشاركتهم الشخصية مع القادة الوطنيين كأفراد[٣٤]، كما قدم القادة الدينيون في دمشق، وينتمي عدد منهم إلى عائلات تجارية،

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

مجموعة منهما قادرة على إظهار تحد لسيطرة الكتلة الوطنية على العمل الوطني أو لهيمنتها على السياسة المحلية أثناء فترة الانتداب وحيث أن التجار والأئمة ظلوا متعلقين بحياة الحي المغلقة وبمكان السوق والمسجد ولا يملكون إلا فرصة نادرة أو غير موجودة للانطلاق من هذه البيئة المقيدة وأن القيادة الوطنية كانت قادرة على تكريس انتباهها الدائب للعمل السياسي بأوسع مقاييسه .

لأن كثيراً من القادة الوطنيين كانوا يستطيعون العيش من إيجار أراضيهم التي جمعتها عائلاتهم فلم يكونوا بحاجة إلى السعي إلى وظيفة تشغل وقتهم . وفي زمن الانتداب برزت طبقة من السياسيين المحترفين في دمشق والمدن السورية الأخرى .

إن النخبة الوطنية المتحدرة من عائلات غنية ذات تاريخ طويل من الخدمة الإدارية وتنشئة عامة وتربية ، ولها تجارب سياسية غنية ، كانت (وحدها تقريباً) المؤهلة لتمثيل دمشق في قمة العمل السياسي ، وهكذا استمر المجتمع المديني يرى في هؤلاء الأفراد « قادة طبيعيين » لمعارضة الفرنسيين ، وأصبحوا يتوقعون استمرار المساندة من قبل التجارة والمؤسسة الدينية .

وقد عزز التجار والأئمة منزلتهم الشخصية بمشاركتهم للرؤساء الوطنيين لكن هذا التعزيز وحده لم يكن كافياً ليؤكد إخلاصهم على المدى الطويل فقد كان من المتوقع أن القائد الوطني عندما يصل ذات يوم إلى منصب حكومي رفيع فلا بد أن يكافئ أتباعه . وهكذا فالولاء يصبح مقروناً بمعرفة أن رد الجميل يكون على شكل اتصالات حكومية ، وإجازات ووظائف في الإدارة المركزية والبلدية وبناء جوامع جديدة وطرقات مرصوفة ونظام أسيقة ، وتسهيلات أخرى يمكن توقعها على المدى الطويل .

كانت هناك منافسة ضارية بين الوطنيين للوصول إلى الفرنسيين فهذا الوصول وحده يعطي للزعيم سيطرة على مكاتب الحكومة والخدمات وذلك هو أكثر أشكال الرعاية قيمة ، وكانت المنافسة على شبكات الأتباع بالضراوة نفسها لأن هذه الشبكات هي التي تثبت قوة الزعيم المحلية وتجعله شخصاً لابد منه في نظر الفرنسيين ، كانت المنافسة في كلا الميدانين متداخلة بشكل لا انفصام له ويتوقف كل نجاح في أحدهما على النجاح في الآخر .

القبضايات

عرفت الأحياء وجهاً من الوجوه التي أتاحت للقائد الوطني حداً قاطعاً في المنافسة على الأتباع أثناء الانتداب وهو زعيم العصابة المحلي أو القبضاي (وجمعه قبضايات) أو ما يسمى في لهجة دمشق المحلية الزكْرتي [٣٧] (بتشديد الزاي وتسكين الراء) .

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

لم يكن ثمة فرد على الأرجح في الحي كله ذو نفوذ مستقل أقرب إلى الرجال المشتغلين بالقضايا العامة مما كان القَبَضايْ، الذي هو إلى حد ما شبيه بمؤسسة. وكان لكل حي رجله الخاص ووجوهه التاريخية التي تلقى التمجيد من جيل إلى آخر، وتشكلت مع الأيام صورة مثالية للقبضاي الذي يتصف بأنه قوي شريف يحمي الضعفاء والفقراء وكذلك الأقليات الدينية ويدعم التقاليد والعادات العربية ويحرس الثقافة الشعبية ويستضيف الغرباء، ورع دائماً وجار طيب[٣٨] وقد حجبت هذه الصورة إلى حد بعيد الجانب المظلم للقبضاي وتصرفاته المخجلة وتفضيله للإكراه بالقوة الجسدية وحتى لجرائمه المميتة في سبيل الربح الشخصي. ويفرق الأشخاص العاديون بوضوح بين القبضايات وبين «الزّعرانْ» أو قطاع الطرق الذين يفرضون «خوّة» (أي يقومون بابتزاز الناس) في الأحياء والأسواق، على الرغم من أن ذلك التمييز كان في الواقع غائماً[٣٩].

ربما يكون القبضاي غنياً إلى حدٍ ما آخر الأمر لكن ما يميزه عن أعيان الحي هو أصله الاجتماعي الوضيع والنقص العام في تعليمه المدرسي وتفضيله العلني للملابس والعادات التقليدية والمجال الضيق لاهتماماته وصلاته. وكل ما يضفي عليه منزلة أقل رفعة مما يتمتع به التجار والقادة الدينيون[٤٠]. وأفضل مناخ يعيش فيه هو الوسط التقليدي بما فيه من اكتفاء ذاتي وحياة داخلية مغلقة واهتمامات ضيقة محددة، فهناك تدعو الحاجة إليه لتقديم الحماية الجسدية من القوى المعادية الخارجية، وسلوك السبل غير القانونية لتسوية الخلافات الشخصية إلا أن القبضاي بدأ يشعر في زمن الانتداب أنه مهدد تحت ضغوط التغيير الذي خلقته حركة التمدن السريعة، ونمو اقتصاد السوق الموجهة، وبروز طبقات جديدة ومؤسسات خارج الأحياء الشعبية، وكانت تلك الفترة مرحلة انتقالية في حياة المدينة السورية وفي تنظيم ووظائف أحيائها، وقد استمر القبضاي يعيش فيها ولكنها لم تعد حياة سهلة.

ويمكن للقبضاي أن يبرز في قيادة الحي بطرق متعددة متنوعة ومن الصعب أن نفصل الأسطورة عن الواقع عندما نتعقب ظهور شخص قوي مفرد، ومن الممكن في النهاية أن نترسم خطى واحد من القبضايات الأقوياء في أيام الانتداب في دمشق وارتباطه بالكتلة الوطنية ومساهمته في حركة الاستقلال.

يقول أبو علي الكلّاوي[٤١] أنه ولد في عام ١٨٩٧ في باب الجابية وهو حي شعبي قديم يقع بالقرب من مدخل سوق مدحت باشا ويحتوي على مسجد سنان باشا الجميل، أصل عائلة الكلّاوي غامض ويبدو أنهم كانوا في البداية من سكان الميدان وذلك في وقت ما من بداية القرن التاسع عشر حيث عملوا في نقل القمح من موطن زراعته حوران إلى

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

المطاحن في الميدان وربما كانوا يتبعون إحدى جماعات بدو الرّوَلى التي كانت تتجول مع رؤساء عشيرة الرولى من آل الشعلان قبل الانتداب[٤٢]، ويدعي آل الكلاوي أيضاً أنهم ينحدرون من أبي بكر صاحب الرسول وأول الخلفاء وسجلوا أنفسهم في لائحة الأشراف (المنتمين بنسبهم إلى الرسول) على الرغم من أن العائلات الدينية الكبرى في دمشق لم تعترف بادعائهم. وكانت كنية العائلة، حسب قول أبي علي هي البكري أصلاً حتى نهاية القرن التاسع عشر وعندما توفي والده على حين غرة أسقطت العائلة اسم البكري لسبب غير واضح وتبنت بدلاً منه كنية جد أبي علي لأمه، ولم يكن ينظر إلى عائلة الكلاوي أثناء الانتداب على أنهم أعضاء في عائلة البكري الدمشقية الأرستقراطية ولكنهم كانوا منحازين إلى آل البكري على كل حال ولصيقين خاصة بنسيب بك (البكري) من الكتلة الوطنية[٤٣].

وكان لأبي علي أخوان أكبر منه وصادف أنه كان أكثر قرباً إلى الأكبر وهو أبو حسن الذي اضطلع بقيادة العائلة بعد وفاة أبيه والذي تربى أبو علي تحت جناحه وتعلم طرق الحي، ويعزو أبو علي وصوله إلى مركز القبضاي إلى عوامل عديدة وكل واحد منها يدل على أنه لم يرث ذلك اللقب، وأحد هذه العوامل قوته البدنية الخاصة التي أبرزها في سن مبكرة على الرغم من بنيته النحيلة، كان شباب باب الجابية والأحياء الأخرى ينخرطون في أشكال من التنافس غير الرسمي تساعد على تمهيد السبيل لبروز القبضاي. وكان أبو علي على سبيل المثال متفوقاً في المصارعة، كان شبان الحي يتجمعون على أصوات طبلين في حقل مفتوح أو بستان حيث كانت تقام حلبات التدريب على المصارعة بين أحداث يرتدون سراويل قصيرة من جلد مدبوغ فوق سراويلهم، وفي سن السادسة عشرة كان أبو علي قد اشتهر كأحسن مصارع في حيه[٤٤]. وفي هذا السن بدأ أحداث الحي يتدربون على الفنون الحربية وخصوصاً ألعاب السيف، حيث يتقابل شابان في يد كل منهما سيف طويل ذو قبضة فضية وفي اليد الأخرى ترس معدني صغير، ويلوحان بسيفيهما عبر دوائر مختلفة فوق رأسيهما وحولهما، في حين يوجه كل منهما ضربات إلى ترس خصمه في إيقاع معقد[٤٥]. وكل صبي يستطيع استعمال سيفه بمهارة وابتكار يفوز في المباراة ويُطلب من أفضل خمسة فائزين أو ستة تشكيل جماعة، ويصبح من حق هذه الجماعة شرف إحياء كل المناسبات الاستعراضية في الحي مثل الأعراس واحتفال المولد النبوي[٤٦]، وفي يومها كان أبو علي قائد جماعة كهذه من لاعبي السيف وبدأ منذ ذلك الحين يؤسس مجموعة أتباعه.

أما الفروسية فكانت موطن قوة أبي علي الأخرى، فبعد وفاة والده استخدم أخوه أبو حسن علاقاته العائلية مع القبائل البدوية إلى الجنوب من دمشق لتحويل أعمال آل الكلاوي

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

من النقل إلى تربية الخيل والتجارة بها بالحصة، وكان مركز نشاطهم الجديد مزرعة صغيرة لاستيلاد الخيول كانت العائلة تملكها وتقع جنوبي الميدان تماماً. ومع الزمن أصبح آل الكلاوي من أكبر تجار الخيول في الشرق العربي وأخذوا يزودون العائلة المالكة في الأردن والعربية السعودية وبقية الوجهاء العرب بالخيول الأصيلة الباذخة وبخيل السباق. ومع مرور الأيام وكان أبو علي قد بلغ العشرين أصبح يعتبر أفضل فارس في حيّه وهي شهرة لم تلبث أن انتشرت عبر دمشق كلها بل وبقية أنحاء سوريا. وفي منتصف الثلاثينيات كان اسطبل الكلاوي للخيل المسوّمة قد أصبح نقطة جذب في كل استعراض وطني وكان أبو علي دائماً على رأس الفرسان(٤٧).

ساعدت مشروعات عمل ناجحة في جعل أسرة الكلاوي تقفز إلى موقع الشهرة الاجتماعية في باب الجابية وبدأ الجيران يطلبون معروفاً أو مساعدة وفي زمن قصير أسست مجموعة متماسكة من الأنصار والأتباع من بين أكثر سكان الحي فقراً وكان بعضهم أوفياء لأبي علي شخصياً وكانت النتيجة أن أبا علي أصبح قادراً على أن يكوّن عصابته الخاصة المؤلفة بشكل رئيسي من الشباب العاطلين عن العمل ومن العمال الموسميين.

وفي بداية سنوات العشرينيات، عندما بدأ آل الكلاوي يكدسون الرأسمال أصبحوا قادرين على شراء بناية جميلة كبيرة في قلب حيّهم وتشتمل على بهو خاص للضيافة، كما كان هذا البهو يستخدم كقاعة للمحاكمات غير الرسمية حيث كان الكلاويون الذين أصبحوا الآن موضع ثقة في باب الجابية، يعملون كمدراء للعدالة التي تتجاوز القانون، فيحكمون أو يتوسطون في النزاعات بين الأفراد والأسر الذين لم يكونوا راغبين لسبب أو لآخر في اللجوء إلى المحاكم الدينية أو المدنية وكان آل الكلاوي يعيرون البهو للعائلات الفقيرة لإقامة حفلات الأعراس أو لأغراض اجتماعية أخرى وقد أصبح في نهاية الأمر واحداً من أماكن الاجتماع الشبيهة بالديوان. ويزعم أبو علي أنه لم يطلب لا هو ولا إخوته أي مال أو مكافأة مادية أخرى على ضيافتهم وخدماتهم، ولكنهم كانوا يتوقعون الولاء الشخصي لأسرتهم التي اكتسبته باعتبار شبكة آل الكلاوي قد اتسعت وأخذ اسم العائلة يذكر بمزيج من الاحترام والخوف.

وكانت إحدى أشهر المظاهر في الحياة المدينية بدمشق «العراضه» وهي استعراض تقليدي يقام في الأحياء للاحتفال ببعض الأحداث الدينية مثل «الطهور» أي الختان أو العودة من الحج أو المولد النبوي.

وكانت هذه المناسبات تسمح لشباب أحد الأحياء بالتنافس مع شبابٍ جيران لهم في حي آخر في مباريات المصارعة، وألعاب السيف، وسباق الخيل وما شابه ذلك. وكان شرف

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

الحي في خطر دائماً أثناء هذه الأحداث كما كانت خصومات حول مكان الحركة وحريتها وكان ثمة خصومات دائمة ومعروفة بين بعض الأحياء وأكثرها شهرة ما كان بين سوق ساروجة والصالحية[٤٨] وبين الشاغور وباب الجابية . وهي طريقة أخرى استطاع أبو علي الكلاوي بواسطتها تقوية مركزه في الحي إذ كان يقود رجاله الأقوياء في معارك الشوارع ضد عصابات الشاغور .

وفي مطلع القرن العشرين بدأت « العراضات » تتخذ أبعاداً غير دينية وأصبحت سمة لأحداث سياسية كانتخاب أحد النواب ، أو العودة من المنفى أو مناسبة ثورة تركيا الفتاة عام ١٩٠٨ أو الاجتياح الإيطالي لليبيا عام ١٩١١[٤٩] وتسارعت عملية التسييس هذه في فترة الانتداب واتخذت شكل التحدي للفرنسيين والمتعاونين معهم وصعدت من استمرار الحياة المستقلة في الأحياء ومما كانت له أهمية كبيرة أنه بقدر نمو الوعي السياسي في الأحياء تحولت الخصومات العنيفة فيما بينها إلى تحالف الأحياء ضد الفرنسيين وكلما اتسع مدى النشاط السياسي بدأت تبطل حياة الحي الضيقة والمعزولة .

وقد ساعدت ثورة ١٩٢٥ الكبرى على تآكل كثير من الحواجز والخصومات السياسية والاجتماعية بين الأحياء وساعدت على ترابطهم معاً في جبهة مشتركة ضد الفرنسيين ، ولا شك أن كثيراً من قصص البطولات الفردية التي سرعان ما أصبحت جزءاً من التاريخ المحلي والأسطوري للثورة ساعدت كثيراً من الشبان على تعزيز شهرتهم في الأحياء الشعبية من المدينة ومكّنتهم من تبوء منزلة القبضاي ، والواقع أنه كان هناك تحول ملحوظ عن القبضايات في ذلك الوقت ، بفضل بروز أبطال جدد أثناء الثورة ممن حلوا محل الذين قتلوا . وربما كان أكثر القبضايات احتراماً وتقديراً في أيامه حسن الخرّاط ذلك الحارس الليلي في حي الشاغور الذي قاد هجوماً للثوار ضد مراكز الفرنسيين في العاصمة السورية والذي قتلته القوات الفرنسية بعد ذلك[٥٠] . وقد سمح غيابه بظهور نجم آخر من نجوم الثورة هو محمود خدام السريجة الذي وطد مركزه كأقوى رجل في الشاغور .

واعترف أبو علي الكلاوي بصراحة بعد خمسين سنة من مشاركته في الثورة الكبرى أنها مكّنت عائلته من تثبيت موقعها كقبضايات غير منازعين في باب الجابية[٥١] . عندما اشتعلت الثورة جهز الكلاوي وعصابته المسلحة حيهم للانتفاضة ضد الفرنسيين وانضم أبو علي إلى المجموعة الثائرة مع نسيب البكري الذي كانت عائلته راعية لآل الكلاوي حيناً من الدهر ، وعندما استعاد الفرنسيون السيطرة على معظم أحياء دمشق في تشرين الأول تبع أبو علي قوات البكري إلى بساتين الغوطة المحيطة بالعاصمة السورية . وقد أسهمت حادثة معينة

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

في ذلك الحين بتخليد ذكراه في النفوس لأجيال قادمة ، فبعد أن جرح جرحاً خطيراً إثر محاولة قام بها وحيداً لتحرير رفاقه الثوار المسجونين في قلعة دمشق نجح في الهرب على حصانه حيث لجأ إلى أعدائه التقليديين في الشاغور وبعد يومين فقط جند أبو علي الذي أنهكه الضعف ، ولكن تصميمه لا ينثني ، بعض الرجال من الشاغور وعاد معهم على خيولهم إلى باب الجابية حيث جمع عدداً من الأنصار وعاد إلى الغوطة لينضم إلى عصبة البكري(٥٢) .
ونادراً ما انضم القبضايات ، مثلهم في ذلك مثل كبار التجار وأئمة المساجد المحلية ، إلى الكتلة الوطنية أو أية منظمة سياسية أخرى ، وكان ارتباطهم وولاؤهم بالأحرى بهذا الرئيس أو ذاك من زعماء الكتلة ، أما انتماء أبو علي الكلاوي فكان إلى نسيب البكري وليس إلى المجلس التنفيذي للكتلة .

كان القبضايات أكثر أهمية إلى حد ما في نظر الآلية السياسية للقائد الوطني في الأحياء من التجار ورجال الدين فقد كانت موارد زعماء الكتلة محدودة وخصوصاً عندما يكونون في السجن أو خارجين لتوهم منه أو في المنفى المؤقت ، حينئذ يتطلب حشد الأتباع والحفاظ عليهم دقة كبيرة . وكان يفضل بوجه عام أن يولي اهتمامه لكسسب ودعم أنصار من بين الأسر الغنية في الأحياء وبذلك يصبح واثقاً من قدرته على الحفاظ على اتصالات شخصية منتظمة طوال الوقت ، وعندما بدأ رئيس الكتلة الوطنية بالابتعاد عن حيه الأصلي أخذ يعتمد بصورة متزايدة على وسطاء يقدمون مساعدات وخدمات لجمهور عريض من فقراء الحي الذين ليس لهم أي اتصال مباشر به .

أما التجار الذين حازوا منزلتهم بفضل غناهم وإحسانهم للآخرين وورعهم الديني فكانوا من بين أولئك الوسطاء الذين اضطلعوا بتلك المهمة لمصلحة السياسيين . إلا أن التفاوت الطبقي تطور أثناء الانتداب وأخذ التجار يقللون من اهتمامهم بالفقراء وبمشاكلهم الفردية ، فلم يكن لديهم متسع من الوقت من جهة ولا هم مهيئون تهيئة جيدة لذلك من جهة أخرى ، والإحسان للآخرين بعد كل شيء لا يتطلب احتكاكاً منظماً مع الطبقات الفقيرة ، كما أن أعضاء من المؤسسة الدينية الإسلامية ابتعدوا كثيراً عن الاتصال بالأشخاص العاديين . وثمة أشخاص آخرون على كل حال ، بمن فيهم الوعاظ في الأحياء الشعبية ازداد تأثيرهم في ذلك الحين بين المعوزين والأميين ، ومع أن أعيان القادة الدينيين والأئمة من الطبقة الفقيرة كانوا يدعمون الرؤساء الوطنيين بصورة عامة إلا أنهم شكلوا جمعيات خيرية أخذت على عاتقها مناهضة التغريب والصبغة العلمانية السياسية ، وفي منتصف الثلاثينيات شكلت تحدياً فعلياً غير مرغوب به لسلطة القيادة الوطنية في الأحياء(٥٣) .

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

والقبضاي على النقيض من ذلك لم يشكل تهديداً كهذا، وقد انحدر من وسط الشعب العادي وكان تحت حماية «البك» وكان في الغالب مديناً له بقروض وخدمات وينقصه على كل حال التعليم والمنزلة وصفات رجل الدولة بحيث لا يقترب من مستوى «البك» في القيادة السياسية، وهكذا ففي حين يتلقى زعيم الكتلة الوطنية المساعدة من سكرتيره الشخصي ومن عائلته وتنظم له شبكة من المحسوبين عليه، يهتم القبضاي بمحيطه ويخدمه عندما يتمكن من ذلك ويكفل مساندته عندما يطلبها «البك»[٥٤].

ومع أن بعض القبضايات كانوا يستطيعون جذب أتباعهم الشخصيين بفضل تقديمهم بعض تلك الخدمات كالتوسط في النزاعات وحماية الجوار وبعض نشاطات الإحسان الصغيرة، فلم يكن لديهم لا السيطرة المباشرة ولا الوصول إلى مصادر مادية عريضة أساسية تسمح لهم ببناء شبكاتهم الخاصة المستقلة التي يتولون رعايتها، وفي التحليل الأخير كانوا مدينين بالفضل للسياسيين في كثير من الوجوه نفسها التي يدين بها الأتباع الآخرون، والاختلاف الوحيد الهام هو أن وسائل القبضاي في تجنيد الأتباع وضبطهم «للبك» تتيح له الوصول المباشر إلى حاشية البك المقربة وخاصة سكرتيره الشخصي وكان القبضاي بهذا الشكل يستطيع أن يعتمد على معاملة مميزة وبعض الامتيازات القليلة أكثر مما يعتمد عليه الأتباع العاديون في محيط شبكة البك[٥٥]. ومع ذلك لم يكن مدى التحرك الاجتماعي واسعاً وكان عدد من القبضايات ينجحون في تقوية أنفسهم من خلال علاقاتهم بسادتهم.

كان سكان الحي يستطيعون في أي وقت الرجوع إلى أشخاص متعددين كالقبضايات وكان الحي يستطيع أن يساند أكثر من رجل قوي واحد مع أنه لم يكن من غير الشائع أن ينتمي القبضايات إلى عائلة واحدة فقد كان سكان باب الجابية يرجعون إلى «أولاد الكلاوي» وكثيراً ما لجأوا إلى أي واحد من أفراد تلك العائلة، فقد كانت العائلة من خلال علاقاتها هي التي تقدم الحماية والمساعدة إلى الحي، صحيح أن أبو علي صنع لنفسه أسماً وخصوصاً أنه كان وجيه العائلة الغوغائي وفارسها الموهوب ومانحها قوتها المحلية إلا أنه يعترف بصراحة أن أخاه الأكبر الذي تلقى بعض التعليم هو الذي كان يتخذ القرارات الرئيسية في العائلة ويسيّر أعمالها ويتعامل مع سياسي الكتلة الوطنية ومندوبيها وكان أبو علي في الواقع نائباً عن أبي حسن وجاهزاً لتنفيذ أوامره، وعندما مات أبو حسن انتقلت قيادة عائلة الكلاوي إلى أبي علي (كان أخوه الآخر خليعاً مستهتراً مما قلّل من قدره) الذي بدأ بتعليم ولده الأكبر في الحال ليقوم بدور نائب عنه في العائلة[٥٦].

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

كان جزء من الأسطورة التي تحيط القبضاي أنه لا يأخذ مالاً أبداً لا من السياسيين ولا من وكلائهم ، ولا من التجار في الحي في سبيل تنفيذ تعليمات متنوعة كتعبئة شبان الحي من أجل مظاهرة أو دعم إضراب أو مقاطعة . ويعترف أبو علي أن الكتلة قدمت له مالاً في أوقات متعددة وذكر محاولات عديدة قام بها التجار القريبون من الكتلة ليدفعوا له في سبيل المحافظة على الاستمرار في الإضراب[٥٧] العام سنة ١٩٣٦ وادعى أيضاً ، وهو يحاول الدفاع عن صورة القبضاي المثالية ، أن القبول بعروض كهذه يسيء إلى شرفه ، إلا أنه لم ينكر على أية حال أن بعض القبضايات خرقوا هذا القانون المتعلق بالشرف الشخصي والأخلاق بقبولهم أموالاً نقدية ومنافع أخرى لمجرد قيامهم بواجباتهم فبعد أن تسلمت الكتلة الوطنية الحكم عام ١٩٣٦ في أعقاب الإضراب العام والمفاوضات الفرنسية السورية في باريس على المعاهدة ، حرص شكري القوتلي ووزير المالية والدفاع الوطني على أن يخصّص لمحمود خدام السريجة وهو أشهر قبضاي في دمشق أثناء الثلاثينيات راتب نظامي من أموال الوقف المكرس أصلاً للفقراء في حي الشاغور لقاء خدماته للقوتلي القائد السياسي للحي[٥٨] .

وإذا نظرنا إلى المزيج من الموارد التي كانت تغذي أي جهاز سياسي لزعيم الكتلة نرى أن الدعم الذي كان يتلقاه أولئك الزعماء من الأحياء لم يكن متساوياً ، إذ كان سياسي مثل نسيب البكري يرتبط بعلاقات وثيقة جداً مع عدد من القبضايات أمثال آل الكَلّاوي وعائلة ديب الشيخ من حي العمارة ومع عدد آخر من محاربي الثورة الكبرى التي كان البكري من أشهر وجوهها وكانت له سمة اجتماعية ودينية محافظة أكثر بكثير مما كان لرفاقه الآخرين (الكوسموبوليتيين) من زعماء الكتلة ، كما كانت للبكري منزلة دينية تدعمه بها أسرته وكان هذا كله يتيح له سهولة الحركة في أوساط جماهير الأحياء الشعبية التقليدية ، في حين كان شكري القوتلي وجميل مردم وفخري البارودي (وهم الوجوه الرئيسيون الآخرون للكتلة في دمشق) ذوي تأثير كبير في أحيائهم وخصوصاً بين التجار لكنهم لا يستطيعون الزعم بأن لهم أتباعاً شخصيين كثيرين في الأحياء الأخرى على الرغم من الاحترام الذي يتمتعون به ، إلا أنهم على خلاف البكري كانوا يستخدمون كثيراً من الأجهزة السياسية المتنوعة وكان لكل منهم أتباع مهمون في القطاعات الحديثة والمؤسسات بدمشق وخاصة بين الشبان المتعلمين والطبقات الوسطى التي برزت حديثاً[٥٩] .

ولم يكن أي من زعماء الكتلة يستطيع الادعاء بأنه يملك نفوذاً كبيراً في الحيين الشعبيين على أطراف دمشق وهما حي الأكراد والميدان ، ففي حي الأكراد حيث استمر الولاء القبلي كانت عائلتا اليوسف وشمدين الكرديتان لا تزالان تتمتعان بالنفوذ ومع أنهما استعربتا في

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

غضون القرن التاسع عشر إلا أنهما لم تكونا ترحبان أبداً بالقومية العربية التي تهدد بتمزيق الولاءات العرقية والقبلية التي بني عليهما إلى حد ما نفوذهما. يضاف إلى ذلك أن الدور الذي لعبته القوات الكردية المساعدة للفرنسيين في قمع الثورة السورية الكبرى أساء إلى العلاقات بين الوطنيين وأكراد دمشق طيلة بقاء الانتداب[٦٠].

وفي حي الميدان الطويل الضيق والقليل التجانس اجتماعياً والواقع إلى الجنوب من المدينة كانت مشاكل الكتلة الوطنية ذات نوعية وحجم مختلفين، هنا ولّدت التوترات الاجتماعية وتغير أماكن السكن عوامل عدم الاستقرار بفعل الهجرة المتزايدة في الداخل وأبقت القوة السياسية مجزأة. ومع أن حي الميدان على النقيض من حي الأكراد، قد ساهم مساهمة فعالة بالعرق والدم في سبيل الاستقلال (قصفه الفرنسيون بقنابل الطائرات مرتين خلال الثورة مما أدى إلى تدمير الحي بكامله تقريباً) فإن عائلات الميدان التي تستطيع الادعاء بوجود نفوذ لها لم تكن وثيقة الارتباط بالكتلة الوطنية، وكان بعضها مثل كبار التجار «الأغوات» من عائلتي سكّر والمهايني قد ساعدوا الكتلة الوطنية عندما أرادوا هم وحسب، ولم تكن تربطهم أية روابط قوية بالجهاز السياسي لأي زعيم من الكتلة، وثمة عائلات أخرى كعائلة الحكيم عارضت الكتلة الوطنية وساندت العصبة الرئيسية المنافسة لها والتي كان على رأسها الدكتور عبد الرحمن الشهبندر الزعيم المرموق للثورة السورية الكبرى[٦١].

ولن تجد مع ذلك تفسيراً وحيداً لماذا نأى حي الميدان بنفسه عن الكتلة الوطنية، كان واضحاً أن الكتلة لم تكن مهيأة لكي تخفف من تناقضات الميدان الاجتماعية وتحسين حالة الفقر فيه والفساد العام وعدم استقرار السكن وبالتالي دمج وتنظيم سكانه في عمل سياسي. وهذا ما ترك المنطقة عرضة للتسييس من قبل قوى ذات وعي اجتماعي كبير تتراوح ما بين الجمعيات الإسلامية الخيرية إلى التنظيمات السياسية الراديكالية الحديثة كالحزب الشيوعي وحزب البعث اللذين يستطيعان أن يقدما إطاراً أفضل بكثير وأكثر مناسبة وفعالية للاندماج وبتعبير أكثر شمولاً لم يكن سير التمدن السريع في زمن الانتداب مصحوباً بنوع من التصنيع الذي يمكن أن يقدم لذلك العدد المتزايد من العمال غير المهرة الأعمال التي تضعهم ضمن أي شكل من أشكال السيطرة الاجتماعية والسياسية[٦٢].

أبعد من نطاق الأحياء

على الرغم من بقاء الأحياء الشعبية وحدات هامة في التنظيم السياسي والاجتماعي إلا أن أهميتها في الحركة الاستقلالية تضاءلت بقدر تغير بنيتها الداخلية وعلاقاتها فيما بينها أثناء

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

فترة الانتداب ، فقد نتج عن تقدم الحياة المدينية السياسية نقاط استقطاب جديدة خارج الأحياء تلك هي المؤسسات الجديدة التي كانت منذ بدايتها متطابقة إلى حد كبير مع نشوء الطبقة الوسطى الحرفية التي تقع مصالحها الأساسية خلف نطاق الأحياء وقد تسامت المشاعر المسيطرة ضمن هذه الطبقة من المحامين والأطباء والمهندسين والمعلمين والصحفيين وأعضاء آخرين في مجموعة المثقفين ، عن حياة الحي الضيقة ، وأصبح ولاؤهم للمدينة ، للدولة ، للأمة ، أكثر مما كان للأسرة والقبيلة والزمرة الطائفية أو الحي .

وقد ظلت أهمية الطبقة الوسطى الجديدة في تطور حركة الاستقلال تتزايد مع الزمن وهي على الرغم من دورها الصميمي في ولادة الحركة القومية العربية في أواخر سنوات الإمبراطورية العثمانية وتواجد أبنائها في كل الجمعيات الوطنية السرية قبل الحرب العالمية الأولى وأثناءها ، فإن أثرها الفعلي المتميز في الحياة السياسية قد بدأ فعلاً وبصورة واقعية في سنوات الثلاثينيات وحسب ، وثمة عوامل عديدة كانت تقف خلف صعودها في ذلك الوقت وترتبط جميعها بالتغيرات التي طرأت على بنية المجتمع السوري منذ الأيام الأخيرة للعثمانيين . ومن أكثر العوامل أهمية تطور التعليم العلماني الحديث والذي لم يصبح متاحاً للمراتب الاجتماعية الأدنى من الطبقة العليا إلا في فترة الانتداب وساعد انضمام الطبقة الوسطى الحرفية إلى صفوف الحركة الوطنية على انخراط جيل من الأفراد الذين كانوا أكثر شباباً من قيادة الكتلة الوطنية . وفضلاً عن ذلك فإن هذا الجيل لم يكن مثقلاً بآثار التجربة العثمانية وميراثها وكان يملك مستوىً عالياً يفوق مستوى الجيل الأكبر جيل الكتلة الوطنية .

تضاعف عدد المدارس الابتدائية والثانوية في مؤسسات الدولة تقريباً بين سنة ١٩٢٤ و١٩٣٤[٦٤] كما اتسعت الجامعة السورية في هذه المرحلة وفتحت أبواب الفرص أمام المتفوقين في المدارس العليا وخريجي الجامعة للذهاب إلى فرنسا لمتابعة التخصص في دارسات عليا ضمن حقول متنوعة واسعة (وخصوصاً الحقوق والطب وتدريب المعلمين) وقد لعب كل من هذه العوامل بالتأكيد دوراً في توسيع آفاق شبان المدن وفي تحوّل مركز نشاطاتهم إلى خارج الأحياء في اتجاه مؤسسات وبُنى جديدة . وقد ساعدت هذه المراكز بدورها على استبدال ولاءاتهم التقليدية بولاءات جديدة وبالولاء الأكثر بروزاً للنزعة القومية إلا أن التعليم الحديث مهد الطريق أيضاً لإمكانية الانتقال الاجتماعي وأتاح الوصول إلى منزلة الطبقة الوسطى ولكنه لم يتكفل بالضرورة بمثل دخلها . وقد خلقت هذه التوقعات التي برزت ولم تتحقق قدراً كبيراً من الإحباط والعداوة كان على القادة الوطنيين في سوريا أن يقننوا مجراهما حتى النهايات الخاصة بهما ، وبدون ذلك كان لا بد من التضحية بالنفوذ المحتمل ضمن قطاع

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

الشباب الذي كان يصبح بسرعة أعظم القطاعات حيوية في المجتمع السوري، كما اعترفت الكتلة الوطنية بأن الكوادر المتعلمة الجديدة تحتاج إلى قيادات تستطيع أن تتماثل معها اجتماعياً وثقافياً وعقلياً، أما التجار ورجال الدين الذين تلقوا تعليماً تقليدياً وكذلك قبضايات الأحياء الشعبية شبه الأميين فقد كان لزاماً أن يعجز دورهم عن التماثل مع الطبقة المتوسطة المتنامية، وكان لا بد من ظهور نسق جديد من القادة أكثر تناغماً مع حاجاتها وأكثر وعياً لتطلعاتها ويستطيع أن يخدم هؤلاء الشبان المتعلمين.

اكتشفت الكتلة الوطنية في وقت مبكر أن المصدر الرئيسي لهؤلاء الشبان الساخطين المتعلمين في دمشق (وفي المدن الأخرى) كانت منظومة المدارس الحكومية المنتشرة، إذ سرعان ما تجمعوا هنالك معاً وكانوا آلافاً من التلاميذ الذين يلقنهم معلمون سوريون يومياً أفكاراً وطنية مثالية وكانت النتيجة أنهم ابتعدوا كثيراً عن التأثير التقليدي للأحياء بكل ما فيها من نماذج وعادات بالية عفى عليها الزمن، وقد حررت الحياة المدرسية هؤلاء الشبان مؤقتاً من مآزق التزاماتهم العائلية والبحث عن عمل[٦٥] وربما كان نمو وعيهم السياسي المتزايد بالإضافة إلى اندفاع الشباب وعدم التهيب يكمن وراء مساندتهم الكبيرة للكتلة الوطنية، وكل ما كان مطلوباً بعض القوة لكبح طاقتهم المطلقة العنان.

ولم يطل الأمر بالكتلة الوطنية بعد تأسيسها حتى بدأت تولي انتباهها إلى تطوير جناح شاب من بين طلاب المدارس العليا والجامعة، وفي عام ١٩٢٩ ولدت تلك المنظمة التي سميت «الشباب الوطني» وكانت القوة الدافعة وراء إنشائها تتمثل في فخري البارودي، الذي كان في الغالب وراء كل المشاريع التجديدية التي عمدت إليها الكتلة، وقد نشأ اهتمامه بالشباب المتعلم من مصادر متنوعة إذ مكنه اطلاعه الثقافي الواسع في مجال الآداب والفنون والموسيقا العربية من البقاء على اتصال وثيق بالتيارات الثقافية الرئيسية والأنماط التي اجتذبت الشباب فيما بين الحربين، كما أتاح له ميراثه الشخصي الذي يشتمل على عائدات كبيرة من مزارع عائلته حول دمشق أن يقدم الرعاية للصحفيين الشبان الموهوبين والشعراء والموسيقيين الذين شجعهم على التردد إلى بيته الكبير في القنوات ولم يكن أمراً مفاجئاً أنه فضل أن يصرف معظم وقته يثقف الشباب والمتعلمين والموهوبين بدلاً من بناء علاقات مع القبضايات كما فعل ابن عمه وخصمه الكبير في الكتلة الوطنية نسيب البكري، ولم يكن البارودي محافظاً ولا متصلباً كالبكري ومع أنه كان واعياً للعادات العربية إلا أنه كان متميزاً باختياره لما يراه جديراً بالبقاء منها ولا شك أنه كان سياسياً يملك نظرة إلى المستقبل بقدر ما يملك من الماضي[٦٦].

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

وبالإضافة إلى ذلك حدّت بيئة البارودي المباشرة من ظروف تصميمه على تثقيف الشبان المتعلمين إذ كان حي القنوات يزخر بالعائلات المسلمة من الطبقة العليا ومن المتوسطة العليا، مثل عائلته استطاعت أن تقدم لأولادها أحسن تعليم محلي متاحٍ آنذاك بالعربية، ويبدو أن البارودي كان يملك انطباعاً قوياً عن شبان حيّه وخصوصاً عن وعيهم السياسي والاجتماعي وكان ينظر بأمل كبير إلى الجيل القادم من القادة ولكنه كان يشعر أيضاً أن من المحتم على جيله أن يطور مواهب ويوجه طاقات الشبان والمتعلمين ممن نشأوا قسراً في زمن السيطرة الأجنبية الذي يمتلئ بالتوتر والاضطراب.

وكان لا بد للكتلة الوطنية في رأي البارودي أن تلعب دوراً هاماً موازياً للنظام التعليمي، يقوم على تطوير وتنقية الوعي الوطني لدى الشباب السوريين.

وقد بدأ البارودي بعد الثورة الكبرى مباشرة، بتكريس أعظم الانتباه إلى مسألة تشكيل منظمة شباب مرتبطة بالكتلة الوطنية، وفي الوقت ذاته كانت الجهود تبذل لتعبئة الطلاب في المدارس الحكومية وخصوصاً في مدرسة «التجهيز» وهي المدرسة الحكومية الكبرى في دمشق[٦٧] وكان الوجه البارز في هذه النشاطات محمود البيروتي وهو رجل لمّا يبلغ الثلاثين اكتسب سمعة كبيرة في دمشق إذ أنه قاد مظاهرات عديدة هامة واضرابات، كل ذلك بفضل مجموعة صغيرة من طلابه في الحلقة الإعدادية وفي المدرسة العليا.

ولد البيروتي عام ١٩٠٣ ابناً لموظف صغير في بلدية دمشق، يسكن في حي سوق ساروجة، وانتمى إلى جيل جديد من الوطنيين وكان يتطلع وهو في سن مبكرة إلى الانخراط في السلك العسكري وعندما انهى تعليمه الابتدائي انتظم في الكلية الحربية وتخرج قبيل الاحتلال الفرنسي مباشرة عام ١٩٢٠ ومع أن البيروتي أصبح ملازماً ثانياً إلا أنه لم يكن راغباً في التعاون مع السلطات العسكرية الفرنسية، وانضم بدلاً من ذلك إلى مجموعة من أصدقاء الدراسة الحميمين قامت بنشاطات سياسية سرية ضد الفرنسيين تم الكشف عنها سريعاً ولجأ البيروتي إلى عمان تجنباً للاعتقال وهناك حاول أن يصبح ضابطاً في جيش الأمير عبد الله ولكنه اكتشف أن سجله في دمشق ورغبته في علاقات مميزة لم يؤهلاه لذلك، ومن حسن حظه أنه استطاع العودة إلى دمشق بعد أن أصدر الفرنسيون عفوهم العام سنة ١٩٢١. وفي هذه الأثناء كان البيروتي قد بلغ درجة عالية من الوعي السياسي كان يعزوها إلى العوائق التي اعترضت عمله وإلى المثل العليا التي غرسها في نفسه معلمه في الكلية الحربية «نزهة

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

المملوك » وهو ضابط في استنبول يتولى التدريب في الجيش قُدِّر له أن يلعب دوراً سياسياً في تنظيم الجناح شبه العسكري للكتلة الوطنية في منتصف الثلاثينيات[٦٨].

وقد عبّر البيروتي مثل الكثيرين من شباب جيله الذين تحطمت أحلامهم بفعل التشنجات السياسية التي هزت سوريا، عن خيبة أمل عميقة من افتقار دمشق إلى القيادة السياسية الفعالة، ثم انتعشت آماله إلى حين عندما تأسست جمعية اليد الحديدية عام ١٩٢٢ تحت قيادة الدكتور الشهبندر، لكن آماله تبددت أخيراً في السنة نفسها عندما حطم الفرنسيون منظمة اليد الحديدية واعتقلوا قيادتها ونفوذها آخر الأمر، وكان بين الشبان العديدين الذين أمضوا السنتين التاليتين رهن الاعتقال مع القيادة الوطنية، وقرر البيروتي بعد إطلاق سراحه أن يستأنف تعليمه فانتسب إلى كلية الحقوق بدمشق إلا أن اندلاع الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥ عطل دراسته وأدت به مشاركته في الثورة إلى قضاء فترة قصيرة في السجن، وإذ خيبت حصيلة الثورة أمله قرر أن يستكمل دراساته واختار العمل في التجارة، وأسس بفضل مساهمة عائلية صغيرة مخزناً للنوفوتيه Novelty في شارع رامي على مقربة من السراي (مقر المفوض السامي الفرنسي) ومن ساحة المرجة وكان موقعه مناسباً جداً إذ أن معظم المظاهرات الوطنية خلال فترة الانتداب كانت تتمحور حول السراي، وأضاف البيروتي إلى مخزنه كي يجتذب الطلاب مكتبة صغيرة في الطابق الثاني وفي فترة زمنية قصيرة جداً أصبح مكاناً شعبياً يجتمع فيه الناس، كما أن موقعه بعيداً عن الأحياء أتاح للطلاب درجة من الحرية بعيداً عن رقابة الأسرة وعن الوجوه الدينية التقليدية وعن القبضايات.

وبدأ البيروتي أخيراً في تشجيع مجموعات صغيرة من الطلاب على الاجتماع في مخزنه بعد نهاية الدوام الرسمي حيث يلتقون بطلاب من الجامعة أكبر سناً وخصوصاً من كلية الحقوق، وكانوا يستمعون إلى مناقشات في القضايا السياسية الهامة ويتحدثون عن مشاكل عامة ويقرؤون الصحف والمراسيم التي كانت تصدرها المفوضية العليا، وفي هذه الاجتماعات وبقيادة البيروتي كانت تدبر أعمال سياسية متنوعة وفي أواخر العشرينيات أصبح مخزنه نقطة انطلاق لمظاهرات الطلبة وإذ كانت السراي قريبة منه فلم يكن المحتجون مضطرين للذهاب بعيداً كي يُسمعوا رأيهم.

وعندما تزايد تلامذة البيروتي بعد كل نشاط سياسي يولد في شارع رامي شعر بحاجة عظيمة لتقديم بعض التنظيم إليهم، وقد شكل البيروتي بالاشتراك مع طالب نشيط في كلية الطب من حي الميدان هو مدحة البيطار فريقاً كشفياً خاصاً أوائل عام ١٩٢٩ وأطلقا عليه اسم الكشاف الأموي وكان كثير من زوار مخزنه الشباب من أوائل أعضاء هذا الفريق، ذلك أن

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

البيروتي كان متأثراً بروح التضامن السائدة في فريق كشفي للصبيان في دمشق هو فريق الغوطة إلا أن قادته رفضوا إشراك الفريق في نشاطات سياسية .

تلقى فخري البارودي أخبار هذه التطورات بابتهاج وكان قد بدأ يسمع أموراً سارة عن نشاطات البيروتي بين الطلاب وفرح خصوصاً برغبة البيروتي في تسييس الحركة الكشفية ولم يلبث البارودي أن وجه دعوات شخصية إلى البيروتي وتلامذته عبر أحد أتباعه وهو طالب شاب في كلية الحقوق من حي القنوات اسمه خالد الشلق ، وسرعان ما تطورت علاقة وثيقة بين البيروتي والبارودي وبدأ الأول يحصد فوائد هذه الرعاية . وبتشجيع من البارودي أسس البيروتي بمساعدة خالد الشلق « الشباب الوطني » قبل نهاية العقد واضعاً إياه تحت مسؤولية الكتلة الوطنية مباشرة[٦٩] .

وقد لمع نجم البيروتي من خلال علاقته بالكتلة الوطنية واحتكر بالفعل قيادة الشباب الوطني في دمشق حتى منتصف الثلاثينيات وعندها قرر حماته في الكتلة أن منظمته بحاجة ماسة إلى وجه جديد أكثر جاذبية ، في ذلك الحين كانت منظمات سياسية منافسة يقودها جيل جديد من الوطنيين المتطرفين تراهن على كسب الأعداد المتزايدة من الطلاب الساخطين في دمشق والمدن الأخرى ولم يكن البيروتي مؤهلاً لهذه المنافسة المكثفة . ومع أنه أسدى خدمة هامة إلا أنه كان على الكتلة الوطنية أن تقدم للشباب المتعلم قدوة أكثر أصالة إذا كانت ترغب في الحفاظ على سيطرتها على حركة الاستقلال وخصوصاً بعد أن سيطرت الكتلة على الحكومة في أواخر سنوات الثلاثينيات وأصبحت أكثر عرضة للانتقاد من قبل المنظمات الوطنية المنافسة[٧٠] وبات من الضروري أن تتحول إلى مجموعة من المحامين والأطباء والمهندسين البلغاء الشباب الذين درسوا في أوروبا ، وذلك من أجل المهام القادمة الصعبة .

لقد عاش محمود البيروتي وعمل في وسط سياسي واجتماعي أكثر قرباً وتجانساً مع قيادة الكتلة الوطنية ، على الرغم من تعليمه المحدود بالقياس إليهم وعلى الرغم من بعض القسوة والانفعالية اللذين اتصف بهما ، مما كان عليه القبضاي من أمثال أبي علي الكَلاوي ، وكان يرتدي الزي الأوروبي ويعتمر الطربوش مزهواً كما يفعل أبناء الطبقة الأفندية من السياسيين والبيروقراطيين وكان متعلماً ومحرضاً عقائدياً ، كان البيروتي من حيث المرتكز السياسي الذي كونه بين نخبة الشباب المتعلم خارج الأحياء الشعبية من أوائل ممثلي قوى التحديث السياسي في سوريا حيث بدأت بتحويل مركز الحياة السياسية من خارج الأحياء الشعبية إلى مؤسسات جديدة وبنى أكثر حداثة كالمدارس الحكومية والجامعة والمنظمات الشبابية المتنوعة ، كان

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

البيروتي خلافاً لأبي علي والقبضايات الآخرين «رجلاً عربياً» وهو لقب كان يعتز به ولكن أمثال أبي علي لم يكونوا يخفون عدم احترامهم له.

لم يكن أي من الرجلين يكنُّ احتراماً للآخر، فالبيروتي كان ينظر إلى أبي علي على أنه من مخلفات الماضي وأنه عائق في طريق التقدم في حين كان أبو علي يرى في البيروتي مأجوراً حزبياً، ورجلاً ينصرف أقصى التزامه إلى منظمته وليس إلى عامة الشعب[٧١]. ومن المثير للاهتمام أنه كلما تفوق القادة الشباب الآخرون على البيروتي في الأهمية كان يصبح أكثر تبعية لأفراد من رؤساء الكتلة وخصوصاً جميل مردم بسبب رعايته له وبهذا المعنى بدأ يشبه القبضاي ومع ذلك فقد بقي ارتباطه بالكتلة وثيقاً، وظل معروفاً بالتصاقه بالمنظمة التي استمر في خدمتها، ومع أن سنه وأصله الاجتماعي المتواضع حالا بينه وبين الانضمام إلى الدوائر السياسية الداخلية في الكتلة أو المشاركة في الجلسات الاستراتيجية الدقيقة إلا أنه عمل مع ذلك ضمن مستوى سياسي عالٍ لم يبلغه أي قبضاي وحظي بعرفان كبير من جميع البارزين في الكتلة، وقد عمل كوسيط شأنه شأن القبضاي إلا أنه عمل لصالح منظمة الكتلة أكثر مما عمل لصالح أي زعيم كتلوي بمفرده وكان عمله على النقيض من القبضاي يرتكز بصورة أساسية على النخبة المتعلمة وخارج الأحياء الشعبية، ونستخلص من ذلك أنه اشتغل في وسطٍ أثبت إلى حد بعيد أنه أكثر أهمية بالنسبة للحركة الوطنية الاستقلالية في سوريا وللأعمال السياسية المدينية بصورة عامة.

النتيجة: نحو نهاية عهد

كانت سنوات الانتداب مرحلة انتقالية حرجة في الحياة السياسية المدينية في سوريا إذ أسهم نمو السكان السريع والتضخم في تكاليف المعيشة وتوسع التجارة بالمواد الزراعية وتسارع انهيار الصناعات التقليدية وتأخر تطور الصناعات الأخرى والاستقطاب المتنامي في القوى الطبقية وتشكل مناخ ثقافي جديد، كل ذلك أسهم في إعادة تنظيم القوى الاجتماعية والسياسية في دمشق وفي المدن الأخرى وأخذت الحواجز الطبيعية والنفسية بين الأحياء السكنية القديمة تتساقط، وفي بعض الأمثلة انهارت فعلياً تلك الجدران التي كانت تفصل بين الأحياء كما حصل أثناء الثورة الكبرى حينما قصف الفرنسيون منطقة واسعة في المدينة القديمة (الحريقة) وجزءاً كبيراً من حي الميدان[٧٢] وقد رفعت وقائع الحياة السياسية تحت نظام حكم أجنبي «غير شرعي» ومتقلب النزوات، رفعت من مستوى الوعي السياسي لعامة الناس. كما أنها سمحت لقيادات مدينة دمشق أن تحول انتباه الأحياء الشعبية بعيداً عن

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

خصوماتها التقليدية والصراعات الطبقية الجديدة وذلك بتوجيه طاقاتهم التنافسية نحو هدف الاستقلال الوطني ، وقد أسهمت الأحياء عندما تضافرت معاً بازدياد تعقد ومقاييس الأعمال السياسية المدينية .

انتقلت بؤرة النشاط السياسي خارج الأحياء تماماً إلى المفوضية الفرنسية العليا وإلى رموز السيطرة والنفوذ الأجنبي الأخرى ، من الامتيازات الأجنبية الخاصة إلى المراكز الثقافية الفرنسية[٧٣] عندما كان أبناء حي ما يمشون في مسيرة كانوا يفعلون ذلك باسم الحي ويغني كل منهم أناشيد حيه التقليدية ويرفع راياته الخاصة لكنهم كانوا يسيرون جنباً إلى جنب رجالاً (والآن نساء)[٧٤] من أبناء الأحياء الأخرى ويتظاهرون في سبيل غاية مشتركة ، لقد كان أمراً جديداً في الحياة السياسية المدينية .

يبدو أن القبضايات نعموا بفرصة جديدة للحياة وبأهمية جديدة في العمل السياسي أثناء فترة الانتداب وقد ظلوا عنصراً هاماً في أدوات « البكوات » السياسية في الوقت الذي احتاج فيه الزعماء الوطنيون إلى مساندة استثنائية ليستمروا في اللعبة السياسية التي يقودها الفرنسيون ، إلا أن القبضاي في الحقيقة كان يتمتع بمجرد إنقاذ مؤقت لسياسة صائرة إلى الزوال ، وربما كان هذا أوضح للعيان في التركيب المتبدل للقوى الفاعلة التي تتظاهر ضد الفرنسيين وضد المتعاونين المحليين معهم في أعوام الثلاثينيات حيث كانت توجد أعداد كبيرة من الشباب المنظمين في فرق كشفية أو في تنظيمات سياسية فرعية على رأس تلك المظاهرات ، وكل شيء يتعلق بها يبدو مختلفاً ، من شعاراتها العلمانية التي تشجب الإمبريالية الفرنسية وتدعو إلى الوحدة العربية والتحرر الوطني (وفي النهاية التحرر من الانتداب) وحتى الاشتراكية ، وهم في ملابسهم الأوروبية وأزيائهم الموحدة الحديثة[٧٥] وكان هؤلاء الأفراد ينتمون بصورة متزايدة إلى الطبقات الوسطى الصاعدة وينحدرون من أحياء دمشق الجديدة الغنية . وحتى أولئك الذين ليسوا كذلك يفعلون الشيء نفسه عندما يسيرون تحت راية منظمتهم الشبابية أو مدرستهم وليس مع حيهم ومع أن الحركة الوطنية الاستقلالية وعلى رأسها الكتلة الوطنية شكلت نظاماً من التحالفات الواسعة التي ربطت جنباً إلى جنب بين النخب المختلفة والطبقات والجماعات الطائفية فإن العنصر الدينامي في الحركة بحلول الثلاثينيات أصبح يتركز في الطبقات الحديثة المتعلمة التي صارت قاعدتها ونشاطاتها خارج الأحياء الشعبية القديمة وخارج المنطقة التجارية العتيقة .

إن الجيل الصاعد من الشبان الذين ينتمون إلى الطبقة الوسطى الحرفية والذين قدموا من جذور تجارية ، والارستقراطية القديمة من الموظفين أو من العدد المتزايد الذي نشأ من

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

أصول اجتماعية دنيا استلهموا المنظمات السياسية المتقدمة عقائدياً والتي شهدها عدد منهم أثناء دراسته في أوروبا في أعوام العشرينيات والثلاثينيات، وعندما عادوا إلى دمشق والمدن الأخرى سرعان ما ضاق ذرعهم بالشكل الذي يجري لتنظيم الطبقات الشعبية سياسياً وقد وجدوا تجاراً من طراز عتيق «وأئمة» وفوق ذلك كله قبضايات يعيشون خارج المرحلة مع تغيرات الزمن وأصبحوا بالتالي عقبات أمام التقدم، إلا أن الفئة الأكثر تطرفاً من هؤلاء الشبان ضاقت ذرعاً بالبنية المهلهلة وغير المستقرة للروابط التي أقامها ملاكو الأراضي والتجار الأغنياء الذين يشكلون بتحالفهم معاً القيادة الفعالة للحركة الاستقلالية، وأقلقتهم مظاهر كثيرة في تنظيم الكتلة الوطنية من الجو الشبيه بالنوادي والذي تكسوه الروابط العائلية والعلاقات الشخصية التي تجمعهم معاً ومحافظة القادة على شلة من الأفراد التابعين ونقص الخضوع لإرادة الحزب وسياسته، وحذف أكثر مبادئ الحركة أهمية وهو الوحدة العربية، في الثلاثينيات، وثبط من عزيمة هؤلاء الشباب الاستراتيجية الضيقة الأفق للكتلة التي لم يكن هدفها الأساسي التحرير بل المفاوضات المتأنية مع الفرنسيين على أمل أن يخففوا تدريجياً من سيطرتهم على سوريا كل ذلك دون إرباك الوضع القائم السياسي.

وفي ظروف كهذه لم تلبث قيادة الكتلة الوطنية أن وجدت سيطرتها على الأمور السياسية في المدينة وعلى حركة الاستقلال مهددة من قبل هذه النخب التي بدأ نجمها يبزغ، وكان على الزعماء الوطنيين إذا أرادوا الحفاظ على بقائهم أن يواكبوا سير الزمن، ولم يكن ذلك يعني الوقوف عند محاولة التأقلم مع التغيرات التي أخذت تطرأ على الأحياء القديمة بل التأقلم خصوصاً مع المؤسسات والتنظيمات الجديدة في الحياة السياسية المدينية التي برزت جنباً إلى جنب مع الأحياء وأوجدت بذلك ميزاناً جديداً للقوة المحلية، ومع نهاية عهد الانتداب بدأت الطرق التقليدية والأساليب القديمة في التدابير السياسية المدينية تفسح المجال بوضوح ولكن على مضض في سبيل الإبقاء على سيطرتها على الحركة الاستقلالية وعلى الفكرة السائدة للقومية المطلوبة وقبل كل شيء لتركيز الاهتمام وحشد الموارد في هذه المجالات الجديدة.

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

ملاحظات

ملاحظة المؤلف : حنّا بطاطو ، ريتشارد م . دوغلاس، اندريا غوردون ، روجر أوين ، جان بول باسكوال ، اندريه ريمون ، ياسر طباع ، ماري ويلسون قدموا جميعاً انتقادات وإيحاءات ساعدت في كتابة هذا البحث ، وقدم آلكا بادشاه من معهد ماساشوستس خريطة دمشق ووليم ل . بورتر مدير برنامج آغاخان لهندسة العمارة الإسلامية في معهد ماساشوستس التقني M. I. T وريتشارد م . دوغلاس القيم على Iأوستن كيلي ، و IIIالصندوق في M. I. Tقدم الأموال لهذا المشروع وأنا أريد أن أتوجه بالشكر إلى كل هؤلاء الأفراد والمؤسسات من أجل مشورتهم ودعمهم السخي .

١ ــ حنا بطاطو : الطبقات الاجتماعية القديمة والحركات الثورية في العراق :

The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq. (Princeton 1918) pp. 19-22

ليس العلماء متفقين على مسألة إلى أي حد من الأهمية ينسب إلى « انعدام الأمن » كعامل في خلق الأحياء ذات الحيطان في المدينة العربية أو الإسلامية . انظر :

T. H. Green Shields, «Quarters» and Ethnicity, in G. H. Blake and R. I. Lawless. eds The Changing Middle Eastern City (London, 1908) p. 124

كانت الأحياء قبل الحديثة ، غالباً وليس دائماً ، مفصولة بأسوار قوية وبوابات وكانت تتصف بمتاهات من الشوارع الضيقة المرصوفة . خارج سلسلة غير نظامية من الطرق المسدودة والشوارع والممرات كانت هناك بيوت مختبئة خلف حائط عالٍ ثم تلتف بعيداً عن الشارع حول باحة الدار الداخلية . وهذا يمنح خصوصية قصوى للعائلة ، إن باحة البيت العربي التقليدية صممت لكي تفصل عائلة عن عائلة ولكي تعزل النساء [في الحرملك] عن الرجال مع أن الغني وحده كان قادراً على تطبيق هذه الفكرة . ويبدو أن هذا النموذج كان يعكس رغبة الأحياء في الخصوصية الداخلية والعزلة كما يعكس رغبتها في الاحتماء من القوى الخارجية ، وتظن مدرسة اندريه ريمون الحديثة ومعها آخرون أن الأحياء القديمة لم يكن تنظيمها غير عقلاني (وبالتالي رديئاً) كما يظن أبناء الجيل الجديد ، بل كان يستجيب بصورة منطقية للمثل العليا والقيم في المجتمع الإسلامي في نظرتها إلى الأسرة والتنظيم الاقتصادي ، ويؤكد هذا وجود فارق محدد بين المناطق السكنية والمناطق التجارية . فالمناطق التجارية تكون على عكس المناطق السكنية أكثر « انتظاماً » وتكون مفتوحة ويسهل وصول الناس إليها وهذا أمر يسهل توقعه في منطقة أعمال تجارية ، انظر اندريه ريمون :

«Remarques sur la voirie des grandes villes Arabes» in R. Hillenbrand, ed. Proceedings du Ioème Congrés del'UEAI (Eidinburg 1982) pp. 72-85

ويذهب أوجين ويرث Eugen Wxirthإلى أبعد من ذلك إذ يرى أن كثيراً من البنى الطبيعية في المدينة العربية و /أو الإسلامية ، مثل باحة البيت الداخلية وجدت في الشرق الأوسط قبل ظهور الإسلام وأن المجتمع العربي الإسلامي تبنى تلك النماذج القديمة وقوى من شأنها وبنيتها ولكنه لم يخترعها . [المدينة الشرق

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

أوسطية ، أهي مدينة إسلامية ؟ أم مدينة شرقية ؟ أم مدينة عربية ؟] السمات المميزة لمدن شمال افريقيا وآسيا الغربية من وجهة نظر جغرافية (محاضرة لِـ ويرث ، مركز الدراسات الشرق أوسطية جامعة هارفارد ١٩٨٢) وانظر حول هذا الموضوع أيضاً روبرتو بيراردي :

Robertu Berardi: Espace et Ville en pays d'Islam. In Domonic Chevalliered L'Espace social de la ville Arabe (Paris 1979) pp. 99-123

٢ ـــ ما يزال الدارسون يختلفون كثيراً حول التعريف المحدد لكلمة « الحي » في الشرق الأوسط العربي أو المدينة الإسلامية ، فمنذ البداية يختلف المعادل العربي لكلمة quarterمن مدينة إلى مدينة ومن منطقة إلى منطقة . فهو « حارة » في كل من القاهرة ودمشق ، و « محلة » في حلب وبغداد و « حومه » في كثير من مدن شمال افريقيا (انظر Raymond, Remarques p. 74) بما في ذلك الجزائر وفاس ، لكننا نجد أيضاً كلمة « درب » في بعض أجزاء مراكش ، انظر :

I Dale F. Eickelman, «Is there an Islamic city? The making of a Quarter in a Moroccan Town» International Journal of Middle East Studies 5 (1974) 278.

إنني اتفق مع غرينشيلدز أن الكلمة استخدمت بكثير من التوسع وكأن الحي وحدة قابلة للتطابق بسهولة وممثلة لبعض نماذج التنظيم الاجتماعي ويملك بنية معينة وجملة من الصفات المميزة يشترك فيها مع الأحياء الأخرى (غرينشيلدز أحياء ص ١٢٤) .

٣ ـــ في سبيل تحليل معمق للصدام التجاري والمالي بين الامبراطورية العثمانية (بما فيها مصر) مع أوروبا في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين انظر روجر أوين Roger Owen, The middle East in the world Economy 1800-1914 (London 1891) also see Hanna Batatu «The Arab Countries From Crisis to Crisis: Some Basic Trends and Tentative Interpretations, in American University of Beirut, The Liberal Arts and the Future of Higher Education in the Middle East (Beirut 1979)pp. 3-7; and Philip S. Khoury «The Liberal Shaykh, French Tribal Policy, and the Nationalist Movement in Syria Between Two World Wars Middle Eastern Studies, 18 (April 1982) 180-193

٤ ـــ انظر فيليب خوري « إعادة تفسير لأصول وأهداف الثورة السورية الكبرى ١٩٢٥ ـــ ٢٧ » في جورج عطية وابراهيم م . عويس منشورات : Arab civilization (Albany,1988) pp 241-271

٥ ـــ حول بنية دمشق في مراحل تاريخية مختلفة انظر المصادر التالية :

Samir Abdulac «Damas: Les années Ecochard (1932-1982)»; Les cahiers de la Recherche architecturale, no. 10/11 (April 1982) 32-43;

Karl Barbir, Ottoman Rule in Damascus, 1708-1758 (Princeton, 1980);

G. Besnard «Damas, son cosis, ses habitants»; L'Asie Française, 31 (1931), no. 292, 239-250;

Anne-Marie Bianquis, «Damas et la Ghouta», in André Raymond, ed. La Syrie d'Aujourd'hui (Paris 1980) pp 359-384

Dominique Chevallier «A Damas. Production et Sociéte a la Fin du 19e Sièle Annales Economies, Societés, Civilizations, 11 (1964), 966-972; Rene Danger, «L'urbanisme en Syrie: La ville de Damas»,

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

Urbanisme (Revue Mensuelle) (1937), 123-164; K. Dettman Damaskus. Eine Orientalische St. Zwichen Tradition und Moderne (Nürnberg, 1967; N.Elissef, «Damas a la lumière des théories de Jean Sauvaget», in A. H. Hourani and S. M. Stern, eds, The Islamic City: A collogium (Oxford, 1970) and «Dimashq» Encyclopedia of Islam (new edition);

صفوح خير : دراسة في جغرافية المدن (دمشق ١٩٦٩) .

Philip S. Khoury, urban notables and Arab Nationalism. The Politics of Damascus 1860-1920 (Cambridge, 1983); A. Von Kremer, Mittelsyrien und Damaskus (Wien, 1853)

Irène Labeyrie et Mouhammad Roumi «La grande traversée de Damas», les cahiers de la Recherche architecturale, no 10/11 (April 1982), 44-51, Ira M. Lapidus Muslim cities in the later Middle Ages (Cambridge, Mass, 1967); Louis Massignon, la structure du travail à Damas en 1927; Cahier internationaux de sociologie, 15 (1953), 34-52; J. M. Prousttournier, «La population de Damas», Hanon, Revue Libanaise de géographie, 5 (1970), 129-145;

محمد سعيد القاسمي : قاموس الصناعات الشامية ، نشره ظافر القاسمي ، جزءان باريس ١٩٦٠ ؛ عبد الكريم رافق : ريف دمشق ١٧٢٣ ــ ١٧٨٣ (بيروت ١٩٦٦) عبدالقادر ريحاوي : مدينة دمشق (دمشق ١٩٦٩) .

Jean Sauvaget, Esquisse d'une histoire de la ville de Damas , Revue des études Islamiques 8 (1934) 421-bis-480; J. Sauvaget and J. Weulersse, Damas et la Syrie sud (paris, 1936; R Thoumin «Damas. Note sur la répartition de la population par origine et par la Religion, Revue de la Géorgraphie Alpine, 25 (1937), 633-697; Thoumin, Notes sur l'amènagement et la distribution des eaux à Damas et dans sa goutha» Bulletin d'études Orientales, 4 (1934), 1-26; Thoumin «Deux quartiers de Damas: le quartier chrétien de Bab Musalla et le quartier Kurole «Bulletin d'étude Orientale 1 (1931), 99-135», Yacques Weuleresse, «Damas etude de developpement urbain», Bulletin de l'association de géographie Françai, no 107 (June-October 1937), 102-105; K, Wulzinger and C. Watzinger, Damaskus, 2 vols; (Berlin 1921-1924)

٦ ــ Thoumin «Deux quartieres de Damas» p. 99

٧ ــ للرجوع إلى « العمارة الجوَّانية » و « العمارة البرَّانية » والشاغور الجوَّاني والشاغور البرَّاني انظر :

René Danger, Paul Danger, and M. Ecochard: Damas Rapport d'enquete monographique sur la ville 1936 (unpublished) table 13

أود أن أشكر جان بول باسكوال من المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق على جعله تقرير Dangerفي متناول يدي وهو وثيقة عظيمة الأهمية لدراسة دمشق في فترة ما بين الحربين من جميع وجوهها تقريباً .

٨ ــ يبدو أن الدارسين يتفقون على أن أحياء المدن القديمة تغيرت كثيراً في حجمها سواء من جهة المكان أو عدد السكان ، وعلى أن الأقليات الدينية (من مسيحيين ويهود في المدن العربية) سكنت في أحيائها الخاصة المنفصلة لسببين أولهما أن الدولة أرادت أن تحتويهم (وأن تراقبهم) وثانيهما أن الأقليات تبحث

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

بشكل طبيعي عن الحماية من خلال تجمعها . ومن جهة أخرى يظل الدارسون منقسمين حول درجة التجانس الاجتماعي والاقتصادي في الأحياء . وتوحي أبحاثهم بتنوع كبير في الأشكال يتعلق بالحي والمدينة ونضرب مثلاً أولاً أنه على الرغم من أن معظم الأحياء كانت غير متجانسة من الناحية الاثنية (العرقية) إلا أن ثمة استثناءات هامة كانت موجودة كالحي الكردي في دمشق . ثانياً يبدو أن توزع السكان في معظم الأحياء القديمة كان يتم حول محوري الغنى والفقر بمعنى أن الأكثرية الواسعة من الأحياء كان يسكنها الفقراء وكان هناك عدد قليل من الأحياء تسكنه الطبقة الثرية ، على أنه كان ثمة أحياء في الوقت نفسه تضم طبقات اقتصادية مختلفة وكان أكثر الأحياء فقراً يقع في هامش المدينة وتطور بفعل تدفق المهاجرين من الريف والسكان الذين لجؤوا من مناطق أو أرياف أخرى إلى حيث أثمان الأراضي وإيجارات البيوت أرخص سعراً ، وحيث تتوضع كثير من صناعات المدينة الضارة (كالأفران والمدابغ والمسالخ) . ثالثاً . هناك جيل حديث من الدارسين يبرهن على أن الأحياء كانت متجانسة بمعنى أن سكانها كانوا ينتمون إلى الفعالية الاقتصادية نفسها أو إلى الحرفة ذاتها أو حرفة مرتبطة بها . كما أنهم يوحون بوجود ارتباط مباشر بين الجماعات الحرفية (النقابات) وبين بعض الأحياء السكنية . وترى الأبحاث الحديثة التي قام بها اندريه ريمون عن القاهرة والجزائر ، وجان كلود ديفيد عن حلب ــ رأياً معاكساً تماماً : فالأحياء السكنية لم تكن متجمعة أو موحدة بفعل نوعية الأشغال أو التجارة كما تدعي الفكرة السابقة بل كان سكانها يعملون في نواح تجارية منفصلة خارج الأحياء ولكنها قريبة منها غالباً وعلى الرغم من أن الأحياء السكنية كانت لها دكاكينها غير المتخصصة (سويقة) مدربو صقور باعة متجولون وحرفيون صغار إلا أنها لم تكن تشكل وحدات اقتصادية ، وبكلمة أخرى . إن الأحياء لم تكن منظمة بموجب خطوط اقتصادية . انظر :

Abdré Raymond, Artisans et commerçants au Caire au XVIIIe Siècle (Damascus 1973, 1974); «Remarques, pp. 73-77; The Residential Districts of Cairo during the Ottoman Period» in the Arab City, its character and Islamic Heritage (n. pl. 1980), pp 100-110. «Le centre d'Alger en 1850», Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée, 31 (1981), 78-84 and J. C. David, «Alep» in André Raymond, ed, la Syrie d'Aujord'hui (Paris 1980) pp. 385-406, and David, «Alep dégradation et tentatives actuelles de réadaplation des structures urbaines traditionnelles, Bulletin d'études orientales, 28 (1975),

وفي حالة دمشق يبدو أن بعض الأحياء القديمة في المدينة كانت متجانسة اقتصادياً واجتماعياً في حين أن أحياء أخرى وبينها الأحياء المسيحية واليهودية لم تكن كذلك . أما الأحياء التي تأسست حديثاً (بين القرن الرابع عشر والتاسع عشر) والتي كانت تحيط بالمدينة القديمة فقد كان تماثلها أكثر سهولة بفعل عناصر طبقتها الرئيسية .

٩ ــ يمكن أن تجد معلومات حول حركة العمال في سوريا أثناء الانتداب الفرنسي في : عبد الله حنا الحركة العمالية في سوريا ولبنان ١٩٠٠ ــ ١٩٤٥ (دمشق ١٩٧٣) واليزابت لونفينيسي :

La classe ouvrière en Syrie. Une classe en formation «3eme cycle dissertation. Ecole des Hautes Etudes en Sciences Sociales (Paris, 1977)

١٠ ــ حول تأسيس هذه الأحياء وكثافتها أثناء الانتداب انظر :

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

René Danger, «L'unbanisme en Syrie: La ville de Damas» Urbanisme (Revue Mensuelle), (1937), 129, 136; Abdulace, «Damas» pp, 32-33

١١ — Danger, L'urbanisme. p 143.

ذكر لي جان بول باسكوال أن سكان سوق ساروجة الأغنياء بنوا بيوتهم بواجهات أشبهت عمداً تلك التي بنيت في استنبول.

١٢ — يقول غرينشيلدز أنه في مدن الشرق الأوسط «إن مغادرة مجموعة عرقية جزئياً أو كلياً [وهو يدمج الطوائف الدينية ضمن تعريفه للجماعات العرقية] حيّها الأصلي .. يترك فراغاً يملؤه في كثير من المدن اجتياح عناصر سكانية جديدة وهي غالباً من زمرة مختلفة وينتج عن ذلك اختلاط سكاني ... » Quarter and Ethnicity; p 131 وقد بدأت هذه العملية تحدث في فترة الانتداب في حيّ اليهود عندما بدأووا بالهجرة إلى فلسطين أو إلى الغرب.

انظر Danger «L'urbanisme» pp. 123-164

١٣ — Bianquis «Damas» p. 362.

١٤ — Danger «L'urbanisme» pp. 136, 143 on the origin and adaptation of the hawäsil and Khäns (caravan sérails) in Damascus see George Saba, Klaus Salz Wedel Typologie des caravan sérail dans la vieille ville de Damas (Les Cahiers de la recherche archtieturale 10/11 (April 1982) 52-59

١٥ — انظر المرجع السابق ص ١٢٩، ١٣٦ تاريخ الصالحية منذ القرن الثاني عشر.

١٦ — انظر Sauvaget «Esquisse», pp. 473-474, Greenshields «quarters» p. 122; Bianquis, «Damas» p. 374

١٧ — Thoumin «Deux quartiers» pp. 116-20, 131, Also see Khoury «Urban notables, chapter 2»

١٨ — Ahmad Hilmi al'Allaf. Dimashq Fi malta'al-quarn al-àshrin, ed. by Ali Jmil Nu'ayysa, Damascus 1976) pp. 41-43

١٩ — J. Grellet, «La Fiscalité municipale en Syrie» centre de Hautes Etudes Administratives sur l'Afrique et l'Asie Modernes [Cheam] (Paris) no 331, n. d, pp. 31-32

٢٠ — بالاستناد إلى ما ذكره المرحوم فريد زين الدين (في حديث معه يوم ١٤ نيسان ١٩٧٦) وهو زعيم قومي متطرف أثناء الانتداب كان هناك مجلس آخر غير رسمي يجتمع في الأحياء وكان يسمى مجلس الشيوخ ويتألف من القادة المثقفين الذين يجتمعون في بيوت مختلفة لمناقشة الاستراتيجية السياسية وكان أعيان الحي يحضرون بين حين وآخر لكي يتعلموا كيف يشرحون لعامة الناس ماذا يجري في قمة الأحداث السياسية القومية.

٢١ — ظافر القاسمي. مشاركة الطبقات الشعبية في الحركات الوطنية الاستقلالية في القرن التاسع عشر والعشرين: سوريا في اللجنة الدولية لتاريخ الحركات الاجتماعية والبنى الاجتماعية. «الحركات الاستقلالية الوطنية والطبقات الشعبية في القرنين التاسع عشر والعشرين في الغرب والشرق (باريس ١٩٧١) ص ٣٤٨».

٢٢ — تأثرت تأثراً عميقاً بالدراسات النظرية والتجريبية التي قام بها جيمس سكوت حول علاقات الظهير بالتابع وعلى وجه الخصوص دراسته:

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

Patron-Client Politics and Political Change in Southeast Asia» American Political Science Review, LXVI, no1, 91-113.

يمكن العثور على كثير من أعمال « سكوت » وعدد من كبار علماء الاجتماع في المجموعة الممتازة :

Ernest Gellner and John Waterbury, eds, Patron and Clients in Mediterranian Societies (London, 1977) on the political and social behaviour of urban notables in the Middle East see Albert Hourani, «The Islamic city in the light of recent research», in A. H. Hourani and S. M. Sterneds. The Islamic city (Oxford, 1970) pp. 9-24; Hourani, «Ottoman Reform and the Politics of Notables», in W. R. Polk and R. L. Chambers, eds, Beginning of Modernization in the Middle East: The Nineteenth Century (Chicago 1968), pp. 41-68 and Khoury, Urban Notables pp. 1-55

٢٣ ــ كان عدد سكان دمشق عام ١٩٢٢ (ابتداء من أول عهد الانتداب) يقدر بـ ١٦٩ ألفاً [١٦٩٫٣٦٧]. وفي عام ١٩٤٣ (نهاية الانتداب) كان يقدر بـ ٢٨٦ ألفاً [٢٨٦٫٣١٠] ويعني هذا أن عدد السكان قد ازداد ١٫٧ مرة في مدى عقدين وكانت الزيادة في الثلاثينيات أكثر منها في العشرينيات، وكذلك تضاعف عدد سكان حلب ٢٫٠٥ مرة في الفترة نفسها. وفي سبيل الاطلاع على معلومات إحصائية ومصادر عن عدد سكان المدن (والريف) في سوريا أثناء فترة الانتداب الفرنسي انظر :

Philip Khoury, Syria and the French Mandate: The politics of Arab Nationalism 1920-1945 (Princeton, 1987) pp. 11-12, 15-16 and 241-271.

٢٤ ــ انظر N. Elisséef. «Dimashk» Encyclopedia of Islam (new edition) p 290

٢٥ ــ حول تبدل الطراز المعماري والوظائف الاجتماعية للبيوت في المدن السورية انظر :

Thoumin, La maison Syrienne dans la plaine hauranaise, le bassin de Barada et sur les plateaux du Qualamoun (Paris 1932); A. Abdel-Nour introduction à l'histoire urbaine de la Syrie Ottomane (XVIIe-XVIIIIe Siècle) (Beirut 1982); Jean Charles Depaule «Espaces lieux et mots» les cahiers de la recherche architecturale, 10/11 (April 1982), 94-101 and Jean Claude David, Dominique Hubert, «Maisons et Immeubles du début du XX Siècle à Alep»; les cahiers de la recherche architecturale 10/11 (April 1982), 102-111.

٢٦ ــ See Khoury, urban notables, chapter 2 and 3.

٢٧ ــ Ibid, chapter 2.

٢٨ ــ بني التحليل والمعلومات على محادثة مع وجيهة اليوسف (بيروت ١٥ و ٢٩ آب /أغسطس ١٩٧٥) ومع عبد الكريم الدندشي ومحمود البيروتي وفؤاد صيداوي وجورج سبعا (دمشق ١٣ و ١٤ شباط /فبراير ١٩٧٦ و ٩ و ١٠ آذار ١٩٧٦) وقد وُجدت إحدى أكبر وسائل الراحة في البيوت الحديثة التي بنيت في الضواحي البرجوازية للمدن مثل دمشق وحلب، وهي الحمامات (الخاصة) الحديثة. وعلى النقيض من الضواحي الجديدة الفقيرة (التي كانت تزدحم بالمهاجرين القادمين حديثاً من الأرياف) حيث كانت تبنى الحمامات العامة لم يكن سكان الضواحي الغنية يرغبون بتلك الحمامات وثمة وسيلة أخرى للراحة في المطبخ الحديث، انظر :

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

David and Hubert, «Maisons» pp. 64-65, and Muhammad Roumi:

«Le Hamman domestique nouvelle pratique et transformation de l'espace»

Les cahiers de la recherche architecturale, 10/11 (April 1982), 74-79

٢٩ ــ فخري البارودي ، أوراق شخصية ، ملف البارودي ١٩٢٢ ــ ٤٧ ؛ في مركز الوثائق التاريخية [دمشق] ، القسم الخاص .

٣٠ ــ أول رئيس للجمهورية العربية السورية محمد علي العابد ، رأى أثناء توليه منصبه (١٩٣٢ ــ ١٩٣٦) أن ينشئ خطاً للترامواي يربط مركز دمشق بضاحية المهاجرين البورجوازية حيث كانت أسرة العابد قد انتقلت إليها أثناء الانتداب بعد أن تركوا سوق ساروجة بالإضافة إلى البيوت الفقيرة في منطقتهم الجديدة وخاصة أثناء شهر رمضان عندما كانوا يطعمون الناس كل مساء في قصرهم بالمهاجرين (محادثة مع نصوح المحايري ، أبو محمد) (دمشق ١٢ آذار ١٩٧٦)

٣١ ــ انظر Philips. Khoury, «Factionalism Among Syrian Nationalists During the French Mandate. International Journal of Middle East Studies», 13 (November 1981) 462-469, and Khoury, «A Reinterpretation»

٣٢ ــ كانت الكتلة الوطنية أقوى تنظيم وطني أيام الانتداب وكان تأثيرها على الحياة في سوريا شبيهاً بتأثير حزب الوفد في مصر خلال فترة ما بين الحربين . من أجل الاطلاع على تنظيمها وقيادتها في دمشق وفروعها في حلب وحماه وحمص واللاذقية وخلافاتها مع الفرنسيين ومع المنظمات الوطنية الأخرى والخلافات في داخل الكتلة نفسها ، وارتباطاتها مع بقية العالم العربي وصعودها إلى السلطة انظر :

Khoury, Syria and the French Mandate.

٣٣ ــ من الطبيعي ألّا يكون التجار جميعاً ضد الفرنسيين فقد عمل عدد منهم في تجارة الاستيراد والتصدير مع أوروبا (وكان كثير منهم ينتمون إلى الأقليات الدينية) وتعاون هؤلاء مع الفرنسيين طواعية ، زد على ذلك أن بنية الحكم الاستعماري تضطر كل من يعمل في التجارة والصناعة تقريباً إلى درجة ما من التعاون مع سلطات الانتداب والسؤال هو : إلى أي حد تعاون التجار والصناعيون ؟ ويكمن الجواب في طبيعة وتوجه المشروع الذي يعملون فيه وكان ثمة جدل في ذلك الوقت بين التجار والصناعيين حول نوعية السياسة التجارية والمالية التي يتمنون من الفرنسيين أن يتبعوها في سوريا . ولعل خير مثال على هذا النوع من الجدل هو ما حصل في أوائل الثلاثينيات عندما أراد التجار الوصول إلى أسواق الأنسجة اليابانية الرخيصة التي تلقى إقبالاً كبيراً في السوق المحلية في حين أراد الصناعيون من الفرنسيين أن يضعوا حداً لما زعموا أنه إغراق بالبضائع المنافسة بسعر رخيص ، وطلبوا رفع رسوم الاستيراد على الأقمشة الأجنبية وقد لفت روجر أوين نظري إلى هذا المثال . وثمة معلومات نوعية عن المنافسة اليابانية التي وصلت ذروتها عام ١٩٣٤ (بدأت تدابير الحماية بالدخول في نهاية هذا العام) يمكن العثور عليها في P. R. O: Fo 371/4188, Vol, 1923.

٣٤ ــ حديث مع علي عبد الكريم الدندشي ومحمود البيروتي (دمشق ٩ و ١٠ آذار ١٩٧٦)

٣٥ ــ انظر Khoury, urban notables, chapter 3 and conclusion

٣٦ ــ حديث مع ظافر القاسمي (بيروت ٢٤ و ٢٦ تموز /يوليو ١٩٧٥) كان والد القاسمي الوجه الديني البارز في حي باب الجابية ، انظر :

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

Philips. Khoury«Islamic Revivalism and the Crisis of the Secular State in the Arab World on Historical appraisal, in I. 16 rahim, ed. Arab resources. The transformation of a society (Washington, D. C. 1983) pp. 213-236.

٣٧ ــ انظر al-'Allaf, Dimashq, pp. 244-247

حسب قول المؤلف الذي كتب خلال الفترة الأولى من الانتداب أن كلمة «الزكرتيّه» هي كلمة تركية تدل على «شجعان الأحياء»

٣٨ ــ أفردت هذه الصفات في مقالة موحية حول بنية القوة في أحياء بيروت المسلمة في أوائل سنوات السبعينيات وبصورة خاصة دور «القبضايات» في هذه الأحياء. انظر

Michael Johnson «Political Bosses and their gangs: Zu'ama and qabadayat in the sunni Muslim quarters of Beirut», in Earnest Gellner and John Waterbury, eds Patrons and Clients in Mediterranean Societies (London 1977) pp. 207-224

حديث مع فؤاد صيداوي: قبضايات حي باب توما المسيحي أثناء الانتداب (دمشق ١٣ شباط /فبراير ١٩٧٦) وثمة لائحة بأسماء قبضايات دمشق في جزء من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين سجلها العلّاف في كتاب «دمشق» ص ٢٤٧ ــ ٢٥١.

٣٩ ــ ظهر «الزعران» بقوة في المدينة الإسلامية القروسطية (انظر لوبيدوس، المدن الإسلامية) وفي دمشق خلال فترة الانتداب (العلاف. دمشق ص ٢٤٤) وفي بيروت أثناء الحرب الأهلية اللبنانية في أعوام السبعينيات ١٩٧٠ [مبنية على ملاحظتي الشخصية] كذلك انظر:

Johnsson «Political Bosses» p 212.

٤٠ ــ حديث مع أبي علي الكلاوي، وعلي عبد الكريم الدندشي ومحمود البيروتي (دمشق ٣ و ٩ و ١٠ آذار /مارس ١٩٧٦).

٤١ ــ بنيت هذه المعلومات المرفقة حول الحياة الشخصية ومهنة أبي علي الكلاوي على حديث استغرق أياماً عديدة معه ومع قبضايات آخرين متعددين زمن الانتداب وأوائل عهد الاستقلال، وقد قابلتهم في بيته بباب الجابية (دمشق ١٤ شباط، و ٣ و ١٥ آذار ١٩٧٦)

٤٢ ــ عن الشعلان انظر: Khoury, «Tribal Shaykh» pp. 183-185

٤٣ ــ عن ظهور عائلة البكري انظر: Khoury, urban notables, pp. 34-35

٤٤ ــ أنظر العلّاف (دمشق) ص ٢٤٢ ــ ٢٤٣

٤٥ ــ المرجع السابق ٢٤٠ ــ ٢٤٣

٤٦ ــ كان الكلاوي ضليعاً بالموسيقا العربية وكان يعزف على قيثارة ذات ثلاثة أوتار ويغني مقطوعات شعبية بدوية وكانت لهجته تعكس سنوات طويلة من مشاركته في حياة القبائل جنوب دمشق.

٤٧ ــ كان الكلاوي حتى أواخر ١٩٧٦ ما يزال يمتطي جواده ويستعرض خيله في المهرجانات الوطنية بدمشق على الرغم من نفوره حيال النظام السوري القائم.

٤٨ ــ العلّاف. دمشق ص ٢٥٩ ــ ٢٦٢

٤٩ ــ عن تحوّل «العراضة» إلى تظاهرة سياسية في القرن العشرين انظر:

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

J. Lecerf and R. Tresse, «Les Arada de Damas» Bulletin d'études Orientales, 7/8 (1937-1938), pp. 237-264,

وظافرالقاسمي «وثائق جديدة من الثورة السورية الكبرى (دمشق ١٩٦٥) ص ٦٣ ــ ٧٤، وفرنسا وزارة الشؤون الخارجية ــ سوريا ولبنان ١٩٣٠ ــ ١٩٤٠.

de Martel to MAE, 5 July 1935, Vol 491, pp. 31-33

٥٠ ــ عن الخرَّاط والشهداء الأبطال الآخرين في الثورة انظر أدهم الجندي، تاريخ الثورة السورية في عهد الانتداب الفرنسي (دمشق ١٩٦٠)

٥١ ــ إلى جانب آل الكلّاوي هناك قبضايات آخرون مرموقون في عهد الانتداب مثل: أبو كاسم عبد السلام الطويل (من حي القيمرية) وأبو رشيد القوجا (الخراب) وأبو حيدر المارديني (باب سريجة) ومحمود خدام السريجة (الشاغور) وأبو عبدو ديب الشيخ (العمارة)

٥٢ ــ حول المعلومات عن الثورة الكبرى ودور أبي علي فيها جاءت من مذكراته الشخصية التي سجلها ابنه الأكبر علي والتي تلطف أبو علي وجعلها في متناول يدي والمذكرات تحت عنوان «الثورة العامة ١٩٢٥ الفرنسيين في سوريا» غير منشورة. ولا مؤرخة.

٥٣ ــ كانت الجمعيات هي النموذج الذي نسجت على منواله جماعة الإخوان المسلمين في سوريا (وقد أنشئت عام ١٩٤٠) انظر:

Johannes Reissner's groundbreaking study«Ideology und politik der Muslimbrüder Syriens (Freiburg, 1980)

في دمشق كان قادتها يضمون شيوخاً ومعلمين ومحامين وأطباء وكانت أهدافهم الرئيسية نشر الثقافة الإسلامية المبنية على أفكار تحديثية وسلفية ونشر الأخلاق والعادات الإسلامية والمشاعر الوطنية والمعادية للامبريالية، وكانوا منشغلين بالشؤون الفلسطينية خاصة إبان الثورة العربية عام ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩، وكانت أولى الجمعيات «الجمعية الغرَّاء» (تأسست عام ١٩٢٤) وجمعيات أخرى من بينها «جمعية التمدن الإسلامي ١٩٣٢ وجمعية الهداية الإسلامية ١٩٣٦ وجمعية العلماء ١٩٣٨» وفي منتصف سنوات الثلاثينيات قادوا حملة عنيفة ضد تدفق البضائع الأجنبية والثقافة الأجنبية إلى سوريا، وضد تكاثر الملاهي التي تقدم الكحول لزبائنها وتسمح بالمقامرة، وتعرض نسوة راقصات وضد شيوع الألبسة المتحررة التي أخذت ترتديها النساء البورجوازيات (بمن في ذلك زوجات قادة الكتلة الوطنية، وضد النسوة اللواتي يترددن على الأماكن العامة وخاصة دور السينما وضد شراء اليانصيب.. انظر مركز الوثائق التاريخية (دمشق) داخلية ملف ٣٣ /٥٤٣١ ــ ٣٠٩٨ والشيخ حمدي السفرجلاني إلى وزير الداخلية (دمشق): نظام نادي. ٥ أيار ١٩٣٢ وجميل ابراهيم باشا «مذكرة جميل ابراهيم باشا» حلب ١٩٥٩ ص ٧٨ ــ ٧٩ و:

Oriente Moderne, 14 (1934) p. 438; ibid, 15 (1935) p. 636; ibid, 18 (1938) pp. 532-533;

وكذلك أوراق عادل العظمة [سوريا مؤسسة الدراسات الفلسطينية. بيروت] ملف ١٦ /٣٩٨، ٧ شباط /فبراير ١٩٣٩ وملف ١٦ /٨٣٩٨، ٩ شباط ١٩٣٩

٥٤ ــ See. Johnson «Political Bosses» pp. 214-220

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

٥٥ — Ibid, pp. 218-220

٥٦ — حديث مع أبي علي الكلاوي (دمشق ٣ آذار ١٩٧٦)

٥٧ — حول الإضراب العام سنة ١٩٣٦ والذي استمر خمسين يوماً تقريباً وأدى بالفرنسيين إلى البدء بمفاوضات مباشرة في باريس مع قادة الكتلة الوطنية حول موضوع معاهدة سورية فرنسية أتاحت للكتلة الوطنية أخيراً أن تسيطر على الحكومة السورية في نهاية العام انظر :

Khoury, «Politics of Nationalism» Vol. 3, Epilogue conclusion.

٥٨ — المعلومات عن « السريجة » وجماعته موجودة في مركز الوثائق التاريخية ، دمشق :

Registre Correctionnel, 5 October 1932-8 Feb. 1934. pp. 216-218

٥٩ — حول تشكيل وتركيب وعمل الآلية السياسية الفردية في دمشق أيام الانتداب وخصوصاً تلك التي تعود إلى شكري القوتلي وجميل مردم ، انظر :

Khoury, «Politics of Nationalism» Vol. 3. chapter 12, 13 and Epilogue conclusion

٦٠ — حول أصول العائلات الكردية الوجيهة في دمشق في القرن التاسع عشر أنظر :

Khoury, urban notables chapters 3, 4

وقد استقيت هذه المعلومات من حديث مع وجيهة اليوسف [إيبش] وهي ابنة عبد الرحمن باشا اليوسف الزعيم الكردي الوجيه في دمشق في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وزوجة حسين الإيبش وهو زعيم كردي وجيه في فترة الانتداب وأكبر ملاّك للأراضي في ريف دمشق (بيروت ١٥ و ٢٩ آب /أغسطس ١٩٧٥) وثمة قوة سياسية أخرى لقيت دعماً من حي الأكراد في نهاية عقد الثلاثينيات وهي الحزب الشيوعي السوري ، وكان يضم في صفوفه بدمشق عدداً من الأكراد المستعربين وذلك بسبب أن زعيمه خالد بكداش كان كردياً من الحي انظر :

Batatu: The old social classes, chapter 24.

٦١ — See Khoury «Factionalism among Syrian Nationalists» pp. 460-465

٦٢ — يبدو أن الظاهرة نفسها قد برزت في فلسطين أثناء الانتداب البريطاني . وكان الفارق الرئيسي أن الرأسمال اليهودي والإدارة البريطانية كانا قادرين على تقديم هيكل وفرص للمهاجرين إليها مما لم تكن الإدارة الفرنسية في سوريا قادرة على تقديمه إلا على مقياس أضيق بكثير . وهكذا كان على أولئك المهاجرين إلى دمشق والذين ظلوا على أطراف المدينة أن ينتظروا ظهور قوى سياسية جديدة : البعث في حالة التكامل السياسي والحزب الشيوعي في حالة التكامل الاقتصادي وتطور التصنيع إلى مستوى ذي دلالة والذي لم يحدث إلا في نهاية الحرب العالمية الثانية .

حول التطورات في فلسطين انظر :

Joel S. Migdal, urbanization and political change: «The impact of foreign rule» «Comparative studies in society and history, 19 July 1979», 328-349, on French involvement in the Syrian economy, see Khoury «Politics of Nationalism», Vol. 1, chapter IV.

٦٣ — حول إسهام الطبقة في حركة الاستقلال انظر :

Khoury Syria and the French Mandate, chapter 15 and 16.

٦٤ — i, 7 times. See Ministère des affaires Etrangères, Rapport à la Société des Nations sur la situation de la

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

Syrie et du Liban 1924, Appendix 4, p. 95; PRO: Fo 371/625, Vol. 19022 Mackereth to F. O. 7. January 1935.

٦٥ ــ حديث مع قسطنطين زريق (بيروت ١٠ كانون الثاني ١٩٧٦)

٦٦ ــ حول نشأة البارودي وعمله انظر: فخري البارودي. «مذكرات البارودي» جزآن (دمشق ١٩٥١ ــ ١٩٥٢)، نهال بهجت صدقي. «فخري البارودي» (بيروت ١٩٧٤)؛ أحمد قدامة «معالم وأعلام في بلاد العرب» (دمشق ١٩٦٥) الجزء الأول ص ١٠؛ جورج فارس «من هو في سوريا، ١٩٤٩» (دمشق ١٩٥٠) ص ٥٤؛

Virginia Vacca «Notizie Biografische Su Uomini Politicis Ministrie Deputati Siriani» Oriente Moderne, 17 (October 1937) p. 478, and Khoury, «Politics of Nationalism» Vol. 2, pp. 664-667

أكثر المعلومات جاءت من حديث مع علي عبد الكريم الدندشي ومحمود البيروتي (دمشق ٩ و ١٠ آذار ١٩٧٦)

٦٧ ــ حول مساهمة مدرسة «التجهيز» في دمشق في حركة الاستقلال انظر:

Khoury: «Syria and the French Mandate, chapter 15

٦٨ ــ المعلومات حول نشأة البيروتي وعمله جاءت من حديث طويل معه في دمشق يوم ١٠ آذار ١٩٧٦ وحديث مع قادة آخرين للشباب أيام الانتداب بمن فيهم علي عبد الكريم الدندشي، كما أنني اعتمدت على «المضحك المبكي» (وهي مجلة أسبوعية تصدر في دمشق) عدد رقم ١٨ (١٩٢٩) ص ١٢؛ وجورج فارس: من هو: ص ٧٠ ــ ٧١ وحول عمل المملوك انظر المرجع السابق ص ٤٢٩.

٦٩ ــ حديث مع محمود البيروتي (دمشق ١٠ آذار ١٩٧٦)، وفارس: من هو ص ٧٠ ــ ٧١ والمضحك المبكي، عدد ١٠٣ (٢١ تشرين الثاني ٩٣١) ص ١٤.

٧٠ ــ حديث مع منير العجلاني (بيروت ٢ أيلول ١٩٧٥) وحول تطور القيادة الوطنية الجديدة للشباب انظر: خوري «سوريا والانتداب الفرنسي» الفصلان ١٥ و ١٦.

٧١ ــ حديث مع أبي علي الكلاوي ومحمود البيروتي (دمشق ١٥ شباط و ١٠ آذار ١٩٧٦)

٧٢ ــ See Khoury, «Politics of Nationalism» Vol. 2, chapter 6.

٧٣ ــ كانت شركة الترامواي والكهرباء وهي ملكية فرنسية بلجيكية أكثر الامتيازات الأجنبية المرئية التي تحتشد عندها المظاهرات الوطنية خلال الانتداب. وكانت دور السينما التي تقع في المناطق الحديثة النقطة الأخرى المحورية. فمن جهة كانت التنظيمات السياسية التي تريد أن تبدأ بمظاهرة تستطيع أن تجد جمهوراً جاهزاً في أوقات ما بعد الظهر والمساء عندما ينتهي عرض الفيلم. وكانت سينما روكسي هي الأكثر استخداماً. ومن جهة أخرى كانت بعض الجمعيات الخيرية الإسلامية تقود مظاهرات ضد دور السينما التي تسمح بحضور النساء. وكانت معظم دور السينما ملكاً لأشخاص مسيحيين (أوراق عادل العظمة [سوريا] ملف ١٦ رقم ٣٩٨ر ٧ شباط ١٩٣٩ وملف ١٦ رقم ٩٣٩٨ /٩ شباط ١٩٣٩.

٧٤ ــ See. R. Tresse, «Manifestations féminines à Damas au XIX et XXe Scècle, in Entretiens sur l'évolution des pays de civilization Arabe, III (Paris, 1939) pp. 115-125.

٧٥ ــ تحول الشباب الوطني إلى منظمة شبه عسكرية في عام ١٩٣٦ سميت «القمصان الحديدية» وكانت تضم

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

حوالي ٥٠٠٠ خمسة آلاف عضو في نهاية العام (خوري. سوريا والانتداب الفرنسي الفصل ١٦ و ١٧) وحوالي هذا الوقت تقريباً أخذ الفرنسيون الذين يسيطرون على الجيش السوري (القطعات الخاصة Troupes Spéciales) يجتذبون الشباب الوطنيين «الموهوبين» والوطنيين المدنيين من أفراد النخبة، ولاحظوا آخر الأمر أهمية تشجيع أولادهم والشبان من أبناء الطبقة المتوسطة الصاعدة على دخول الأكاديمية العسكرية في حمص، ومنذ بداية القرن التاسع عشر كانت عائلات دمشق ذات الوجاهة والمدن السورية الأخرى تعمل جاهدة على ثني أولادهم عن الالتحاق بالسلك العسكري إذ كانوا يشعرون أنه يقلل من جدارتهم ومركزهم في المجتمع. هذه النزعة التقليدية وواقع أن الحياة العسكرية تحت سيطرة الفرنسيين ساعدا على بقاء الحال على ما هي عليه، إلى أن تنامت إمكانية استقلال سوريا في سنوات الثلاثينيات وبدأ الوطنيون يفكرون جدياً حول مستقبل المؤسسات في سوريا ولم تكن الأكاديمية العسكرية على كل حال ولا الجيش نفسه مثل المدارس العليا وكلية الحقوق قوة هامة سياسية بالنسبة للشباب فيما قبل الاستقلال وقد بذل الفرنسيون جهداً منظماً للحفاظ على الحياة العسكرية بعيدة عن السياسة ويبدو أن معظم التحرك السياسي داخل الجيش يتركز حول قضية الترفيع والترقية وليس على دخول المسرح السياسي. وعلى الأرجح أن العديد من الشبان الذين انتسبوا إلى الأكاديمية العسكرية منذ أواسط الثلاثينيات من هذا القرن إلى أن غادر الفرنسيون سوريا في عام ١٩٤٦ كانوا قد أعدوا سياسياً أثناء دراستهم الثانوية، وعلى أي حال لم يتخرج من الأكاديمية سوى ما يقرب من ١٥٠ رجلاً ما بين ١٩٣٥و ١٩٤٦ وقد جاء ثلثهم من دمشق، وكان الجيش السوري نفسه حين الاستقلال يقدر بـ ١٢ ألف.

Michael H. Van Dusen «intra and inter-Generation conflict in the Syrian army» (Ph. D. dissertation, the Johns Hopkins university 1971) pp. 45-46, 165-66, 382, 89.

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

دور الفلاحين الفلسطينيين
في الثورة الكبرى (١٩٣٦ ــ ١٩٣٩)

تيد سويدنبرغ TED SWEDENBURG

هزت موجة تمرد ضخمة معادية للاستعمار الأراضي الفلسطينية الواقعة تحت الانتداب في الفترة ما بين ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩ وعرفت بين العرب باسم (الثورة الكبرى)، والتحمت في الصراع حركة الفلاحين التي لا تكاد تملك ما يكفيها من السلاح ضد القوة الطاغية لأعظم قوة استعمارية في العالم وهي بريطانيا العظمى. وعلى الرغم من روح النضال التي شاعت في هذه الثورة، ومن الأمد الذي استغرقته، تميل الأبحاث التي أجريت حول تلك الفترة إلى إبراز عيوب الحركة الثورية وخاصة إلى إغفال دور الفلاحين فيها، وتصف الأبحاث الرئيسية الفلاحين عموماً بأنهم «تقليديون ومتخلفون ومحافظون» و (تحركهم دوافع الولاءات القبلية والدينية)[١] وبأنهم (متقوقعون ومنعزلون وجهلة وفقراء) لدرجة أنهم عاجزون عن القيام بأي دور له شأنه في الحركة الوطنية[٢] وبما أن هؤلاء الباحثين يعتبرون الفلاحين خاضعين خضوعاً تاماً لسيطرة الطبقة الحاكمة المحلية نراهم يعدونهم غير قادرين على القيام بمبادرة سياسية، كما نجدهم يعزون في كتاباتهم انهيار الثورة وتفككها إلى الانقسامات التقليدية والعصبية والإقليمية بين صفوف الفلاحين والتي كانت السبب في الحيلولة دون تمكنهم من الحفاظ على حركة متراصة موحدة. لذلك تردّ أسباب سوء طالع حركة التمرد إلى تمكن الفلاحين من الوصول إلى مراكز قيادية بعد الفراغ الذي خلفته النخبة المدينية، وتلصق جدالات أخرى موازية وردت في أبحاث حاولت فرض تطبيق نموذج مستمد من الرأسمالية الصناعية على مجتمع زراعي، أسباب هزيمة الثورة بفشلها في تطوير قيادة قوية المراس، وبما أن

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

من شأن الحزب الثوري وحده أن يتكفل بتأمين بنية قيادية وبرنامج اجتماعي يضمنان تحقيق النصر ، اعتُبر الفلاحون كطبقة عاجزة عن تقديم الإرشاد والتوجيه . إن مثل هذه التحليلات لا تكتفي بنبذ الدور الهام للفلاحين وإغفاله وهم الذين يشكلون ٧٥٪ من سكان فلسطين[٣] بل تعمد إلى تجاهل مطالبهم الاجتماعية والسياسية الشرعية .

وأقترح هنا منهجاً بديلاً عن المناهج المطروحة آنفاً وذلك بأن نقرأ السرد التاريخي الموجود بين أيدينا (عكس التيار) السائد لنبرز الفلاحين الفلسطينيين الذين أبقتهم تلك الأبحاث على الهامش ونعيدهم إلى محور التحليل الذي سأطرحه[٤] . سأناقش فيما يلي أن علاقة الفلاحين بالأعيان في الأرياف لم تكن أبداً مجرد علاقة خضوع أعمى ، وكما يقول Gramsci فلا يمكن أن تكون سيادة الطبقة الحاكمة « كلية وشاملة ودون استثناء » بل هي بالأحرى عملية وعلاقة سيطرة عليها ، كما يقول ريموند ويليامز R. Williams أن « تجدد نفسها باستمرار ويُعاد خلقها ويُدافع عنها وتتعدل بنيتها . كما أنها تلقى مقاومة مستمرة ويُحد من توسعها وتتغير وتلقى تحديات ضغوط ليست نابعة دائماً من تكوينها ذاته »[٥] لذلك نجد أن الفلاحين الفلسطينيين يملكون تاريخاً طويلاً من معارضة أسيادهم وإن كانوا خاضعين لحكم الأعيان . كما أن لهم تاريخاً من تحدي التغلغل الرأسمالي والتشكيلات الحكومية . لقد بقي هذا التاريخ من المقاومة ماثلاً في ذاكرة الشعب ويمكن استخدامه كأداة فعالة في التعبئة في لحظات انفجار الغضب . لم تكن هذه التقاليد (الشعبية) نسيج وحدها أو بعيدة عن متناول التأثيرات الأخرى ، فهي لم تبرز إلى الوجود بحالة نقاء لا تشوبها شائبة بل كانت تخضع وتتبدل أشكالها نتيجة لعقائد شائعة بين الأعيان الذين قادوا الحركة الوطنية والخطابات التي صدرت عن عُصب أشد تطرفاً من الطبقة الوسطى المتعلمة . كما تعرضت أفكار الفلاحين عن (الحس السليم)[٦] وأشكال تعبئتهم السياسية لهزة وتبدلات على يد الظروف المادية المتغيرة بسرعة في فترة الانتداب البريطاني . وباختصار لم يكن الفلاحون الفلسطينيون مجرد فئة اجتماعية متخلفة لا تتبدل .

خلال فترة قيام الثورة بدأ المتمردون الذين يمثلون حلفاً واسعاً من الفلاحين والعمال والعناصر المتطرفة من الطبقة الوسطى بتطوير قوة عسكرية فعالة وبتنفيذ برامج اجتماعية وسياسية تتحدى الأعيان وقيادتهم للحركة الوطنية وتهدد أسس سلطة التجار ــ ملاك الأراضي . كان التهديد بقيادة فلاحية معادية للسيادة الحاكمة عبر برنامج يقوم على أسس طبقية ، مبعث ذعر كبير وقد تسبب في فرار أعداد كبيرة من الفلسطينيين المدنيين الأثرياء من البلاد كما اعتبرت الحركة تهديداً خطيراً للاستراتيجية البريطانية في المنطقة وأجبرت بذلك

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

البريطانيين على الزج بطاقات عسكرية هائلة لإخماد الثورة، ولم يفلح البريطانيون بتلك المهمة إلا بعد ثلاث سنوات من القتال.

وسأحاول هنا تتبع التطور التاريخي للمجتمع الفلسطيني وعقائده السائدة قبل الثورة وسأعود في البحث إلى فترة ما قبل فرض الرأسمالية كنهج أساسي للإنتاج في فلسطين، وذلك كي أتمكن من إعادة ترتيب الأحداث وتقويم الإنجازات التاريخية للفلاحين الفلسطينيين وتقاليدهم في المقاومة، وسيسهم ذلك المنهج في البحث في إرساء أسس فهم مخالف ومنقح للدور الحيوي لنضال الفلاحين الفلسطينيين ضد توسع الدولة العثمانية والاستعمار الصهيوني والاحتلال البريطاني الذي أدى بمجموعه إلى اندلاع الثورة الكبرى[٧].

فلسطين في حقبة ما قبل الرأسمالية

كانت فلسطين في الفترة التي سبقت مباشرة احتلالها من قبل حاكم مصر محمد علي عام ١٨٣١ واقعة تحت سيطرة مهلهلة من الإمبراطورية العثمانية ولم تكن فعلياً منضمة إلى الإمبراطورية[٨] انضماماً محكماً. إذ لم تفلح الإمبراطورية العثمانية في أحسن الأحوال في بسط سلطتها إلى أبعد من المدن الفلسطينية وضواحيها القريبة جداً. ولكن تلك المدن نفسها — التي كان يسيطر عليها الأعيان الذين تستند سلطتهم إلى المكانة الدينية (النبيلة) الموروثة التي يدَّعونها — كانت تتمتع بحكم ذاتي شبه كامل وكثيراً ما تمردت على السلطة العثمانية[٩]. عانت المدن الواقعة على طول الساحل من تدهور في نهاية القرن الثامن عشر نتيجة لتراجع تجارة القطن مع فرنسا وللدمار الذي لحق بها من جراء الغزوات المتتالية على الساحل الفلسطيني التي قام بها حاكم مصر (علي بك) (١٧٧٠ — ١٧٧١) وكذلك نابليون بونابرت في (١٧٩٩)[١٠]. وانتقل مركز الجاذبية مع بدايات القرن التاسع عشر باتجاه مدن الداخل، صحيح أن هذه المراكز المدينية لم تكن لتنافس بأي حال السوق التجاري الكبير ومدن صناعة النسيج في شمال سورية (دمشق وحمص وحماه) إلا أنها تبقى مراكز هامة للتجارة المحلية والإقليمية والإنتاج الحرفي (وخاصة إنتاج زيت الزيتون في نابلس). وسيطرت الأرياف على هذه المدن عموماً في تلك الحقبة من ضعف سلطة الإمبراطورية، وكان سكان المناطق الريفية متمركزين في المناطق المرتفعة الداخلية في الجليل وجبل نابلس وجبل الخليل، وتنافست التحالفات العشائرية المنشأ التي اتبعت نظماً «قبلية» (القيسيون واليمنيون) مرنة ومطاطة للغاية، على الموارد المحلية والسلطة السياسية. وكانت بنية طبقية دائمة

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

تفصل شيوخ ورؤساء الحمولات* وجباة ضرائب النواحي (شيوخ النواحي) عن عامة المنتجين الفلاحين[١١] وكان التزام الشيوخ تجاه الدولة العثمانية ينحصر في الحفاظ على الأمن وجباية الضرائب التي يحتفظون لأنفسهم بحصة منها. عملياً كانوا لا يسلمون الدولة شيئاً من الضرائب إلا لماماً، وغالباً ما يدافعون عن حكمهم الذاتي باستثارة اتحادات ريفية لصد البعثات التي يرسلها الحكام العثمانيون في دمشق وصيدا لجباية الضرائب المستحقة[١٢]. لذلك نجد أن العدائية الطبقية المحلية كانت تخفف من حدتها المكاسب التي يجنيها الفلاحون لدى دعمهم لزعمائهم المحليين ضد الحكم العثماني المباشر.

كانت الأراضي المنخفضة في فلسطين — سهول الساحل ووادي الأردن وجزريل — تقوم مقام درع أمني للأراضي المرتفعة، إلا أنها لم تكن أراضي جرداء. فالسهول زرعت بشتى الأنواع إلا أنها لم تكن مسكونة بشرياً إلا نادراً. وكان أهالي القرى الذين يسكنون الهضاب الأكثر أمناً وتحصيناً يمضون إلى السهول المجاورة ليعملوا بالزراعة من موسم لآخر. وكان فلاحو السهول يشاركون في الملكية «المشاع» ويعملون في زراعة الحبوب على عكس ما يحدث في المناطق الجبلية حيث تسود ملكية رأس العائلة الكبيرة للأرض وتنتشر زراعة البساتين والكروم.

وتتداخل في الأراضي السهلية على عكس الجبلية، الزراعة مع الرعي إذ يستخدم القرويون والبدو الرحل الأراضي الهامشية والعشبية لرعي قطعانهم، والعلاقة بين الفلاحين والبدو التي طالما وصفت بأنها عدائية في حقيقتها، هي في الواقع علاقة معقدة وسلسلة اتسمت بأوقات تعاون وأوقات تناحر، ولم يزد المعلقون الذين وصفوا ظروف المعيشة على السهول بأنها (فوضوية) واتهموا البدو وحدهم بأنهم السبب الرئيسي للدمار، على أنهم كرروا آراء الدولة العثمانية. والحق أن السهول لم تكن سوى منطقة يتنافس فيها الفلاحون والبدو والخارجون عن القانون (من الفلاحين والبدو) وقوى الدولة على السلطة دون أن تتمكن أية فئة من حسم ميزان القوة لصالحها نهائياً. وكان زعماء البدو عموماً يبسطون سيطرتهم على بعض المناطق (ويحمون) الفلاحين من قوى الدولة (ومن اللصوص والقبائل الرحل الأخرى) مقابل مبالغ أقساط حماية تدفع كأجرة.

عقائد ما قبل الرأسمالية

على الرغم من أن فلاحي فلسطين اعتبروا السلاطين العثمانيين خلفاء النبي ولذلك

---

* الحمولة كلمة تحمل معنى العشيرة أو القبيلة في فلسطين.

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

تقبلوا وجودهم كحكام شرعيين فقد احتفظوا في الواقع بقدر كبير من استقلالهم عن الدولة ، وقد تكون السلطة العثمانية شرعية إلا أنها نادراً ما كانت تتدخل في شؤون الحياة اليومية ، وقام الشيوخ المحليون بدور الوسطاء بين الفلاحين والدولة إلا أنهم نظراً للتوازن القائم بين القوى كانوا يتمتعون بحكم ذاتي حقيقي وقامت سلطة أولئك الشيوخ على أساس سلالتهم (النبيلة) المزعومة . وكما هي العادة في المجتمعات ما قبل الرأسمالية[١٣] فإن العلاقات بين (النبلاء) ومن هم أدنى منهم تبدو ظاهرياً شخصية وحميمة للغاية . وعمل هذا المظهر الخارجي على عكس علاقات الاستغلال الخفية وصبها في قالب يتماشى مع العلاقات الشخصية الودية . كما خفت حدة العدائية بين الطبقات نتيجة المصالح المشتركة بين الشيوخ والفلاحين في الدفاع عن القرى الجبلية ضد التدخل والدولة وفي النضال ضد الاتحادات الريفية المتنافسة . كما كان الفلاحون يتمركزون في مواقع علاقاتهم الإنتاجية تبعاً لقراباتهم[١٤] ، في حين كانت العلاقات الأخرى التي تستند إلى الروابط الإقليمية و« القبائلية » والقروية المنشأ تقسم الفلاحين تقسيماً داخلياً[١٥] . ولم تكن تلك الانقسامات العمودية حواجز لا يمكن تخطيها إذ تمكنت عدة اتحادات (بما فيها البدو) من توحيد صفوفها تحت قيادة الشيوخ لمقاومة الغزاة الأجانب كما حدث في ثورة ١٨٣٤ ذات القاعدة الشعبية الواسعة والتي ثارت ضد الاحتلال المصري[١٦] ، ويعبر القول المأثور « أنا وأخي على ابن عمي ، وأنا ابن عمي على الغريب »[١٧] خير تعبير عن ديناميكية التقسيم والوحدة .

كما انعكس انعدام سيطرة الدولة على المناطق الريفية في الصبغة (الشعبية) المميزة لإسلام الفلاحين . لم تكن الجوامع أمراً معروفاً أبداً في القرى إذ تتركز عباداتهم على (الأولياء) الذين تنتشر مقاماتهم في أنحاء الأرياف . ولكل قرية تقريباً مقام واحد على الأقل يؤمه الفلاحون ليتضرعوا للولي ليفك عنهم ضائقة أو يشفع لهم[١٨] . وتعطى طائفة كبيرة من المقامات الصيغة المحلية الخاصة بطبيعة الإسلام الشعبي الفلسطيني . إلا أن للدين الشعبي جوانب أخرى تدل كذلك على تأثيرها الاجتماعي الموحد . فقبل كل شيء ليس الدين في الأرياف ديناً (إسلامياً) حصراً إذ كان الفلاحون المسلمون يزورون العديد من الكنائس المسيحية وينظرون إليها باحترام كمقامات مقدسة[١٩] . وتقام الأعياد (المواسم) احتفالاً بذكرى العديد من الأنبياء وتزيد بذلك من الوحدة الشعبية ، فهناك مثلاً موسم النبي روبين الذي تحتفل به المنطقة الواقعة جنوبي حيفا ويستقطب حجاجاً من جميع المدن والقرى المجاورة ويدوم شهراً قمرياً كاملاً[٢٠] ، وتحتفل منطقة بالقرب من أريحا بموسم النبي موسى وهو عيد أكبر حتى من العيد السابق ويحضره الفلاحون وأبناء المدينة والبدو من جميع أنحاء جنوبي

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

فلسطين وجبل نابلس[٢١] . وتعد مثل هذه الأعياد التي تجمع الفلاحين من مناطق واسعة المساحة مع أبناء المدينة طقوساً هامة من طقوس التضامن الشعبي .

وبقي فلاحو فلسطين على الرغم من الشعائر الشعبية المحلية جزءاً من المجتمع الإسلامي العثماني الأوسع الذي يدين بولائه للسلطان في استمبول . وكان إحساسهم الأكبر بالانتماء ــ نظرياً على الأقل ــ تداخله أفكار مختلطة من الواجب والالتزام تجاه الدولة العثمانية بما فيها واجب تأدية الضرائب . وعلى الرغم من أن توازن القوى السائد عملياً كان يمحو آثار عواطف الولاء هذه تجاه السلطة الإمبراطورية ، إلا أنه كان بإمكانه تجاوز المصالح المحلية . وعندما ضاعفت السلطات العثمانية من إحكام قبضتها على الولايات تمكنت من استغلال مثل هذه العواطف لفرض سيادتها .

دمج فلسطين في السوق العالمي

خلال القرن التاسع عشر تم إدخال فلسطين ــ شأنها شأن معظم العالم غير العربي ــ إلى السوق العالمية والرأسمالية مما بدل بنيتها الاجتماعية تبديلاً كبيراً . لم تكن هذه التغيرات عملية تطور « طبيعي » بل اقتضت التدخل الحازم من الدولة العثمانية تحت ضغط من القوى الأوروبية . بدأت هذه التطورات مع الغزو المصري لفلسطين وبقية سوريا ، والجهود النشطة التي بذلها ابراهيم باشا لضمان استتباب الأمن بين ١٨٣١ و ١٨٤٠ . واستمرت التغيرات بعد خروج المصريين ببطء أكبر إذ بدأ العثمانيون بتطويع المدن وإخضاع الأرياف تدريجياً مهيئين جواً أكثر أمناً لتصدير الزراعة والتجارة .

واقتضت العملية تحولاً أساسياً في ميزان القوى المحلي ؛ إذ حطمت السلطات العثمانية قوة الاتحادات الريفية ونقلت زمام السلطة على الإدارة المحلية وجباية الضرائب من يد الشيوخ الريفيين ذوي النزعات المستقلة إلى يد طبقة من الأعيان المدينيين بدأت تبرز على الساحة وأصبحت الشريك المحلي للباب العالي في مشروعات (الإصلاح) . وإذ اضمحلت قوة الشيوخ المحلية نقل العديد منهم مركز فعالياتهم إلى المدن واختلطوا بطبقة الأعيان المدينية .

استلم الأعيان زمام التحكم بمعظم الإنتاج الزراعي بالإضافة إلى سيطرتهم السياسية على المناطق الريفية . واستملكت عائلات الأعيان والبورجوازيين التجاريين الناشئين مساحات شاسعة في أعقاب سلسلة من القوانين الجديدة المتعلقة بالأراضي ابتدأت مع صدور قانون الأرض العثماني في ١٨٥٨ . واقتضت هذه القوانين الجديدة تسجيل أفراد يحملون ألقاباً رسمية

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

لحيازة ما يقع تحت عنوان أراضي الدولة أو أراضي الميري، وبهذا سهلت الاستيلاء على رقع كبيرة من الأراضي، وكان الأعيان الذين يتحكمون بجهاز الدولة الذي يسن القوانين يحتلون أفضل المواقع للاستفادة من هذا الوضع القانوني. ولم يقم معظم الفلاحين بتسجيل ملكياتهم، فبعضهم استنكف عن التسجيل ليتجنب دفع مستحقات التسجيل، وبعضهم ليتجنب إيراد أسمائهم في سجلات الحكومة فيتهربون بذلك من التجنيد في صفوف الجيش العثماني. ولجأ البعض الآخر حرصاً منهم على ألا يفقدوا أراضيهم، إلى تسجيل ممتلكاتهم (أحياناً ممتلكات القرية بأكملها) باسم رجل من الأعيان له نفوذ كبير يقوم بأعباء «نصيرهم» في علاقاتهم مع الدولة. وظهرت أشكال أخرى من انتزاع الملكية حين عمدت الحكومة العثمانية إلى إصدار أحكام بأن رقعاً معينة من الأراضي وخاصة في السهول الشمالية ليست «مزروعة بشكل دائم» أو عندما صادرت أراضي معينة لأسباب «أمنية». وطرحت مثل هذه الأراضي للبيع، وغالباً ما آلت ملكية أكبر الأراضي مساحة إلى ملاكين غائبين يقطنون في بيروت، وتحول الفلاحون الذين كانوا يزرعون هذه الأراضي إلى محاصصين يعملون لصالح ملاكين كبار، كما جرت تغييرات مماثلة بين الفلاحين الذين سجلوا أراضيهم (طوعاً) باسم الأعيان. واتخذت السيولة النقدية أهمية في الاقتصاد الإقليمي وبدأ العثمانيون بالمطالبة بدفع الضرائب نقداً، فتزايد عدد الفلاحين المدينين للمرابين إما من الأعيان أو أفراد من البورجوازية التجارية التي تشكل جزءاً من الطبقة الحاكمة، وحرم العديد من الفلاحين من حق استرجاع أراضيهم التي رهنوها ضماناً لما استدانوه، ففقدوا حق ملكية أراضيهم وأصبحوا محاصصين، في حين وجد الفلاحون المتوسطو الحال الذين بقوا (مستقلين) أنفسهم تحت رحمة دائنيهم.

لم تكن نتيجة هذه التحولات عادلة، فتحويل ملكية الأراضي تركز في السهول الوسطى والشمالية في الساحل ووادي جزريل حيث انصب اهتمام السلطات العثمانية على إنشاء مستوطنات دائمة وحيث تجنى أعظم المحاصيل أرباحاً لتصديرها إلى أوروبا. وبقيت المناطق الجبلية معاقل للملاك الصغار ولكن العديد من الفلاحين اضطروا مع الأيام إلى استدانة المال فأصبحوا بذلك تابعين (للنصراء) الأعيان الذين يقرضونهم المال.

ترافق إخضاع الاقتصاد المحلي لاحتياجات اقتصاد العالم الرأسمالي مع إخضاع الفلاحين واستعبادهم. ونجم عن تهدئة الريف واستلام التجار وملاك الأراضي زمام الأمور في شؤون الإنتاج الزراعي ارتفاعاً كبيراً مفاجئاً في الصادرات الزراعية، ومع تطور الاقتصاد النقدي تدريجياً اضطر الفلاحون إلى بيع قسم من منتجاتهم في السوق. ومنذ بدايات

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

السبعينيات في القرن التاسع عشر كانت فلسطين تصدر كميات كبيرة من القمح والشعير والسمسم وزيت الزيتون والحمضيات إلى أوروبا والأسواق الإقليمية[٢٢] .

لم تكن مثل هذه التحولات مجرد نتيجة لعوامل خارجية بل كانت مرتبطة ارتباطاً متكاملاً مع ظهور الطبقات القيادية التي تتألف من قطاعين : أولهما قطاع الأعيان الذي يغلب عليه المسلمون والذي يملك مساحات واسعة من الأراضي ويقرض الأموال ويسيطر على أجهزة الحكومة والمؤسسات الدينية التي أصبحت أكثر مركزية والقطاع الثاني هو قطاع البورجوازية التجارية الذي يتألف بشكل رئيسي من الفلسطينيين واللبنانيين المسيحيين واليهود والأوروبيين ورعاياهم ، وجميعهم ممثلون عن الرأسمال المصرفي والتجاري بالإضافة إلى أنهم يملكون مساحات واسعة من الأراضي[٢٣] . ويشكل الأعيان المسلمون ــ المتحالفون مع التجار المسيحيين القطاع المسيطر الذي انتظمت سيطرته ضمن الصيغة التي يطلق عليها علماء الاجتماع اسم علاقة « النصير ــ الزبون » أو تبعاً لشركات هرمية من الأعيان وزبائنهم الفلاحين .

عقائد سيطرة الأعيان : النصراء والزبائن

سخّر النصراء الأعيان قوتهم ونفوذهم لمساعدة زبائنهم الفلاحين في التعامل مع الدولة ومع المجموعات الأخرى (مثل الفلاحين التابعين لشبكات حماية أخرى وكذلك البدو) . وبالمقابل قدم الفلاحون دعمهم لنصرائهم في صراعاتهم السياسية ، وكان الأعيان يمدون المحاصصين بما يحتاجونه لإعالة أنفسهم خلال السنة ويقدمون لهم السلف في أيام الأعياد . كما كانوا يتحملون مسؤولية ديون المحاصصين في حال توالي الشح في المحاصيل[٢٤] ويقدمون خدمات مشابهة (لزبائنهم) من الملاك الصغار وكذلك للعاملين في المزارع الذين يعملون لحساب ملاك الأراضي في أيام المواسم . وتبدو هذه العلاقة التراتبية بين الأعيان والفلاحين قائمة على درجة عالية من العلاقات التبادلية المشتركة ، وقد استنتج العديد من المراقبين الذين استندوا في دراساتهم إلى وصف تجريبي لهذا النظام ، بأنه من الخطأ النظر إلى المجتمع الفلسطيني خلال تلك الحقبة على أساس الطبقات الاجتماعية[٢٥] .

وقد لجأت أغلبية المراقبين إلى تقبل مفاهيم محلية (مع الانحياز إلى الأعيان) حول كيفية « عمل » الأنظمة السياسية والاقتصادية وإن كان ذلك بمعناها الظاهري وحسب ، والحق أن نظام النصير ــ الزبون كان مجرد الصيغة التي اتخذتها العلاقات الطبقية عندما بدأت فلسطين بالانضمام إلى السوق العالمية الرأسمالية كتابع للقوى الأوروبية الصناعية .

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

واحتكر ملاك الأراضي والمرابون في تلك الفترة السلطة في الأرياف واستغلوا الوسائل الرأسمالية المتوفرة لصالحهم ولتحقيق مصالحهم الخاصة[٢٦] . وغالباً ما كانت الصيغة التي اتخذتها العلاقات بين الطبقات الأساسية ــ (الأبوية) في مجال الإنتاج (سلف نقدية يقدمها النصراء للفلاحين) و (علاقات حماية ورعاية) في المجال السياسي الاجتماعي (« تبادل » الخدمات) ــ تميل إلى تخفيف حدة العلاقات الاستغلالية القائمة أساساً بين ملاك الأراضي والمرابين وبين الفلاحين[٢٧] . وكانت العلاقات الاقتصادية السياسية بينهم تأخذ شكل (تبادل) بين أفراد لا تكافؤ بينهم من حيث المكانة فهناك الأعيان الذين يؤهلهم منبتهم الراقي وسلالتهم النبيلة لاعتلاء سدة الحكم وتدبير شؤون الممتلكات في حين أن الفلاحين قد استكانوا لموقعهم المتدني واعتادوا التزام جانب الاحترام حيال من هم أعلى مقاماً . ومن جهة أخرى تبدو (السياسة) في مفهومها الأعم (كشأن من شؤون الدولة) وكأنها صراع قائم بين الأعيان يمثلون « فلاحيهم » في الحكومة ، وهو دور لم ينط بهم نتيجة انتخابات ديمقراطية بل اكتسبوه بسبب مكانتهم الأعلى شأناً ، وتخفي الدراسات التي تصف الصراع السياسي بأنه « طائفي » وراءها درجة عالية من الوحدة الطبقية بين الطبقات العليا ، إلا أن عقيدة النصير ــ الزبون في الطبقات الأدنى كانت تساند وتزيد من حدة الانقسامات العمودية القائمة والمستندة إلى اصطلاحات العشيرة والقرية والتقسيمات الإقليمية . لم يتخذ نظام النصير ــ الزبون شكل المبادلات بين أفراد « أحرار » كما تفعل الرأسمالية الحقة ، بل كان نظام الاستغلال يتطلب عنصراً اقتصادياً إضافياً وهو قوة تراتب المكانة الاجتماعية والاقتصادية وذلك لتبرير (التبادل) بين أفراد من مقامات غير متكافئة . وغالباً ما يعبر عن العلاقات الاقتصادية بين النصير والزبون بمصطلحات مثل (الشرف) أو تقديم هدية أو القرابة ، وعلى الرغم من أن (الأبوية) ونظام (الحماية والمناصرة) كانا يشكلان الأساس العقائدي لحكم الأعيان إلا أن سيطرتهم لم تخل من مواجهات مثل هذه العقيدة ، فمن وجهة نظر الفلاحين كان النظام مصمماً على أن يضمن لهم حقهم في تبادل (عادل) و (متكافئ) ، ولم يكن بمقدور أحد الأعيان فرض إيجار دون المخاطرة بأن يبدو في أعين الفلاحين وكأنه ينكث بعهده ويخرق الاتفاق بينهم ودون أن يبدو وكأنه أخفق في أداء واجبه في الحفاظ على ما يقتضيه التزام النبل منه . وأدى ذلك إلى اضطرار مالك الأرض ــ المرابي الذي يفرض على فلاحيه فوائد عالية على ديونه إلى أن يقدم لهم في الوقت نفسه سلفة إضافية ليحافظ على القوة العاملة لديه . كما يجب على النصير أن يؤمن لزبونه الحد الأدنى (العادل) المتعارف عليه من الإعالة كي يخمد نار العداء الطبقي المحتمل في مهدها . وقد حددت مقدار هذه الإعالة صراعات مشابهة لها طابع طبقي واضح

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

إذ تمكن الفلاح من استغلال اعتماد أحد الأعيان عليه كيد عاملة كذريعة للمطالبة بالالتزام بفكرة التبادل (العادل). أما في المجال السياسي فقد كان بإمكان الفلاحين (وخاصة الملاكين الصغار منهم) أن يحولوا ولاءاتهم إذا لم تكن المكاسب التي يتلقونها من نصيرهم كافية. وهكذا كانت التحالفات بين النصير والزبون أشد مرونة في بنيتها من نموذج البنية الهرمية الثابتة التي عرضها علماء الاجتماع[٢٨].

اقتضى خضوع اقتصاد فلسطين السياسي للرأسمالية الصناعية الغربية في القرن التاسع عشر إعادة ترسيخ عقائد ما قبل الرأسمالية أو العقائد الإقطاعية، فبينما اشتد سعي الفلاحين للحصول على رأسمال، أصبح عملهم خاضعاً لأشكال معدلة من علاقات وعقائد الإنتاج ما قبل الرأسمالية. وكان على الأعيان أن يستغلوا عقائد التراتبية ما قبل الرأسمالية لتحقيق هذه التحولات ولكي يتمكنوا من تثبيت دعائم موقف التهيب والاحترام لدى الفلاحين ولبث الحيوية في إحساسهم بضرورة المشاركة والتبادل. كانت شروط الرأسمالية السطحية تتطلب سيطرة من الطبقة الحاكمة أشد بكثير مما كانت تقتضيه حقبة ما قبل الرأسمالية. وكان على العقائد التي تحملها الطبقة الحاكمة أن تنفذ عميقاً من الآن فصاعداً إلى قلب حياة الفلاحين الثقافية[٢٩] بما فيها (الفطرة السليمة) الدينية عندهم؛ وبناء عليه تحولت الطقوس الشعبية تحولاً جوهرياً على يد الأعيان في تلك الفترة.

ويقدم لنا تنظيم عيد (النبي موسى) مثالاً على عملية التحول تلك. ففي النصف الثاني من القرن قام العثمانيون بتعيين (آل الحسيني) — وهم عائلة من الأعيان متحدرة من القدس — كمضيفين يستقبلون الناس في عيد النبي موسى وكسدنة للمقام[٣٠]. ومنذ ذلك الحين بدأت الاحتفالات في القدس تنطلق بمسيرة تحمل فيها راية النبي موسى التي استقدمت من «الدار الكبيرة» التي يمتلكها الحسينيون والتي هي مقر الراية. ويسير الأعيان في طليعة المسيرة ويتبعهم حشد كبير من المدينة والقرى. ويقوم آل الحسيني وآل يونس وهم أيضاً عائلة من أعيان القدس، بتقديم وجبتي طعام يومياً لجميع الزوار[٣١] في موقع العيد نفسه (جانب أريحا). وتستعرض مثل هذه الطقوس كرماً سخياً وترسخ في الأذهان السيادة والتفوق بطريقة تشهد بالقوة والسلطة.

وفي الحين الذي اندرجت فيه الشعائر الشعبية الموحدة تحت سيطرة الأعيان بدأت عبادة الأولياء تلقى هجوماً تشتد ضراوته من قبل المصلين الدينيين وخاصة من الحركة السلفية، وحلت المساجد التي تلقى فيها المواعظ التي تؤيدها الدولة محل (المقامات) كمراكز عبادة في القرى. وكان السبب الرئيسي في قمع عبادة الأولياء هو تكريسها

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

للمحلية[٣٢] . وعلى الرغم من أن هذه الممارسات الشعبية لم تختف مباشرة فقد أرغمت على التراجع مع ازدياد عدد الفلاحين الذين «تعلموا» وأصبحوا يعتبرون مثل هذه الطقوس (خارجة على الإسلام) .

ظهور المعارضة المنظمة

حصر التنفيذ التدريجي البطيء لسيطرة الأعيان، المقاومة ضد تحويل ملكية الأراضي وتحكم الدولة المتزايد فيها، ضمن إطار محلي مشتت من السهل إخماده، فلم تقع أية اندفاعات ثورية واسعة النطاق أو حتى حركات تمرد. إلا أن المقاومة بقيت مقاومة ذات وزن. فمثلاً قام العديد من الفلاحين بإعلان معارضتهم لتغير الحال في مجريات الأمور بأن غادروا قراهم واستقروا كمزارعين في الأردن أو هاجروا إلى الخارج. واختار آخرون الانضمام إلى عصابات الخارجين على القانون التي استمرت في نشاطاتها في مناطق الهضاب على الرغم من الضغط المتزايد الذي تمارسه عليها قوات الأمن. ولاذ الشبان بالقبائل البدوية وقد وصل الأمر بالبعض منهم إلى حد بتر أعضائهم لتفادي سوقهم إلى الجيش. وربما كانت الصيغة الرئيسية للمقاومة في هذه الفترة كامنة في مواقع الإنتاج. وطالما نُعت الفلاحون الفلسطينيون ــ خاصة في السهول حيث تسود المحاصصة ــ بأنهم (كسالى) و (متقاعسون) و (عنيدون)[٣٣] . وكما ذكر جيمس سكوت J. Scott فإن التهاون في العمل والرياء، هما أحد أشكال المقاومة التي سادت في ظروف علاقات سلطة غير متكافئة[٣٤] وقد لا تكون هذه المقاومة شكلت خطراً حقيقياً على النظام الجديد إلا أنها أبطأت على الأقل من سرعة عملية التراكم.

شكلت معارضة الفلاحين لاستعمار الأجانب لفلسطين خطراً داهماً على سيادة الأعيان المحلية. وبدأ المستوطنون اليهود في ١٨٧٨ ــ تدعمهم المصالح المالية للرأسمالية القوية ــ باستغلال قوانين الاستيلاء على الأراضي في فلسطين فتملكوا الأراضي وأقاموا مستعمرات زراعية في السهول الساحلية الخصبة ووادي جزريل. ومع حلول عام ١٩١٤ كان هناك ١٢٫٠٠٠ يهودي يعيشون في هذه المستعمرات التي تعطي إنتاجاً وفيراً من الحمضيات والخمور للتصدير، وتضم ١٦٢٫٥٠٠ أكر من الأرض الواقعة في أخصب المناطق الزراعية، وقد ابتيعت هذه الأملاك من مالكي الأراضي الغائبين الساكنين في بيروت والذين اشتروا أطيانهم منذ وقت قريب. ومع تأسيس مستعمرات جديدة طرد عدد كبير من

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

الفلاحين المشاركين في المحاصيل (المحاصصين) بالقوة من الأراضي التي كانوا يعتبرونها حقاً مشروعاً لهم رغم أنهم لم «يمتلكوها» رسمياً أبداً. واستطاع اليهود المستوطنون الذين أقاموا مستعمراتهم حتى على الأراضي (الحدية) أي التي يساوي نتاجها ما أنفق عليها) أن يحسنوا تلك الأراضي نتيجة لما يملكونه من رأسمال وتقنيات علمية متطورة وبهذا أنكروا على البدو الرحل وعلى الفلاحين حقهم المعتاد في استخدام هذه الأراضي المشاع للرعي والتجمع.

ولم يكن للأعيان الفلسطينيين في تلك المرحلة يد في أية مبيعات هامة من الأراضي للمستوطنين اليهود. وقد بدأوا بالاحتجاج على الهجرة اليهودية وابتياع الأراضي منذ عام ١٨٩١ إلا أن جهودهم كانت «مشتتة لا تتبع منهجاً واضحاً» وظلت في حدود نطاق إرسال عرائض الاحتجاج الرسمية إلى استنبول[٣٥] واعتبرت طبقات العرب العليا التقدم الذي أحرزه اليهود المدنيون في التجارة والصناعة تهديداً لمصالحهم ــ وخاصة القطاع البورجوازي التجاري منهم ــ أشد خطراً من تهديد شراء اليهود للممتلكات الزراعية.

وقام الفلاحون بالمقابل بالاحتجاج بأسلوب نضالي، وهم الذين هددت حياتهم ولقمة عيشهم تهديداً مباشراً من قبل المستعمرات اليهودية وخاصة أولئك الفلاحين الذين يزرعون السهول الوسطى والشمالية ويرعون مواشيهم فيها. ومع قدوم ١٨٨٣ كان الفلاحون المطرودون والبدو يهاجمون ويغزون وينهبون المستوطنات اليهودية الجديدة، أي كانوا إجمالاً ينغصون عيشها. وعلى الرغم من الطبيعة العفوية المجزأة لهذه المعارضة العنيفة إلا أنها ألزمت الحكومة بإرسال قوات بشكل دوري لطرد الفلاحين من الأراضي التي اشتراها اليهود المستعمرون. وأخيراً اضطرت هذه النشاطات الأعيان إلى الاحتجاج على التدفق الصهيوني وإن جاء احتجاجهم رخواً ضعيفاً.

بدأ عقم محاولات الأعيان في مواجهة التهديد الخارجي بتقويض شرعيتهم هم (وشرعية الدولة العثمانية عموماً) في أعين العديد من الفلسطينيين. ودفعت التجارب المريرة المأساوية التي حلت بالفلاحين المحاصصين المطرودين خاصة، هذه الفئة إلى الشك في فائدة نظام النصير ــ الزبون. وتمكنت القومية العربية التي بدأت بالظهور في ذلك الوقت من استيعاب هذه العواطف؛ وأصبحت هذه الحركة الناشئة التي تدعو في أشكالها المختلفة إلى أحد أمرين: إما الاستقلال العربي التام عن الإمبراطورية العثمانية وإما تحقيق حكم ذاتي أكبر، أصبحت قوة اجتماعية لها وزنها في أعقاب الهيجان الذي خلقته ثورة (الأتراك الشباب) (١٩٠٨). وعلى الرغم من أن الحركة القومية لم تحظ بالأهمية نفسها في «جنوبي سورية» (أي فلسطين) التي حظيت بها في (لبنان) و(سورية الشمالية) ومن أنها كانت تحت سيطرة الأعيان

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

والبورجوازيين التجاريين إلا أنها خلقت من بين صفوفها جناحاً متطرفاً يتألف من عناصر من الطبقة الوسطى المثقفة. كانت مناهضة الصهيونية هي إحدى الأفكار الرئيسية التي نادى بها القوميون المتطرفون الفلسطينيون واستخدموا في ذلك وسيلة اتصال جديدة بزغت في تلك الفترة من الحرية السياسية المتعاظمة، ألا وهي الصحف. وعلى الرغم من أن الحركة القومية العربية الأولى كانت تتسم عادة بصبغة مدينية حصراً، إلا أن نشاطاتها السياسية منذ بداية ١٩٠٩ ضمن صفوف جناحها النضالي تضمنت الإسهام في تنظيم هجمات الفلاحين على المستوطنات اليهودية[٣٦]. ازداد تواتر هذه الغزوات في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى مباشرة، إلا أن هذا القطاع النضالي من الحركة القومية العربية الناشئة واتصالاته مع الفلاحين لم يحتل موقعاً بارزاً إلا خلال السنوات التي أعقبت الحرب.

الاحتلال البريطاني لفلسطين والانتداب: ١٩١٨ ــ ١٩٢٩

تعاظمت الآمال في تحقيق الاستقلال الوطني في سوريا الكبرى وكبرت مع انتهاء الحرب العالمية الأولى وما خلفته من بؤس وحرمان. وازدادت الأماني مع عام ١٩١٨ عند تأسيس حكومة عربية في دمشق برئاسة الأمير فيصل. واحتل العديد من المتطرفين الفلسطينيين الشبان الذين ينتمون إلى الطبقة الوسطى المثقفة مراكز بارزة في الحكومة (الشريفية) الجديدة. وبدأ نفوذهم في الوقت نفسه يفوق نفوذ الأعيان الأكثر اعتدالاً في فلسطين. وحضّ المتطرفون من خلال منظمات مثل (النادي العربي) والمنتدى الأدبي، على إعداد برنامج لتحقيق الاستقلال التام في فلسطين عن الحكم البريطاني وإقامة وحدة سياسية بينها وبين بقية أجزاء سورية. أما الأعيان الفلسطينيون الذين قاموا بتنظيم الجمعيات المسلمة ــ المسيحية في كل المدن فكانوا يفضلون حكماً ذاتياً سياسياً مستقلاً لفلسطين تحت حماية بريطانيا. وأخمد صدور وعد بلفور جذوة الحماس والابتهاج التي أعقبت نهاية الحرب، وقد أعلن بلفور فيه عن نية بريطانيا في إقامة (وطن قومي للشعب اليهودي) في فلسطين. وأسهم صدور هذا الوعد في تشويه سمعة بريطانيا محلياً ووسع دائرة الدعم الشعبي للبرنامج القومي النضالي. وقام الجناح المتطرف الشعبي من جهته بالضغط على الزعماء الأعيان لأخذ مواقع أكثر نضالية ومعارضة. وانتهز المناضلون الفرصة السانحة فأصدروا قراراً يعلن وحدة فلسطين السياسية مع سوريا في المؤتمر العربي الفلسطيني الأول[٣٧] الذي سيطر عليه الأعيان.

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

ولم يكتف المتطرفون في تلك الفترة بتنظيم الجماهير تنظيماً فعالاً بل قاموا بشراء الأسلحة سراً وأعدوا عدتهم لثورة مسلحة لصالح فيصل[٣٨] . وبرهنت الجهود التي بذلها المتطرفون بين صفوف الفلاحين على أنها كانت جهوداً مثمرة وفعالة للغاية إذ ذكرت المخابرات البحرية البريطانية في ديسمبر/ك١ ١٩١٩ في تقرير لها يشي بقلقها . لأن الفلاحين يعيرون أذناً صاغية واهتماماً كبيراً للصحف المحلية ولصحف دمشق التي تنادي بالوحدة العربية ، وناقش التقرير احتمال القيام بأعمال معادية للصهيونية[٣٩] . وعلى الرغم من الأمية المنتشرة بين الفلاحين كانت الأفكار (التقدمية) المنادية بالوحدة العربية والمعادية للصهيونية تدور بينهم وتسهم في تعبئتهم ، وقد وقعت على الأقل عملية واحدة من العنف المنظم ضد البريطانيين ، وكان ذلك في أبريل/نيسان ١٩٢٠ عندما قام المتطرفون الفلسطينيون (المرتبطون بالحكومة العربية في دمشق) بتنظيم ٢٫٠٠٠ بدوي مسلح من حوران (في سورية) ومن وادي بيسان في فلسطين في هجوم على القوات العسكرية البريطانية[٤٠] . غير أن الانتفاضة العارمة المعادية للبريطانيين التي توقع المتطرفون أن تسهم جهودهم في خلقها لم تر النور .

وقام المتطرفون في الشهر نفسه وبعد أن توج فيصل ملكاً على سورية بالتدخل في مسيرة النبي موسى في القدس . وفي ١٩١٩ أدخلت بدعة إطالة الخطب لتأخير المسيرة[٤١] ، إذ قام في تلك السنة (موسى كاظم الحسيني) عمدة القدس وأحد الأعيان البارزين بمدح فيصل في خطابه في حين ألقى الأعضاء النشيطون الشبان خطباً «ملتهبة» من شرفة (النادي العربي) . واستجابت الحشود التي ضمت فلاحين من القرى المجاورة فأخذت تجوب شوارع (المدينة القديمة) وتهاجم السكان اليهود[٤٢] . وتحول هذا الحدث (موسم النبي موسى) من عيد شعبي إلى مظاهرة قومية سنوية[٤٣] .

وأدت اشتباكات وقعت بين العرب واليهود في يافا في مايو/أيار ١٩٢١ إلى انتشار الهجوم على المستوطنات اليهودية وعم ذلك في أرجاء البلاد . وأعادت القوات العسكرية البريطانية الأمن والنظام إلى نصابهما بسرعة وشراسة . وهُزمت قوات الملك فيصل بعد شهرين في دمشق واندحرت أمام الفرنسيين الذين أقالوا الحكومة العربية ، وانقضت لحظة الأزمة ، وشددت بريطانيا العظمى التي تملك الآن حق الانتداب لحكم فلسطين تحت إشراف هيئة الأمم من قبضة سيطرتها على البلاد ، وانحسرت تهديدات المناضلين الوحدويين العرب لسيطرة الأعيان واضمحلت قدرتهم على تعبئة الفلاحين . وبرز من جديد الأعيان الذين يفضلون سياسة التفاوض السلمي مع السلطات البريطانية على التعبئة الجماهيرية كوسيلة لتحقيق الأهداف الوطنية ، وأصبحوا القوة المسيطرة في الحركة الوطنية .

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

وخلال العشرينيات ثبت الأعيان أقدامهم في السلطة وأكدوا من جديد سيطرتهم على الشعب العربي في فلسطين من خلال ترسيخ دورهم كزعماء (طبيعيين) للحركة الوطنية. وقامت السلطات البريطانية بدورها بامتصاص أفراد عائلات الأعيان وتكليفهم بمناصب إدارية هامة في حكومة الانتداب[٤٤] وكان هؤلاء «الأعيان» يتوقعون أن يبرزوا كحكام للبلاد بعد أن تمنح بريطانيا العظمى فلسطين استقلالها، باعتبارهم الوكلاء الأساسيين للحكم في الدولة العثمانية وفي حكومة الانتداب. ولم تكن واسطة التنظيم الأساسية لديهم ــ وهي الجمعيات المسلمة ــ المسيحية ــ هيئات ذات أعضاء كثر أو تتصف بالشمول بل كانت تضم الزعماء الدينيين والقادة وأصحاب الممتلكات ومن لهم مناصب في الإدارة العثمانية والعائلات (النبيلة) من أصول ريفية أي باختصار طبقة الأعيان. وكانت هذه الجمعيات تجتمع بشكل دوري في المؤتمرات العربية الفلسطينية، وأسست عام ١٩٢٠ لجنة تنفيذية عربية ترأسها (موسى كاظم الحسيني) للاضطلاع بالشؤون اليومية للحركة الوطنية. واختارت سلطات الانتداب في الوقت نفسه مناضلاً شاباً من عائلة بارزة من الأعيان اسمه (أمين الحسيني) وجعلته المفتي العام الأول (١٩٢١) ثم رئيس (المجلس الإسلامي الأعلى) عام ١٩٢٢ وقام (الحاج أمين) باعتباره (زعيم الإسلام في فلسطين) بدمج جميع الشؤون الإسلامية تحت إدارته وبدأ ينافس اللجنة التنفيذية الأكثر حذراً على قيادة الحركة الوطنية[٤٥].

استمر الأعيان في قيادة السكان العرب في فلسطين في فترة الانتداب تحت ظل عقيدة (الحماية والمناصرة). وقام الأعيان بدور الوسطاء بين الناس وبين السلطات البريطانية. واقتصرت السياسة على المنظمات حصراً (الجمعيات المسلمة ــ المسيحية والمجلس الإسلامي الأعلى) باعتبارها (مؤهلة) لدور القيادة. وما إن انقضى تهديد الوحدة العربية المتطرف واستقر الأمر بفلسطين كوحدة لها حدودها الجغرافية حتى أصبح في مقدور الأعيان اختيار الشعار الشعبي المتعاظم بـ«عروبة فلسطين» الذي برز كرد على التهديد الصهيوني والحكم الأجنبي[٤٦] كما دعم البريطانيون مركز الأعيان بأن حكموا من خلالهم وشدوا من أزر سلطتهم على المناطق الريفية[٤٧].

على الرغم من أن شرعية قيادة الأعيان كانت مبنية على العواطف «الشعبية ــ الوطنية» وقع الأعيان في فخ تناقض جوهري: فهم قادة الطموحات والآمال الوطنية وهم في الوقت نفسه يعملون كموظفين في إدارة الانتداب البريطاني. ويلخص (رفعت أبو الحاج) مأزق الأعيان الفلسطينيين (وينطبق ذلك على كل طبقات النخبة في

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

المشرق) :

«عندما بدأت [النخبة الوطنية] بالتعاون فعلاً مع القوى الحاكمة الجديدة تمكن أفراد النخبة من تصوير أنفسهم (كطليعة) للمقاومة ضد الهيمنة الخارجية ــ بل اتخذوا في بعض الحالات مواقف ثورية . أما الدور الآخر الذي انتقوه لأنفسهم فهو دور الوسيط الواقعي ــ الذارئعي يدافعون من خلاله عن مواطنيهم ضد الحكم المباشر البغيض للأجنبي »[٤٨] .

اعتمد البريطانيون في فلسطين على (المتطرف) السابق (أمين الحسيني) بشكل فعال للقيام بدور ذلك الوسيط . وعمل المفتي جاهداً ليمنع حركات الاحتجاج ويهدىء من ثورة المجموعة المسلمة موجهاً الطاقات الوطنية (بما فيها طاقات رفاقه السابقين) نحو نشاطات وفعاليات قانونية[٤٩] .

ازداد الطين بلة في الموقف المتناقض الذي يقفه الأعيان الفلسطينيون ــ الذين يخدمون الانتداب البريطاني ويقودون (الأمة) في الوقت نفسه ــ وأصبحوا في موقف أشد حرجاً من مواقف النخبة العربية في أي بلد آخر عندما ازدادت حدة التنافس مع الحركة الصهيونية . وبما أن الصهاينة يعارضون إقامة أي هيئة تشريعية في فلسطين تحيل اليهود إلى موقع الأقلية فقد نجحوا في سد الطريق تماماً في وجه تطوير المؤسسات الوطنية الفلسطينية المستقلة ولو لم يكن تهديد الهجرة اليهودية يبدو وكأنه تهديد محدود لا خطر منه ــ بسبب المشاكل الداخلية في الحركة الصهيونية ــ لكانت الظروف العامة أشد حلكة واضطراباً في العقد الثاني من هذا القرن . غير أن الصهاينة كانوا في ذلك الحين يعملون بصمت على إنشاء بنية تحتية أصبحت فيما بعد أساساً لتوسع المجموعة اليهودية في الثلاثينيات وأسهمت في جعل اليشوف* مستقلاً تماماً[٥٠] .

بدأ انعدام حدوث أي تقدم ملموس في إنشاء مؤسسات فلسطينية مستقلة يزعزع الصورة الليبرالية للأعيان أنفسهم . فقد كان الأعيان الغارقون في الأفكار الليبرالية الغربية[٥١] يتوقعون أن يكون مسلك البريطانيين حيالهم قائماً على معايير العدالة التي تنادي بها بريطانيا العظمى ، وما إن أصبح واضحاً مع الأيام أن السلطات البريطانية لا تلتزم عملياً بالمعايير التي تؤمن بها الفئتان كما هو مفروض ، حتى أصيب الأعيان الفلسطينيون الليبراليون بخيبة مريرة . ونما لدى الأعيان والمثقفين الليبراليين شعورٌ بتكافئهم مع الغرب ووقفوا موقف الند للند مع

* كلمة أطلقها الصهاينة على المجتمع اليهودي في فلسطين قبل عام ١٩٤٨ . **المترجم**

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

بريطانيا خاصة[٥٢] . وعلى الرغم من أن الأعيان لم يكفوا تماماً عن التعاطف مع بريطانيا خاصة وأن الخدمة في إدارة الانتداب ما تزال سخية المردود ، إلا أن نفورهم من سياسة بريطانيا زعزع ثقتهم بجدوى المناقشات الدبلوماسية بين (الجنتلمانات) كأفضل وسيلة لحل المشكلة الوطنية .

كانت التغيرات المتلاحقة التي طرأت على الزراعة في العشرينيات أشد وطأة على السيطرة التي يحتكرها الأعيان . إذ استمرت حركة شراء الأراضي من قبل الصهاينة على قدم وساق مما أدى إلى ترحيل أعداد أكبر فأكبر من الفلاحين عن أراضيهم . ولم تلق الالتماسات التي ناشد من خلالها الأعيان الحكومة لوقف عملية الشراء هذه صدى يذكر ؛ بالإضافة إلى أن بيع الأراضي للصهاينة من قبل ملاك الأراضي الفلسطينيين فاق بكثير ما باعه ملاك الأراضي من غير الفلسطينيين مع حلول عام ١٩٢٨[٥٣] . وهكذا كان قطاع من طبقة الأعيان يثري ويزداد غنى من خلال بيع الأراضي للصهاينة ، ويتسبب بذلك مباشرة في حرمان الفلاحين من أراضيهم وخاصة في السهول الشمالية والوسطى . وتحلق هذا القطاع من الأعيان حول قيادة عشيرة (النشاشيبي) المعارضة لسيطرة (الحسيني) على الحركة الوطنية وكان قطاع الأعيان هذا من أغنى أفراد الطبقة وأبرزهم في مجال التجارة وكان يستخدم أرباحه في تعمير المدن وتوسيع إنتاج الحمضيات .

كما باع عدد صغير ــ ولكنه أخذ بالازدياد ــ من الفلاحين المالكين أراضيهم للمقاولين الصهاينة ، ولم يكن ما أقدم الفلاحون عليه بدافع جني المال بل ليسددوا ديونهم في أغلب الحالات . تفاقم حال الفلاحين المدينين للمرابين الذين يفرضون فوائد كبيرة ، سواءاً عندما قامت حكومة الانتداب بترشيد ضرائب الممتلكات الريفية فأصبحت الضريبة ثابتة بنسبة مئوية حسب الإنتاج الصافي للتربة (أي مع حذف نفقات الإنتاج) ، وأصبحت المشاريع الزراعية اليهودية ذات الرأسمال الضخم تدفع رسوماً أقل بسبب (نفقات العمالة) الأكثر كلفة . وزادت الضرائب ذات المفعول الرجعي غير المباشرة من وطأة العبء المالي الملقى على كاهل الفلاح . ونتيجة لهذه الأنظمة الجديدة وقع ثقل الضرائب بشكل غير متناسب أبداً على الفلاح الفلسطيني الفقير الذي أسهمت جهوده في تمويل التطور الصناعي والزراعي للقطاع اليهودي وفي دفع نفقات بريطانيا في دفاعها عن « الوطن القومي » اليهودي[٥٤] . كما كفلت الإدارة البريطانية أمر جباية الضرائب مستفيدة من خدمات مختار القرية للحفاظ على الأمن الريفي ولإيصال الضرائب والمعلومات إلى الحكومة[٥٥] .

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

أسفرت هذه الضغوط عن حرمان ٣٠٪ من مجموع الفلاحين الفلسطينيين في القرى من أراضيهم مع حلول عام ١٩٣٠ في حين بقي حوالي ٧٥ إلى ٨٠ بالمائة منهم في رقعة من الأرض لا تكفي لسد رمقهم[٥٦]. لجأ بعض الفلاحين إلى استئجار مزارع إضافية ليؤمنوا لقمة عيشهم إلا أن معظمهم أصبح يعتمد على موارد خارجية من الدخل لإعالة أنفسهم. وكان حوالي نصف القوة العاملة من الفلاحين الذكور (أي ما يزيد على ١٠٠,٠٠٠ شخص) يلجأون خلال فترات أوج النشاط الاقتصادي في الانتداب إلى العمل بأجور موسمية خارج القرية (في مشاريع الطرق والتعمير وقطاف الحمضيات وتعبئتها وما أشبه ذلك). وغالباً ما يتم استخدام جميع السكان الذكور في قرية ما للعمل كفريق في مشاريع الإنشاء القصيرة الأمد[٥٧] ولم يعد القرويون الفلسطينيون يحتلون موقع (الفلاحين) لا أكثر في البنية الاقتصادية إذ بدأوا بالتدريج يلعبون دوراً مزدوجاً كفلاحين وعمال مياومين. لذلك نجد أنه في الحين الذي احتفظ ملاك الأراضي الأعيان والدائنون بسيطرتهم الاقتصادية على القرى وخاصة من خلال شبكة زبائنهم، أدت الخبرات الجديدة للفلاحين في سوق العمالة الأوسع إلى تغيير خضوعهم (التقليدي) الفلاحي وأمدتهم بموارد بديلة للدخل.

أرغمت الديون والاستيلاء على الملكيات التي قامت بها المستعمرات الصهيونية قطاعاً كبيراً من الفلاحين على الهجرة النهائية إلى المدن الكبيرة التي تتسع بسرعة كبيرة مثل حيفا ويافا والقدس. وهناك كان الفلاحون يعملون كعمال مياومين أو «كبورجوازيين تافهين» في تجارة ثانوية وخدمات لا قيمة لها وهو وضع طبقي مألوف في المراكز المدينية في التشكيلات الاجتماعية النامية المستعمرة[٥٨]. لم يكن الحصول على عمل مأجور دائم بالأمر السهل في وجود منافسة العمال اليهود الذين يحتكرون المراكز في القطاع الاقتصادي اليهودي الأكثر تقدماً. وكان العمل الذي ينجح العمال العرب في الحصول عليه زهيد الأجر للغاية بسبب وفرة اليد العاملة وصعوبة تنظيم العمال المياومين. ونتيجة لذلك كانت الأجور لا تغطي نفقات العمال العرب فكانوا يلجأون إلى شبكات الدعم في قراهم وإلى إمداد من المحصول الزراعي لسد احتياجاتهم المعيشية[٥٩].

لم يقف هؤلاء المهاجرون من الريف إلى المدينة مكتوفي الأيدي طويلاً في مواجهة هذه الظروف، بل قاموا بإنشاء العديد من الروابط على أساس قرية المنشأ وتجاهلوا الحمولة (أي العشيرة) وتقسيماتها التي كانت مثار شقاق لا ينتهي في قراهم[٦٠]. كما انضموا إلى منظمات شبه سياسية يترأسها حرفيون، وانتسبوا إلى النقابات عندما كان ذلك ممكناً، كما

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

عقدوا صلات مع مصلحين دينيين مناضلين مثل الشيخ عز الدين القسام. وأسهم دخولهم في العمالة المأجورة المدينية في رأب صدوع الانقسامات العشائرية والقروية والإقليمية إلى حد ما. وكان لهذه التجارب الجديدة أثرها في القرى الأم التي أبقى المهاجرون على صلات حميمة معها. وهكذا بدأت الشروخ العتيقة التي كانت تغذي شبكات النصير ــ الزبون بالتهاوي تحت زخم التطور الرأسمالي. حاولت القيادة الوطنية قلب العملية والرجوع إلى ما كانت عليه الأمور في البداية وتقدمت بالعديد من الاسترحامات إلى البريطانيين باسم الفلاحين البؤساء الذين ضاقت بهم سبل العيش ولكن مناشدتهم ذهبت أدراج الرياح ولم تترك أثراً يذكر في سياسة بريطانيا أو في الظروف الاقتصادية[٦١]. كما كان الفلاحون يميلون إلى التشكيك أكثر فأكثر في إخلاص الأعيان. ومع حلول عام ١٩٢٧ كان الأعيان ــ حسب ما ذكره أحد المسؤولين البريطانيين ــ متخوفين من أن الفلاحين «يبدون ميلاً أكبر للتمييز بين المصالح الوطنية ومصالح طبقة الأفندية»[٦٢].

كانت الأزمة التي بدأت تتلبد سحبها في مجال الزراعة والتي نجمت عن المحاولات المبذولة للحد من المد المتقدم الصهيوني في العشرينيات (إذ تضاعف عدد السكان اليهود في فلسطين ما بين ١٩١٩ و١٩٢٩ وبلغ ١٥٦,٠٠٠ نسمة)[٦٣] عاملاً أساسياً في إشعال فتيل العنف الذي انفجر مع الادعاء الصهيوني بحقهم في حائط المبكى في القدس (الذي يطلق عليه العرب اسم (البراق) وهو الحائط الغربي للحرم الشريف ثالث مقدسات الإسلام). وحاول المفتي كعهده دائماً أن يحل المشكلة باللجوء إلى الدوائر البريطانية الطيبة محاولاً في الوقت نفسه تهدئة سورة الغضب بين الجماهير التي اعتبرت التوسع الصهيوني «الديني» شكلاً مكثفاً من أشكال الخطر الصهيوني العام الذي يواجه السيادة العربية الفلسطينية[٦٤]. وتوالت سلسلة من المظاهرات الاستفزازية أمام الحائط قام بها المتطرفون الصهاينة خلال عام ١٩٢٩. وأخيراً وفي الثالث والعشرين من آب/أغسطس قدم القرويون الفلاحون مدفوعين بالدعاية التي قام بها المناضلون الوطنيون، إلى القدس لتأدية صلاة الجمعة مسلحين بالسكاكين والعصي. ولم يدخر الحاج أمين وسعاً في محاولاته لتهدئه الحشد الثائر إلا أن الشيوخ الدينيين المتطرفين ألقوا خطباً تحث الناس على فعل شيء ما[٦٥]. وتفجرت أعمال العنف ضد اليهود في القدس وسرعان ما انتشرت في بقية أرجاء البلاد، وأعادت القوات البريطانية النظام إلى نصابه بطريقة وحشية.

ويتبين من انتشار العنف أن الجماهير كانت مستعدة للتحرك ضد التهديد الصهيوني بمعزل عن قيادة الأعيان الحذرة. ومن المؤسف أن الجماهير كانت سهلة الاندفاع إذا

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

ما استفزت وقادرة على القيام بأعمال عنف طائفية بشعة وصلت إلى حد ارتكاب مذابح جماعية في الخليل وصفد. وكانت إحدى أهم أشكال التنظيمات التي نجمت عن هذا الاندفاع الثوري هي مجموعة فدائية أطلق عليها اسم «عصابة اليد الخضراء» أسسها أحمد طافش في مرتفعات الجليل في أكتوبر/ت١ ١٩٢٩. وقامت هذه المجموعة المؤلفة من رجال مرتبطين بدوائر راديكالية لعبت دوراً في انتفاضة آب/أغسطس بشن عدد من الهجمات على مستعمرات صهيونية وعلى القوات البريطانية في الشمال[٦٦]. ويشبه تنظيم هذه المجموعة تقريباً تنظيم عصابات قطاع الطرق الفلاحين الذي كانوا يقومون بغاراتهم عادة في هضاب فلسطين والذين أخذوا يشكلون مشكلة أمنية حقيقية في العشرينيات[٦٧]. إلا أن مجموعة أحمد طافش كان لها هدف سياسي واضح. وعلى الرغم من أن هذه المجموعة سرعان ما تم قمع نشاطاتها إلا أنها أثارت الكثير من التعاطف في نفوس الفلاحين الذين كانوا «أكثر توجهاً سياسياً من الكثير من الناس في أوروبا»[٦٨] كما يستنتج تقرير لجنة شو Shaw Comission في ١٩٣٠. أفسح جو الاضطرابات الشعبية المجال أمام قوى سياسية بديلة ظهرت ضمن صفوف الحركة الوطنية لتتحدى سيطرة الأعيان.

نذر اندلاع الثورة ١٩٣٠ ــ ١٩٣٥

اتسمت بدايات الثلاثينيات باضطراب الأحوال وانعدام الاستقرار لدرجة عجز الزعماء الفلسطينيين عن التحكم بها وإعادة الاستقرار إليها، وتكدست التناقضات وانهالت واحدة فوق الأخرى وفتحت الباب على مصراعيه لسلسلة من الأزمات التي أفضت شيئاً فشيئاً إلى انفجار ثورة ١٩٣٦.

كان الكساد العالمي أحد أهم عوامل عدم الاستقرار. إذ قفز عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين في بداية الثلاثينيات قفزة هائلة بسبب القوى التي أطلقها الكساد الاقتصادي الذي عم العالم كله. وازداد عدد المجموعة اليهودية من ١٧٥٫٠٠٠ إلى ٤٠٠٫٠٠٠ نسمة أو من ١٧٪ إلى ٣١٪ من مجموع سكان فلسطين. كما أسهم العداء المتزايد للسامية في بولونيا وتقليل نظام الحصة النسبية في الولايات المتحدة وانتصار النازية في ألمانيا، في تدفق الهجرة إلى فلسطين[٦٩].

لم تكن آثار الهجرة اليهودية على المجتمع العربي الفلسطيني آثاراً متكافئة. ففي الفترة ما بين أواخر العشرينيات وعام ١٩٣٢ عانت البلاد من كساد اقتصادي وارتفاع كبير في عدد

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

العرب العاطلين عن العمل. إلا أن تدفق اللاجئين أسهم في توسيع الاقتصاد في فترة ١٩٣٣ ــ ١٩٣٦ في حين كانت بقية بلدان العالم (باستثناء الاتحاد السوفياتي) غارقة في لجّة القنوط والجمود الاقتصادي. وتمكن اليهود الذين غادروا ألمانيا من جلب كميات كبيرة من رأس المال إلى فلسطين نتيجة اتفاقية عرفت باسم هاعافارا (أي التحويل) بين المنظمة الصهيونية العالمية وبين النازيين. وكان حوالي ٦٠٪ من مجموع رأس المال المستثمر في فلسطين بين آب/أغسطس ١٩٣٣ وأيلول/سبتمبر ١٩٣٩ من الأموال التي دخلت بواسطة اتفاقية هاعافارا[٧٠]. وأتاحت هذه السيولة من رأس المال المجال أمام اليهود الأثرياء لزيادة استثماراتهم في الصناعة والبناء وزراعة الحمضيات زيادة هائلة. كما أدى تطوير بريطانيا العاجل لحيفا كميناء استراتيجي على شرق المتوسط إلى بناء مرفأ جديد وخط أنابيب بترول (بدأ بضخ البترول من العراق في ١٩٣٥) ومصافي النفط وسكة الحديد خلال الفترة نفسها[٧١]. ونتيجة لكل ما سبق انفتحت فرص العمل أمام العمال العرب. ولكن حصة الأسد من الأعمال كانت من نصيب العمال اليهود، إذ عمل القادة الصهاينة وخاصة الهستدروت (اتحاد العمال الصهاينة) على ضمان قيام القطاع الاقتصادي اليهودي البورجوازي بإعالة المهاجرين اليهود الجدد. وخلقت هذه السياسة مشاعر استياء وتذمر بين العمال العرب وأدت إلى اشتباكات مع اليهود حول فرص العمل المتاحة[٧٢]. عانى الاقتصاد من كساد آخر دام بين ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩ وكان له أثر بالغ نال من العمال العرب شبه البروليتاريين أكثر مما نال من العمال اليهود الذين ينتسب أغلبهم إلى نقابات.

زاد تدفق رأس المال الذي رافق الهجرة اليهودية من تسارع حركة شراء الأراضي أيضاً، وأصبح لامتلاك الصهاينة للأراضي من أصحابها الفلسطينيين سواء المالكين الكبار أو الفلاحين الصغار أهمية أكبر بكثير من أهميتها إبان فترة العشرينيات[٧٣]. ونتيجة للوضع الاقتصادي المتدهور باستمرار اضطر الفلاحين إلى بيع أراضيهم إذ كان معدل الدين المترتب على العائلة الفلاحية في عام ١٩٣٦ حوالي ٢٥ إلى ٣٥ جنيهاً في السنة وهو يعادل أو يفوق دخلها السنوي البالغ ٢٧ جنيهاً[٧٤]. ولم تزد المبالغ التي يقبضها الفلاحون ثمناً لأراضيهم عادة على إعفائهم من الدين ودفعهم نحو الأحياء الفقيرة في المدينة. ومن جهة أخرى كان بإمكان ملاك الأراضي الكبار الفلسطينيين تحقيق أرباح طائلة ببيع ممتلكاتهم للصهاينة نتيجة للارتفاع الكبير في أسعار العقارات. ولجأ بعض المالكين إلى رفع الإيجارات بصورة عشوائية ليضطروا المستأجرين لإخلاء الأراضي قبل توقيع عقد البيع لكي يتفادوا دفع تعويضات للفلاحين[٧٥]. واحتدم الخلاف بين ملاك الأراضي والفلاحين حول حقوق الاستئجار بعد

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

صدور قانون ١٩٣٣ الذي يعطي المستأجرين حقوقاً أكبر. وكان المناضلون الوطنيون يشجعون مثل هذه الخلافات[٧٦]. ومع حلول منتصف الثلاثينيات كانت الحكومة تضطر إلى إرسال أعداد كبيرة من رجال الشرطة بشكل دوري لإخلاء المحاصصين من الأملاك المباعة إذ كان الفلاحون يقاومون باطراد انتزاع ملكية الأراضي منهم باللجوء إلى العنف[٧٧].

بدأ إفلاس سياسات الأعيان يتضح أكثر فأكثر، فقد عجزوا عن تحقيق أي تقدم في إحراز استقلال وطني ولم يفلحوا في الحد من المد الصهيوني الذي يزداد تدفقه أو في تسوية مسألة الأراضي أو تحقيق تطور اقتصادي، وهدد عجزهم عن إحراز أية نجاحات سيطرتهم التي يمارسونها على الحركة الوطنية وأصبح من الصعب عليهم ادعاء الوطنية أو حتى الإسلام كملكية خاصة بهم. كما وقعت شقاقات عديدة في جبهة الأعيان نتيجة خلافهم حول الاستراتيجية الوطنية. وتبلورت قيادة معارضة الحسيني ضد عائلة النشاشيبي التي تمثل أغنى ملاك الأراضي وزارعي الحمضيات والسماسرة. وكانت الفئات التي تقودها عائلة النشاشيبي من طبقة الأعيان والتجار الذين يتداولون مبيعات الأراضي للصهاينة أكثر من غيرهم من الأعيان وأكثر من يستفيد من واردات تصدير الحمضيات إلى إنكلترا، وكانوا معارضين للوحدة العربية ومستعدين لتقبل استقلال غير كامل عن بريطانيا[٧٨]. وكان لتلك الفئات التي أسست (حزب الدفاع الوطني) عام ١٩٣٤ قاعدة دعم من خلال شبكات النصير ــ الزبون لديها[٧٩].

انتهز الوطنيون المتطرفون الفرصة التي أتاحتها لهم سلسلة الأزمات وازدحام صفوفهم بدفعة جديدة من الشباب المتعلمين في معاهد الانتداب. وكما يقول غوران ثيربورن G. Therborn فإن تدريب شريحة مثقفة في الظروف الاستعمارية غالباً ما يتمخض عن عقائد ثورية بسبب الهوة بين طبيعة التدريب التي تتلقاها الشريحة التي توافق مجتمعاً رأسمالياً متقدماً، وبين الشكل الاستعماري للاستعباد[٨٠]. ونشأ عن النظام التعليمي الانتدابي في فلسطين شبان لا تتناسب مؤهلاتهم مع الأدوار التي أنيطت بهم فأدى استياؤهم إلى أشكال جديدة خطرة من النزعة الذاتية.

شهدت الثلاثينيات اندفاعة من التنظيم السياسي المستقل في فلسطين قام بها أفراد الطبقة الوسطى المتعلمة كما حدث في بقية أرجاء العالم العربي حيث كان جيل جديد من الوطنيين المتطرفين يرفع شعارات العدالة الاجتماعية والاقتصادية والوحدة العربية ويطور صيغاً جديدة من التنظيم السياسي[٨١]. أسس المتطرفون الفلسطينيون عدداً من الهيئات المختلفة

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

مثل (رابطة الشباب المسلم) و (مؤتمرات الشبيبة العربية) وفرق (الكشافة العرب) (التي لم تكن مرتبطة بحركة بادن باول الدولية). وكان (حزب الاستقلال) أهم تنظيم في تلك التنظيمات تأسس عام ١٩٣٢ وتعود جذوره إلى حركة (الاستقلال) القديمة المرتبطة بالحكومة الشريفية في دمشق[٨٢]. وكان ذلك الحزب الذي تقوده عناصر من الطبقة الوسطى المتعلمة وأولاد عائلات الأعيان المتمردون، يجتذب الاختصاصيين المتعلمين والموظفين الذين يتلقون رواتب شهرية مثل المحامين والأطباء والمعلمين وموظفي الحكومة[٨٣] ولم يُنظم هذا الحزب مثل بقية الأحزاب الفلسطينية المؤسسة في الثلاثينيات على أساس الولاءات العائلية أو العشائرية بل على أساس برنامج سياسي وبذلك كان أول حزب (إن استثنينا الحزب الشيوعي) يحتكم إلى صيغة حديثة ومعاصرة من النزعة الذاتية ويبنى على أساسها.

اتخذ حزب (الاستقلال) لنفسه موقفاً سياسياً «شعبياً» يمثل بورجوازية وطنية طموحة[٨٤]. وانتقد أتباعه البطالة المزمنة التي يرزح تحت وطأتها العمال العرب والضرائب المرتفعة والأسعار التي ترتفع باستمرار والمعاملة الغاشمة التي تعامل بها الحكومة الفلاحين. ونادى (الاستقلال) بتأسيس برلمان وطني وإلغاء الألقاب «الإقطاعية» مثل الباشا والبيك والأفندي التي كانت شائعة بين الأعيان. وبدأ الاستقلاليون في عام ١٩٣٣ بمهاجمة قيادة الأعيان مؤكدين أن الوطنية الفلسطينية ليست قضية الزعماء بل قضية الفقراء[٨٥]، لأن الأعيان بقوا أذلاء في وجه الصهيونية والإمبريالية. لذلك حاول الاستقلاليون تعبئة الطبقات الشعبية مستغلين الكراهية الطبقية، وبناء حوار ديمقراطي شعبي يستغل نفور الفلاحين من الأعيان ويستخدمه لأغراض «وطنية»[٨٦].

ولكن الحزب لم يستمر طويلاً إذ في عام ١٩٣٤ أي بعد سنة ونصف لا أكثر من تأسيسه لم يعد له نشاط يذكر، واستطاع الحاج أمين الحسيني تخريبه معتمداً في ذلك على انشقاق الحزب إلى مناصرين للهاشمية ومناصرين للسعودية. وانضم العديد من الاستقلاليين نتيجة لذلك إلى صفوف (الحزب العربي الفلسطيني) الذي يقوده المفتي؛ ومن أوجه المفارقات أن انضمام الاستقلاليين لذلك الحزب ارتقى به عن كونه مجرد تجمع قائم على أساس العشيرة[٨٧]. كما أسهم انضمامهم في دفع الحاج أمين ليقف مواقف أكثر نضالية. ولكن الاستقلاليين استمروا في نشاطهم كأفراد حتى بعد انحلال الحزب وقامت فئات أخرى مستقلة بتصعيد جهودها التنظيمية. وحاول (مؤتمر الشبيبة العرب) الحيلولة دون الهجرة اليهودية اللامشروعة فقاموا بتنظيم وحدات تحرس السواحل[٨٨]. وأقيمت ثكنات عمالية عربية في القدس وحيفا

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

ويافا لحماية العمال العرب من هجمات العمال اليهود الذين كانوا يحاولون منع الرأسماليين اليهود من استخدام العمال العرب[٨٩] .

وترتب على الجهود المبذولة لتعبئة الفلاحين نتائج أعظم أهمية ؛ إذ قام الشباب المتعلمون من القرى الذين عادوا إلى قراهم كمعلمين بنشر الأفكار الوطنية التحررية بين الفلاحين وخاصة في السهول المحيطة بجبل نابلس في الشمال (وتعرف المنطقة باسم « المثلث » وتضم ضواحي نابلس وجنين وطولكرم) حيث فقدت القرى أراض منها انتقلت ملكيتها للمستعمرات الصهيونية في السهول الساحلية وسهل جزريل[٩٠] وكان الشعر واسطة فعالة لنشر الأفكار الوطنية والعواطف في الأرياف . وكثيراً ما انتقد شعر الوطنيين المكتوب بلغة بسيطة وأسلوب سهل قيادة الأعيان[٩١] . ويقول (غسان كنفاني) أن هذا الشعر طالما اتخذ سمة « الوعظ السياسي المباشر تقريباً »[٩٢] . وكانت قصائد وأناشيد أدباء مثل (ابراهيم طوقان) و(عبد الكريم الكرمي) و(عبد الرحمن محمود معروفة وشائعة في الأرياف وتتردد أبياتها في الأعياد والمناسبات الشعبية . وكان الفلاحون يطلعون على الصحف (التي بدأت تظهر يومياً بعد حركات التمرد في ١٩٢٩) وعلى المجلات التي تنشر الشعر الوطني . وتذكر عالمة الانتروبولوجيا (هيلما غرانكفيست H. Cranqvist) أن الفلاحين في قرية أرطاس الذين يذهبون إلى بيت لحم للتسوق كانوا يستمعون إلى قراءة الصحف بصوت عالٍ في المقاهي هناك[٩٣] . وربما ينطبق الأمر نفسه على معظم القرى في إمكانية اطلاعها على الحرف المطبوع . ويقول (الباقوري) أن أشعار الشعراء الوطنيين كانت « تصدح على شفاه المقاتلين والجماهير الشعبية » خلال ثورة ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩[٩٤] .

ويجدر بنا في هذا السياق أن نذكر « الحزب الشيوعي الفلسطيني » وإن كان أثره في الأحداث يبقى محدوداً في الحدود الدنيا . تأسس الحزب في ١٩٢٢ وبقي أساساً منظمة يهودية حتى عام ١٩٢٩ عندما طلب إليه الكومنترن أن « يتعرب »[٩٥] . وبدأ الحزب في مؤتمره السابع في ١٩٣٠ يوجه نفسه توجيهاً منهجياً نحو الفلاحين ؛ وانطلاقاً من إيمانه بأن بلداً زراعياً مثل فلسطين تحتل « الثورة الفلاحية فيها » « المركز الأهم » ، دعا الحزب إلى مصادرة الممتلكات التي يسيطر عليها ملاك الأراضي العرب الكبار وكذلك المؤسسات الدينية والمستعمرات اليهودية ، وتوزيعها على الفلاحين الفقراء ممن لا تكاد أراضيهم تعولهم أو ممن لا أراضي لهم ، وحض الحزب الشيوعي الفلسطيني الفلاحين على رفض دفع الضرائب والديون ونادى بالثورة المسلحة . كما اقترح ترويج الدعاية السياسية على منابر المساجد أيام

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

الجمعة وفي الأعياد الشعبية مثل (النبي موسى) إذ أن «الإمكانية القتالية للفلاحين إنما تستثار وتتأجج خلال مثل هذه الاحتفالات الجماهيرية»[٩٦]. كما شن الحزب الشيوعي حملات نشطة باسم البدو والفلاحين الذين انتزع الاستعمار الصهيوني ملكية الأراضي من أيديهم[٩٧]. ولكن تأثير الحزب في المجموعة العربية بقي محدوداً بسبب ندرة الأعضاء العرب وعدم وجود كادر منه يعيش في القرى، والتصور المنتشر بين الناس بأنه أساساً منظمة يهودية. وعلى أية حال تخلى الحزب الشيوعي بعد ظهور استراتيجية الكومنترن عن دعوته لثورة زراعية (وهو أمر ملازم دائماً للحركة الشيوعية العالمية اليسارية المتطرفة «الفترة الثالثة») وبدأ يحاول بناء روابط أكثر متانة مع الوطنيين من الطبقة الوسطى. ويؤكد (عبد القادر ياسين) أن مطالب الحزب الاجتماعية كان لها أثرها بين العمال والفلاحين في أواسط الثلاثينيات[٩٨] ولكن من الصعب التحقق من مثل هذا الادعاء إذ أن أفكار الحزب الشيوعي لم تدعمها نشاطات فعلية. ويمكن القول بأن الأفكار الشيوعية قد أثرت في أفضل الحالات في الأفراد الوطنيين المتطرفين الذين أبقى الحزب على صلاته معهم.

أظهرت موجة من العنف المتجدد اندلعت في ١٩٣٣ مدى الوهن الذي أصاب سيطرة الأعيان على الحركة الوطنية. وانتشر العنف بسرعة في المراكز المدينية (وبعض القرى) من البلاد بعد مظاهرات مناهضة للبريطانيين قامت في يافا في أكتوبر/ت١ وانتهت إلى الاشتباك مع رجال الشرطة. وخلافاً لما حدث عام ١٩٢٩ كان العنف في هذه الحالة موجهاً مباشرة ضد إدارة الانتداب البريطاني مما يمثل نقلة هامة في استراتيجية الحركة وفي الوعي السياسي. لاذ البريطانيون أكثر فأكثر بمساعدة المفتي ليحول دون خروج الاضطرابات عن إمكانية السيطرة عليها ومنح البريطانيون (المجلس الإسلامي الأعلى) حق إطلاق يده بحرية كاملة في أموال الوقف[٩٩] مقابل منع المجلس للفلاحين من اتباع (المتطرفين) والحد من المظاهرات. ولكن مع تصاعد حدة التوتر اهتزت مكانة الحاج أمين كوسيط، فتحرك في اتجاهين معاً محاولاً المحافظة على صلات طيبة مع البريطانيين بكبح جماح الحركة الوطنية ومن جهة أخرى المحافظة على مصداقيته بين الناس باتخاذه موقفاً نضالياً.

عُنيت نشاطات الحاج أمين بالدرجة الأولى بمبيعات الأراضي وهي مسألة أصبحت محور اهتمام الناس. وكثيراً ما كتبت الصحف العربية الفلسطينية في افتتاحياتها مقالات معارضة للتبادل التجاري بالأراضي مع الصهاينة ومع بداية الثلاثينيات أرسلت (الجمعيات المسلمة المسيحية) و(اللجنة التنفيذية العربية) مندوبين إلى القرى لحث الفلاحين على الامتناع عن بيع أراضيهم[١٠٠]. وبدأ المفتي و(المجلس الإسلامي الأعلى) في خريف ١٩٣٤

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

حملة أشد نشاطاً مستخدمين العقائد والمؤسسات الإسلامية لمحاربة مبيعات الأراضي (والمحافظة على نفوذ الحاج أمين بين الفلاحين). وجاب المفتي المناطق التي تتم فيها المبيعات لشرح الأخطار التي تتضمنها هذه المبيعات بالنسبة للأمة وإدانتها كخطيئة وخيانة عظمى[١٠١]. وفي يناير/ك٢ ١٩٣٥ أصدر فتوى تحرم بيع الأراضي للصهاينة وتصم السماسرة بأنهم مارقون[١٠٢]. ولكن الدعاية الدينية وحدها لم تكن قادرة على إيقاف عجلة القوى الاقتصادية التي جعلت من الفلاحين أناساً مدينين وأجبرتهم على إخلاء الأراضي. وتفاقم الوضع الزراعي التعس بعد سلسلة من الكساد في المحاصيل بين ١٩٢٩ و١٩٣٦ وبسبب منافسة الواردات الزراعية الرخصية التي هبطت أسعارها نتيجة الركود الاقتصادي العالمي[١٠٣]. أدرك المفتي ــ نظرياً ــ الحاجة إلى تغيرات بنيوية ودعا لاتخاذ (١) إجراءات لحماية الفلاحين من ملاك الأراضي الكبار و(٢) تأسيس صناعات وطنية و(٣) تقديم المساعدة للمزارعين الصغار و(٤) إقامة حملة لشراء المنتجات الوطنية[١٠٤]. ولكن العمل الوحيد الملموس الذي قام به (المجلس الإسلامي الأعلى) هو وضع بعض قطع الأرض تحت حماية الوقف.

واضطر المأزق السياسي في منتصف الثلاثينيات في فلسطين المفتي نفسه إلى إدراك الحاجة إلى القيام بإجراءات أشد تطرفاً وحزماً. وبناء عليه قام زميل شاب للحاج أمين في أواخر عام ١٩٣٣ وهو (عبد القادر الحسيني) بتنظيم مجموعة عسكرية سرية عرفت باسم (منظمة الجهاد المقدس)[١٠٥]. كما بدأت في الوقت نفسه عدة تجمعات من المتطرفين بإعداد العدة للكفاح العسكري. وفي عام ١٩٣٤ كان أحد قطاع الطرق الشعبيين المعروف بـ(أبو جلدة) يمارس نشاطات مسلحة لها أهميتها كما تقول دعاية الحزب الشيوعي الفلسطيني. وادعى الشيوعيون أن تجرد (أبو جلدة) من (الالتزام بأي حزب) كان يدفع البلاد نحو الفوضى وباتجاه ثورة مسلحة ضد سلطات الاستعمار[١٠٦].

ثورة القسام

جاءت الشرارة التي أشعلت فتيل الانفجار من منظمة مستقلة لها صلات وثيقة بالفلاحين وشبه البروليتاريين خلفتها الأزمة الزراعية. تأسست المنظمة على يد مصلح مسلم متطرف هو الشيخ «عز الدين القسام» أحد أبناء مدينة جبلة في سوريا وأحد أبرز قادة ثورة ١٩٢١ ضد الفرنسيين. لجأ القسّام إلى حيفا بعد أن فر هارباً من سوريا بعد صدور حكم

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

الإعدام عليه. وكان رجلاً متفقهاً في الدراسات الدينية، درس في الأزهر بالقاهرة وكان على صلة بحركة الإصلاح الإسلامي «الحركة السلفية[١٠٧]»، كما كانت له صلة بطرق صوفية معينة[١٠٨]. وسرعان ما تبوأ القسام مكان الصدارة في حيفا كواعظ ديني ومعلم. وركز جهوده على الطبقات الأدنى حصراً والتي عاش بينها[١٠٩] وذلك خلافاً لما فعله الناشطون السياسيون الآخرون في فلسطين. وأسس القسام مدرسة مسائية لمحو الأمية بين العمال المياومين (المهاجرين الذين قدموا مؤخراً من المناطق الريفية) في حيفا في أحياء بيوت الصفيح الفقيرة كما كان عضواً بارزاً في (رابطة الشباب المسلمين). وفي عام ١٩٢٩ عين القسام مأذون عقود الزواج في المحكمة الشرعية بحيفا. وأتاحت له مهام هذا المنصب التي تتطلب الطواف بالقرى الشمالية المجال لتوسيع نطاق جهوده لتضم الفلاحين الذين شجعهم على إقامة تعاونيات زراعية وأخرى لتوزيع المنتوجات[١١٠].

بدأ القسام بتعبئة أتباع من بين صفوف الفلاحين والعمال في حيفا مستفيداً من مركزه الديني وأخذ ينظمهم ضمن خلايا سرية لا تتعدى الواحدة منها خمسة أشخاص. وبحلول عام ١٩٣٥ كان قد سجل ٢٠٠ شخص وقد يكون الرقم ٨٠٠ شخص[١١١]. وتلقى العديد منهم تدريباً عسكرياً كان يتم تحت جنح الظلام وكانوا جميعاً متشربين برسالة القسام الداعية للتقوى الكاملة وللكفاح والتضحية ولحب الوطن وضرورة توحيد الصفوف والحاجة إلى اتباع مثال أبطال الإسلام الأوائل[١١٢]. وحقق القسام لنفسه شهرة في العشرينيات عندما هاجم بعض الطقوس الدينية الشعبية التي كانت ما تزال شائعة في مناطق حيفا ونعتها بأنها خارجة على الإسلام[١١٣]. وكان مثل هذا النقد والاستهجان يتماشيان مع ميول القسام السلفية ويعيدان إلى الأذهان ما قام به (عبد الكريم) قائد ثورة ١٩٢٤ ــ ١٩٢٧ ضد الإسبان في ريف المغرب. وكان عبد الكريم ــ من دعاة السلفية مثل القسام ــ قد حرم عدداً من الطقوس الدينية الشعبية التقليدية ليقرب متمردي الريف بعضهم من بعض ويعزز وحدتهم[١١٤]. كانت نشاطات القسام موازية أيضاً لنشاطات (حسن البنا) مؤسس الإخوان المسلمين في مصر، فكما حشد البنا أتباعه الأوائل من المدن الجديدة في (منطقة القناة) قام القسام كذلك بتعبئة الناس من مدينة حيفا التي بدأت حركة التطوير فيها. ولكن في الحين الذي اجتذب فيه البنا أفراداً من البورجوازية الصغيرة المصرية، ركز القسام جهوده على الفلاحين الذين انتزعت أراضيهم منهم والذين بدأوا يعملون كعمال مياومين في الأحياء الفقيرة[١١٥].

لم يكن لجوء القسام إلى القيم الدينية مجرد رجوع إلى التقاليد أو عودة إلى الماضي بل

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

كان يمثل تحولا حقيقيا في الاشكال التقليدية لاستغلالها لأغراض ثورية في الحاضر[١١٦] . إذ بث الروح من جديد في ذكرى الأقاصيص الشعبية عن الحشاشين وعن الحروب ضد الصليبيين من خلال التذكير بالفدائيين وفكرة النضال الذي يتطلب التضحية . وكانت منظمته السرية تشبه النظام الصوفي . إذ أطلق أتباعه لحاهم دون تشذيب ودعوا أنفسهم شيوخاً[١١٧] . وليس في ذلك تناقض كما قد يبدو للوهلة الأولى ، فكما يقول توماس هودجكين فإن نظرة الإسلام العالمية تضم عناصر يمكن إذا اجتمعت معاً أن تشكل تقليداً ثورياً[١١٨] . وتمثل جهود القسام هذا الاجتماع للعناصر بعينه كما تمثل تكثيفاً للمكونات الوطنية و « الانبعاث الديني والوعي الطبقي في حركة نضال ضد الاستعمار » .

وعلى الرغم من أن أتباعه قد قاموا بهجمات صغيرة مسلحة على المستوطنات الصهيونية منذ ١٩٣١[١١٩] ، إلا أن القسام لم يجزم بأن الأوان قد آن لشن ثورة واسعة النطاق إلا في نوفمبر/ت٢ ١٩٣٥ . فانطلق القسام من حيفا مصحوباً بفرقة صغيرة من أتباعه وفي نيته حث الفلاحين على التمرد . وأدى اصطدام جرى بمحض الصدفة مع رجال الشرطة إلى معركة مع الجيش البريطاني سابقة لأوانها إلا أن القسام لقي حتفه قبل أن تنطلق شرارة الثورة الأولى .

لكن المثل الذي ضربه القسام هز البلاد ، ونعت منظمات متطرفة مستقلة القسام وبلورت أحلاماً جديدة على أساس مشروعه الثوري ، وسرعان ما احتل القسام مكانة البطل الشعبي وأصبح ضريحه مكاناً يحج إليه الناس[١٢٠] . وتضمن التراث الذي خلفه أتباعاً قساميين كثراً ما يزالون أحراراً يعدون أنفسهم للنضال بالإضافة إلى وطنيين مناضلين أقاموا تجمعات سياسية جديدة في المدن ونظموا عصابات مسلحة على نمط ما فعله القسام ، وضاعف المتطرفون المدينيون من تنظيمهم في القرى استعداداً لثورة جديدة معادية للبريطانيين[١٢١] . وفي جو مشحون شديد التوتر كهذا الجو لم يكن الأمر يحتاج إلى أكثر من حدث صغير ليفجر الأحداث .

الثورة الكبرى

وقع هذا الحدث في ١٣ أبريل /نيسان ١٩٣٦ عندما قتل يهوديان في جبال نابلس ربما على يد جماعة القسام . وأعلنت الحكومة بعد موجة من الثأر الوحشي والرد على الثأر ، حالة الطوارىء ، وكرد على إعلان الحكومة اندفعت « لجان وطنية » تقودها منظمات نضالية متعددة

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

في المدن معلنة الإضراب العام . وحذا الأعيان حذو اللجان محاولين استعادة زمام السلطة على الحركة المتمردة . وفي ٢٥ أبريل/نيسان اجتمعت جميع الأحزاب الفلسطينية (بما فيها « حزب الدفاع الوطني » النشاشيبي) مع اللجان الوطنية وأنشأت هيئة تنسيق أطلق عليها اسم (اللجنة العربية العليا) برئاسة أمين الحسيني . وعلى الرغم من أن هذه اللجنة قد انبثقت عن الخطوة التي قام بها الأعيان لاستعادة هيمنتهم إلا أنها بدمجها للتجمعات المتطرفة المستقلة مع قيادة تقليدية أصبحت تمثل عدداً أكبر مما كانت تمثل اللجنة التنفيذية العربية القديمة[١٢٢] . وسرعان ما أعلنت اللجنة العربية العليا أن الإضراب العام سيستمر حتى تضع الحكومة البريطانية حداً للهجرة اليهودية إلى فلسطين كما أعادت تأكيد المطالب الوطنية الأساسية الأخرى ــ حظر بيع الأراضي وتأسيس حكومة وطنية مستقلة .

على الرغم من أن الثورة اندلعت أولاً في المدن إلا أنها انتشرت بسرعة قصوى إلى الأرياف . وعقد مؤتمر للجان الوطنية الريفية في مايو/أيار ونظم جدول أعمال خاص بالفلاحين ، بما فيه دعوة للامتناع عن دفع الضرائب وشجب تأسيس مراكز شرطة في القرى على حساب الفلاحين[١٢٣] . وكذلك قام الاستقلاليون (الذين مازالوا نشيطين كأفراد) بالطواف على ريف « المثلث » لتعبئة الدعم للإضراب العام في حين نشر الواعظون الدينيون من القساميين و « المجلس الإسلامي الأعلى » للدعاية الإعلامية وحاولوا تنظيم صفوف الفلاحين[١٢٤] .

وفي منتصف أيار/مايو ظهرت عصابات مسلحة من الفلاحين تكثر بينهم جماعة القسام ، في المناطق الجبلية ، وكانت تساعدهم جماعات المغاوير المسلحة في المدن وقوات إضافية من الفلاحين تحارب من حين لآخر ، وكانت هذه العصابات تحارب عموماً بشكل مستقل عن المفتي واللجنة العربية العليا[١٢٥] رغم أنها مرتبطة باللجان الوطنية الدينية . وقامت هذه العصابات بالتحرش بالاتصالات البريطانية من مكامنها في الجبال وهاجمت المستوطنات الصهيونية بل وخربت أنابيب النفط الممتدة إلى حيفا والتابعة لشركة النفط العراقية ، وشكلت العملية الأخيرة تهديداً لا يستهان به لسيطرة بريطانيا العالمية إذ كانت بريطانيا العظمى ما تزال صاحبة اليد العليا في كل ما يتعلق بنفط الشرق الأوسط في الثلاثينيات وكان خط أنابيب حيفا خطاً هاماً وحيوياً بالنسبة للاستراتيجية البحرية الإمبريالية في البحر الأبيض المتوسط .

وأخيراً نجحت السلطات البريطانية في تموز/يوليو في فرض سيطرتها على المدن التي كانت في حالة تقارب العصيان المسلح ، وبقي الريف مركز الثورة بلا منازع[١٢٦] ، وقدم

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

(فوزي القاوقجي) بطل الثورة السورية استقالته في الشهر التالي من منصبه في الجيش العراقي ودخل إلى فلسطين مع فرقة* مسلحة من المتطوعين الوحدويين العرب وأعلن نفسه القائد الأعلى للثورة[١٢٧] . وعلى الرغم من أن الكفاءة العسكرية لحركة المتمردين قد تحسنت وأن القاوقجي قد نُصّب بطلاً شعبياً في جميع أرجاء البلاد إلا أنه لم يتمكن من توحيد جميع العصابات المختلفة تحت إمرته .

وفي الحين الذين حاربت فيه القوات الشعبية البريطانيين في الأرياف كان الأعيان في اللجنة العربية العليا (وقد اعتقل واحد منهم فقط) يتفاوضون مع العدو للتوصل إلى تسوية لإنهاء النزاع . صعّدت السلطات البريطانية من الضغوط التي تمارسها في نهاية سبتمبر/أيلول بفرض إجراءات مضادة صارمة مثل زيادة عدد قواتها العسكرية إلى ٢٠٫٠٠٠ وإعلان الأحكام العرفية والشروع بهجوم جديد . كما تقلصت نشاطات اللجنة العربية العليا مع بدء الموسم الزراعي : الفلاحون يريدون مواصلة أعمالهم والأهم من ذلك أن موسم القطاف بدأ في سبتمبر/أيلول في بيارات زارعي الحمضيات الأغنياء[١٢٨] ، ونادت اللجنة العربية العليا التي تؤثر المفاوضات على التعبئة الجماهيرية التي تهدد قيادة الأعيان ، بإنهاء الإضراب العام الذي دام ستة أشهر وذلك في العاشر من أكتوبر/ت١ على أساس أن الحكام العرب (في العراق والأردن والسعودية) سيتوسطون لدى الحكومة البريطانية باسم الفلسطينيين وأن الحكومة ستعمل بنية سليمة لإيجاد حلول جديدة . وتبع ذلك فترة فاصلة طويلة . وفي الحين الذي علق الأعيان آمالهم على اللجنة الملكية لتقصي الحقائق ، كان قادة العصابات المتمردين يجوبون القرى ويشترون الأسلحة استعداداً لجولة قتال جديدة .

وفي تموز/يوليو ١٩٣٧ نشرت لجنة بيل البريطانية توصياتها بشأن تقسيم فلسطين إلى دولة عربية ودولة يهودية . كان رد الفعل العربي معادياً دون استثناء ولم تتوانى عصبة النشاشيبي نفسها التي ارتدت عن اللجنة العربية العليا عن إدانة اقتراح التقسيم . تأججت سورة المشاعر في مرتفعات الجليل خاصة وفي منطقة جبلية فيها بعض السكان اليهود ضمتها خطة التقسيم إلى الدولة اليهودية المقترحة[١٢٩] . وانفجرت المرحلة الثانية من الثورة في سبتمبر/أيلول في أعقاب اغتيال المندوب الإقليمي البريطاني في الجليل (على يد القساميين على الأرجح) . وجاء رد السلطات البريطانية بأن منعت اللجنة العربية العليا ونفت واعتقلت مئات العناصر

---

* شهدت الثورة السورية بطولات كثيرة وسقط فيها شهداء أبرار وكان القائد العام لتلك الثورة سلطان باشا الأطرش وشملت كل أنحاء البلاد تقريباً وكان أبرز مجهود للقاوقجي ورفاقه في مدينة حماه . **المترجم**

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

النشطة . تمكن المفتي من تجنب إلقاء القبض عليه بأن هرب إلى لبنان في أكتوبر/ت١ ، واندلع قتال عنيف بعد ذلك بقليل . وانتقلت القيادة إلى يد الأنصار في الريف دون منازع بعد أن نفيت قيادة الأعيان أو اعتقل أفرادها .

كانت عصابات المتمردين أشد نشاطاً في مرتفعات الجليل ونابلس مناطق أقوى مقاومة شعبية . كما كانت منطقة القدس ــ الخليل حيث تنشط منظمات الجهاد المقدس مركزاً من المراكز الهامة أيضاً . وقد أقامت العصابات في تلك الأقاليم نظام المحاكم الخاص بها ، ومكاتبها الإدارية وشبكات للاستخبارات ، وبينما كان الفلاحون والمهاجرون الذين كانوا فلاحين يشكلون الأغلبية العظمى لقادة العصابات ومقاتليها ، لعب المناضلون المدينيون الشبان دوراً هاماً كقادة ومستشارين وناقلي أسلحة ومدربين وقضاة[١٣٠] . كانت جماعة القسام ممثلة تمثيلاً جيداً على مستوى القيادة . وتمكنت العصابات من خلال فرض الضرائب على الفلاحين وتجنيد المتطوعين والحصول على السلاح عبر وكالة مهربين خبيرين[١٣١] ، من القيام بعملياتها بشكل مستقل عن مقر المتمردين المقام في المنفى الذي أسسته قيادة الأعيان في دمشق . وقامت شبكة من المناضلين في المدن خاصة من شبه البروليتاريين بجمع التبرعات وتجميع المعلومات الاستخبارية وتنفيذ عمليات إرهاب ضد البريطانيين والصهاينة والسماسرة والمتعاونين العرب[١٣٢] .

وصلت الثورة إلى أوجها في صيف وخريف ١٩٣٨ . وكان حوالي ١٠,٠٠٠ شخص قد انضموا إلى العصابات المتمردة التي أصبحت منظمة تنظيماً حسناً بحيث استطاعت توزيع دليل إرشادات على أفرادها[١٣٣] . وأقام قادة العصابات الكبرى (مجلس قيادة أعلى) لتعزيز التنسيق العسكري . وكان معظم أهالي الجبل الفلسطينيين تحت إمرة المتمردين ولم يعد للحكومة أية سلطة على المناطق المدينية مع حلول سبتمبر/أيلول .

ما إن تسنى للمتمردين بسط سيطرتهم على المدن حتى عبرت الصبغة الفلاحية للثورة عن نفسها تعبيراً أوضح ، فأمر قادة الثورة جميع رجال المدينة بنزع غطاء الرأس المديني (الطربوش) وارتداء الكفية ، وأمرت النسوة بلبس الحجاب . وكانت هذه الخطوة عملية إذ أنها حمت المتمردين من اعتقال البريطانيين لهم عندما دخلوا المدن كما كانت رمزاً إذ دلت على سيطرة الريف على المدن . كما وجه رجال العصيان سكان المدن إلى عدم استخدام الكهرباء التي كانت تنتجها شركة أنغلو ــ يهودية . لم يجرؤ سوى عدد قليل على عصيان تلك الأوامر . وجمعت أموال طائلة من سكان المدينة الأثرياء كمساهمة في الثورة وطلبت مبالغ

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

«إسهام» كبيرة جداً من زارعي البرتقال وخاصة في حيفا ممن يدعمون المعارضة النشاشيبية[١٣٤].

أصدرت القيادة المشتركة للثورة في الأول من سبتمبر/أيلول بياناً فيه تحد مباشر لسيطرة الطبقات القيادية على الأرياف. وعلى الرغم من المنظور الضيق لهذا البيان إلا أنه كان يمثل برنامجاً اجتماعياً فاق مجرد الالتزام بالأهداف «الوطنية» للأعيان. وأعلن القياديون في هذا البيان قراراً رسمياً بتأجيل دفع جميع الديون المستحقة (التي سحقت الفلاحين ومكنت الأعيان من السيطرة على الإنتاج الزراعي) وحذروا جباة الضرائب ووكلاء الأراضي من زيارة القرى. كما صدرت أوامر إلى المقاولين العرب الذين استأجروا فريق عمال لبناء مراكز الشرطة في القرى وشق الطريق لتسهيل الوصول إلى معاقل المتمردين بالتوقف عن العمل. كما أعلن البيان إلغاء جميع الإيجارات على الشقق المدينية التي ارتفعت إلى مبالغ فاضحة لا تصدق. وكان لذلك البند أهمية خاصة إذ ربط احتياجات الفلاحين والعمال المدينيين فكشف بذلك عن التحالف الطبقي الجديد الذي رسخ قواعد الثورة[١٣٥].

جاء تدخل المتمردين في تحكم ملاك الأراضي — المرابين في الأرياف ومطالبهم بمبالغ مساهمة من الأغنياء كـ«انتقام الأرياف» مما دفع آلاف الفلسطينيين الأثرياء لهجرة بيوتهم إلى دول عربية أخرى. وكان الأثرياء من الفلسطينيين ينظرون إلى المتمردين كعصابات شبيهة بقطاع الطرق لا أكثر. كانت هذه التهمة لها ما يبررها إلى حد ما إذ كانت هناك مشاكل حقيقة في ما يتعلق بالنظام في معسكرات المتمردين على الرغم من التقدم الكبير الذي أحرزته العصابات في تنسيق وتوحيد أهدافها. فمثلاً كانت الولاءات العشائرية أو العائلية تتدخل في المصالح الطبقية أو الوطنية لدى بعض القادة الثوريين الذين نفذوا ثارات دم تحت غطاء العمليات الوطنية[١٣٦]. ونفر بعض الفلاحين من المعاملة الفظة الاستبدادية على يد بعض القادة أثناء جباية الضرائب ومن تفضيل هؤلاء القادة لأناس بسبب انتماءاتهم العشائرية. وعلى الرغم من أن التقسيمات الطبقية بين الفلاحين لم تكن تقسيمات متطورة إلا أن أهل القرى لم يكونوا وحدة متجانسة أبداً في مسألة مصالحهم الطبقية. فاغتيال المختار المتعاون مع البريطانيين مثلاً يمكن أن يخلق شقاقاً مع أفراد حمولة المختار الذين كانوا يستفيدون من صلاته مع القوى الخارجية.

تؤكد معظم الدراسات التي تروي أحداث الثورة المشاكل الداخلية التي كان يواجهها المتمردون، وعلى الرغم من أن هذه الانتقادات لا تخلو من مبالغة وتنال من الإنجازات الإيجابية التي حققها المتمردون إلا أنه لا يمكننا إهمالها. استطاع البريطانيون والنشاشيبيون

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

استغلال التناقضات في حركة الثورة من خلال استخدام وسائل كتشكيل «عصابات السلام» في نهاية ١٩٣٨ لمحاربة المتمردين. وكانت «عصابات السلام» مؤلفة من فلاحين لم يتأثروا بنزاعات الملكية، على الرغم من أن هذه العصابات كانت تمثل أساساً مصالح أصحاب الأراضي والأعيان الريفيين[١٣٧].

وكانت الخطوة التي قامت بها الاستراتيجية البريطانية وفاقت في أهميتها «عصابات السلام» هي توقيع اتفاقية ميونيخ في ٣٠ سبتمبر/أيلول ١٩٣٨. وأتاحت هذه الاتفاقية المجال أمام بريطانيا لتحرير لواء آخر من جيشها واستخدامه في فلسطين ومن الشروع في هجمات عسكرية مضادة. هل من المحتمل أن رئيس وزراء بريطانيا شامبرلين لم يقم بتوقيع اتفاقية ميونيخ لمجرد استرضاء هتلر مؤقتاً بل أيضاً ليحمي إمدادات نفط بريطانيا في البحر الأبيض المتوسط من عصابات الفلاحين «المتخلفين» والخطرين؟ من الصعب اقتفاء علاقة سببية بشكل واضح ولكن من الواضح على الأقل أن فلسطين كانت بالنسبة للمسؤولين البريطانيين الكبار منطقة حزام أمني استراتيجي هام بين قناة السويس والأعداء المحتملين في الشمال (ألمانيا، الاتحاد السوفياتي) كما كانت صلة وصل لا يمكن الاستغناء عنها في حلقة الاتصال البري. وكانت بريطانيا مع احتمال نشوب الحرب الذي بدأ يلوح في الأفق تسعى جاهدة لوضع حد للاضرابات في فلسطين[١٣٨].

كان لاتفاقية ميونيخ على كل حال نتائج وخيمة ليس فقط على تشيكوسلوفاكيا بل على ثورة فلسطين أيضاً. فمع حلول عام ١٩٣٩ كان المتمردون يحاربون قوات عسكرية بريطانية تبلغ ٢٠٫٠٠٠ رجل بالإضافة إلى قوات الجيش الملكي. كما قام أورد وينغيت O.Wingate وهو ضابط بريطاني بتنظيم قوة عصيان مسلح مضاد من المقاتلين اليهود لقبت باسم (فرق الليل الخاصة) لإرهاب القرويين وحماية خط أنابيب النفط[١٣٩]. صعد الهجوم المضاد البريطاني من ثقل الضغط على المتمردين وخلق مشاكل داخلية مثل المعاملة الشرسة في جباية الضرائب والتبرعات وموجة من الاغتيالات السياسية.

لكن هذا الهجوم العسكري المكثف لم يكن كافياً لإخماد الثورة فباشر البريطانيون هجوماً دبلوماسياً أيضاً. وأصدرت الحكومة في آذار/مارس ١٩٣٩ (كتاباً أبيض) تعلن فيه أنها تعارض تحول فلسطين إلى دولة يهودية وأنها ستحد من الهجرة اليهودية إلى ٧٥٫٠٠٠ في الخمس سنوات القادمة وستنظم مبيعات الأراضي تنظيماً صارماً وأن دولة فلسطينية مستقلة ستنشأ في غضون عشر سنوات بمؤسسات مستقلة تقام خلال تلك الفترة. ومع أن الأعيان والمتمردين رفضوا (الكتاب الأبيض) فقد لقي صدى استحسان أكبر بين صفوف

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

الشعب[١٤٠] . وكان من الواضح أن تلك الورقة كانت تمثل تنازلاً اعتصرته المقاومة المسلحة اعتصاراً من البريطانيين رغم أنها لم تكن تستوفي جميع المطالب الوطنية وبالمقابل كان الرد الصهيوني على (الكتاب الأبيض) أشد شراسة وقسوة .

أخمدت الثورة تدريجياً تحت ثقل ضغوط خارجية لا تحتمل وما نتج عنها من تصدعات داخلية في الحركة . وأسفرت ثلاث سنوات من القتال تدخلت فيها قوات عسكرية بريطانية كبيرة بمساعدة الصهاينة عن ٢٠٫٠٠٠ ضحية من العرب (٥٫٠٣٢ قتلى و١٤٫٧٦٠ جرحى)[١٤١] انحسرت بعدها موجة الثورة . وفي تموز/يوليو تم إلقاء القبض على آخر قائد رئيسي من قادة الثورة وما إن بدأت الحرب مع ألمانيا في سبتمبر/أيلول ١٩٣٩ حتى توقف القتال تماماً . وستملي مجموعة جديدة تماماً من الظروف على الساحة الدولية ما سيتوالى من أحداث في فلسطين .

النتيجة

حاولت هنا أن أتقدم بتحليل بديل عن التحليلات السائدة للثورة الكبرى في فلسطين والتي تصور المجتمع الفلسطيني على أنه منقسم تقسيمات عمودية من العمق والكثرة بحيث لم تتمكن الوحدة الوطنية ولا حتى الوحدة الطبقية الضروريتان للانتصار في النضال ضد الاستعمار والصهيونية من التحقق . وترتكز هذه التحليلات في نقاشها إلى أنه إذا ما أخذنا بعين الاعتبار البنية الاجتماعية السائدة نجد أن الفلاحين الفلسطينيين ما إن استلموا قيادة الثورة حتى تكشفت طبيعتهم الحقة «المتخلفة» المتأصلة فيهم . ويعتبر تقويم (آرنون أورنا) نموذجاً مثالاً عن تلك الآراء إذ يقول : «انتقل الافتقار إلى التعاون وإلى تحمل المسؤولية الجماعية ، وكثرة الانقسامات المتجذرة القديمة في مجتمع قائم على أسس أبوية وعشائرية ، والنزاعات العتيقة بين قرية وأخرى على الأراضي وموارد المياه جميعاً بكل بساطة إلى حركة العصابات [المغاوير]»[١٤٢] . ويُجمع العديد من الدراسات التي تنحو المنحى السابق نفسه في نقاشها على أن قوة واحدة لا غير كانت قادرة على تحقيق النصر وهي : حزب ثوري عصري[١٤٣] .

لقد بينت في نقاشي خلال هذا البحث أن الانقسامات العمودية كانت في حقيقتها انقسامات عقائدية ، إذ كانت هي الصيغة التي حافظت بها الطبقة الحاكمة الفلسطينية على سيطرتها السياسية والاقتصادية . وتقوم طريقة تطبيق عقيدة الحكم هذه على تخفيف حدة البنية الطبقية التحتية للمجتمع فتبدو علاقات الاستغلال وكأنها (تبادلات) ودية بين أفراد

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

من مكانة غير متكافئة . وأنا أعتقد في محاولتي التدليل على أن العدائية الطبقية طغت على هذه العلاقة ، أن الفلاحين استغلوا هذه العقيدة السائدة في نضالهم لتحقيق حياة أكرم ، وعلى الرغم من أن الفلاحين عاشوا في حالة خضوع فلم تكن سيطرة أصحاب الأراضي ـــ الأعيان عليهم سيطرة تامة أبداً بل واجهت مقاومة على أساس نفس الشروط التي تقوم عليها العقيدة السائدة أي النضال من أجل تبادل « عادل » متكافىء .

والأهم من ذلك أن الفلاحين كانت لهم تقاليد وتراث من المقاومة يمكنهم أن يلجأوا إليها في ساعات الضيق والأزمات ليشكلوا حركة معارضة . وقد تتبعت خطاً بيانياً لسلسلة أصول هذه التقاليد في المقاومة قبل عام ١٩٣٦ . وهناك دلالات واضحة لا لبس فيها على وجود مثل هذه التقاليد الموروثة رغم أن الخط البياني يبدو ضعيفاً ، ومتقطعاً أحياناً في تسلسله وكثيراً ما تكون خطوطه غائمة غير تامة : فهناك براهين واضحة على كيان شبه مستقل قبل عام ١٨٣١ ، وممارسات دينية متطرفة غير تقليدية ، وقطاع طرق ، ومقاومة لتوسيع الدولة العثمانية ولقرار تسجيل الأراضي في أواخر القرن التاسع عشر وحركات نضال عفوية ضد المستعمرات الجديدة لليهود الأوروبيين . كما أن هناك ذكريات مدفونة في أعماق الوعي الشعبي عن حركات نضال سابقة مثل صلاح الدين ضد الغزاة الأوروبيين الصليبيين . وقد لا تتضمن مثل هذه التقاليد بالضرورة ممارسات لها طبيعة محافظة أو رجعية إذ كما يقول ريموند ويليامز : قد تكون « الثمالة » مصدراً هاماً للممارسات السياسية التقدمية حتى في المجتمعات الصناعية المتطورة[١٤٤] .

كما أكدت في هذا المقال على أن تراث الفلاحين الشعبي لم يكن تراثاً صافياً لا شائبة فيه . إذ تأثرت « فطرتهم السليمة » وتبدلت مع الزمن بفعل العقائد السائدة للدولة خلال فترة انتعاش قوة العثمانيين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبفعل الأفكار الوطنية للأعيان في فترة الانتداب . كما خضع وعي الفلاحين لتأثيرات الأفكار المتطرفة التي جاء بها المناضلون من الطبقة الوسطى . وامتزجت الأفكار التقليدية القديمة مع المناهج الجديدة للأمة والديمقراطية والإسلام الإصلاحي . كما تعدلت التقاليد الشعبية في بعض الحالات مثل هجوم القسام على الممارسات الشعبية الإسلامية ، لكي تعزز من وحدة الحركة الشعبية . وفي حالات أخرى تحولت الممارسات التقليدية مثل عصابات قطاع الطرق إلى واسطة عصرية فعالة للنضال .

كان الهدف الآخر من هذا البحث هو إيضاح أن الطبقة الفلاحية الفلسطينية لم تكن عنصراً ثابتاً « متخلفاً » من عناصر المجتمع الفلسطيني بل لقد مرت بتغيرات دائمة في

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

الفترة التي يتناولها هذا المقال. وقد تحولت خلال القرن التاسع عشر من طبقة منتجين مستقلين نسبياً إلى طبقة يسيطر عليها ملاك الأراضي والمرابون وتنتج لصالح السوق العالمي الرأسمالي إلى حد بعيد. وقد تم ترحيل أعداد كبيرة من الفلاحين نتيجة الاستعمار الصهيوني وربقة الديون المتراكمة، وطردت هذه الأعداد من عالم الزراعة تماماً وتحولت إلى عمال مياومين. كما تبدل الفلاحون تبدلاً أكبر في القرن العشرين واكتسبوا شخصية مزدوجة كفلاحين من جهة وكعمال مياومين من جهة ثانية. وقد أسهم الدمج الجزئي للفلاحين ضمن دائرة الأجور للعمل «الحر» في تهيئة الفلاحين ــ العمال اشتراكياً بأساليب جديدة وكان له أثره في حل المؤسسات ما قبل الرأسمالية في القرية. وعلى الرغم من أن الأعيان والبريطانيين حاولوا جاهدين الحفاظ على البنية التراتبية لشبكات النصير ــ الزبون، إلا أن الأسس التي كانت تقوم عليها هذه الشبكات اهتزت وتزعزعت مع العروض التي تقدمت بها الصهيونية وفشل الأعيان في تحقيق أهداف «وطنية». وقام الفلاحون الذين تخلى عنهم النظام تماماً ــ إذ انتزعت ملكيتهم للأراضي على يد المستعمرات الصهيونية وطردوا إلى المدن كبروليتاريا ثانوية ــ باعتناق الأفكار والمناهج الجديدة التي تتحدى هيمنة الأعيان بكثير من اللهفة والاندفاع.

تضافرت جميع هذه القوى خلال الثورة الكبرى، وجسدت الحركة التي قادها الفلاحون مزيجاً من الوطنية والانبعاث الديني والوعي الطبقي ولا يمكن لأيٍ من هذه العناصر الانفكاك تماماً عن البقية. وقد أكدت هنا بشكل خاص على ظهور مطالب وممارسات معينة ضمن حركة التمرد قام بها الفلاحون كطبقة، ويرجع ذلك إلى حد ما إلى أن الدراسات الأخرى كانت تقلل من شأن هذا الجانب إلى حد بعيد. فرفض الفلاحين دفع الضرائب، وإعلان قرار تأجيل الديون المستحقة، والتبرعات الكبيرة التي أجبر الأغنياء على دفعها، كانت جميعها ممارسات قام بها المتمردون بهدف تلبية احتياجات الفلاحين بالإضافة إلى أن قرار تأجيل دفع إيجارات الشقق السكنية كان دليلاً على الرابطة الوثيقة في الحركة مع شبه البروليتاريا المدينية. وتمثل حملة الإرهاب التي شنت ضد المتواطئين وسماسرة الأراضي والمخاتير وضباط الشرطة العرب محاولة جديدة لمعاقبة الخونة الذين كانت نشاطاتهم وبالاً على الفلاحين، وإن كانت تلك الحملة قد نفذت بكثير من التطرف الذي لم يكن ضرورياً كما تشهد جميع الدراسات المؤرخة للثورة. وفي الحين الذي لم تكن فيه هذه المطالب والأعمال التي قام بها المتمردون ممارسة «ثورية» فهم قد نجحوا في تهديد لسيطرة الأعيان السياسية والاقتصادية تهديداً حقيقياً. كما يبين هذا البحث أن الادعاء بأن المتمردين لم يكن لهم برنامج

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

اجتماعي أو سياسي متماسك واضح هو في الحقيقة تبسيط للمسألة إلى حد المغالاة[١٤٦].

رأينا كيف استطاع المتمردون إلى حد ما التغلب على الانقسامات الاجتماعية (التقليدية) القائمة على المنطقة والعشيرة، وكانت إقامة مجلس قيادة من قبل القادة الزعماء خطوة سياسية هامة في هذا الاتجاه، كما ينطبق ذلك على جهود جماعة القسام الذين نُظموا على أساس التلاحم الإسلامي المشوب بمصالح الطبقات الشعبية. وقد أسهمت مثل هذه العوامل إسهاماً فعالاً أساسياً في الدرجة العالية من التماسك الذي نجح المتمردون في تحقيقه.

كان هناك الكثير من المغالاة في إعطاء المشاكل الداخلية التي عانت منها قوات المتمردين حجماً أكبر من حجمها، في جميع الدراسات التي تناولت الثورة، وبالفعل كانت الممارسات الخاطئة مثل ترجيح كفة الولاءات الإقليمية والعائلية والعشائرية على كفة الإخلاص للحركة، واللجوء إلى الإعدام والوحشية والأساليب الفظة في انتزاع «التبرعات» من الفلاحين، تشكل مصاعب حقيقية للحركة وتقوض مقدرتها على الحفاظ على قاعدة شعبية واسعة. ويصعب هنا الوصول إلى توازن تحليلي «صحيح». ولكن علينا أن نتذكر أن فترات الثورات الاجتماعية في كل ركن من العالم كانت تترافق مع ممارسات بغيضة لا أخلاقية. لذلك علينا ألا نركز اهتمامنا على هذه الممارسات حصراً لننتقص من أهمية الحركة برمتها. وقد لا تتلاشى مثل هذه المشاكل بالضرورة وتختفي كما لو أن عصا سحرية قد لمستها تحت قيادة وإرشاد حزب (ثوري)، فالحزب ليس ضماناً لنجاح النضال الاجتماعي. وإن تركيز الاهتمام على عدم وجود حزب كما فعل الكثيرون هو تقليل من شأن القيادة الشريفة النضالية وأشكال التنظيمات التي استطاع الفلاحون وشبه البروليتاريا التوصل إليها. وفي حين استسلم بعض القادة لمشاعر التعاظم والثأر التافه كان العديد من القادة الآخرين (الذين بقيت أسماؤهم مجهولة) جديرين بأن تخلد ذكراهم. وكان لجماعة القسام الذين لعبوا دوراً قيادياً هاماً صيت ذائع بالاستقامة والالتزام كما اشتهر (عبد الرحيم الحاج محمد) — أكثر القادة احتراماً بين الناس — بمعتقداته الوطنية ومعارضته للاغتيال السياسي وبمهمته القتالية التي لا تعرف الكلل[١٤٦].

وإذا كان هناك من سبب رئيسي في هزيمة المتمردين الفلاحين فهو قوة العدو العارمة التي كانت العامل الحاسم أكثر مما كان (تخلف) الفلاحين المزعوم. فقد سخّر البريطانيون الذين كانوا مصممين على الاحتفاظ بسيطرتهم على تلك المنطقة ذات الأهمية الاستراتيجية الرئيسية (خاصة في مرفأ حيفا وخط أنابيب النفط وطرق المواصلات إلى الهند) قوة عسكرية ضخمة لقتال المتمردين. كما انضمت المجموعة اليهودية القوية إلى البريطانيين لمساعدتهم. إذ

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

انتسب اليهود إلى الشرطة وإلى قوات الشرطة العسكرية، ونظمت صفوف المقاتلين اليهود في فرق خاصة مضادة للعصيان المسلح على يد أورد وينغيت. وشن الاشتراكيون الصهاينة هجمات إرهابية ــ دون موافقة البريطانيين ــ على المجموعة العربية. كما أفسح قيام الثورة فرصة أمام الصهاينة لتعزيز مقدرتهم العسكرية، وفي الحين الذي انتزع السلاح من المجموعة العربية في نهاية الثورة، وزع الصهاينة السلاح على ١٤٫٥٠٠ رجل من المدربين تدريباً عسكرياً عالياً والمجهزين بأحدث الأسلحة(١٤٧). وتفاقم انعدام التوازن بين المجموعتين خلال الحرب العالمية الثانية وكان عاملاً هاماً جداً من عوامل الكارثة التي نزلت بالعرب الفلسطينيين في ١٩٤٨.

وهكذا حاولت هنا أن أقيم حواراً مضاداً للتحليلات السائدة للثورة الكبرى، «فالسرد الأساسي» لأحداث الثورة ينحو غالباً منحى البدء بتعريف الفلاحين والعمال المياومين «كتقليديين» و«متخلفين» و«متعصبين» بل و«إرهابيين» (وبذلك ينتقص من قيمتهم). فعندما يقدم السرد التاريخي طبقة الفلاحين كمجموعة ثابتة لا تتغير يترك للباحثين حرية تجاهل التاريخ الحقيقي نفسه للمقاومة الفلاحية التي سبقت الثورة. وغالباً ما يستخف الكتاب الآخرون المتعاطفون مع الثورة بأهميتها لأنها تفتقر إلى وجود حزب ثوري يدير دفتها. ومن شأن مثل هذه النقاشات أن تحط من قدر إنجازات الثورة أو تتجاهلها وأن تصب اهتمامها على أسئلة أخرى مثل دور الطبقة الوسطى وخيانة الأعيان أو الحزب الشيوعي الفلسطيني (الذي لم يكن له في الواقع أية صلة بهذه الأحداث)(١٤٨). والمجازفة التي يرتكبها مثل هذا التجاهل هو عدم التفات التعليقات (التقدمية) وكذلك السائدة إلى الرغبات الاجتماعية والسياسية الشرعية للحركات الاجتماعية الشعبية التابعة. لذلك نجد أن العمل الباحث الجاد الذي من شأنه أن يكون جزءاً من تاريخ الثورة الاجتماعي والذي يتضمن استقصاءً دقيقاً للحياة الثقافية التي تحياها الطبقة الفلاحية ولتنظيم الأرياف الاقتصادي وعقائد السيطرة والمعارضة لم يبدأ بعد خطواته الأولى.

لهذا السبب أكدت بأسلوب جدلي على الإنجازات الإيجابية التي حققها الفلاحون في أثناء الثورة الكبرى ــ وهي إنجازات طالما انتُقصت أهميتها. ومن هنا يعتبر هذا البحث كخطوة أولى نحو تطوير تحليل كامل يتطلب تقصي كل من بنى السيطرة وحركات المعارضة والعلاقة التاريخية المعقدة التي تجمع بينهما.

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

ملاحظات

١ — انظر : موسى بديري :

«The Palestine Communist Party», 1919-1948: Arab and Jew in the Struggle For Internationalism (London: Ithaca Press, 1979), pp. 46-47.

٢ — انظر

Ann Mosely Lesch, Arab Politics in Palestine, 1917-1939: The Frustration of a Nationalist Movement (Ithaca: Cornell University Press, 1979), p. 17.

٣ — انظر ابراهيم أبو لغد :

«The Pitfalls of Palestiniology: A Review Essay», Arab Studies Quarterly 3 (1981): 403-11.

٤ — يتطلب ذلك من الناحية المنهجية استراتيجية قراءة هوامش الأعمال المتوفرة حول تاريخ فلسطين . ولا يحاول هذا الفصل أن يكون مسحاً شاملاً بل كان المقصود منه اقتراح مجالات بحث أكثر تعمقاً . وإن إحدى المشاكل الرئيسية هنا هي دور النساء الفلاحات الذي لا يمكن الإحاطة به من خلال مثل هذه القراءة . ونحن بحاجة إلى وسائل أخرى لتطوير تحليل مثل هذه المسألة الهامة .

٥ — لخص Raymond Williams فكرة Gramsci حول السيطرة انظر : «Marxism and Literature» (Oxford: Oxford University Press, 1977) pp. 112-13.

٦ — انظر : Antonio Gramsci, «Selections From the Prison Notebooks ed. and trans. Quintin Hoare and Geoffry Nowell Smith (New York: International Publishers, 1971), pp. 323-26, 419-25.

٧ — تستند نتائج الأقسام الأربعة التالية إلى حد ما إلى أطروحتي في الماجستير : Theodore Swedenburg, «The Development of Capitalism in Greater Syria, 1830-1914: An Historic-Geographical Approach» University of Texas at Austin 1980.

٨ — لم تتحد فلسطين ككيان إداري إلا تحت الانتداب البريطاني . ففي الفترة العثمانية كانت تحكم من مدن مختلفة مثل دمشق وصيدا وبيروت والقدس . أنا أتناولها في هذا البحث كوحدة جغرافية .

٩ — انظر عارف العارف Aref el-Aref

«The Closing Phase of Ottoman Rule in Jerusalem», Moshe Ma'oz, ed., Studies on Palestine during the Ottoman Period (Jerusalem: Magnes Press, 1975)

١٠ — انظر Constantin F. Volney, Travels throughout Syria and Egypt in the years 1783, 1784 and 1785, Vol. 2 (England: Gregg International Publishers, 1973).

١١ — تماثل هذه البنية الطبقية ما أطلق عليه راي Rey اسم « المجتمع التراتبي » :

انظر : Philippe Rey, «Les Formes de la décomposition des sociétés précapitalistes au Nord-Togo et le

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

mécanisme des migrations vers les zones de capitalisme agraire», in Emile le Bris et al., eds. Capitalisme négrier (Paris: Maspero, 1976), pp. 195-209.

١٢ — انظر Volney, «Travels..» pp. 252-253

سادت علاقة متشابهة بين الفلاحين ورؤسائهم والدولة في جنوبي شرق آسيا خلال الفترة نفسها. انظر Michael Adas, «From Avoidance to Confrontation: Peasant Protest in Precolonial and Colonial Southeast Asia», Comparative Studies in Society and History 23 (1981): 217-47.

١٣ — انظر Karl Marx, «Grundrisse» ترجمة Martin Nicolaus (New York: Vintage Books, 1973).

١٤ — انظر Maurice Godelier, «Infrastructures, Societies and History», Current Anthropology 19 (1978): PP. 63-68

كانت الامبراطوريات القائمة على مبدأ الأتاوة من الإنتاج تحافظ عادة على النظم الاقتصادية المعتمدة على العائلات وتبقي على تماسك بنيتها وإن كانت تقوم بتعديلها لضمان دفع الأتاوة. انظر أيضاً سمير أمين: The Arab Nation (London: Zed Press, 1978), pp. 87-102.

١٥ — يشبه الوضع في فلسطين ما كان يحدث في جبال القبايل في الجزائر في نفس الفترة حيث «صبت العداءات بين فئة وأخرى كل طاقات الفلاحين في أقنيتها أو استهلكتها تماماً وحولتها بعيداً عن النضال الاجتماعي.. وعلى الرغم من أن التحالفات والتجمعات... طغت على الخلافات والنزاعات الاجتماعية إلا أنها لم تمحها تماماً». انظر René Gallissot, «Pre-Colonial Algeria», Economy and Society 4 (1975): 424-25

١٦ — انظر Mordechai Abir, «Local Leadership and Early Reforms in Palestine, 1800-1834», in Ma'oz, ed., Studies on Palestine, pp. 284-310

١٧ — انظر توفيق كنعان Mohammedan Saints and Sanctuaries in Palestine (London: Luzac, 1927), p. 251.

مثل هذه الأمثال شائعة بين فلاحي الجبل في العالم العربي ومجتمعات البداوة وتمثلها خير تمثيل (لمزيد من المعلومات عن المغرب انظر David M. Hart, «The Aith Waryaghar of the Morrocan Rif»I Tuscon: University of Arizona Press, 1976. I).

إن تفسيري الشخصي لهذا القول الشعبي يختلف عن التفسير المعتاد الذي يقدمه علماء الأنثروبولوجيا الذين ينظرون إليه من منظور القرابة والتحالف وحسب، وأنا اقترح تفسيراً سياسياً أوسع.

١٨ — انظر Canaan, Mohammedan Saints

١٩ — انظر المرجع السابق ص. ٩٨

٢٠ — انظر المرجع السابق ص ٢١٥ — ٢١٦

٢١ — انظر ص. (١٩٣)

٢٢ — انظر Alexander Schölch, «the Economic Development of Palestine, 1856-1882», Journal of Palestine Studies 39 (1981): 35-58

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

٢٣ ـــ انظر Alexander Schölch, «European Penetration and the Economic Development of Palestine, 1956-85» in Roger Owen, ed., Studies in the Economic and Social History of Palestine in the Nineteenth and Twentieth Centuries (carbondale: Southern Illinois Press, 1982). pp. 10-87.

٢٤ ـــ انظر Ya'akov Firestone, «Crop-Sharing Economics in Mandatory Palestine», Middle Eastern Studies II (1975): 10.

٢٥ ـــ انظر Lesch, Arab Politics, p. 89.

٢٦ ـــ للاطلاع على الانتقادات التي وجهها علماء الأنثروبولوجي لنموذج النصير ـــ الزبون كما هو مطبق على مجتمعات المتوسط انظر :

Michael Gilsenan, «Against Patron-Client Relations» in Earnest Gellner and John Waterbury, eds., Patrons and Clients (London: Duckworth, 1977), pp. 167-83; Luciano li causi, «Anthropoloogy and Ideolagy: The case of «patronge». Critique of Anthropology 4/5 (1975): 90-109; and paul Littlewood, Patronage, Ideology and Reproduction, Critique of Anthropolagy, 15 (1980).

٢٧ ـــ انظر Littlewood, «Patronage», pp. 37-38

٢٨ ـــ انظر David Seddon, Morrocan Peasants (Folkstone, ky.: Dawson, 1981), p. 92, and Göran Therborn, The Ideology of Power and the Power of Ideology (London: New Left Books, 1980), pp. 56-57, 61-62.

٢٩ ـــ انظر Gramsci, Selections, p. 54

٣٠ ـــ انظر J. C. Hurewitz, The struggle for Palestine (New York: W. W. Norton, 1950), p. 54.

٣١ ـــ انظر Canaan, Mohammedan Saints, pp. 197, 204-5.

٣٢ ـــ انظر Gilsenan, «Against Patron-Client Relations», pp. 53, 151-152;

انظر أيضاً آلبرت حوراني

Arabic Thought in the Liberal Age, 1798-1939 (London: Oxford University Press, 1962), p. 150

٣٣ ـــ انظر Claude Regnier Conder, Tent work in Palestine (New York: D Appleton, 878), p. 267

٣٤ ـــ انظر James Scott «Hegemony and the Peasantry» Politics and Society 7 (1977): 284.

٣٥ ـــ انظر Yehoshuah Porath, The Emergence of the Palestinian-Arab National Movement, 1918-1929 (London: Frank Cass, 1974); Neville Mandle, The Arabs and Zionism before World War I (Berkeley and los Angeles: University of California Press, 1975), pp. 70, 214-22.

٣٦ ـــ انظر Mandel, Arabs and Zionism, pp. 70, 214-22.

٣٧ ـــ انظر Porath, Emergence, pp. 7-8

٣٨ ـــ انظر عبد الوهاب كيالي

Palestine: A Modern History (London: Croom Helm 1978), pp. 71-72;

Porath «Emergence», pp. 129-30

٣٩ ـــ انظر كيالي «Palestine»ص . ٧٣

٤٠ ـــ انظر Nathan Weinstock, «Le Sionisme Contre Israel (Paris, Maspero, 1969) p. 169

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

٤١ ـــ انظر كيالي «Palestine»ص . ٧٥

٤٢ ـــ انظر Lesch, «Arab Politics, p. 89

٤٣ ـــ انظر Hurewitz, «Struggle..», p. 54

٤٤ ـــ انظر Ylana M. Miller,«Government and Society in Rural Palestine 1920-1948» (Austin: University of Texas Press, 1985), pp. 16-18

٤٥ ـــ انظر Hurewitz, «Struggle..», p. 52-53

٤٦ ـــ انظر Miller, Government, pp. 27, 54-62

٤٧ ـــ انظرالمرجع السابق

٤٨ ـــ انظر رفعت أبو الحاج

The Social Uses of the Past: Recent Arab Historiography of Ottoman Rule», IJMES 14 (1982): 187.

٤٩ ـــ انظر Porath, «Emergence..», pp. 200-202

٥٠ ـــ انظر Miller, Government, pp. 24-25, 47

٥١ ـــ انظر Hourani, Arabic Thought.

وللاطلاع على مثال عن نمط الجدل الفلسطيني الليبرالي انظر :

George Antonius, The Arab Awakening (London: Hamish Hamitton, 1938)

٥٢ ـــ انظر Walid Khalidi, ed., «From Haven to Conquest» (Beirut: Institute For Palestine Studies, 1961), p. 72.

٥٣ ـــ انظر Yehoshuah Porath, «The Palestinian Arab National Movement: From Riots to Rebellion, 1929-1939. (London: Frank Cass, 1977) pp. 83-84

٥٤ ـــ انظر Talal Asad, «Anthropological Texts and Ideological Problems: An Analysis of Cohen on Arab Villages in Israel» Review of Middle East Studies, I (1975): 1-40

٥٥ ـــ انظر Gabriel Baer, «The Office and Functions of the Village Mukhtar», in J. S. Migdal, ed., Palestinian Society and Politics (Princeton: Princeton University Press, 1980) pp. 103-23.

٥٦ ـــ انظر Shulamit Carmi and Henry Rosenfeld, «The Origins of the Process of Proletarianization and Urbanization of Arab Peasants in Palestine», Annals of the New York Academy of Sciences 220 (1974): 470.

٥٧ ـــ انظر المرجع السابق ص . ٤٨١ ـــ ٤٨٢

٥٨ ـــ انظر Ken Post, «Arise Ye Starvelings: The Jamaican Labour Rebellion of 1938 and Its Aftermath (The Hague: Martinus Nijhoff, 1978), pp. 133-36

٥٩ ـــ انظر Sarah Granham-Brown, «Palestinians and Their Society, 1880-1946: A Photographic Essay (London: Quartet Books, 1980), p. 150.

وللاطلاع على تحليل نظري لهذه الظاهرة في جنوبي أفريقيا انظر :

Harold Wolpe, «The Theory of Internal Colonialism: The South African Case», in Ivar Oxall etal. eds., (Beyond the Sociology of Development (London: Routledge and Kegan Paul, 1975), pp. 229-52.

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

٦٠ — انظر Rachel Taqqu, «Peasants into Workmen Internal Labor Migration and the Arab Village Community under the Mandate», in Migdal, Palestinian Society, p. 271.

٦١ — انظر Miller, «Government». pp. 79-89

٦٢ — انظر Nels Johnson, Islam and the Politics of Meaning in Palestinian Nationalism» (London: Routledge and Kegan Paul, 1982) p. 37

٦٣ — انظر David Hirst, «The Gun and the Olive Branch» (New York: D. Appleton, 1977), Vol. 2, p. 63

٦٤ — انظر Philip Mattar, «The Role of the Mufti of Jerusalem in the Political Struggle ovr the Western Wall, 1928-29», Middle Eastern Studies 14 (1983): 104-18.

٦٥ — انظر المرجع السابق ص ١١٤ وأيضاً

Lesch, «Arab Politics». pp. 210-11

٦٦ — انظر كيالي «Palestine»ص. ١٥٦

و أيضاً Shai Lachman, «Arab Rebellion and Terrorism in Palestine 1929-1939: The Case of Izz-al-Din al-Qassam and His Movement», in Elie Kedourie and Sylvia G. Haim, eds., «Zionism and Arabism in Palestine and Israel» (London: Frank Cass, 1982)p. 56

٦٧ — انظر Ivar Spector, «The Soviet Union and the Muslim World. 1917-1956 (Seattle: University of Washington Press, 1956), p. 100

٦٨ — انظر المرجع السابق ص. ١٥٦. يعكس بيان لجنة شو انحيازاً عرقياً كلاسيكياً (تقليدياً) يفترض بأن الفلاحين غير الأوربيين هم في تكوينهم أصلاً قاصرون سياسياً. والواقع أن حركات الفلاحين كانت أكبر تهديد للحكم الامبريالي في العالم النامي.

٦٩ — انظر Porath, Palestinian Arab, p. 40

٧٠ — انظر Lenni Brenner, Zionism in the Age of Dictators (Highland Park, N. J: Lawrence Hill, 1983), p. 65; Weinstock, Sionisme, pp. 135-36

٧١ — انظر Carmi and Rosenfield, «Origins», p. 476

٧٢ — انظر Porath, «Palestinian Arab», pp. 129-30

٧٣ — انظر المرجع السابق ص. ١٨٢ — ١٨٤

٧٤ — انظر Weinstock, Sionisme, p. 64

٧٥ — انظر Porath, Palestinian Arab, pp. 103, 105

٧٦ — انظر Kenneth Stein, «Legal Protection and Circomvention of Rights for Cultivators in Mandatory Palestine», in Migdal ed., Palestinian Society, pp. 250-54

٧٧ — انظر كيالي : Palestineص. ١٧٩.

٧٨ — انظر Porath, Palestinian Arab, p. 67

٧٩ — انظر Lesch, Arab Politics, pp. 110-11

٨٠ — انظر Therborn, Ideology, pp. 17, 46

٨١ — انظر Philip Khoury, «Islamic Revivalism and the Crisis of the Secular State in the Arab World: An

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

Historical Reappraisal», in I. Ibrahim, ed., «Arab Resources: The Transformations of a Society» (London: Croom Helm, 1983), pp. 219-220,

برزت منظمات النساء في فلسطين كشكل جديد من التعبئة في هذه الفترة ولكن المنظمات التي تناولتها الدراسات بالبحث كانت منظمات تقودها زوجات القادة الأعيان Mrs. Matiel E. T. Mogannam, «The Arab Women and the Palestine Problem» [Herbert Joseph, 1937])

كما كانت هذه المنظمات شبيهة في بنيتها بمنظمة «رابطة المسلمين ــ المسيحيين». ومن المحتمل أن المثال الذي ضربته هذه المنظمات أشعل الحماس في حركة نساء من الطبقات الوسطى المتعلمة، ولكننا هنا لا نعدو عن كوننا نخمن تخميناً.

٨٢ ــ انظر كيالي. «Palestine»ص. ١٦٧ ــ ١٦٨.

٨٣ ــ انظر عبد القادر ياسين «كفاح الشعب الفلسطيني قبل العام ١٩٤٨» (بيروت، مكتب الدراسات الفلسطينية ١٩٧٥) ص. ١٢٥ ــ ٢٦.

وأيضاً Hurewitz, «Struggle», p, 63

٨٤ ــ انظر عبد القادر ياسين «كفاح الشعب» ص. ١٢٥ ــ ٢٦. إلا أن هذه البورجوازية الوطنية كانت ما تزال جنيناً لا أكثر.

٨٥ ــ انظر المرجع السابق ص. ١٢٥ ــ ١٢٦ وأيضاً كيالي ص. ١٦٧ ــ ١٦٨ و١٧٢.

٨٦ ــ انظر Ernesto Lacau, «Politics and Ideology in Marxist Theory» (London: New Left Books, 1977), خاصة ص. ١٠٩.

٨٧ ــ انظر كيالي. «Palestine»ص. ١٨٧

وأيضاً Porath, Palestinian Arab, pp. 16-17

٨٨ ــ انظر: Zvi Elpeleg, «The 1936-39 Disterbances: Riot to Rebellion?» Wiener Library Bulletin 29 (1976): 41.

٨٩ ــ انظر كيالي، Palestineص. ١٧٧

٩٠ ــ انظر Porath, Palestinian Arab, p. 181

٩١ ــ انظر عدنان أبو غزالة

(Arab Cultural Nationalism in Palestine during the British Mandate», Journal of Palestine Studies 3 (1972): 48-49.

٩٢ ــ انظر غسان كنفاني

The 1936-39 Revolt in Palestine (committee for a Democratic Palestine, n. d.), p. 17.

٩٣ ــ انظر أبو غزالة. «Arab Cultural Nationalism»ص. ٨٧.

وأيضاً Hilmq Granqvist, (Marriage Conditions in a Palestinian Village. (Helsingfors: societas scintariom Fennica, 1931), p,99

٩٤ ــ انظر عبد العال الباقوري «الثورة بين بركة الجماهير وتداهن القيادات». الطليعة ٧ رقم ٤ صفحة ٩٥.

٩٥ ــ انظر Joel Beinin, «The Palestine Communist Party, 1919-1948: MERIP Reports 55 (1977): 8-9.

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

٩٦ ـــ أعيد نشر قرارات المؤتمر السابع في

Spector «Soviet Union, pp. 91-104

٩٧ ـــ انظر Beinin, «Palestine Communist Party», p. 12.

أيضاً Budeiri, «Palestine Communist Party».

٩٨ ـــ انظر ياسين « كفاح الشعب .. » ص . ١٤٣ .

٩٩ ـــ انظر كيالي ، Palestineص . ١٧٥ .

١٠٠ ـــ انظر Porath, Palestinian Arab, pp. 92-93

١٠١ ـــ انظر المرجع السابق ص . ٩٦ ـــ ٩٧ .

١٠٢ ـــ انظر ياسين « كفاح الشعب » ص . ١٤٧ ـــ ١٤٨ .

١٠٣ ـــ انظر Firestone, «Crop-Sharing», pp. 17-18

١٠٤ ـــ انظر ياسين « كفاح الشعب » ص . ١٤٦ ـــ ١٤٨ .

١٠٥ ـــ انظر كيالي ، «Palestine»ص . ١٧٩ ـــ ١٨٠

١٠٦ ـــ انظر Budeiri, «Palestine Communist Party», p. 77

١٠٧ ـــ زعم أن القسام كان تلميذاً لـ (محمد عبده) ، إلا أن :

S. 'Abdullah Schleifer, in «The life and thought of 'Izz-al-Din al-Qassam Islamic Quarterly 23 (1979): 61-81,

يؤكد أن تأثير (محمد عبده) في القسام كان تأثيراً محدوداً .

١٠٨ ـــ كان جد القسام وعم أبيه شيخين بارزين في الطريقة الصوفية القادرية في بلدته جبلة مسقط رأسه ، وقد علم القسام فترة من الزمن في مدرسة تمولها هذه الطريقة . ويقال عن القسام أنه ينتمي إلى الطريقة (التيجانية) و (النقشبندية) وكانت النقشبندية قد خاضت معارك النضال المضادة للاستعمار في سوريا خلال القرن التاسع عشر . انظر Schleifer, «Life and Thought», pp. 62-63, 69

١٠٩ ـــ انظر Lacham, «Arab Rebellion», p.77.

١١٠ ـــ انظر Porath, «Palestinian Arab», pp. 133-134

وأيضاً : كيالي . «Palestine» ص . ١٨٠ .

وأيضاً Schleifer, «Life and Thought»; p. 47

١١١ ـــ انظر كيالي ، «Palestine»ص . ١٨٠

وأيضاً Porath, «Palestinian Arab», p. 137

١١٢ ـــ انظر Hirst, Gun and Olive Branch, p. 76

١١٣ ـــ انظر Scleifer, «Life and Thought», p. 68

وأيضاً Lachman, «Arab Rebellion» p. 62

١١٤ ـــ انظر Hart, «Aith waryaghar», pp. 170ff, 377ff

١١٥ ـــ انظر Gilsenan, «Against Patron-Client Relations» pp. 217-28

١١٦ ـــ انظر Laclau, Politics and Ideology, p. 157.

إن ممارسات القسام تعيد إلى الأذهان فكرة والتر بينجامين عن « الصورة الجدلية » وتجميع مواد من الماضي

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

في الحاضر الثوري :

انظر : Susan Buck-Morss, «Walter-Benjamin-Revolutionary Writer (1)», New Left Review 128 (1981): 50-75.

انظر أيضاً تصنيف ويليامز حول « الثمالة » في :

Marxism, pp. 121-27

١١٧ — انظر Lechman, «Arab Rebellion», p. 64

١١٨ — انظر Thomas Hodgkin, «The Revolutionary Tradition in Islam», History Workshop 10 (1980): 148-49

١١٩ — انظر Lachman, «Arab Rebellion», p. 65;

وأيضاً ياسين « كفاح الشعب » ص . ١٥٤ . الذي يؤكد أن العمل المسلح لم يبدأ إلا في ١٩٣٣ .

١٢٠ — انظر Lechman, «Arab Rebellion», p. 72

١٢١ — انظر المرجع السابق ص . ٧٤

وأيضاً كيالي «Palestine»ص . ١٨٢ — ١٨٣

١٢٢ — انظر James J. Zogby «The Palestinian Revolt of the 1930's» in I. Abu-Lughod and B. Abu-Leban, eds., «Settler Regimes in Africa and the Arab world (Willmette, III: Medina U. P. I., 1974) pp. 182-83

١٢٣ — انظر كيالي «Palestine»ص . ١٩٢ .

١٢٤ — انظر Lachman, «Arab Rebellion», p. 78

وأيضاً Porath, «Palestinian Arab», pp. 179-82.

١٢٥ — انظر Porath, «Palestinian Arab», p. 192-93

١٢٦ — انظرالمرجع السابق ص . ١٧٩ — ١٨٢

١٢٧ — أبدى الفلسطينيون تعاطفاً ومساندة لثورة ١٩٢٥ عندما ترأس المفتي لجنة طوارىء لمساعدة الدروز . انظر Michael Assaf«The Arab Movement in Palestine (New York: Masada Youth Organizaton of America, 1937), p. 39

١٢٨ — انظر Porath, Palestinian Arab, pp. 211-21

وأيضاً كيالي «Palestine» ص . ٢٠١

١٢٩ — انظر Lesch, «Arab Politics», p. 122

١٣٠ — انظر Porath, «Palestinian Arab», p. 261

١٣١ — انظر Tom Bowden, «The Breakdown of Public Security: The Case of Irland 1916-1921 and Palestine 1936-1939» (Beverly Hills: Sage, 1977).

كان الحشيش من بين المواد المألوفة التي يقوم المهربون بالمتاجرة بها .

١٣٢ — انظر كيالي «Palestine» ص . ٢١٢

وأيضاً Porath, «Palestinian Arab», pp. 249-50.

وأيضاً Lechman, «Arab Rebellion», p. 80

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

١٣٣ — انظر Porath, «Palestinian Arab», p. 247.

أيضاً Yuval Arnon-Ohana, «The Bands in the Palestinian Arab Revolt, 1936-39: Structure and Organization», Asian and African Studies (Jerusalem) 15 (1981): 232.

استناداً إلى Arnon-Ohanna كانت عضوية العصابة تتراوح ما بين ٦٫٠٠٠ و ١٥٫٠٠٠ .

١٣٤ — انظر Porath, Palestinian Arab, pp. 267-69

١٣٥ — انظرالمرجع السابق ص . ٢٦٧ — ٢٦٨ .

وأيضاً كيالي «Palestine»ص . ٢١٤ .

١٣٦ — انظر Porath, Palestinian Arab, p. 269

١٣٧ — انظر المرجع السابق ص . ٢٥١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٩ .

١٣٨ — انظر Gabriel Sheffer, «Appeasement and the Problem of Palestine» IJMES (1980): 377-99

١٣٩ — انظر Christopher Sykes, «Cross Roads to Israel» (London: New English Library, 1967), p. 193

١٤٠ — انظر Porath, Palestinian Arab, p. 293

١٤١ — انظر Walid Khalidi, ed., «From Haven to Conquest» (Beirut: Institute For Palestine Studies, 1971), pp. 848-49.

١٤٢ — انظر Arnon-Ohanna, «Bands», p. 247

١٤٣ — أولئك الذين تقدموا بـ (حل) الحزب الثوري يتبعون مذاهب سياسية مختلفة ومن بينهم :

Porath, Palestinian Arab, p. 269,

وأيضاً ياسين « كفاح الشعب » ص . ١٩٥ — ١٩٦

وأيضاً Budeiri, «Palestine Communist Party», p. 107

وأيضاً Weinstock, Sionisme, p. 178

وأيضاً Tom Bowden, «The Politics of Arab Rebellion in Palestine», 1936-1939. Middle Eastern Studies II (1975): 147-74,

وأيضاً كيالي ، «Palestine»ص . ٢٣١ .

١٤٤ — انظر Williams, Marxism, pp. 121-27

١٤٥ — قال هذا الادعاء أيضاً مثلاً : Graham. Brown, Palestinians صفحة ١٧١ .

١٤٦ — انظر Paroth, Palestinian Arab, p. 183.

أيضاً Elpeleg, «1936-39, Disturbances», pp. 48-49

وأيضاً Lesch. Arab Politics, p. 223

١٤٧ — انظر Hirst, Gun and Olive Branch, p. 104

١٤٨ — مثلاً : سميح سمارة « العمل الشيوعي في فلسطين : الطبقة والشعب في مواجهة الكولونيالية » (بيروت : دار الفارابي ، ١٩٧٩)

وأيضاً Budeiri, Palestine Communist Party,

وكذلك Alain Greilsammer, «Les Communistes Israéliens (Paris: Presses de la Fondation Nationale des Sciences Politiques, 1978).

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

وللاطلاع على دراسة حول هذه الدراسات انظر

Alexander Flores, «The Palestine Communist Party during the Mandatory Period: An Account of Sources and Recent Research», Peuples méditerranéens II (1987): 3-23, 175-94.

لا تبحث مثل هذه الدراسات في ثورة ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩ إلا بصورة سطحية عاجلة وهي قلما تحوي تحليلاً اجتماعياً اقتصادياً للتشكل الاجتماعي الفلسطيني

١٤٩ ــ إن الدراسة التي قامت بها Sarah Graham Brown هي استثناء جدير بالتقدير . حول هذه النقطة انظر

Ibrahim Abu-lughod, «The Pitfalls of Palestiniology: A Review Essay». Arab Studies Quarterly by 3 (1981) p. 403-11

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

حول التنوع في الشعب العراقي، وتفكك مجتمعه ومسيرته إبان الفترة الملكية نحو بنية سياسية متماسكة

حنا بطاطو Hanna Batatu

لم يكن العراقيون في بداية القرن شعباً واحداً أو مجموعة سياسية واحدة. ولا نقصد بذلك مجرد الإشارة إلى وجود العديد من الأقليات العرقية والدينية في العراق مثل الأكراد والتركمان والإيرانيين والآشوريين والأرمن والكلدانيين واليهود واليزيديين والصابئة وغيرهم. إذ كانت الغالبية العظمى من سكان العراق، وهم العرب، بالرغم من أنهم يتقاسمون صفات مشتركة، عبارة عن تكتلات من المجتمعات المتمايزة والمتنافرة والمنهمكة في شؤونها الخاصة.

فهناك أولاً هوة واسعة تفصل المدن الرئيسية عن القبائل. وينتمي العرب في قسميهم المديني والقبلي إلى عالمين شبه منفصلين ــ باستثناء قاطني المدن الواقعة في الأراضي القبلية أو رجال القبائل الذين يعيشون في جوار المدن. وكانت الروابط بين هذين العالمين روابط اقتصادية أساساً. ولكن علاقتهما حتى في هذا المضمار لا تكاد توصف بأنها علاقة نشطة. وحتى حلول السبعينيات من القرن التاسع عشر كان القمح في المناطق البعيدة عن المدن الرئيسية أو عن شط العرب ونهر دجلة ــ إذ كانت السفن تتبادل التجارة على هذين النهرين فقط لأنه من الصعب تسيير المراكب الكبيرة على نهر الفرات ــ كان يتعفن في مخازنه أو كان يستعمل كوقود إذ ليس هناك وسيلة أخرى للاستفادة منه، في الوقت الذي كان الناس في بغداد يعانون فيه من حين لآخر من نقص الحبوب. وعلى الرغم من أن تطوراً مطرداً وإن كان بطيئاً قد طرأ في العقود التالية في اتجاه الاعتماد المتبادل، إلا أن التنافر الاقتصادي بقي قائماً. وظلت أجزاء من المناطق القبلية التي لا تصلها سفن النهر مكتفية ذاتياً حتى أنها

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

كانت تملك مدن أسواق خاصة بها . كما كان للمدن أريافها المحيطة بها أو الواقعة ضمن نطاق حمايتها . وهناك كانت تزرع الأراضي التي يعتمد رجال المدن عليها اعتماداً مباشراً من قبل الفلاحين الذين تربطهم الآن روابط الأرض رغم أنهم في الأصل رجال قبائل . إلا أن معظم الأراضي الزراعية والمراعي في العراق هي جزء من أملاك القبائل .

ولا تقل الهوة الاجتماعية والنفسية القائمة بين عرب المدن وعرب القبائل أهمية عن سابقتها . إذ كان أولئك العرب مختلفين غاية الاختلاف في عوامل شتى عن بعضهم البعض . فحياة عرب المدن كانت خاضعة إجمالاً لحكم الإسلام والقوانين العثمانية ، في حين أن حياة عرب القبائل كانت خاضعة لأحكام عادات قبلية قديمة يشوبها شيء من الإسلام . وقد تأثر بعض عرب المدن ــ والطبقة المثقفة منهم خاصة ــ بالثقافة التركية ، وفي المدن الشيعية كان أثر الثقافة الفارسية واضحاً ، بينما لـم تمس هذه الثقافة أياً من عرب القبائل بأي أثر . وكانت المكانة الطبقية واضحة المعالم إلى حد ما بين عرب المدن في حين أن العلاقات بين أهل القبائل الأكثر تنقلاً بقيت أبوية . وأصبح العديد من أهل المدن حسب ما كتبه مؤرخ عراقي في القرن التاسع عشر « معتادين على الخضوع والطاعة »[١] . أما أهالي القبائل الأكثر حرية فكانوا عصيين على القمع ، إذ كانت الحكومة بالنسبة لهم أمراً يثير الاستياء والضغينة . وكما عبر عنها أحد الهواشين الساخرين في منطقة الفرات (أي المغنين القبليين) : « ملضيّه وْما من سم بيها ، تينا وشانت مهيوبة »[٢] (أي أنها أفعى مترهلة لا سم فيها ، جئنا ورأيناها وفي الماضي فقط إنما كانت تخيفنا) . ومن جهة أخرى كان عرب المدن شديدي الإحساس والوعي بكونهم مسلمين بينما لم يكن الشعور بالإسلام لدى عرب القبائل بمثل تلك الحدة . ولست بغافل عن سلطة المقدسات الشيعية على القبائل الشيعية في منطقة الفرات إلا أن هذه السلطة لم تشحذ من العواطف الدينية لدى أهل القبائل كما هو الأمر عند مسلمي المدن . ومن الظواهر ذات الدلالة أن الأغاني في أوقات التأهب القبلية كانت عموماً أغان دنيوية ــ قبلية أو عربية ــ كمثل الخصلة العربية القديمة المروءة أو الرجولة في حين أن جماهير المدن كانت تلجأ في مسيراتها إلى الهتافات الدينية بشكل تلقائي : « الدين ! يا محمد ! »[٣] وقد كان شعاراً من الشعارات الدارجة بين الناس في بغداد[٤] . وكان عرب المدن وعرب القبائل كلاهما واعين بالطبع لكونهم عرباً ، وخاصة عندما يدفعون للمواجهة والقتال مع تركي مثلاً أو فارسي ، إلا أن وعيهم العروبي لا يمت بصلة من قريب أو بعيد لأحاسيس القومية العربية التي ظهرت فيما بعد . كانت عروبتهم أمراً طبيعياً بالنسبة لهم ، وحقيقة قد يفتخرون بها إلا

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

أنهم لم يشعروا يوماً بأنهم مضطرون لعمل شيء ما حيالها، فعروبتهم بكلمة أخرى لم تكن عروبة ديناميكية ولم تمثل الأمة بحد ذاتها محور عواطفهم أو ولائهم.

إلا أن هذه المقارنة التي عقدناها بين عرب المدن وعرب القبائل يجب ألا تتعدى حجمها الحقيقي. فنحن ليس بوسعنا أن ننسى أن العديد من أهل المدن كان إلى زمن قريب نسبياً من أصل قبلي. وهناك عدد كبير من سكان بغداد حتى يومنا هذا ممن لا يزالون يذكرون اسم القبيلة التي كانوا ينتمون إليها في وقت ما وذلك لا يتضمن المهاجرين القبليين الذين قدموا منذ العقود الأربعة الأخيرة. وإذا ما ألقينا نظرة على الجدول أدناه رقم (١) لأدركنا أنه لابد وأنه حدث في القرون الماضية نوع من التقلبات المتواترة في سكان المدينة. وإذ ننتبه إلى توالي الطاعون والمجاعات والفيضانات والكوارث الأخرى التي نزلت ببغداد نجدها تكاد تقول أن تلك المدينة كانت أشبه بفخ مميت أو وحش يلتهم سكانها وأن المناطق القبلية هي النبع الذي يسد النقص أو نوع من احتياطي بشري يمد المدينة بالسكان رغم أنه كانت هناك حتماً مصادر أخرى لتوافد السكان. ويبدو في الواقع أنه خلال القرون التي سبقت قرننا هذا عندما كانت شعلة المدن الواقعة على ضفاف الأنهر خابية وقوة القبائل في أوجها كان هناك عملية تحويل المدن إلى القبلية. وكان المهاجرون القبليون على أية حال يشكلون نوعاً من الصلة بين المجتمعين المنفصلين. ولكن ما إن يستقروا في المدينة حتى يستسلموا شيئاً فشيئاً للتأثيرات المدينية.

الجدول رقم ١ : الكوارث التي لدينا سجلات بوقائعها والتي اجتاحت بغداد في القرون ١٧ و١٨ و١٩

١٦٢١	مجاعة
١٦٢٣	ذبح «مئات أو آلاف» من السنة وبيع «آلاف» آخرين كرقيق على يد الفارسيين
١٦٣٣	فيضان
١٦٣٥	طاعون
١٦٣٨	مذبحة عامة على يد الأتراك: حوالي ٣٠٫٠٠٠ ضحية، معظمهم من الفرس.
١٦٥٦	فيضان
١٦٨٩	مجاعة وطاعون
١٧٣٣	حصار الفرس: مات أكثر من ١٠٠٫٠٠٠ جوعاً
	الطاعون الدبلي
١٧٧٧ ــ ١٧٧٨	الحرب الأهلية في بغداد
١٧٨٦	فيضان، كساد المحاصيل، مجاعة، نزاع أهلي

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

١٨٠٢ ــ ١٨٠٣	طاعون أودى بحياة « معظم شعب العراق (؟!) »
١٨٢٢	طاعون ، فيضان
١٨٣١	طاعون ، فيضان ، حصار ، مجاعة . انخفض عدد السكان في بغداد من حوالي ٨٠٫٠٠٠ إلى حوالي ٢٧٫٠٠٠ نسمة .
١٨٧٧ ــ ١٨٧٨	طاعون ، مجاعة
١٨٩٢	فيضان
١٨٩٥	فيضان

المصادر : ابن سند البصري الوائلي (١٧٦٦ ــ ١٨٣٤) ، « مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داوود » كما تصرف به أمين ب . حسن الحلواني المدني (القاهرة ١٩٥١) ، ص . ٣٩ و٨٧ ؛
Anthony N. Groves, Journal of a Residence at Baghdäd during the years 1830 and 1831 (London, 1832), pp.114, 135, and 236; S.H. Longrigg, Four Centuries of Modern Iraq (oxford 1925), pp.53, 57, 68, 73—4, 93, 143, 184—185, 253, 212, and 165;
وأحمد سوسه « أطلس بغداد » (بغداد ١٩٥٢) ، ص . ٣١ ــ ٣٢ .

لم يقتصر الانقسام الاجتماعي على المدن والمناطق القبلية ، إذ كانت المناطق القبلية نفسها متشرذمة ، وتداعى الاتحاد القبلي العتيق ، فولاية بغداد[٥] وحدها كانت تضم ١١٠ قبائل[٦] ، وعلى الرغم من أن هذه القبائل كانت تتبع أنظمة متشابهة ولديها مؤسسات متشابهة فإن علاقاتها كانت تسودها الغارات والغزوات إلى حد كبير . كما تنقسم القبائل إلى « الفلح » أو الفلاحين و « المعدان » أو سكان المستنقعات و « الشوايا » أو أصحاب الغنم و « أهل الإبل » أو أصحاب الجمال . وتشكل الفئة الأخيرة عملياً الطبقة الأرستقراطية القبلية . فهم يزدرون باستعلاء شديد جميع القبائل الأخرى ولا يقبلون بمؤاخاتها أو التزاوج معها[٧] . وكذلك كان أهالي قبائل الفرات الشديدو المراس والذين يعيشون في انسجام تام مع صحاري أجدادهم العظام ، يحتقرون أهالي قبائل دجلة في الجنوب الأكثر خنوعاً وإذعاناً وسيؤكد لنا أحد الشيوخ الفراتيين المعروفين بأن « قبائل العراق مجموعتان » :

« ينتمي للمجموعة الأولى أولئك الذين احتفظوا حتى يومنا هذا بكل الصفات النبيلة التي ميزت أسلافهم .. كحب الحرية والاستعداد للتضحية من أجلها ، وكراهية الظلم ، والاعتداد بالنفس والأثرة وروح جريئة نابضة بالحياة .. هؤلاء هم أهالي القبائل التي تعيش قرب ضفاف الفرات وشمالي بغداد . والمجموعة الثانية هم عرب بأصلهم العرقي إلا أنهم

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

نظراً لاحتكاكهم مع الحكومات المتوالية العربية منها وغير العربية خلال القرون الماضية، واختلافهم إلى المدن واختلاطهم بكل من هب ودب، فقدوا بعض خصالهم العربية ونسوا أو تناسوا كرامتهم وعاداتهم النبيلة.. هؤلاء هم أهالي القبائل التي استقرت في بعض مناطق دجلة جنوبي بغداد »[٨].

أما بالنسبة للمدن فالروابط المادية المحسوسة مهلهلة، فوسائل الاتصالات بدائية ويمكن الاعتماد عليها إذا ما استثنينا الخدمات التلغرافية الدائمة الأعطال وسفن الحديد التي تمخر عباب دجلة في مواعيد غير منتظمة. وكانت الرحلة من بغداد إلى البصرة تستغرق أسبوعاً وكان السفر بحد ذاته مغامرة. ونتيجة لذلك كثيراً ما كانت المدن تختلف في توجهاتها الاقتصادية. فالموصل كانت ترتبط بسوريا وتركيا، وبغداد والمدن المقدسة الشيعية ترتبط بإيران والصحاري الغربية والغربية الجنوبية. وتعتمد البصرة على تجارة البحر والهند. وتشهد الموازين والمقاييس المختلفة في مختلف مدن العراق[٩]، والتنوع الواسع في أسعار السلعة ذاتها الذي يعود لشروط تسويق متباينة[١٠] وكذلك الاستخدام المنتشر لأنواع مختلفة من العملات[١١]، على انعدام الوحدة الاقتصادية الخفي. وقد تضافرت كل تلك العوامل لتنمية إحساس متعاظم بالمحلية. ويروي أحد أبناء الموصل في مذكراته كيف أنه عندما عينه أحد محافظي حكومة (الأتراك الشباب)[١٢] عام ١٩٠٩ في مركز قاضٍ في البصرة، قام عدد كبير من وجهائها بتوقيع عريضة تعترض على هذا التعيين بحجة أنه « ليس من الأشراف[١٣] ولا الملّاكين[١٤] من أهل البصرة[١٥] ».

كان أهالي المدن الأكثر وعياً بالطبع يعدون أنفسهم جزءاً من مملكة الإسلام وظلت تعاليم الإسلام المثالية ــ على الرغم من أن الكثير من بريقها القديم قد خبا ــ ملجأ لهم من محليتهم وبقيت تربطهم بإخوانهم المسلمين ضمن حدود الإمبراطورية العثمانية وخارجها. إلا أن الإسلام في العراق كان عامل تقسيم أكثر منه عامل توحيد. إذ أحدث هوة عميقة ما بين العرب الشيعة والسنة، فتراهم نادراً ما يختلطون اجتماعياً ولا يتزاوجون فيما بينهم إلّا نادراً. وكانوا يقطنون أحياء منفصلة في المدن التي تحوي خليطاً من الفئتين ويعيشون حياة مستقلة عن بعضهم البعض. وكانت الحكومة القائمة بالنسبة للشيعة المتعصبين ــ أي حكومة السلطان العثماني الذي يتزعم الإسلام السنة ــ هي حكومة مغتصبة في جوهرها؛ وهي في أعينهم غير مؤهلة حتى لتنفيذ قوانين الإسلام. لذلك كانوا بمنأى عنها فلا يكترث سوى القلة منهم بخدمتها أو بالذهاب إلى مدارسها.

ويتبدى الشرخ الكبير بين الشيعة والسنة أعمق قراراً عندما يتواقت مع نوع آخر من

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

الانقسام الاجتماعي : أي الفارق الطبقي ، وسنبحث في أمر الترابط بين الانقسامات الطائفية والطبقية في موقع آخر من هذا البحث بشكل مفصل أكثر[١٦] . وسنكتفي هنا بالإشارة إلى أثرها المحرض للخلافات على مشاعر الطائفتين ، وبالإضافة بشكل عرضي بأن وجود هذا العامل يدل على أن نفورهما المشترك وإن كان مظهره دينياً فإن جذوره ترجع إلى حد ما إلى أسباب اقتصادية واجتماعية .

وقد وجدت معظم الانقسامات المدينية متنفساً لها في ظاهرة أخرى وهي « المحلة » أو حي المدينة . ففي مدن العراق تميل الفئات التي تنتمي إلى أديان أو طوائف أو طبقات اجتماعية مختلفة أو التي هي من أصول اثنية أو قبلية مختلفة ، للعيش في « محلات » أو أحياء منفصلة ، ولنأخذ مثالاً على ذلك الضفة الرئيسية في بغداد وهي الضفة الشرقية : فالشيعة يسكنون في « الدهّانة » و « وصبابيغ الآل » و « القشال »[١٧] ، « وسوق العطارين » وأحياء أخرى ؛ ويسكن اليهود غالباً في « التوراة » و « تحت التكية » و « أبو سيفين » وفي « سوق حنّون » ، بينما يسكن المسيحيون في « عقد النصارى » و « رأس القرية »[١٨] . ويحتل السنة معظم بقية القسم الشرقي من المدينة الذي ينقسم بدوره إلى تقسيمات عدة . « فالميدان » مخصص للجيش التركي ، وتسكن العائلات « الأرستقراطية » والمسؤولون الكبار في « الحيدر خانة » ، ويعيش الموظفون الأدنى مرتبة في « دكان شناوة » ، ويسكن الفنانون[١٩] في الحي الداخلي لـ « باب الشيخ » . بينما يعيش ضباط الجيش من أصول متواضعة على تخوم حي « باب الشيخ » . كما كانت الطبقة الواسعة من « الكسبة »[٢٠] تعيش أيضاً في « باب الشيخ » و « دكان شناوة » وغيرهما من الأحياء »[٢١] وتميز هذه الظاهرة نفسها ضواحي بغداد : « الكاظمية » التي تضم ضريحي الإمامين الشيعيين السابع والتاسع[٢٢] ، والتي كانت منطقة شيعية حصراً وفيها الكثير جداً من الإيرانيين ، في حين أن « الأعظمية » التي تعود في أصولها إلى أنها مثوى « أبو حنيفة » الإمام المشرع والفقيه السني في القرن الثامن والذي يقوم ضريحه على الضفة الأخرى من دجلة ، كانت حياً مقتصراً على السنة وتسكنه غالباً سلالة القبيلة العربية « عُبيد »[٢٣] .

كما يميل أفراد كل مهنة من المهن التي يمارسها الحرفيون الذين ينتظمون بشكل ارتجالي إلى حد ما في اتحادات أو « أصناف » ، إلى السكن جنباً إلى جنب في الشارع نفسه ، وجميعهم على ما يظهر امتداد لعائلة واحدة أو لمجموعة قليلة من العائلات أصلاً[٢٤] .

ويعيش سكان (المحلة) ، كقاعدة عامة ، في عالم خاص بهم ، وهم منغمسون إلى حد بعيد في محدودية حياتهم ، باستثناء عدد صغير جداً من الأشخاص المتعلمين منهم ، ونادراً

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

ما تخطر في بالهم فكرة المجتمع ككل أو ما يتعلق بمصالحه، وليس لديهم في الحقيقة أدنى تصور لمفهوم مثل هذا المجتمع. كما يتمتع أولئك الذين يشكلون ما يسمى (بالملّة)[٢٥] مثل المسيحيين واليهود بحكم ذاتي في كل ما يتصل بشؤونهم الخاصة والدينية.

ولدينا الكثير من الأدلة والبراهين في المصادر التي نرجع إليها عن قوة عقلية «المحلّة» في ذلك الحين. فعندما ثار سكان النجف مثلاً في أبريل/نيسان ١٩١٥ ضد الأتراك وطردوهم من المدينة، أصبح كل حي من أحياء النجف الأربعة مستقلاً وبقي يتمتع بهذه المكانة المستقلة إلى أن دخل الإنجليز في أغسطس/آب ١٩١٧[٢٦]. لقد تم الحفاظ على دستور واحد من هذه الأحياء وهو حي (البراق). ونظراً لأهميته ولتجسيده لمستوى الفكر السياسي المعاصر لبعض أهل المدن العراقيين يجدر بنا أن ندرج هنا عدداً من فقراته (سيلاحظ القارئ هنا كيف أن التنظيم الاجتماعي للحي في هذه المدينة كان لا يزال مستنداً إلى حد بعيد على الانتماء القبلي، الأمر الذي يبرهن على النقطة المذكورة أعلاه حول عملية تحويل المدن إلى القبلية؛ ولكن علينا أن نتذكر هنا أن للنجف صلات أكثر صميمية مع المناطق القبلية من باقي المدن (الرئيسية):

دستور عام ١٩١٥ لحي البراق في النجف

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين:

نحن نكتب هذه الوثيقة لكي نضمن الوحدة والانسجام فيما بيننا، نحن سكان حي البراق وأسماؤنا مدونة في أسفل هذه الوثيقة.

لقد جمعنا أنفسنا وأصبحنا موحدين وبدم واحد وسيتبع واحدنا الآخر إن ألم بحينا مكروه على يد الأحياء الأخرى. وسنهبّ معاً في وجه أي كان ممن ليس منا سواء أكانت النتيجة لصالحنا أم لا، وشروط اتحادنا هي كالتالي:

١ ــ إذا ما قتل أحد من خارج الحي فعلى القاتل أن يدفع خمس ليرات [حوالي خمسة جنيهات استرلينية] وستدفع القبيلة كلها ما تبقى من الدية المفروضة.

٢ ــ إذا ما قتل أي من اتحادنا، يدفع (الفصل)[٢٧] نصفه لعائلة الرجل المقتول ونصفه للاتحاد.

٣ ــ إذا ما قتل أحد رجلاً من قبيلته نفسها ولم يكن للقبيلة زعيمٌ مسؤول فعلى القاتل أن يهجر المكان لسبع سنوات وكل من سيمد له يد المساعدة سيطرد أيضاً للفترة نفسها.

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

وتكون قيمة (الفصل) ثلاثين ليرة ذهبية .. يذهب ثلثها للاتحاد وثلثيها للأقارب ...

٧ ـــ إذا ما أصاب مكروه أحداً منا ممن يسرقون أو ينهبون أو يزنون فنحن لسنا غير مسؤولين وحسب بل ولن تربطنا به صداقة أبداً.

٨ ـــ إذا ما ألقت الحكومة القبض على أحد منا بسبب فعل قمنا به أو إن اعتقل وألقي به في السجن فإن جميع مصاريفه سندفعها نحن.

ينطبق ما سبق علينا جميعاً. نحن في وحدة مع (كاظم)[٢٨] سواء أكان في المدينة أم لم يكن وبناء على هذا الشرط نوقع جميعاً ... والله علينا شهيد»[٢٩].

لم يكن الميل للانقسام إلى (محلّات) مستقلة أمراً مقتصراً على النجف بأي حال من الأحوال، فخلال الحرب العالمية الأولى انحاز الحي الشرقي للمدينة الفراتية الصغيرة (سماوة) إلى جانب البريطانيين في حين احتفظ الحي الغربي بحيادية علنية[٣٠]. وكان الحيان برئاسة شيوخهما المستقلين يشنان حربا دائمة ضد بعضهما البعض لعشرين سنة خلت[٣١]. وكتب نائب القنصل البريطاني في ١٩٠٩ عن الموصل قائلاً: «إن المشاعر بين الأحياء المختلفة محتدة غالباً ومفعمة بالمرارة وكثيراً ما تنتهي إلى الاقتتال ... فتنتصب المتاريس ويكون السلاح المستخدم هو الهراوات والعصي والمسدسات والسكاكين والحجارة. لم يقع سوى واحد من هذه الاشتباكات في السنة الماضية فقتل رجل واحد وجرح العديد»[٣٢]. وحتى في بغداد كان الولاء لـ(المحلّة) يؤكد نفسه بصورة فعالة، إذ يسرد لنا أحد المصادر بأن مظاهرة جرت في أكتوبر/تشرين الأول ١٩١١ ونظمتها على ما يبدو السلطات التركية للاحتجاج على غزو إيطاليا لطرابلس ويتبين لنا من هذا السرد أن الناس كانوا مفروزين حسب الأحياء التي يسكنونها وأن شجاراً قد نشب بين وفد حي «باب الشيخ» ووفد «حيدر خانة» حول مسألة ترتيب المسيرة ومن سيسير في مقدمتها[٣٣].

لقد نظرنا حتى الآن إلى الولاءات المتعددة في العراق فيما قبل الحرب العالمية الأولى على أنها مجرد ولاءات سلبية ومسببة للشقاق، والحق أنها تفي بحاجة إيجابية إذا ما أخذت من وجهة نظر الفرد الذي هو جزء منها طالما أنها لا تتحجر في مفاهيمها وتفرغ من جوهرها. فالقبائل و «المحلّات» و (الأصناف) جميعها كانت إلى حد ما تعبيراً عن الرغبة الكامنة في الحماية من خلال الوحدة. هذه الحماية التي عجزت الحكومة العثمانية بسبب ضعفها، عن تأمينها بانتظام. وكتب أحد مندوبي بغداد إلى البرلمان العثماني: «إن الاعتماد على القبيلة هو خير بألف مرة من الاعتماد على الحكومة، فبينما تتجاهل الحكومة الاضطهاد أو تؤجل القيام بشيء حياله، فإن القبيلة مهما تكن ضعيفة فإنها حالما تسمع عن ظلم أصاب أحد أفرادها،

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

تعد نفسها للأخذ بثأره »[٣٤] . ويعكس الدستور الذي ذكر سابقاً لحي البراق في النجف أن (المحلّة) كانت لها الوظيفة نفسها . (فالأصناف) هي أيضاً منظمات للدعم المشترك بشكل ما ، وأحد واجباتها هو مد يد العون للأعضاء الذين هم « مرضى أو في حاجة »[٣٦] ، كما ورد التعبير في أنظمتهم الصادرة منذ ١٩١٠ . والصلات ضمن القبائل صلات وثيقة للغاية وقد أسهمت في غرس عواطف خاصة قوية في نفوس أبنائها . فالفرد الذي ينتمي إلى قبيلة يعرف أنه ليس وحيداً وأن له مرتكزاًمتيناً يستند إليه في الشدائد ، وهو نادراً ما يحس بكرب العجز والضعف .

ويمكننا الآن أن نعدل وجهة نظرنا للمرة الثانية ، فالولاءات المتعددة التي تحدثنا عنها وكأنها في حالة سكون جامدة كانت في الحقيقة تمر في عملية نحت وتآكل إلى درجة تتفاوت في شدتها وخاصة في بغداد وضواحيها وفي البصرة والمناطق القبلية لشط العرب ودجلة الأدنى ؛ وكان ذلك الأثر التراكمي لإدخال السفن البخارية النهرية عام ١٨٥٩ ولظهور التلغراف الكهربائي عام ١٨٦١ وما رافقهما من تعميق مدى التغلغل الاقتصادي البريطاني وربط العراق بعالم الرأسمال ، وفتح المدارس الحكومية (منذ ١٨٦٩) وتطور الصحافة (خاصة بعد ١٩٠٨) والمحاولات المتكررة التي قامت بها الحكومة التركية بين ١٨٣١ و١٩١٤ لتجميع كل وسائل السلطة بين أيديها وتفريق شمل القبائل وعثمنة سكان المدن .

إن التغلغل الناجم للأموال ولفكرة الربح بين بعض القبائل وانتقال بعض هذه القبائل من الاكتفاء الذاتي إلى اقتصاد متوجه نحو السوق وكذلك تحول شيوخها من ممثلين عن الجماعة إلى ملاك أراضي يسعون لتحقيق الأرباح ، والسياسة التركية لتحريض شيخ قبيلة ضد شيخ قبيلة آخر وتنافس الكبار من بين هؤلاء الزعماء فيما بينهم على الفلاحين ، والاختلاط بين القبائل ، جميع تلك العوامل أحدثت تغيرات هائلة في ظروف الحياة في المناطق التي نالها التغير بحيث أوهن الولاءات القبلية القديمة أو جعلها تفقد فعاليتها وتصبح لا حول لها ولا قوة[٣٦] .

ترك تدفق البضائع الإنكليزية أثراً سلبياً في المدن والبلدات على ما تبقى من الحرف القديمة وخاصة نسج الأقمشة[٣٧] ، وبهذا أضعف الارتباط بـ (الأصناف) ، ولكن التدهور الصناعي في بغداد نفسها يعود في معظمه إلى الخراب الذي لحق بالمدينة من جراء الطاعون والفيضان في ١٨٣١ .

إن أحد الآثار الجانبية الأخرى للعملية الجديدة هو ظهور قوة اجتماعية كانت ضئيلة الحجم آنذاك وهي الطبقة المثقفة الجديدة والتي نجم عنها عملياً ولادة ولاء جديد هو الوطنية .

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

لم تحل الوطنية محل الولاءات القديمة، ورغم أنها كبرت ونمت على حساب تلك الولاءات إلا أنها بقيت تعيش جنباً إلى جنب معها. ولا شك في أنها كانت تنحت منها وتوهن تماسكها ولكنها كانت في الوقت نفسه تمتص بعض العناصر النفسية لتلك الولاءات وتعبر عن نفسها ضمن المناهج العاطفية والفكرية للدين الإسلامي.

أسهم العديد من الحقائق والتأثيرات بشكل مباشر أو غير مباشر في نشر المشاعر الوطنية الجديدة. وكان من هذه العوامل عدد العراقيين الشبان الذين يدرسون في مدارس تركية عليا وخاصة الأكاديمية العسكرية في استنبول والتعرض المتزايد لأنماط التفكير الأوروبي، وظهور الوحدة التركية الشاملة، والإيقاع المتسارع لانتشار العثمنة، وعدم اكتراث الأتراك عموماً بالاحتياجات المحلية، وكذلك انتشار الكتب والصحف، وزيادة الاتصالات بين العرب وظهور نوادي وجمعيات الوحدة العربية؛ وتعاظم الاهتمام بتاريخ العرب وإنجازات الماضي والإحساس بالبؤس والفاقة وتدهور الظروف المعيشية القائمة، وبالطبع هناك عامل جذب اللغة المشتركة والأصل الاثني الواحد لأغلبية العراقيين. إلا أن أكثر ما ساعد على نمو هذه العاطفة الجديدة هو غزو الإنكليز في ١٩١٤ ــ ١٩١٨ أو بالأحرى المقاومة التي استثارها الغزو والتي بلغت ذروتها في الانتفاضة المسلحة في ١٩٢٠. وللمرة الأولى منذ قرون عديدة نجد الشيعة يقفون سياسياً جنباً إلى جنب مع السنة، ويكافح أهالي مدينة بغداد ورجال القبائل من الفرات من أجل قضية مشتركة. وقامت احتفالات لم يسبق لها مثيل جمعت الشيعة والسنة معاً في جميع المساجد الشيعية والسنية على التوالي وكانت احتفالات ظاهرها ديني ولكنها في حقيقتها سياسية. فأقيمت (موالد) خاصة وهي المراسم الاحتفالية الخاصة بالسنة تكريماً لمولد الرسول وأعقبتها في مرات كثيرة (تعزيات) وهي المآتم الشيعية لندب الشهيد (الحسين)[٣٨]. وكانت الاحتفالات تختتم بخطابات وطنية وتلقى فيها القصائد منددة بالإنكليز[٣٩]. وليس بوسعنا القول هنا بأن الانتفاضة المسلحة التي عجل هذا الهيجان بإثارتها كانت وطنية بحق في طبيعتها أو في آمالها. فهي في أساسها قضية قبلية بثت الحياة فيها مجموعة من العواطف المحلية والمصالح إلا أنها أضحت جزءاً من الميثولوجيا الوطنية وبهذا أصبحت عاملاً هاماً في نشر الوعي الوطني. والحقيقة أننا لا نغالي إن قلنا بأن أحداث ١٩١٩ ــ ١٩٢٠ وخصوصاً بانعقاد هذه الرابطة ــ مهما تكن واهية ــ بين السنة والشيعة، ابتدأت عملية جديدة: بروز مجتمع وطني عراقي بخطوات مؤلمة أحياناً تكون بطيئة وتدريجية وأحياناً تكون خطوات متقطعة انفعالية.

وأصبح من الواضح تدريجياً مع قيام الملكية التي تأسست في ١٩٢١ أن تطور هذه

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

العملية لم يعمل على تسريع دمج الشيعة في العمل السياسي أو رص صفوف الشيعة والسنة في بنيان واحد والتوحيد الطوعي لإرادتهما بل وتزاوجهما أيضاً وحسب، بل كان على وشك التوصل إلى حل ناجح بشأن صراع تاريخي آخر هو أساس العديد من الانقسامات التي أفسدت المجتمع العراقي: وهو الصراع المزدوج بين القبائل والمدن الواقعة على ضفاف النهر، وبين القبائل فيما بينها على السهوب المنتجة للأغذية في مناطق دجلة والفرات.

يمكن فهم الكثير من تاريخ ماقبل الملكية في هذا البلد على ضوء ذلك النزاع، فمبادئ الحياة في المدن والقبائل في وديان النهر في العراق متناقضة بشكل ما؛ وبمعنى أدق فإن وجود قبائل قوية كان ملازماً عادة لوجود مدن ضعيفة. والعكس صحيح إذ أن توسع المدن يعني انحسار القبائل. وهكذا ففي الفترة ما بين القرن الثالث عشر والقرن الثامن عشر التي شهدت زوال الخلافة العباسية وحملات النهب والسلب التي قام بها خانات المغول والدمار شبه الشامل الذي لحق بالخنادق العتيقة، وغزوات الجيلاريين والتركمان والمغول التيموريين، والصفويين والعثمانيين والحروب التركية ــ الإيرانية المطولة والمتقطعة، أثبتت حقيقة جوهرية واحدة فيها باستمرار وهي: الفت في عضد المدن وإضعافها والمرادف المحتم لذلك هو تعاظم سلطة القبائل. إلا أن الحياة الجديدة والأفكار الجديدة التي تسربت إلى العراق خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر بفعل الاتصالات الجديدة والروابط الجديدة مع العالم الرأسمالي وعبر عوامل أخرى أشرنا إليها، قلبت النزعة التاريخية رأساً على عقب مؤدية إلى استجماع المدن لقواها وبدء تحلل النظام القبلي.

ويمكن القول هنا بأنه في خضم ذلك النزاع قام السلاطين العثمانيون المصلحون في القرن التاسع عشر و«الأتراك الشبان» الذين حملتهم ثورة ١٩٠٨ إلى السلطة السياسية، بتزعم قضية المدن بأساليبهم الخاصة. في حين وجد الإنكليز المتلهفون لتجنب تحمل الأعباء المادية لنفقات الحفاظ على قوة ضخمة من قوات الاحتلال، أن في إبقائهم على الميزان القائم بين قوة رجال القبائل ضد أهالي المدن الضمان الأوفر لاستمرارية سلطتهم هم. فلم يكتفوا بمحاولات للوقوف في وجه عملية انحسار الوجود القبلي المبدئية والحيلولة دون استمرارها، وصيانة سلطة الزعماء القبليين، والحد من تواصل أهالي المدن وأهالي القبائل وإبقائه في حدوده الدنيا، بل لقد سعوا لتدعيم الشرخ القائم بتثبيت قواعد الاعتراف الرسمي بالعادات القبلية. ونصت «أنظمة الخلافات القبلية» الصادرة عن الإنجليز بتاريخ ٢٧ يوليو/تموز ١٩١٨ وهي بيان له قوة القانون وقد صار قانوناً في الفترة الملكية، تحت إلحاح الإنجليز، بموجب البندين ١١٣ و١١٤ من الدستور العراقي في ١٩٢٥، على استثناء الريف من

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

القانون الوطني . وهكذا سيبقى العراق حتى ثورة تموز/يوليو ١٩٥٨ خاضعاً قانوناً لمعيارين : واحد للمدن وآخر للأرياف القبلية .

ما من شك في أن إسهامات الإنجليز التي جاءت على شكل أفكار أو مهارات في حقول الإدارة والري والزراعة وجوانب أخرى في الحياة قد ساعدت في الوقت نفسه على تقدم العراقيين باتجاه دولة فعلية — وإن تكن هذه الإسهامات وليدة الصدفة وعرضية في مسيرة سعي الإنجليز لتحقيق مصالحهم الإمبريالية الأساسية . وقد يكون وجود الإنكليز في العشرينيات من هذا القرن أمراً حاسماً في الحفاظ على تماسك العراق والحيلولة دون تداعيه . وقد كتب في ذلك العقد المندوب السامي البريطاني (هنري دوبز Henry Dobbs) يقول : « لو أن القوات العسكرية الملكية والحلف البريطاني عزمت على الانسحاب لكانت الحكومة في العراق كما أعتقد إما اختفت كلية في غضون بضعة أشهر أو لبقيت متشبثة بكل ما لديها من قوة بقطعة صغيرة من الأرض على طول دجلة بين « سامراء » و « كوت » في حين تتهاوى بقية البلاد برمتها »[٤٠] . وبما أن الملكية كانت طرية العود آنذاك وجيشها تعوزه القوة في حين تعج المناطق القبلية بالأسلحة ، نجد من الصعب هنا ألا نوافق دوبز الرأي . ومن جهة أخرى بذل الإنجليز كل ما في وسعهم — كما اشتكى الوطنيون العراقيون — لغض النظر عن احتياجات الجيش الملكي وإهمالها وتأجيل إدخال التجنيد الإلزامي قدر الإمكان الذي كان يفترض أن يقوي ويشد من أزر الملكية عسكرياً ويقلل من أعبائها المادية في الوقت نفسه ، وذلك على عكس مبدأ الخدمة الطوعية التي كانت نافذة في ذلك الحين .

كانت الملكية الهاشمية على الرغم من أنها صنيعة الإنجليز تحيا في العقدين الأولين من عهدها بروح مناقض جوهراً لروح الإنجليز . إذ اتجهت بفطرتها في الفترة ١٩٢١ — ١٩٣٩ إلى دفع عجلة تطوير بناء الأمة في العراق بقدر ما تسمح لها ظروف تبعيتها — والفضل في ذلك يعود إلى التضافر الوثيق المبدئي بين مصالحها الملكية ومصير حركة الوحدة العربية . وبناء على ذلك ولكي تستوفي احتياجاتها الإدارية أيضاً ، أضافت الملكية إلى التسهيلات التعليمية الموجودة إضافة كبيرة[٤١] ، وبهذا أضافت في النهاية إلى طبقة المثقفين من الطبقة المتوسطة الجديدة التي تحمل بطبيعتها العاطفة الوطنية . وبذلت الملكية قصارى جهدها في تلك السنوات وبشكل مستمر ، لتغذية العواطف الوطنية في المدارس وإذكاء جذوة التعاطف المتوثب مع أمثولة الوحدة العربية . ولكن التركيز الأكبر في عهد فيصل الأول (١٩٢١ — ١٩٣٣) لسياسة الملكية انصب على المهمة العاجلة والصعبة جداً لزرع وتنشئة روابط متينة من المشاعر المشتركة والأهداف المشتركة بين العناصر المتنافرة المتنوعة في

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

العراق . وأكد فيصل في مذكرة سرية له بأنه :

« مايزال العراق ـــ وأقول هذا وقلبي مفعم بالأسى ـــ دون شعب عراقي بل بتجمعات تفوق التصور من الكائنات البشرية خالية الذهن من أية فكرة وطنية ومشربة بالتقاليد الدينية والخزعبلات ، لاتربط بينها صلة مشتركة وتعير أذنها لكل الشرور ، وهي عرضة للفوضى ومستعدة دوماً أن تهب في وجه أية حكومة مهما كانت . نحن نريد أن نصوغ شعباً من هذه الكتل البشرية ندربه ونعلمه ونهذبه ... ويمكن تصور ضخامة حجم الجهود المطلوبة لتحقيق ذلك في ظل الظروف الراهنة »[٤٢] .

وإذ أدرك فيصل كم من الأمور تتوقف على مصالحة الشيعة وكان القلق ينتابه لعلمه بأن هناك الكثير من الصحة في القول الذي سمعه « آلاف المرات » بأن « الضرائب مفروضة على الشيعة ، والموت حق على الشيعة ، والمناصب للسنة » فعمل جاهداً لربط الشيعة بالدولة الجديدة وتسهيل انتسابهم إلى الخدمة الحكومية وعمل ـــ فيما حاول القيام به ـــ على إخضاع الأفراد الشبان الواعدين من هذه الطائفة لبرنامج تدريب مكثف وأتاح لهم المجال للصعود بسرعة لتبوء المناصب المسؤولة[٤٣] . كما أوعز بأن يتلقى الأكراد حصة مناسبة من التعيينات العامة . وشعر في الوقت نفسه بأنه لا يمكن إحراز تقدم حقيقي نحو إقامة دولة فعلية دون تدعيم الجيش . وبما أن الحكومة كانت « أضعف بما لا يقاس من الشعب » ـــ إذ كان في البلد سنة ١٩٣٣ « أكثر من ١٠٠٫٠٠٠ مسدس في حين لا تملك الدولة سوى ١٥٫٠٠٠ مسدس »[٤٤] ـــ كان الشك يخامر فيصل في قدرته على مواجهة انتفاضتين مسلحتين متواقتتين في مناطق متباعدة[٤٥] . وفكر بأن « من الحمق » أن ننفذ إصلاحات هامة أو مشاريع تنمية دون ضمان قوة حماية فعالة . واعتبر أن الجيش هو « العمود الفقري لبناء الأمة »[٤٦] . وبناء عليه زاد فيصل في ١٩٣٣ وهو العام الذي أحرزت فيه العراق سلطتها المطلقة على جميع شؤونها الداخلية ـــ من قوة المؤسسة العسكرية من ٧٫٥٠٠ رجل والذي بقي ثابتاً منذ ١٩٢٥[٤٨] إلى ١١٫٥٠٠ رجل .

كان فيصل يخطو بحذر وتؤدة في سعيه لإعادة صياغة العراق على أسس وطنية ، مثبتاً ناظريه ليس على ما هو مرغوب بل على ما يمكن تحقيقه عملياً ، فتجنب اتخاذ أي خطوة من شأنها الإيحاء بالمغامرة والتهور . بالطبع لم يكن فيصل في هذا المجال كغيره من مجالات السياسة ، مدفوعاً بالإخلاص والتفاني المحض لمصالح شعبه ، إذ أنه عندما يرسي دعائم دولة متماسكة فهو يرسي دعائم سلطة عائلته هو .

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

على الرغم من أن البلاد وقعت فريسة التمرد القبلي والانقلابات العسكرية في عهد (غازي) (١٩٣٣ ــ ١٩٣٩) الذي كان شاباً عديم الخبرة وتراجع التأثير الشخصي الذي يمكن للملك ممارسته تراجعاً ملموساً، إلا أن الميول الأساسية في السياسة الملكية بقيت ثابتة على مسارها ولم يطرأ عليها أي انحراف أساسي، باستثناء تغير واحد وقع أثناء الفترة القصيرة بين ١٩٣٦ ــ ١٩٣٧ عندما أصبحت سمة الوحدة العربية المميزة للدولة أشد وضوحاً. ازداد تعداد الجيش في عام ١٩٣٦[٤٩] فأصبح يضم ٨٠٠ضابط و١٩٫٥٠٠ جندي ثم بلغ العدد في ١٩٣٩ ١٫٤٢٦ ضابطاً و٢٦٫٣٤٥ جندياً[٥٠]، وكان هناك حفنة من الطيارين العراقيين الضباط في ١٩٣٣ إلا أن العدد قفز إلى ٣٧ طياراً في عام ١٩٣٦ وكان من المتوقع أن يصل هذا الرقم إلى ١٢٧ مع نهاية العام التالي[٥١] وكذلك تم تمديد خط إضافي للسكة الحديدية الممتدة من بغداد إلى بيجي والذي كان من المخطط له أن يكون جزءاً من السكة الحديدية الاستراتيجية الواصلة بين برلين ــ بغداد والذي أُهمل إتمامه في نهاية الحرب العالمية الأولى، وأصبح الخط الجديد يصل حتى تل كوشك على الحدود السورية[٥٢]، مما سهل التنقل المتصل من الموصل إلى الخليج وكان مؤشراً واضحاً على التقدم الذي أحرزته سيطرة الدولة المركزية وكذلك على التقدم نحو تحويل العراق إلى وحدة اقتصادية منظمة. والأهم من كل ما سبق هو نجاح الضباط الشريفيين السابقين[٥٣] الذين كانوا أقرب العناصر إلى الملك فيصل الأول والذين كانوا يسعون جاهدين وبكل ما أوتوا من قوة لإنشاء جيش يقوم على التجنيد الإجباري، وبلغوا مرادهم في ١٩٣٤ وبهذا مهدوا السبيل لتحويل القوات العسكرية أخيراً إلى وسيلة فعالة لاختلاط رجال القبائل ورجال المدن فيما بينهم وتحطيم الحاجز الصارم المحكم بين القبائل ــ وذلك مطلب لا بد منه لتوحيد صفوفهم في الحياة الوطنية.

باختصار كان للملك ــ الذي تمركز في بغداد ــ خلال فترة ١٩٢١ ــ ١٩٣٩ كلها معنى اجتماعياً مخالفاً ومعارضاً معارضة مباشرة للمعنى الذي يمثله شيوخ القبائل الذين كانوا آنذاك الحكام الفعليين لمعظم الريف. إذ يمثل الشيخ مبدأ المجتمع المتشرذم أو المتعدد الانتماءات (عدة قبائل)، بينما يمثل الملك الفكرة المثلى لمجتمع موحد (شعب عراقي واحد، أمة عربية واحدة). وإذا ما أردنا التعبير عن هذه العلاقة بشكل مختلف نقول بأن الشيخ كان حامي حمى العرف القبلي الذي يبذر بذور الشقاق والملك كان نصير القانون الوطني الداعي للوحدة. كان هناك بكل تأكيد تناقضٌ جوهريٌ بين المبدأ المثالي لشعب عراقي واحد ومبدأ الأمة العربية الواحدة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار وجود أقليات كبيرة الأعداد وغير عربية، إلا

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

أن ما خفف من حدة عنصر التناقض هذا هو أن أحداً لم يسعَ حقيقة سعياً فعلياً لتحقيق هدف الوحدة العربية ـــ وهو تعبير استعمل للفصل بينها وبين التعاون فيما بين العرب » .

اختلف المعنى الاجتماعي للملكية في عهد الأمير عبد الإله الذي حكم كوصي على العرش خلال السنوات التي كان فيها ابن أخيه ما يزال قاصراً وهو (فيصل الثاني) وامتد ذلك من ١٩٣٩ ـــ ١٩٥٣ . ثم استمر الأمير عبد الإله في الفترة التي أعقبت بلوغ الملك الشاب سن الرشد وتتويجه ملكاً ، بالتشبث باستماتة بزمام السلطة في الحكومة إلى أن جاءت نهايته على يد الثوريين في ١٩٥٨ .

بدأت بذور هذا التغير في الفترة بين ١٩٣٦ ـــ ١٩٤١ . فقد بدأ الضباط الشريفيون السابقون البارزون في تلك السنوات ـــ ومن بينهم نوري السعيد الذي سيصبح السياسي الرئيسي للملكية مع آخرين ـــ يدركون بأن هناك سلاحاً يستخدم ضدهم ببراعة وهو سلاح الجيش الذي ساعدوا هم في تشكيله والذي كان مرتكز السياسة الملكية . فسلسلة الانقلابات العسكرية التي وقعوا في شراكها كانت بشكل ما تذكيراً لهم بمحاولاتهم هم لاستخدام الجيش لأغراض إثارة الشقاقات[٥٤] . كما كانت الانقلابات تمثل بشكل آخر اقتحام الشريحة المسلحة من الطبقة الوسطى[٥٥] الدائرة الضيقة للجهاز الحاكم اقتحاماً ناجحاً وإن لم يدم طويلاً : كانت السلطة حتى ما قبل ١٩٣٦ مقصورة على الإنجليز والملك والضباط البارزين من الشريفيين السابقين[٥٦] وعلى الشريحة العليا من الطبقات المالكة . ولكن يجب ألا نستنتج من كل ما سبق أن الانقلابات كانت بالتحديد نشاطات طبقية أو أن هناك علاقة مباشرة أو واعية بين المنشأ الاجتماعي لكل ضابط بمفرده ممن اشتركوا في الانقلابات وبين مسلكهم السياسي . كانت الانقلابات بطبيعة الحال تنفذ بمبادرة من عدد صغير من الأفراد ويمكن رد أسبابها إلى الدوافع الشخصية للضباط القادة إلى حد ما أو إلى المكائد التي يحوكها السياسيون الطموحون أو إلى المثال الذي توحي به الأنظمة العسكرية المجاورة ـــ في إيران وتركيا ـــ إلا أن الانقلابات نجحت ـــ ولو إلى حين ـــ لأنها لمست أوتار عواطف لدى الناس أو أبدت نزعات وميول كالإصلاح أو الوحدة العربية أو عدم الانحياز أو المعارضة الشديدة للتأثير الإنجليزي أو مجرد إظهار الاستياء من استثناء جميع أفراد الشعب ما عدا حفنة منهم ، من القيام بأي دور فعال في الحياة السياسية في البلاد ـــ وكلها عواطف وميول لها صداها في نفوس قسم كبير من الضباط ومن الطبقة المتوسطة التي ينتمي إليها غالبية هؤلاء .

كما كانت لهذه الانقلابات جوانبها التنويرية الواضحة ، إذ أن تكرارها فتح الأعين على

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

حقيقة الشقاقات والانقسامات التي توغلت عميقاً في جهاز الضباط . وبرزت ثلاثة عناصر أساسية بمعزل عن الشُلل الأنانية التي يتمخض عنها عادةً الجيش المسيّس ، هذه العناصر هي العنصر الكردي ، والوحدوي العربي والعراقي البحت : فانقلاب ١٩٣٦ تم بقيادة الأكراد والدعاة إلى العراقية ، بينما لعب الدور الأساسي في الانقلاب المضاد في ١٩٣٧ وكذلك في ١٩٣٨ وفي حركة ١٩٤١ الوحدويون العرب . وبهذا رجحت كفة الوحدويين العرب وأصبح لهم اليد الطولى في الأمر ، ومرد ذلك يرجع إلى حد ما إلى الميول الوحدوية العربية التي أظهرتها الملكية أولاً ، وإلى الأعداد الضخمة للضباط الشباب الذين قدموا من الولايات العربية الشمالية التي تميل ميلاً قوياً للوحدة العربية ، حيث كانت هذه الولايات ترتبط اقتصادياً بسورية وفلسطين قبل الحرب العالمية الأولى وبقيت ترزح تحت وطأة التقسيم للمناطق العربية تحت ظل الإمبراطورية العثمانية وتعاني من الحواجز التي فرضتها الحدود الجديدة .

كما أصبح واضحاً من خلال هذه الانقلابات كم هي واهية هذه الخيوط التي تتعلق بها حياة الملكية وكم يسهل تقطيعها . وقد تضمنت أوراق قيل أن الجنرال بكر صدقي أبرز الشخصيات في انقلاب ١٩٣٦ قد خلفها وراءه ، مشروعاً لتشكيل دكتاتورية وعزل الملك[٥٧] . ولم يتردد قادة حركة ١٩٤١ من جانبهم في الإطاحة بالأمير عبد الإله الذي بدلاً من أن يقبل المسار المستقل الذي انتهجوه لأنفسهم اختار أن ينضم إلى صف الإنجليز في الحرب العالمية الثانية ، وعندما أدرك الخطر المحيق به فر إلى قاعدة الإنجليز في الحَبّانيّة ، ثم لاذ بإقطاعية عمه في شرقي الأردن .

إلا أن أشد الأمور دلالة في الفترة التي شهدت الانقلابات العسكرية إذا ما أخذناها ضمن منظور الميول السياسية العامة ، هو تعاقب أحداثها في مرحلة وصولها إلى الذروة ثم انتهاؤها مثل حرب الثلاثين يوماً في ١٩٤١ واستخدام الإنجليز للفيلق العربي في الأردن ضد العراقيين ومن ثم إعادة تنصيب عبد الإله ملكاً بقوة السلاح .

لم يمح الزمن من نفوس العراقيين ذكرى أن البيت الهاشمي وقف في ساعة محنتهم إلى جانب أعدائهم . وكانت حرب ١٩٤١ حدثاً أجج من عواطفهم الوطنية . فآراؤهم لم تكن متفقة بشأن تدخل الجيش في شؤون الدولة أو بشأن النزعات السياسية التي يبديها الضباط القادة إلا أنهم سرعان ما نسوا خلافاتهم حينما نشبت الحرب إلا أقلية منهم . واختلطت مشاعر السنة والشيعة والعرب والأكراد في بوتقة واحدة في بغداد والمدن الأخرى ودام ذلك مادام القتال ناشباً . وقد ساد شعور التوافق هذا خاصة بين الناس الذين يعيشون حياة

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

متواضعة فقيرة كما لم يسبق له مثيل منذ انتفاضة ١٩٢٠ . وضمن هذه الأجواء تبدت فعلة عبد الإله فعلة نكراء أشبه بالخيانة . ومنذ ذلك الحين سار الوطنيون والهاشميون في سبيلين متباعدين من الأفكار والمشاعر . وفقدت الملكية ملامحها الوطنية وأصبح الوطنيون معادين للملكية في أعماقهم .

تغيرت السياسة الملكية في توجهاتها تغيراً تاماً في السنين التي تلت . فقبل كل شيء تم تفريق الجيش الذي كان يولي عناية خاصة فيما مضى والذي ارتفع عدد ضباطه إلى ١٫٧٤٥ ضابطاً عام ١٩٤١ و٤٤٫٢١٧ جندياً[٥٨] . وفي السنة وحدها التي تلت أي ٤١ ــ ١٩٤٢ تمت إحالة ٣٢٤ ضابطاً إلى التقاعد[٥٩] ثم سُرح ١٫٠٩٥ ضابطاً آخر من الخدمة مع حلول ١٩٤٨ قبل بلوغهم سن التقاعد[٦٠] . وآل الجيش كله إلى حالة مزرية . وقد عبر الكولونيل البريطاني جيرالد دو غوري Gerald de Gaury بقوله :

«[في نهاية الحرب العالمية الأولى] كانت معظم الأحذية التي يستخدمها الجنود غير صالحة للسير بها ولم يكن هناك مايكفي من الملابس ، وإجازاتهم المستحقة قد فات أوانها بكثير وأجورهم متدنية شحيحة ، كما نقصت الحصص الغذائية المخصّصة لهم إلى مادون الحد الأدنى من السعرات الحرارية التي يعتبرها الأطباء الأوروبيون ضرورية للقوات العسكرية الشرقية ، بألف سعرة حرارية ، وتوقفت الأموال المخصصة لإصلاح الثكنات والمعسكرات ؛ ومنع رجال الشرطة من ملاحقة الهاربين من الجيش أو اعتقالهم ، ومع حلول صيف ١٩٤٣ كان هناك عشرون ألف هارب من الجيش من أصل قوة عددها ثلاثون ألف رجل »[٦١] .

وعلى الرغم من أن الاضطرابات التي وقعت في كردستان ألزمت الجيش بالتراجع الجزئي في عام ١٩٤٤ عن ذلك المسلك الانتقامي المؤذي الذي انتهجه إلا أنه بقي في حالة مضعضعة عندما اضطر إلى خوض الحرب في فلسطين بعد أربع سنوات[٦٢] . لم يتمكن الجيش من إنجاز مهمته بعد أن أبقاه الإنجليز عمداً تحت قيادة رديئة ودون معدات كافية وبتسليح غير لائق بجيش ، ويعاني من نقص المسؤولين ذوي الخبرة والمهارة كما يعاني من نقص الغذاء . كانت الهزيمة بمثابة دافع للتغيير باتجاه كفاءة أعظم ، إلا أن عدم ثقة الملكية في الجيش لم تضمحل . ولم تغامر الملكية في استخدام الجيش كقوة قمع في داخل بغداد إلا بعد تردد كبير ، ولم تستخدمه سوى تلك المرة في ١٩٥٢ ، وهكذا أبقت الملكية وحدات الهجوم دون ذخيرة وبعيداً عن العاصمة . ولكن ما إن استلم الجيش زمام السلطة في سوريا في

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

١٩٤٩ وفي مصر في ١٩٥٢ حتى سعت الحكومة جاهدة لربط العنصر العسكري بالعرش بأواصر المصالح المادية. فتم تحسين[٦٣] شروط الخدمة للضباط وأغدقت عليهم عطايا ومزايا مختلفة من تعويضات ملابس وسكن ومخصصات تقاعد سخية إلى هبات من قطع الأراضي وغيرها. إلا أن الصدع الذي امتد بينهم وبين الهاشميين اتسع اتساعاً أكبر من أن يمكن تخطيه، ولن تكون هناك سوى قلة منهم إلى جانب العائلة المالكة ساعة انهيارها.

وتعزى أسباب فشل الملكية في كسب ولاء الضباط إلى جانب آخر من جوانب السياسة الملكية لما بعد ١٩٤١. إذ قامت الملكية عندما وجدت نفسها مبعدة من الوطنيين بعقد صلاتها وربط مصيرها أكثر فأكثر بالإنجليز وشيوخ القبائل وبهذا نشأ لديها اهتمام حيوي باستمرارية الارتباط الإنجليزي والأهم من ذلك استمرارية النظام القبلي. وقد وجد العرش نفسه يندفع أكثر فأكثر إلى أحضان هذا التحالف مع توالي سلسلة من الانتفاضات الشعبية العارمة الجامحة في المدن مثل (الوثبة) عام ١٩٤٨[٦٤] و (الانتفاضات) في ١٩٥٢[٦٥] و١٩٥٦[٦٦] وميل القسم الأكبر من الطبقات الوسطى والعاملة إلى المنحى اليساري نتيجة لتلك السلسلة من الانتفاضات. إذ كانت حيوات هؤلاء الناس اليومية تتأثر تأثراً عميقاً بالأسعار المتزايدة ونقص المواد الغذائية وندرتها مع نشوب الحرب العالمية الثانية، ومع تيارات التضخم المالي التي انفلتت من عقالها مع الازدهار الذي حل بآبار النفط في الخمسينيات ومع الحركة الواسعة الضخمة التعداد للفلاحين باتجاه العاصمة منجذبين بأضواء حياة المدينة ومع ضعف الرابطة التي تجمع من كانوا يوماً قبائل رحل زراعيين بالأرض التي يحلون بها ومع القمع الذي يمارسه نظام الشيوخ، ومع جفاف تفرعات النهر في دجلة الأدنى بسبب التطور السريع للمضخات التي بدأت تستعمل في ولايات الكوت وبغداد[٦٧].

وجد التحالف مع الإنجليز التعبير الأكمل له في حلف بغداد في ١٩٥٥، وهو التزام أضاف إلى عدم شعبية الملكية وإلى التصاق صبغة عدم الوطنية بها، نظراً لكونه يتنافى مع العواطف العامة للبلاد وللأراضي العربية الأخرى ولأنه بدأ بتمهيد من الإجراءات القاسية التي لا ترحم ضد أي حركة معارضة أو حرية تعبير[٦٨].

انعكس الارتباط مع الشيوخ الذي تمثل بزواج الأمير عبد الإله في عام ١٩٥٣ من (هيام) ابنة (محمد الحبيب الأمير) زعيم قبيلة (ربيعة)، في العناية المفرطة التي أولتها الملكية خلال السبع عشرة سنة من حكمها لمصالح الشيوخ، وخاصة في تكثيف الجهود لتطبيق تسويات الأرض لصالحهم؛ وبهذه الوسيلة تم السماح لرقع شاسعة من الأراضي القبلية

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

المتعارف عليها ومن أراضي الدولة بالوقوع في حيازة الشيوخ دون منازع . وبهذا زادت الملكية من تحكم الشيوخ غير المنتج عملياً بالزراعة وأبقت قراهم في الوقت نفسه خارج دائرة سلطة الحكومة فمكنتهم من زيادة وطأة تحكمهم بالفلاحين الذين تدهورت حالهم في العديد من المناطق إلى أن أصبحوا أشبه بالعبيد والأقنان لدى الشيوخ . واستحال الشيوخ إلى كابوس اقتصادي وبدأت صورتهم تجسد التطرف المغالى به في الظلم الاقتصادي الذي كان يقف عائقاً في وجه توحد المجتمع وضم الفلاحين إلى دائرة الحياة الاقتصادية ، أكثر مما كانت القبيلة تعيق وحدة المجتمع وهي التي انهارت بسبب عدم المساواة تلك .

وبتعبير آخر ، لم تعد الملكية بعد تحالفها مع الشيوخ تلعب عملياً أي دور في الوحدة الاجتماعية ، بل لقد أصبحت الملكية عاملاً اجتماعياً معيقاً بتكريسها نفسها لتلك البنية الاجتماعية الريفية التي قضت بأن تعيش غالبية سكان البلاد حياة شظف وقمع ، فأصبحت بذلك سداً منيعاً في وجه التطور الاقتصادي للعراق ككل .

ومن وجهة أخرى قامت الملكية بتدعيم وزيادة العوامل المادية التي من شأنها أن تعزز من قوة الدولة وتزيدها تماسكاً ، ولا ندري إن جات هذه الخطوة طوعاً أو نتيجة لضغوط من الأوساط الأدنى ، أو استجابة لضرورات أمنية ، أو لحل مشاكل عاجلة ملحة ، أو لتحقيق توقعات من تهمها مصالحهم ، أو لمنافسة الموجة الناصرية المتعاظمة في الدول المجاورة ، أو لأنها كانت تشارك في متطلبات التقدم الاقتصادي البطيء من الاكتفاء الذاتي إلى تلبية احتياجات السوق ، أو لأنها تورطت في سلسلة أحداث سابقة بدأت بالتحرك أو حركتها قوى خارجية .

فأولاً زادت المسافات التي تغطيها الطرقات المعبدة أو المفروشة بالحصى من حوالي ٥٠٠ ميل تقريباً في سنة ١٩٤٤[٦٩] إلى حوالي ١٦٠٠ ميل عام ١٩٥٥[٧٠] ، وأغلبية هذه الطرقات في الأجزاء الشمالية والوسطى من البلاد . وتتشعب هذه الطرق من بغداد ومن مراكز أساسية مثل الموصل وكركوك ، في حين بقي الجنوب يتصل فيما بينه بشبكة طرقات ترابية تستحيل طيناً ومستنقعات ماء بعد الفيضانات والأمطار . كما بقيت مناطق الإنتاج الزراعي عموماً غير مرتبطة بطرق فرعية تصلها بشبكة الطرقات الرئيسية .

وتوسعت من جهة ثانية أجهزة الأمن والإدارة في الدولة إذ كان عدد الموظفين الحكوميين من غير مستخدمي الموانئ والسكك الحديدية حوالي ٣٫١٤٣ موظفاً فقط في ١٩٢٠ ثم بلغ ٩٫٧٤٠ عام ١٩٣٨ ثم ارتفع إلى ٢٠٫٠٣١ عام ١٩٥٨[٧١] . وازداد عدد المستخدمين والمسؤولين في السكك الحديدية إلى ١٫٦٣٩ في ١٩٢٧ ثم إلى ١٫٧٣٨ في

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

١٩٣٧ وبلغ ٣٫٨٧٢ في ١٩٥٧[٧٢] . كما ارتفع عدد رجال الشرطة من ٢٫٤٧٠ في ١٩٢٠ إلى ١٢٫٢٦٦ شرطياً عام ١٩٤١ و٢٣٫٣٨٣ في ١٩٥٨[٧٣] . ويتضمن العدد الأخير ٨٫٣٦٨ من الضباط ورجال «القوة المتنقلة» التي تقوم الآن بمهمة الأداة القمعية الأساسية في يد الملكية .

كما بنت السدود والخزانات لحماية بغداد وجنوبي العراق من الفيضانات المدمرة ولتأمين إمداد أكثر انتظاماً من المياه للري ، في الخمسينيات على «الديالة» و «الزاب الأصغر» و «الفرات» الأعلى قرب (الرمادي) وعلى «دجلة» الأعلى قرب (السامراء) . وبالطبع عمت مزايا التحكم في البيئة الجميع ، إلا أن هذه المشاريع عادت بخير وفير ومداخيل أكبر على الشيوخ المترفين أصلاً وعلى الطبقات الأخرى من ملاكي الأراضي . وازداد في الوقت نفسه تحكم الدولة بالأنهر وتوسعت رقعة الأراضي الصالحة للزراعة إلى حد كبير فازدادت بذلك قدرة الدولة على فرض إرادتها .

أفسح بناء السدود والخزانات المجال لفيض من الأموال انهال على خزينة الدولة بسيولة لم يسبق لها مثيل . وقامت شركات البترول بزيادة إنتاجها زيادة كبيرة مدفوعة مبدئياً برغبتها بمعاقبة إيران لإصدارها قانون التأميم في ١٩٥١ ثم لرغبة منها في دعم النظام الملكي . وارتفع ما تتلقاه الدولة من عائدات النفط من ١٫٥ مليون جنيه استرليني في ١٩٤١ إلى ٥٫٢ مليون في ١٩٥٠ وإلى ٥٨٫٣ مليون جنيه في ١٩٥٣ ثم إلى ٧٩٫٨ مليون جنيه استرليني في عام ١٩٥٨[٧٤] . وأدى هذا السيل من رأس المال الذي اسهمت في تدفقه التحسينات التي طرأت على شروط أسعار النفط ، إلى تعاظم قوة الدولة المالية إلى حد كبير ، وأصبحت الدولة نتيجة لكل ذلك وخاصة للطبيعة الخاصة لشركات البترول ــ أي ملكيتها الأجنبية وكونها غريبة عن الوضع الاقتصادي المحلي ، وأنها تستخدم شريحة ضئيلة ومحدودة من السكان المحليين العاملين ــ مستقلة بذاتها اقتصادياً عن المجتمع إلى حد بعيد مما هيأ لها فرصاً أكبر لممارسة الطغيان والاستبداد على الشعب كما هو متوقع . إلا أن هذا الفيض من الامتيازات التي قدمتها الدولة لشركات البترول جعلها في الوقت نفسه تابعة من الناحية الاقتصادية تبعية خطرة لتلك الشركات ، وبلغ ما تتلقاه الدولة من عائدات النفط لعام ١٩٥٤ ٦٥٫٧ بالمائة من العائدات الإجمالية وفي عام ١٩٥٨ ٦١٫٧ بالمائة[٧٥] .

لم يكن هذا التعاظم لقوة الدولة المادية في صالح الملكية في آخر المطاف إذ أن انفصالها المعنوي عن الجماهير والطبقات الواعية سياسياً من الشعب كان ضربة قاضية لها ،

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

فلم تعد الملكية على ثقة من ولاء العناصر التي تمارس من خلالها فرض إرادتها على البلاد — مثل الموظفين والجيش وحتى رجال الشرطة .

ومن سخرية الأقدار أن تواصل الملكية دعمها لزيادة تعداد صفوف الطبقة التي أصبحت الطبقة الأشد عدائية لوجود الملكية وهي طبقة المتعلمين وشبه المتعلمين ، والحق أن الملكية لم تجد أمامها خياراً آخر ، فعملية توسيع نظام المدارس التي بدأت في العشرينيات لم يعد بالإمكان وقف عجلة تقدمها أو إعادتها إلى نقطة البداية . وكان المجتمع يضفي مكانة ومركزاً لا يستهان بهما على كل من ينال درجة علمية وخاصة الدرجة الجامعية . وما إن يحصل بعض العراقيين على تدريب أعلى حتى يسارع الآخرون بأعداد أكبر إلى المطالبة بإلحاح بمنحهم الفرصة نفسها . ولم يعد بإمكان الحكومة الآن أن تدعي عدم توفر الأموال الكافية لتغطية التكاليف ، فاحتياجات المجتمع الذي بدأ يتطور لا بد من تلبيتها أيضاً . وارتفع عدد طلاب المعاهد الحكومية من ٩٩ طالباً في ١٩٢١/١٩٢٢ إلى ١٫٢١٨ عام ١٩٤٠/١٩٤١ وإلى ٨٫٥٦٨ في ١٩٥٨/١٩٥٩ ، كما ارتفع عدد طلاب المدارس الثانوية من ٢٢٩ إلى ١٣٫٩٦٩ ثم إلى ٧٣٫٩١١ في السنوات نفسها[٧٦] ، وأحرزت المدارس الابتدائية التقدم ذاته ، إلا أن التقدم النوعي لم يكن على جميع المستويات تقدماً يثير الإعجاب . ومع كل ما تقدم بقي في عام ١٩٥٨ أكثر من $\frac{٦}{٧}$ ستة أسباع السكان أميين . ويجب علينا هنا أن نؤكد على عامل آخر وهو أن الملكية بتفضيلها وانحيازها إلى أعداد أكبر فأكبر من العراقيين على الجماهير الأمية ، كانت تمنحهم مكانة تماثل الطبقة الوسطى لكن دون أن تؤمن لهم مداخيل الطبقة الوسطى . وهنا يكمن أحد أسباب الاهتياج والقلقلة التي أصبحت سمة متكررة من سمات المدن والبلدات في العقد الأخير من الملكية .

أصبح من الواضح أن التوسيع المستمر للطبقة المتعلمة كان يعني الاضمحلال المستمر للولاءات التقليدية إلا أنه لم يعد يعني الآن بالضرورة النمو المستمر للمشاعر الوطنية ، وذلك لأن هذا التوسع أصبح مترافقاً كما نوهنا من قبل مع تيارات عقائدية جديدة وخاصة الشيوعية .

وبرزت للوجود عملية أخرى في فترة الملكية لم تكن تقل عن سابقتها في محو الولاءات التقليدية وخلق روابط جديدة : وهي التطور السريع للحياة المدينية ، فسكان بغداد الكبرى تبعاً لسجلات الإحصاءات الرسمية (أنظر جدول ٢) الذين يقدر عددهم بحوالي ٢٠٠٫٠٠٠ في ١٩٢٢ ارتفع تعدادهم إلى ٥١٥٫٤٥٩ نسمة في ١٩٤٧ وإلى

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

٧٩٣ر١٨٣ في ١٩٥٧ . ومرت البصرة كما يبدو بتغيرات ديمغرافية مشابهة إلا أن نسبة الازدياد في الموصل لم تبلغ التسارع نفسه . وقد لا يكون التعداد الذي أجرته الحكومة دقيقاً تاماً أو شاملاً إلا أن الازدياد السريع لسكان العاصمة وفي ميناء العراق هو أمر مؤكد

الجدول (٢) سكان بغداد والموصل والبصرة (١٩٠٨ ــ ١٩٧٧)

السنة	بغداد(أ)	الزيادة النسبية	الموصل	الزيادة النسبية	البصرة	الزيادة النسبية
١٩٠٨(ب)	١٥٠ر٠٠٠					
١٩٢٢(ج)	٢٠٠ر٠٠٠		٧٠ر٠٠٠		٥٥ر٠٠٠	
١٩٣٥(د)	٣٥٠ر٠٠٠		١٠٠ر٠٠٠		٦٠ر٠٠٠	
١٩٤٧(هـ)	٥١٥ر٤٥٩		١٣٣ر٦٢٥		١٠١ر٥٣٥	
١٩٥٧(و)	٧٩٣ر١٨٣	٥٣ر٩	١٧٨ر٢٢٢	٣٣ر٤	١٦٤ر٩٠٥	٦٢ر٤
١٩٦٥(ز)	١ر٤٩٠ر٧٥٦	٨٧ر٩	٢٦٤ر١٦٤	٤٨ر٢	٣١٠ر٩٥٠	٨٨ر٦
١٩٧٧(ح)	٢ر٦٠٠ر٠٠٠		٤٥٠ر٠٠٠		٥٥٠ر٠٠٠	

(ا) ضمن دائرة قضاء محافظ العاصمة .

المصادر :

(ب) تقدير وارد في كتاب حبيب ك. شيما ولاية بغداد La Province de Bagdäd (١٩٠٨) ص. ١٦٥ .

(ج) تقدير رسمي كتاب العراق السنوي (١٩٢٢) ص. ٤٤. Al-Iraq year Book .

(د) تقدير في «دليل المملكة العراقية لسنة ١٩٣٥ ــ ١٩٣٦ . ص. (٩٧) .

(هـ) الإحصاء السكاني الرسمي لعام ١٩٤٧ . قدم هذه المعلومات للمؤلف الدكتور فؤاد مسّي من الدائرة العامة للإحصاء .

(و) الإحصاء السكاني الرسمي لعام ١٩٥٧ ، العراق ، وزارة الداخلية ، الدائرة العامة للإحصاء . «المجموعة الإحصائية لتسجيل عام ١٩٥٧» ولايتي بغداد والرمادي ص. ١٦٨ . وولايتي العمارة والبصرة ، ص. ١١٢ وولايتي الموصل وأربيل ص(١٦٧) .

(ز) الإحصاء السكاني العام الرسمي ١٩٦٥ ، العراق ، وزارة التخطيط ، Annual Abstract of Statistics ، ١٩٦٩ ، ص٤٤ ، ٥٢ و٥٩ .

(ح) تقدير تقريبي .

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

لا شك فيه ومرده كما ذكرنا سابقاً إلى الهجرة التي لم يسبق لها مثيل لرجال القبائل ـــ الفلاحين من الأرياف . ونجم عن هذه التحركات الداخلية الكبيرة بلا ريب توتر وصراعات واضطراب في التوازن الاجتماعي إلا أنها ساهمت بالتأكيد في تقريب صفوف العراقيين وربطهم بروابط أوثق فيما بينهم .

وانعقدت أواصر عديدة ملموسة وغير ملموسة بين العراقيين من خلال تطور وسائل الاتصال بما فيها الهاتف الآلي بين بغداد والبصرة وعبر محطة إرسال لا سلكية قوية في (أبو غريب) ومحطة تلفزيون عصرية في العاصمة بالإضافة إلى «أصوات الإذاعات» القادمة من الخارج .

أصبح من الواضح من كل ما تقدم أن الملكية في الفترة بين ١٩٢١ ـــ ١٩٥٨ أصبحت إلى حد ما تقف حجر عثرة في طريق توحد العراقيين سواء أكان ذلك طوعاً منها أو اقتضته الضرورة أو كان مباشراً أو غير مباشر أو إن كان نتيجة عمليات بدأت الملكية بتحريكها أو أنها وجدت نفسها متورطة بها ـــ ولكنها في الوقت نفسه ساهمت إلى حد بعيد في إعداد العراقيين لتقبل الشعور القومي .

ولكن علينا ألا ننسى هنا أن المجتمع العراقي الآخذ في التشكل بدأت جذوره تمتد أيام المحن والأزمات وفي ساعات الخطر الداهم والمعاناة المشتركة ومن خلال ارتعاشات الجماهير المهتاجة وانفجارات غضبها : وإذا ما كان هذا المجتمع الذي ما زال جنيناً سيرص صفوفه في المستقبل ويحتفظ بهويته المستقلة ستبدو انتفاضة ١٩٢٠ وحرب ١٩٤١ ووثبة ١٩٤٨ وانتفاضة ١٩٥٢ وثورة ١٩٥٨ رغم أنها لم تخل من جوانب شقاق وخلافات ، كمراحل في مسيرة تقدم العراق نحو الوحدة الوطنية .

كانت فكرة الوطنية أو القومية ما تزال فكرة ضعيفة جداً في ١٩٥٨ بكل تأكيد ، وهي لم تزل حتى الآن خارج نطاق مدارك جماهير الفلاحين . كما أن تأثير العادات والأعراف القديمة ـــ وإن تضاءل إلى حد بعيد ـــ ما يزال قائماً في المدن . ومما يثير الاهتمام فعلاً هو أن بعض فلاحي القبائل الذين انفصلوا عن شيوخهم وهاجروا إلى بغداد ليبدأوا حياة جديدة ، تجاهلوا القوانين المدينية ودخلوا في أحلاف مكتوبة تلزمهم بتنظيم مسلكهم وتسوي خلافاتهم حسب العادات القبلية القديمة . لا ريب أن سيكلوجية النظام القديم وطرقه ـــ وهو نتاج قرون طويلة ـــ ما تزال كامنة في حياة شرائح واسعة من الناس ولن تختفي بسهولة ، إلا أن الأمر الأكثر أهمية هنا هو أن الولاء الوطني الجديد ما يزال غامضاً غير محدد المعالم وغير متأكد

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

من المنحى الذي سيتجه فيه (أهي العراقية أو الوحدة العربية) وهو ما يزال غير مقبول بالنسبة للأكراد، ولم يتمثله الشيعة بشكل كاف، وإذا ما قورن بالولاءات القديمة يبدو مفتقراً إلى النظم الأخلاقية المعيارية وإلى الحميمية الدافئة وإلى الدعم العاطفي الطويل الأمد.

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

ملاحظات

١ ــ انظر : سليمان فائق (حاكم ولاية عثمانية ووالد رئيس الوزراء العراقي الأسبق حكمت سليمان) ، « تاريخ بغداد » ترجمة عن التركية موسى كاظم نورس (بغداد ١٩٦٢) ص (١٧٤)

٢ ــ انظر اسماعيل حقي بيه بابان زادة «From Istanbül to Baghdäd» (1910)

ترجم هذا الكتاب كاملاً في Revue du Monde Musulman, XIV: 5 (May 1911).

وللرجوع إلى البيت المذكور انظر صفحة ٢٥٥

٣ ــ « انصر الدين ! يا محمد ! »

٤ ــ هذا شعار سني بالتأكيد وكان المتظاهرون يستخدمونه مثلاً في ١٦ أكتوبر /ت١ عام ١٩٠٠ في هتافاتهم ضد غزو إيطاليا لطرابلس ، انظر « لغة العرب » ٩ اكتوبر /ت١ ١٩١١ ، وأوردته Revue du Monde Musulman السنة السادسة XVIII (شباط /فبراير ــ آذار /مارس ١٩١٢) ٢٢٣ ــ ٢٢٤ .

٥ ــ الولاية : كانت التقسيم الإداري العثماني .

٦ ــ انظر حنا بطاطو The Old Social and the Revolutionary Movements of Iraq (Princeton, 1978), p. 77.

٧ ــ انظر المصدر السابق صفحة ٦٨ .

٨ ــ فريق المزهر آل فرعون « الحقائق الناصعة في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ونتائجها » (بغداد ١٩٥٢) الجزء الأول صفحة ٢٢ .

٩ ــ فمثلاً الأوزان في العراق كانت الطغار (٢٠٠٠ كغ) والوزنة (١٠٠ كغ) والمن الكبير (٢٤ كغ) والمن الصغير (١٢ كغ) والأوقية (٢ كغ) . بينما كانت الأوزان في المدن الأخرى مختلفة رغم أنها تحمل الاسم ذاته . فالوزنة في الحلة تساوي (١٠٢٫٥٦٥ كغ) وفي الديوانية (١٠٨٫٨٣٥ كغ) وليس (١٠٠ كغ) كما في بغداد . وكذلك الطغار في البصرة كان يساوي (١٥٣٨ كغ) وليس (٢٠٠٠ كغ) كما هو في بغداد ، انظر « دليل المملكة العراقية » (بغداد ١٩٣٥) ص . ٥٩ ــ ٦٠ .

١٠ ــ فمثلاً كانت معدلات تحويل ضرائب القمح في عام ١٩٢١ ــ ١٩٢٢ (أي المعدلات التي تتحول فيها الضرائب المفروضة من الصنف ذاته إلى نقد والتي تعكس الأسعار السائدة) كانت ٢٥٠ ، ٣٨٤ ، و ٤٠٠ روبيه لكل طن في مقر ولاية بغداد والموصل والبصرة على التوالي . انظر بريطانيا العظمى :

Report... on the Administration of Iraq for April 1922-March 1923 (London, 1924), p. 102.

١١ ــ لذلك تبدو العملة الإيرانية قبل الحرب العالمية الأولى أوسع انتشاراً من استخدام العملة التركية في مناطق العراق الكردية . انظر

Vital Cuinet, la Turquie d'Asie (Paris, 1894) III 38-39

في البصرة كانت النقود الهندية والإيرانية شائعة الاستعمال . انظر بريطانيا العظمى ، وزارة الخارجية ، القسم التاريخي :

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

Arabia Mesopotamia... (London, 1919), pp. 119-120

كانت العملة الرسمية بالطبع هي العملة التركية .

١٢ ــ استلمت هذه الحكومة زمام السلطة بعد ثورة ١٩٠٨ في تركيا .

١٣ ــ سلالة النبي .

١٤ ــ أصحاب الأراضي .

١٥ ــ انظر (سليمان فيضي) : «في غمرة النضال» (بغداد ١٩٥٢) صفحة ٧٨ . يفصح هذا الاعتراض بالطبع عن وعي طبقي .

١٦ ــ انظر بطاطو The Old Social Classes الفصل الرابع .

١٧ ــ كان اليهود يقطنون قسماً من هذا الحي .

١٨ ــ كانت بعض العائلات المسلمة تعيش في هذه الأحياء . فمثلاً كان لعائلة الباشاتي السنة منازل في رأس القرية .

١٩ ــ كان لعدد من العائلات الدينية المعروفة منازل هنا مثل عائلة الجيلاني التي كانت تعيش في (باب الشيخ) لأن مقام القادرية الذي بني لإحياء ذكرى أسلافها ، وكذلك ذكرى الشيخ عبد القادر الجيلاني كانت في ذلك الحي .

٢٠ ــ (الكسبة) هو تعبير يطلق على الناس الفقراء الذين ليس لديهم عمل منتظم والذين يكسبون عيشهم من القيام بأعمال متفرقة .

٢١ ــ أحاديث مع كامل الجادرجي وقاسم حسن وجميل كبة وغيرهم من البغداديين في مناسبات عدة .

٢٢ ــ موسى بن جعفر الخادم ومحمد بن علي الجواد . كان الأئمة في أعين الشيعة الحكام الشرعيين الوحيدين والفقهاء .

٢٣ ــ لمزيد من المعلومات حول النقطة الأخيرة انظر محمد شكري الألوسي (تاريخ مساجد بغداد وآثارها (بغداد ١٩٢٧) ص (٢٦) .

٢٤ ــ كان هناك مثل هذه الأمثلة حتى في نهايات الثلاثينيات . فمثلاً عائلة البهّاش الكبيرة كانت تملك شارعاً بأكمله في حي «المشراق» في تلك المدينة ، وكان أفرادها يعملون غالباً كصياغ وتجار في تبديل العملات . انظر :

جعفر بن الشيخ باقرالمحبوبة النجفي «ماضي النجف وحاضرها» (صيدا : ١٩٣٤) الجزء الأول صفحة ٢٠١ .

٢٥ ــ كانت «الملّة» مجموعة دينية معترف بها رسمياً .

٢٦ ــ انظر :

Great Britain, Reports of Administration for 1918 of Divisions and Districts of the Occupied Territories of Mesopotamia (1919), I, 68.

٢٧ ــ كلمة «الفصل» تعني حرفياً الحكم في النزاعات إلا أنها تشير هنا إلى مال الدية أي المال الذي يدفع لقاء سفح الدم بدلاً من أن يدفع مقابله دم وبهذا يمحى الثأر .

٢٨ ــ كان (صبحي) شيخ الحي أو رئيسه .

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

٢٩ ــ لمراجعة نص الدستور انظر :

Great Britain, Reports of Administration for 1918, I, III.

٣٠ ــ انظر

Great Britain, (confidential) personalities. Iraq (Exclusive of Baghdad and Kädhimain) (1920) p. 121.

٣١ ــ انظر المرجع السابق صفحة ١٠١ .

٣٢ ــ انظر Great Britain, Foreign Office, Fo 195/2308, Report By H. E. Wilkie Young, Mosul, accompanying dispatch of 28 January 1909. Fo text of report, see also: Middle Eastern Studies, VII, No. 2 (May 1971). 229ff- 523

٣٣ ــ انظر «لغة العرب»، ١٩ اكتوبر /ت١ ١٩١١ ، نقلتها دورية :

Revue du Monde Musulman, 6th year, XVIII (February-March 1912). in Review of the Arab press section, p. 223, note.

٣٤ ــ انظر : بابان «From Istanbul to Baghdad»ص . ٢٥٦ .

٣٥ ــ الواجبات ملخصة في :

Report by His Britannic Majesty's Government to the Council of the League of Nations on the Administration of Iraq for the year 1926 (London 1927), p. 37.

صدرت الأحكام عن الحكومة العثمانية التي حددت بنفسها تلك الواجبات . وقد تكون هذه الأحكام من جهة أخرى مجرد انعكاس ممارسات اعتادت «الأصناف» القيام بها .

٣٦ ــ انظر بطاطو «The Old social Class»ص . (٧٣) .

٣٧ ــ انظر المرجع السابق ص . (٢٤٠) .

٣٨ ــ حفيد الرسول .

٣٩ ــ انظر علي البازرغان «الوقائع الحقيقية في الثورة العراقية» (بغداد ١٩٥٤) ص . (٩٠) و (٩٤) وكذلك :

Great Britain, Review of the Civil Administration of Mesopotamia (London 1920) p. 140.

٤٠ ــ انظر : Great Britain, Foreign Office, Fo 406/636/862/6/93, letter of 4 December 1928 from Sir H. Dobbs, Baghdad, to Mr. Amery, London.

٤١ ــ ازداد عدد طلاب المدارس الابتدائية الحكومية من ٨٠٠١ في ١٩٢٠ ــ ١٩٢١ إلى ٨٩٫٤٨٢ في ١٩٣٩ ــ ١٩٤٠ وازداد عدد طلاب المدارس الثانوية الحكومية من ١١٠ إلى ١٣٫٩٥٩ في الفترة نفسها : العراق ، وزارة التربية «التقرير السنوي عن سيرالمعارف» .. (بغداد ١٩٥٧) ص (٤٣) و (٥٤) .

٤٢ ــ للاطلاع على نص المذكرة التي كتبت في آذار /مارس ١٩٣٣ انظر :

عبد الرزاق الحسيني «تاريخ الوزارة العراقية» (صيدا ١٩٥٣) الجزء الثالث ، ص . ٢٨٦ ــ ٢٩٣ . وللرجوع إلى التصريح الوارد سابقاً انظر صفحة ٢٨٩ .

٤٣ ــ أدين بهذه الفكرة إلى كامل الجادرجي من الحزب الديمقراطيي الوطني : محادثة شفهية في شباط /فبراير ١٩٦٢ .

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

٤٤ ــ عن مذكرة فيصل الأول السرية في مارس /آذار ١٩٣٣ ، انظر :
الحسني « تاريخ الوزارة » الجزء الثالث ، ص . ٢٨٨ .

٤٥ ــ انظر المرجع السابق .

٤٦ ــ انظرالمرجع السابق .

٤٧ ــ انظر Stephen H. Longrigg, Iraq 1900 to 1950. «A Political, Social and Economic History» (Oxford, 1953) p. 246.

٤٨ ــ انظرالمرجع السابق .

٤٩ ــ انظر
Great Britain, Foreign Office, Fo 371/200, 3/E 6797/1419/93, Minutes by J. G. Ward of 30 October 1936.

٥٠ ــ انظر
Great Britain, Foreign Office, Fo 371/23217/E 2372/72/93, Quarterly Report No. 26 by the British Military Mission on the Iraqi Army and Royal Iraqi Air Force for the Quarter Ending 28 February 1939.

٥١ ــ انظر
Great Britain, Foreign Office, Fo 371/20796/E 44/14/93, letter of 22 December 1936 from Sir A. Clark Kerr, Baghdad, to Anthony Eden, London.

٥٢ ــ انظر Great Britain, Naval Intelligence Division, Iraq and the Persian Gulf (1944), pp. 581 and 583.

٥٣ ــ كان الضباط الشريفيون السابقون ضباطاً عراقيين في الجيش العثماني تخلوا في أثناء الحرب العالمية الأولى عن القضية العثمانية ووضعوا أنفسهم في خدمة عائلة الشريف حسين في مكة وخاصة في خدمة ابنه فيصل الذي كان يخوض ثورة نشطة ضد الأتراك .

٥٤ ــ كان لنوري السعيد وصهره جعفر العسكري ــ الذي كان ضابطاً من الشريفيين السابقين ــ أتباع في الجيش منذ العشرينيات وقد استخدما مكانتهما لمحاربة نفوذ ياسين الهاشمي على الجيش وهو أيضاً جندي ــ سياسي .

٥٥ ــ يشير مصطلح « الطبقة الوسطى » كما نستخدمه في هذه الصفحات إلى هذا الجزء المكون من المجتمع الذي هو متعدد في وظائفه إلا أنه يشترك في أن له دخلاً متوسطاً ومكانة متوسطة والذي يضم التجار والبائعين وأصحاب الأراضي وضباط الجيش والطلبة وأصحاب المهن والموظفين والمستخدمين في الشركات الخاصة . ومن الخطأ التفريق إلى حد كبير بين قطاع وآخر في هذه الطبقة ، مثلاً بين ضباط الجيش والبائعين أو أصحاب الأراضي إذ علينا ألا ننسى أن الوحدة الحقيقية لهذه الطبقة ليست الفرد بل العائلة وأن أفراد العائلة الواحدة في الطبقة الوسطى يمتهنون مهناً مختلفة . لذلك نجد أنه من بين الخمسة عشر عضواً في اللجنة العليا للضباط الأحرار والتسعة أعضاء من لجنة احتياطي الضباط الأحرار الذين أعدوا انقلاب ١٤ تموز /يوليو ١٩٥٨ كان هناك سبعة وستة على التوالي من أبناء التجار أو المقاولين أو ملاك الأراضي الصغار . كما كان العقيد صلاح الدين الصباغ وهو الروح المحركة لعناصر الجيش ذات النزعة

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

السياسية في السنوات ما بين ١٩٤٨ ــ ١٩٤١ كان أيضاً ابن تاجر ومالك أرضي. انظر كتابه «فرسان العروبة في العراق» (دمشق ١٩٥٦) ص ٢١٠.

٥٦ ــ كان الضباط الشريفيون السابقون أصلاً من أصول متوسطة الحال أو أكثر فقراً إلا أن معظمهم أصبح في ذلك الوقت من الملاكين وجزءاً من النخبة السياسية رغم أنهم لم يحظوا بقبول كامل على الصعيد الاجتماعي من قبل العائلات العريقة.

٥٧ ــ محادثات الملك غازي مع السفير البريطاني. انظر:

Great Britain, foreign Office, Fo 371/21846/E 172/45/93, letter of 25 December, to Anthony Eden, London.

٥٨ ــ لمراجعة هذه الإحصاءات انظر:

ضابط الأركان المتقاعد محمود الدرّة: «الحرب العراقية ــ البريطانية عام ١٩٤١» (بيروت ١٩٦٩) ص. ٢٤٣.

٥٩ ــ انظر: العراق، وزارة الاقتصاد، الدليل الإحصائي ١٩٤٣ (بغداد ١٩٤٥) ص. ٢٩ ــ ٣٠.

٦٠ ــ انظر: الدرّة «الحرب...» ص. ٤٢٠.

٦١ ــ انظر Colonel Gerald de Gaury, three kings in Baghdad, 1921-1958 (London, 1961) p. 146.

٦٢ ــ انظر ضابط الأركان المتقاعد صالح صائب الجبوري (رئيس الأركان الأسبق في الجيش العراقي) «محنة فلسطين وأسرارها السياسية والعسكرية» (بيروت ١٩٧٠) ص. ١٤٢ ــ ١٤٤.

٦٣ ــ انظر الجدول (٤١ ــ ١) في بطاطو «The Old Social Classes»

٦٤ ــ انظر بطاطو «The Old Social Classes» الفصل ٢٢.

٦٥ ــ انظر المرجع السابق ص. ٣٠.

٦٦ ــ انظر المرجع السابق فصل ٣٩.

٦٧ ــ انظر المرجع السابق ص. ١٣٢، ١٤٢، ١٥٠، ٤٧٠.

٦٨ ــ انظر المرجع السابق ص. ٦٨٠.

٦٩ ــ انظر Great Britain, Naval Intelligence Division, Iraq and the Persian Gulf. p. 562.

٧٠ ــ انظر

Lord Salter, «The Development of Iraq, A Plan of Action» (Baghdad, 1955) p. 61

٧١ ــ للعودة إلى إحصاء ١٩٢٠ انظر

Great Britain, Review of the Civil Administration of Mesopotamia (1920), p. 122.

للعودة إلى الإحصاءات الأخرى انظر: العراق، وزارة المالية، «ميزانية الحكومة العراقية للسنة المالية ١٩٣٨»، Consolidated Statement Q. P. 14,

وكذلك: العراق، «الوقائع العراقية»، رقم ١٤١٢٢ في ٢٩ آذار /مارس ١٩٥٨،

Schedule Q of General Budget Law for the Financial Year of 1958.

وتضم هذه الإحصاءات أعداد المعلمين ولكنها تستثني الموظفين الأجانب والمستخدمين العراقيين أي العاملين في وظائف لا تقاعدية لها.

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

٧٢ ــ تضم هذه الإحصائيات الموظفين الأجانب، لكنها تستثني المستخدمين غير الفنيين، الذين وصل عددهم إلى ٤٫٦٣٣ عام ١٩٢٧ وإلى ٦٫٨٠٠ عام ١٩٣٧ وإلى ١١٫٧٩٨ عام ١٩٥٧. كان عدد الضباط والموظفين والمستخدمين في المرفأ من أجانب وعراقيين ٤٢٧ عام ١٩٢٠ و ٤٠٢ عام ١٩٣٠، وليس لدينا إحصاءات حول السنوات التالية. انظر:

Great Britain, Review of the Civil Administration, p. 122, Great Britain, Special Report... on the Progress of Iraq during the Period 1920-1931 (London, 1931), pp. 168 and 176; Iraq, ministry of Economics, Statistical Abstract... for the years 1927/28-1937/38, p. 111, and Iraq, Ministry of Planning, Statistical Abstract, 1959, p. 317.

٧٣ ــ انظر

Great Brritain, Review of the Civil Administration, p. 122, and Iraq, Ministry of Economics, Statistical Abstract, 1943, p. 24, and 1958, p. 170

٧٤ ــ انظر الجدول ٦ ــ ٢ في بطاطو «The Old Social Classes»

٧٥ ــ انظر المرجع السابق

٧٦ ــ ازداد أيضاً عدد العراقيين الذين بعثوا إلى الخارج لمتابعة دراستهم العليا من ٩ عام ١٩٢١ /١٩٢٢ إلى ٦٦ عام ١٩٣٨ /١٩٣٩ و ٨٥٩ عام ١٩٥٨ /١٩٥٩ وللرجوع إلى كامل الإحصائيات باستثناء ما يتعلق منها بعام ١٩٥٨ /١٩٥٩ انظر جدول ١٧ ــ ٥ في بطاطو «The Old Social Classes»

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

فهرس الجزء الثالث

ـ مقدمة ٩

ماري س. ويلسون

ـ الدين والعلمانية في تركيا ١٥

شريف ماردين

ـ من العثمانية إلى العروبة ٤٩

إرنست داون

ـ ١٩١٩ الاندفاعة العمالية

والثورة الوطنية ٧١

جويل بينين وزخاري لوكمان

ـ التحول في السياسات المدينية السورية ١١٥

فيليب س. خوري

ـ دور الفلاحين الفلسطينيين في الثورة

الكبرى (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩) ١٦١

تيد سويدنبرغ

ـ حول التنوع في الشعب العراقي

وتفكك مجتمعه ٢٠٩

حنا بطاطو

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor

صدر من سلسلة الشرق الأوسط الحديث

١ ـ **الجزء الأول**: طلائع الإصلاح وتبدل العلاقات
مع أوروبا ١٧٨٩ ـ ١٩١٨

٢ ـ **الجزء الثاني**: التحولات في المجتمع والاقتصاد
١٧٨٩ ـ ١٩١٨

تحت الطبع

٤ ـ **الجزء الرابع**: الشرق الأوسط منذ الحرب العالمية الثانية

PDF compression, OCR, web optimization using a watermarked evaluation copy of CVISION PDFCompressor